علم اللغة الاجتماعي

تأليف : د. هدسون

ترجمة : الدكتور محمود عياد

١٩٩٠

الناشر

عالم الكتب

٣٨ عبد الخالق ثروت - القاهرة

علم اللغة الاجتماعى

علم اللغة الاجتماعى

تأليف : د. هدسون

ترجمة : الدكتور محمود عياد

مراجعة : د. نصر حامد أبوزيد

د. محمد أكرم سعد الدين

الطبعة الثانية

١٩٩٠

الناشر

عالم الكتب

٣٨ عبد الخالق ثروت - القاهرة

علم اللغة الاجتماعى
ترجمة : د. محمود عيّاد
الطبعة الثانية ١٩٩٠م
عالم الكتب - ٣٨ عبد الخالق ثروت - القاهرة
ص.ب . : ٦٦ محمد فريد - ت: ٣٩٢٦٤٠١

تمهيد للمترجم

هذا الكتاب واحد من الكتب المرجعية التى تصدرها جامعة كمبردج ، وقد طُبِعَ فى يونيو / حزيران ١٩٨٠ ليكون مدخلاً إلى علم اللغة الاجتماعى الذى هو أحد الفروع الحديثة فى علم اللغة ، وبقدر ما يتوجه مؤلِّف الكتاب د. هدسون ، إلى المثقفين الذين ليست لديهم معرفة متخصصة بهذا الفرع الحديث من فروع علم اللغة ، فإنه يحرص على أن يكون كتابه مقدمة جامعة شاملة لمختلف المجالات التى يتكون منها علم اللغة الاجتماعى المعاصر ، بكل ما تتضمنه هذه المجالات من موضوعات مختلفة باختلاف اللهجات والتباين اللغوى والخطاب وإثنوجرافيا الحديث وغير ذلك من القضايا الاجتماعية الأخرى التى ترتبط باللغة . ولا يتوقف هدسون عند هذه الموضوعات بل يفرد فصلاً مستقلا لقضية العلاقة بين اللغة والثقافة والفكر ، وهى قضية لا تتوقف عندها كتب المداخل عادة . وتتسم معالجة المؤلِّف لكل هذه الموضوعات وغيرها بما يضفى العمق والوضوح فى آنٍ واحد ، على نحوٍ يفيد القارىء العادى من ناحية ، ويشوقه إلى معرفة هذا الفرع الحديث والتعمق فيه من ناحية ثانية .

وقد دفعتنى هذه الميزة الهامة التى يتسم بها هذا الكتاب إلى ترجمته ليكون فى متناول المثقف العربى بوجهٍ عام ، وطلاب علم اللغة من دارسى العربية بوجهٍ خاص؛ فهو كتاب مفيد كل الفائدة فى التعريف بأوجه العلاقة القائمة بين اللغة والمجتمع فى المجتمعات الغربية من ناحية ، وما يمكن أن ينطبق منها على المجتمع العربى من ناحية ثانية ، أضف إلى ذلك ما يمكن أن تتيحه ترجمة هذا الكتاب من دوافع تنشّط القيام بدراسات ومشاريع لغوية اجتماعية على أُسس علمية سليمة من ناحيةٍ ثالثة . ومن المؤكد أن بعض الظواهر الاجتماعية اللغوية التى يناقشها هدسون لا تنطبق على الواقع اللغوى العربى ، ولكن ذلك لا يقلل من عائد الفائدة التى يجتنيها القارىء العربى لهذا الكتاب ، خصوصاً ما يتصل منها بالجانب المنهجى الذى يعين فى كيفية تمثّل الظواهر اللغوية الاجتماعية الخاصة بمجتمعاتنا ، والذى يعين فى

محاولة الوصول إلى جوانب إجرائية متميزة تراعى الظواهر اللغوية العربية وأبعادها الوظيفية على السواء .

والحق أن ما دفعنى إلى ترجمة هذا الكتاب هو ما شعرت به من نقص كبير فى المكتبة اللغوية العربية المعاصرة فيما يتصل بأمهات الكتب التى لابدّ من توافرها تأليفاً وترجمةً قبل تحقيق أى مشروع ثقافى فى هذا المجال . ومن المؤكد أن أهمية التأليف فى هذا المجال لا تقل عن أهمية الترجمة ، بل تبدو الترجمة فى بعض الأحيان أكثر أهمية من التأليف ، وذلك لما توفّره الترجمة من مصدرٍ معرفى لا يمكن التأليف دونه من ناحية ، ولما تتيحه الترجمة من تعريب للمصطلحات المفاتيح التى لا يكتمل أو ينطلق المشروع الثقافى دونها . ولعلّى فى حاجةٍ إلى القول أن المشروع الثقافى فى أى مجال من مجالات المعرفة المعاصرة – وأعنى المعاصرة حقًا – لن يضع أقدامه على طريق النمو والرقى ما لم نقم بترجمة ما أنجزه غيرنا فى بقية أنحاء العالم . ولا أنكر أن البدايات الأولى الناجحة قد تحققتْ فيما يتصل بالمشروع الثقافى العربى فى مجال علم اللغة المعاصر . وليس هذا الكتاب فى حقيقة الأمر سوى مجرد جهدٍ متواضع يتواصل مع هذه البدايات .

ويطرح هدسون فى **الفصل الأول** من كتابه التعريفات الأساسية التى تمثّل مهاد علم اللغة الاجتماعية ، وذلك لينطلق فى بقية الفصول متوقفاً عند الجوانب المختلفة من هذا العلم . وبعد أن يعرض لاختلاف اللغات وتنوعها فى **الفصل الثانى** ، يتناول العلاقة بين اللغة والثقافة والفكر فى **الفصل الثالث** ، مما يدفعه إلى مناقشة مشكلات الحتمية والنسبية والشمولية فى اللغة . ويخلص من ذلك كله إلى طرح مفهوم النموذج الأصل ، وهو مفهوم مهم فى علم اللغة الاجتماعى على وجه الخصوص وعلم اللغة العام والدلالة على وجه العموم . أما **الفصل الرابع** فيتوقف عند « الكلام » بوصفه نوعاً من أنواع التعامل الاجتماعى ، وما يتتبعه من تحليل للخطاب وتركيز على "الأبعاد الإثنوجرافية للحديث ، وذلك بهدف الكشف عن الكيفية التى يقوم معها المجتمع بتحديد الأبنية الكبرى للغة ، وغير خافٍ أن هذا المنظور له أهميته البالغة فى دراسة اللغة العربية من ناحية وفتح آفاق جديدة لدراسة علاقتها

بالمجتمعات العربية من ناحية ثانية . ويتوقف **الفصل الخامس** عند الدراسة الكمية للكلام عارضاً لمجموعة من المشروعات الميدانية التى قامت بدراسة القيود الاجتماعية المفروضة على اللغة . وأهم ما يؤكده المؤلِّف فى هذا الصدد هو أن اللغة لا يمكن فهمها خارج سياقها الاجتماعى ، وأن علم اللغة النظرى العام لا يمكن أن يواصل مسيرته دون إفادة من إنجاز علم اللغة الاجتماعى بوجه خاص . ويأتى **الفصل السادس** تأكيداً لهذا الأمر ، حيث يتوقف تفصيلاً أمام قضية ذات أهمية كبيرة سياسياً واجتماعياً فى المجتمعات الغربية وهى قضية اللا مساواة الاجتماعية واللغوية.

ولا بدّ لى أن أوضّح فى هذا المقام أن علم اللغة الاجتماعى قد نشأ لتطور علم اللغة العام من ناحية ، وردّ فعلٍ على المدرسة التوليدية التحليلية من ناحيةٍ ثانية ، خصوصاً ما ابتدأتْ به هذه المدرسة من استبعادٍ لعلاقة اللغة بالمجتمع . والحق أن أية محاولة لتفسير الظواهر اللغوية المختلفة دون الرجوع إلى المجتمع ، وذلك ما قامتْ به المدرسة التوليدية التحليلية بكافة فروعها ، إنما هى محاولة عبثية تنطوى على مثالية متطرفة . ولن تؤدى هذه المحاولة إلا إلى إجداب الدراسات اللغوية ؛ فاللغة سلوك اجتماعى يحدده المجتمع فى المقام الأول .

ولا يقوم هذا الكتاب بتأكيد هذه الحقيقة فحسب ، بل يقوم بتأكيد غيرها من الحقائق التى كشفتْ عنها الدراسات اللغوية الحديثة فى ربع القرن الماضى .

ومن الواضح أن مؤلِّف هذا الكتاب كان يضع نصب عينيه تحقيقَ هدفين منفصلين فى تأليفه كتابه . أما هدفه الأول فهو تقديم كتاب تمهيدى يكون بمثابة مدخل إلى علم اللغة الاجتماعى ، أعنى مدخلاً يستعين به طلاب المراحل الأولى فى الجامعات . وفى الوقت نفسه أراد المؤلِّف أن يقوم بنقد جذرى للفرضيات الأساسية لعلم اللغة الاجتماعى على سبيل التخصيص ، والفرضيات الأساسية لعلم اللغة العام على سبيل التعميم . وقد أدى به الهدف الثانى إلى تجاهل متطلبات الهدف الأول فى بعض الأحيان ، ذلك لأن مُضيه فى النقد من ناحية ، وإلحاحهُ على بعض الجوانب التفصيلية المرتبطة بهذا النقد من ناحية ثانية ، قد أدى به إلى إثقال الكتاب بتعريفات

فرعية ومناقشات تفريعية . ولاشك أن هذا أمر يثقل على القارىء المبتدىء فى علم اللغة ويقلل من جاذبية المدخل وتشويقه . غير أن هذا العيب - إذا جاز أن نعده عيباً - يتضمن ميزة للقارىء المتخصص . ومن هنا فإن الكتاب ، وإن أثقل أحياناً على القارىء المبتدىء ، فإنه يتيح للقارىء المتخصص ثراءً فى التفاصيل والمفاهيم والتعريفات . وقد حاولتُ - من جانبى - أن أخفف على القارىء المبتدىء بتقديم ثبت عربى لبعض المصطلحات بما يرادفها بالعربية والتى يجهلها هذا القارىء . وقد فرض علىّ حجم الكتاب عدم التفصيل فى الشرح والتوقف عند الأساس ، أو على الأقل ما حسبتُ أنه أساسى . ويمكن للقارىء الذى يريد الاتساع فى شرح المصطلحات الخاصة بعلم اللغة العام فى مجمله مراجعة المعاجم التالية :

١ - د. محمد على الخولى ، **معجم علم اللغة النظرى** ، مكتبة لبنان ١٩٨٢ .

٢ - د. مجدى وهبة ، **معجم المصطلحات اللغوية** ، مكتبة لبنان (؟).

٣ - د. عبد السلام المسدى ، **الأسلوبية والأسلوب : نحو بديل ألسُنى فى نقد الأدب** ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ١٩٧٧ .

٤ - د. كمال محمد البشر ، **علم اللغة العام : الأصوات** ، دار المعارف ، ١٩٨٠ .

ولا يسعنى فى النهاية إلا أن أتوجّه بالشكر العميق إلى كل مَنْ ساعد فى إنجاز هذه الترجمة ، وأخص بالذكر الصديق الدكتور نصر حامد رزق الذى قام بالمراجعة اللغوية لمعظم هذا الكتاب فى ترجمته الأولى ، والصديق الدكتور محمد أكرم سعد الدين الذى راجع النسخة الأخيرة من الترجمة ، والصديق الدكتور جابر عصفور على كل ما بذله من نقدٍ وعون ومراجعة . وشكرى العميق لزوجتى السيدة أمانى محسن

فؤاد التى ساعدتنى فى الطباعة على الآلة الكاتبة، ولوالدتها السيدة أسرار سامى على ما تكبدتهُ من عناءٍ فى مراجعة ذلك . وكل ما أرجوه - فى النهاية - أن يكون ما بذلتهُ من جهد فى الترجمة مماثلاً للجهد الكبير الذى أعاننى به هؤلاء وغيرهم على إنجازها. ولا يفوتنى أن أشكر الدكتور الشاعر حسن فتح الباب على مجهوده فى تصحيح و مراجعة هذه الطبعة من الكتاب.

د. محمود عيّاد

كلية الآداب - جامعة الكويت

الفصل الأول

مقدمة

١ - ١ - علم اللغة الاجتماعى Sociolinguistics

١ - ١ - ١ - وصف لعلم اللغة الاجتماعى

من الممكن تعريف علم اللغة الاجتماعى على أنه دراسة اللغة فى علاقتها بالمجتمع ، وهذا هو التعريف الذى تبنيناه فى هذا الكتاب . وعندما وضعت هذا الكتاب (١٩٧٨) ، كان علم اللغة الاجتماعى قد أصبح جزءاً معترفاً به فى معظم مناهج « علم اللغة المعاصر » أو علم اللسانيات فى المستوى الجامعى . ويعد علم اللغة الاجتماعى حقيقة واحداً من أهم مجالات النمو والتطور فى الدراسات اللغوية من منظورى المناهج الدراسية ومجالات البحث . وهناك الآن دوريتان باللغة الإنكليزية متخصصتان فى نشر الأبحاث والدراسات الخاصة بعلم اللغة الاجتماعى . (وهاتان الدوريتان هما : **اللغة فى المجتمع** Language in Society والدورية الدولية لعلم اجتماع اللغة International Journal of the Sociology of Language) .

وهناك أيضاً عدد كبير من الكتب الجامعية التمهيدية فى هذا المجال ، غير كتابنا هذا ، ونذكر منها على سبيل المثال برلينج Burling (١٩٧٠) وبرايد Pride (١٩٧١) وفيشمان Fishman (١٩٧٢) وروبينسون Robinson (١٩٧٢) وتردجيل Trudgill (١٩٧٤) وبلات وبلات Platt & Platt (١٩٧٥) وبيل Bell (١٩٧٦) وديتمار Dittmar (١٩٧٦) وواردهو Wardhaugh (١٩٧٦) . على أن القدر الأكبر من ذلك النمو فى مجال علم اللغة الاجتماعى قد حدث فى نهاية الستينات وبداية السبعينات ، ولذلك يمكننا أن ندرك أنه مازال مجالا حديث العهد للبحث . وليس معنى ذلك أن دراسة اللغة فى علاقتها بالمجتمع من ابتكار فترة الستينات ، فعلى عكس ذلك هناك تراث قديم العهد فى دراسة اللهجات وفى الدراسات التى تتناول العلاقات بين معانى الكلمات والثقافات المختلفة ، وكلاهما يقع فى إطار تعريفنا لعلم اللغة الاجتماعى . أما الجديد الذى استحدث فى الستينات ، فهو الاهتمام الواسع والإدراك بأن علم اللغة الاجتماعى قادر على كشف الكثير مما كان غامضاً من طبيعة اللغة وطبيعة المجتمع .

وينقسم علم اللغة الاجتماعى - مثله مثل الكثير من العلوم - إلى جزأين : الجزء « الإمبيرقى » (الاختبارى) والجزء النظرى - وأعنى بالأول ، الجزء الخاص بالخروج إلى الميدان لجمع المادة العلمية ، وبالثانى الجزء الخاص بالخلو إلى هذه الحقائق المتجمعة والتفكير فيها وتمحيصها . وقد يكون المنهج النظرى (المعروف بالمصطلح الغربى Armchair Approach « الجلوس والتفكير المتريث » فى دراسة علم اللغة الاجتماعى مفيداً إلى حدّ ما ، سواء استند إلى مادة علمية جمعت بطريقة علمية منظمة كجزء من بحث علمى متكامل أم اعتمد على مجرد خبرات الباحث الشخصية . ويسمح ذلك المنهج على وجه الخصوص بتكوين بدايات إطار تحليلى يشمل مجموعة من المصطلحات مثل **اللغة** Language (وهى مجموعة من القواعد أو نسق من المعرفة) **والكلام** Speech (وهو العبارات الفعلية) والمتحدث Speaker والمُخاطَب **(المتلقى)** Addressee وموضوع **الخطاب** Topic ، وما شاكل ذلك . وبطبيعة الحال فإن الخبرات الشخصية للباحث هى مصدر غنى للمعلومات عن اللغة فى علاقتها بالمجتمع . ومع ذلك فسرعان ما يتضح للباحث أن المنهج النظرى قد يكون منهجاً محفوفاً بالخطر إذا ما طبق على الخبرة الشخصية وحدها ، وذلك لسببين : أولهما ، أننا قد نخطىء خطأ جسيماً فى طريقة تفسيرنا لخبراتنا الشخصية ؛ لأن معظمنا لا يدرك إدراكاً واعياً القدر العظيم من التباين الموجود فى الكلام الذى نسمعه أو نستجيب له فى حياتنا اليومية ، وثانيهما ، أنّ الخبرات الشخصية منطلق محدود جداً بحيث لا يمكن التعميم من خلاله على اللغة فى المجتمع ؛ لأنه لا يأخذ فى الاعتبار المجتمعات الأخرى التى يمكن أن تكون الأمور فيها منظّمة تنظيماً مختلفاً كل الاختلاف .

والحقيقة ، أنّ السبب الفعلى لزيادة الاهتمام بعلم اللغة الاجتماعى فى العقد الأخير يرجع إلى الاكتشافات الميدانية والإمبيريقية التى تحققتْ من خلال الأبحاث والدراسات المنهجية التى أجريت حديثاً ، لا إلى إنجازات التنظير التى تستند إلى المنهج النظرى . وقد أُجريتْ بعض هذه الأبحاث فى مجتمعات « غريبة ونائية » ، مما أدى إلى اكتشافات وحقائق قد يجدها الكثير من القراء غريبة ومثيرة ، لأنها تختلف اختلافاً كبيراً عن نظائرها فى المجتمعات التى يعرفونها .

ومن الأمثلة على ذلك أنّ البريطانيين فى عمومهم يدهشون (ويبدون اهتماماً كبيراً) حين يعرفون أنّ هناك مجتمعات يجب أن يتحدث فيها الأبوان بلغتين أصليتين مختلفتين (انظر فيما بعد ١ - ٢ - ٢) . على أنّ هناك مشروعات أبحاث أُجريتْ فى المجتمعات الحضرية الصناعية المعقدة التى يعرفها القراء ، ولا تخلو هذه الأبحاث - مع ذلك - من المفاجآت ، مثل اكتشاف : أنّ الاختلافات بين الطبقات الاجتماعية المختلفة والتى تنعكس فى الكلام تظهر فى الولايات المتحدة بنفس القدر من الوضوح التى تظهر به فى بريطانيا ، رغم أن الصورة العالقة بأذهان القراء أن الولايات المتحدة مجتمع يقل فيه الوعى بالفوارق بين الطبقات إلى حدٍ بعيد . (وسنعرض لمناقشة الأدلة على هذا الرأى فى الفصل الخامس فى ٥ - ٣ - ٢) .

ومن المهم أن ندرك أنّ قدراً كبيراً من الاهتمام بعلم اللغة الاجتماعى قد انبعث عن أناس - مثل رجال التعليم - لهم اهتمام عملى ، لا مجرد رغبة فى الوصول إلى فهم أفضل للطريقة التى تسير بها الأمور فى هذا الميدان المحدود . وقد أصبح من الممكن فى الولايات المتحدة بوجهٍ خاص خلال الستينات والسبعينات ، إيجاد التمويل اللازم للقيام بمشروعات ميدانية ضخمة نسبياً ، متصلة بدراسة أساليب كلام الجماعات السكانية الدُّنيا ، استناداً إلى أنّ نتائج مثل هذه المشروعات يمكن أن تؤدى إلى إرساء قواعد سياسة تعليمية أفضل من السياسة القائمة . وقد خصصنا معظم الفصل السادس من هذا الكتاب لعرض القضايا التى أثارتها هذه الأبحاث . ولكن الأبحاث التى عرضنا لها فى الفصل الخامس كان يستحيل إجراؤها ، على الأرجح ، فى مناخ اجتماعى مختلف . وقد يصدق ذلك أيضاً على الأبحاث التى عرضنا لها فى الفصل الرابع ، وإن كان ذلك بدرجة أقل .

وقد أدى هذا التوجه العملى التطبيقى إلى مناقشة مستفيضة لبعض القضايا النظرية ، وخاصة تلك القضايا ذات التأثير العملى بما فيها القضايا المطروحة فى الفصل الخامس . أما مناقشة القضايا النظرية التى تقل فيها النتائج العملية المباشرة ، أو يهبط مستواها ، فكانت أقل نسبياً . وقد يفاجىء عدم التوازن بين هذين النوعين من القضايا قارىء هذا الكتاب ، وإن كنت قد حاولت أن ألقى ضوءاً على القضايا النظرية التى يطرحها كلا النوعين .

١ - ١ - ٢ علم اللغة الاجتماعى وعلم اللغة :

وسوف أشير طوال هذا الكتاب إلى علماء علم اللغة الاجتماعى وعلماء علم اللغة العام بوصفهما نوعين مختلفين من الدارسين ، ومع ذلك فهناك بالطبع الكثيرون من علماء علم اللغة الاجتماعى ممن يعدون أنفسهم من علماء علم اللغة العام ، هذا فضلا عن الكثيرين من علماء علم اللغة العام من ذوى الخبرة فى علوم الاجتماع أو الإنثروبولوجيا أو علم النفس الاجتماعى . والواقع أنّ تحديد مَنْ ينتمى ومَنْ لا ينتمى إلى فئة علماء اللغة الاجتماعيين ليس بالأمر الهام . ولكن من المهم أن نطرح سؤالا عما إذا كانت هناك اختلافات بين علم اللغة الاجتماعى وعلم اللغة العام ، وما هى هذه الاختلافات إن وُجِدَتْ . هناك رأى يشيع على نطاق واسع ، هو أنّ هناك اختلافاً بين العلمين وأنّ الاختلاف يكمن فى أن علم اللغة لا يهتم إلا ببنية اللغة Language Structure ، دون الاهتمام بالسياقات الاجتماعية Social context التى تكتسب فيها اللغة وتستخدم . إن مهمة علم اللغة العام ، حسب هذا الرأى الشائع ، هى اكتشاف وتحديد قواعد أية لغة حتى يستطيع علماء علم اللغة الاجتماعى بعد ذلك أن يدرسوا نقاط هذه القواعد بالمجتمع كما يحدث مثلا عندما يكون هناك عدد من بدائل التعبير اللغوى التى تستخدمها المجموعات الاجتماعية المختلفة للتعبير عن شىء واحد . وعلينا أن نذكر أن هذا الرأى يمثل رأى المدرسة البنيوية كلها فى علم اللغة ، وهى المدرسة التى سيطرت على التفكير اللغوى فى علم اللغة فى القرن العشرين ، وهى تشمل أيضاً المنحى التحويلى والتوليدى فى علم اللغة (وهو المنحى الذى ابتدعه تشومسكى منذ ١٩٥٧) . (وهو يمثل أيضاً كثيراً من اتجاهات مدارس تدريس اللغات الأجنبية فى بريطانيا) .

غير أنّ هذا رأى لن يستسيغه كثير من دارسى علم اللغة . فقد يذهب بعضهم إلى القول : بما أنّه لا جدل بأن الكلام هو سلوك اجتماعى كما هو واضح فإن دراسته دون الرجوع إلى المجتمع لا تختلف عن دراسة سلوك المغازلة فى المجتمع دون الربط بين سلوك كل من الطرفين المشتركين فى المغازلة . إلا أن هناك سببين على الأقل يدفعان إلى قبول هذا الرأى : أولهما ، لا نستطيع أنْ نسلم جدلاً بوجود فكرة اللغة (س) مثلاً حيث إن هذه الفكرة فى حد ذاتها فكرة اجتماعية ، قد تم تحديدها من خلال

مجموعة من الناس يتكلمون باللغة (س) . والمشكلة - كما سنرى فى الفصل الثانى - أنّ هذه المجموعة ستعرف على جميع الوجوه فى شكل دائرة كاملة ، على أنها مجموعة تتحدث اللغة (س) خاصة حين نركّز على الاختلافات الدقيقة بين اللهجات ونحاول أن نعرف « اللهجة س » بدلاً من « اللغة س » ، وكان وليام لابوف William Labov ١٩٧٢ - أ : ٧ هو أول مَنْ طَرَحَ هذا الرأى . والسبب الثانى ، هو أن للكلام وظيفة اجتماعية باعتباره وسيلة للاتصال وطريقة لتمييز المجموعات الاجتماعية المختلفة ، كما أنّ دراسة الكلام دون الرجوع إلى المجتمع الذى يتحدث به هو استبعاد لاحتمالات وجود تفسيرات اجتماعية للأبنية والصيغ المستخدمة فى الكلام . ويمثل هذا المنظور رأى ج . ر . فيرث ، (مثلاً ١٩٥٠ ، ١٩٦٤) J. R. Firth الذى أسس مدرسة لندن لعلم اللغة London School of Linguistics وأتباعه مايكل هاليداى Michael Halliday وتيرنيس ميتشل Terence Mitchell. ولعل إحدى أهم الدراسات الحديثة هى الدراسة التى قام بها براون وليفنسن ١٩٧٨ Brown & Levinson فى النظرية اللغوية .

وسأحاول فى هذا الكتاب ، أن أدافع عن الرأى القائل بأن اكتشافات علم اللغة الاجتماعى ذات صلة وثيقة بنظرية بنية اللغة ، ومثل ذلك أهميتها بالنسبة لقضية ماهية المعنى (٢ - ٣) وقضية تحليل البدائل النحوية (٥ - ٥) . وعلى ذلك ، فإننى أفضل أنّ أعتنق وجهة النظر الثانية ، التى ترى أن تجاهل علم اللغة للمجتمع يعد « شيئاً خطيراً بالنسبة لعلم اللغة فى حد ذاته » . وقد أكدت ذلك حتى يتبين للقارىء موقفى من وجهات النظر المعروضة . ولكن من الواضح أنّ هناك اختلافاً كبيراً بين مجرد التعرف على أهمية البعد الاجتماعى للغة وبين معرفة كيفية القيام بذلك . سأشير فى هذا الكتاب إلى دارس علم اللغة الاجتماعى - ودارس علم اللغة كما لو كانا كيانين منفصلين . إلاّ أنه يمكن استخدام هاتين التسميتين للإشارة إلى مدى الاهتمام الموجه إلى الجانب الاجتماعى فى اللغة دون المغالاة فى ذلك الفصل . وليس من شك ، أن علماء اللغة قد أحرزوا تقدماً هائلاً فى دراسة بنية اللغة فى إطار المدرسة البنيوية ، وقد حقق التطور علماء يعدون أنفسهم من علماء علم اللغة العام ، لا من علماء علم اللغة الاجتماعى ، وفضلاً عن ذلك فإن بعض مجالات اللغة مثل المجالات

التى عرضنا لها فى هذا الكتاب ، ترتبط ارتباطاً مباشراً بالعوامل الاجتماعية أكثر من غيرها من المجالات اللغوية . أما الذين قاموا بدراسة المجالات اللغوية البحتة دون أنْ يضعوا فى اعتبارهم الجوانب الاجتماعية للغة ، فقد أطلقنا عليهم اسم علماء علم اللغة العام تمييزاً لهم عن علماء علم اللغة الاجتماعى .

وبالرغم من أننى لا أذهب إلى أن الموضوعات المدروسة فى هذا الكتاب هى وحدها دون غيرها الجديرة بالدراسة ، إلاّ أننى على يقين أن كل دارسى اللغة من أى منظور يجب أن يدركوا السياق الاجتماعى للموضوع الذى يقومون بدراسته بشكل يجاوز ما نراه فى دراساتهم فى معظم الأحيان . ومن ثم فالموضوعات التى عرضنا لها هنا لها أهمية قصوى فى هذا السياق .

١ - ١ - ٣ علم اللغة الاجتماعى وعلم اجتماع اللغة

Sociolinguistce & the Sociology of Language

لقد سبق أن عرفت علم اللغة الاجتماعى على أنه « دراسة للغة فى علاقتها بالمجتمع » ، وقد عمدت إلى أن يتضمن هذا التعريف أن علم اللغة الاجتماعى جزء من دراستها . ولذلك فإن قيمة علم اللغة الاجتماعى تكمن فى قدرته على إيضاح طبيعة اللغة بصفة عامة وإيضاح خصائص محددة للغة بعينها . ومن الطبيعى أن يدرك دارسو المجتمع أن حقائق اللغة يمكن أن تزيد من فهمهم للمجتمع . وكذلك فإنه من الصعب أن نجد فى خصائص المجتمع ما يمكن أن يكون أكثر تمييزاً للمجتمع من لغته ، أو يوازيها أهمية فى الدور الذى تؤديه فى عملية قيام المجتمع بوظيفته . ويمكن أن نعرف علم اجتماع اللغة ، على أنه « دراسة المجتمع فى علاقته باللغة » (وهو عكس تعريفنا لعلم اللغة الاجتماعى) .

والاختلاف بين « علم اللغة الاجتماعى » و « علم اجتماع اللغة » (ليس اختلافاً فى العناصر) (؟) وإنما فى محور الاهتمام . ويستند ذلك إلى الأهمية التى يوليها الدارس للغة أم المجتمع ، وإلى مدى مهارته فى تحليل البنية اللغوية أو الاجتماعية . وهناك قدر كبير من التطابق بين هذين العلمين . وقد يكون من غير

المجدى أن نحاول الفصل بينهما بطريقة أكثر وضوحاً مما هو عليه حالياً . إذ يمكن أن نورد معظم ما يرد فى هذا الكتاب ضمن كتاب فى علم اجتماع اللغة . ومن ناحية أخرى ، فإن كتاباً فى علم اجتماع اللغة لابد أن يتضمن قضايا لا ترد فى كتابنا هذا . وبخاصة تلك التى فى إطار ما يُعرف بعلم اجتماع اللغة الشامل Macro-Sociology of Language الذى يتناول علاقات المجتمع واللغة برمتها ، وهو ما يعد مجالاً هاماً للدراسة من منظور علم الاجتماع (والسياسة) لأنه يثير قضايا مثل : أثر تعدد اللغات Multilingualism على النمو الاقتصادى ، وما يمكن أن تتبناه الحكومات من سياسات لغوية . (من أجل مناقشة هذه القضايا وعرضها انظر التالى : فيشمان ١٩٧٢ - أ ، ١٩٧٢ - ب ، Fishman والمقالات التالية التى أُعيد طبعها فى كتاب جيجليولى - ١٩٧٢ Gigolioli. وهى : فيشمان ١٩٧٢ - ج (Fishman) جودى و واط ١٩٦٢ Goody & Watt وجمبرز ١٩٦٨ Gumperz وإنجلهارت و ودورد ١٩٦٧ Inglehart & Woodward إلاّ أن هذه الدراسات الاجتماعية الشاملة لا توضح طبيعة اللغة بالقدر الذى تفعله الدراسات المصغّرة (Micro) ، التى نوردها فى هذا الكتاب ، لأن الدراسات الاجتماعية الشاملة تترك مفهوم (اللغة س) دون تحليل. (وهناك مناقشة جيدة للعلاقات بين « علم اللغة الاجتماعى » و « علم اجتماع اللغة » فى مقدمة كتاب تردجيل ١٩٧٨ Trudgill .

١ - ٢ - ظواهر علم اللغة الاجتماعى :

١ - ٢ - ١ عالم من الخيال :

ما الذى نستطيع أن نقوله إذن عن اللغة فى علاقتها بالمجتمع ؟ قد يكون من المفيد أن نحاول تخيل مجتمع (ولغة) لا يوجد ما نقوله عنهما . والعالم الصغير الذى نحاول وصفه فى الجزء التالى عالم نُسِجَ بأكمله من الخيال ، وقد يتفق معى معظم دارسى علم اللغة الاجتماعى ، بل وربما كلهم على أنه قد لا يكون لمثل هذا العالم وجود ، إذا سلمنا بالمقولات الأولى التى نعرفها عن اللغة والمجتمع .

ففى عالمنا الخيالى ، مجتمع تحدده حدود طبيعية لا يمكن تخطيها . والغرض

من فرض هذه الحدود ، هو أن نضمن عدم انضمام أفراد من جماعات أخرى إلى جماعتنا الخيالية هذه ، حاملين معهم لغتهم ، من جهة ، كما نضمن - من جهة أخرى - عدم مغادرة مواطنى هذه الجماعة الخيالية لموطنهم أبداً ، حاملين معهم لغتهم إلى جماعة أخرى ، وهو ما قد يتسبب فى إرباك التطابق الكامل بين اللغة والجماعة .

وفى هذا المجتمع الخيالى ، يتمتع الأفراد بمعرفة لغوية واحدة - فجميعهم دون استثناء يعرفون نفس « الأبنية اللغوية » ونفس الكلمات ، ينطقونها بنفس الطريقة ويضمنونها نفس المعانى . وقد يؤدى أى خروج عن مثل هذا التطابق الكامل إلى طرح مقولة من مثل هذا القبيل : « س » من الناس ينطق كلمة ما بالطريقة « ص » بينما ينطق « ب » من الناس نفس الكلمة بالطريقة « ى » مما يمكن أن يعتبر مقولة عن اللغة فى علاقتها بالمجتمع . لكن المشكلة البدهية ، هى أن لغة أطفال هذا المجتمع الذين ما يزالون فى مرحلة تعلّم الكلام لابد أن تختلف بالضرورة عن لغة الآخرين . ويمكننا التحايل على هذه المشكلة بالقول : إن لغة الأطفال Child Language هى فرع من أفرع دراسات علم النفس أكثر من كونها فرعاً من علم الاجتماع ، وإن علم النفس قادر على تحديد المبادىء العامة لاكتساب اللغة لدى الأطفال . وهذه المبادىء تسمح لنا بدورها ، بتحديد جميع أوجه الاختلاف بين لغة الأطفال ولغة البالغين . فلو كان بمقدور علم النفس أن يوفّر كل هذه المبادىء الضرورية ، فقد يتوفر لدينا ، حينئذ الكثير مما نستطيع أن نقوله عن اللغة فى علاقتها بنمو الأفراد ، دون أن نتمكن من أن نقول شيئاً عن اللغة فى علاقتها بالمجتمع . إلاّ أنّه غنى عن القول ، أنه ما من عالم نفس واحد يجرؤ على الادعاء ، ولو من ناحية المبدأ ، بإمكانية ذلك .

والنتيجة الحتمية لغياب الاختلافات بين لغة أفراد هذا المجتمع ، هى استبعاد أى نوع من أنواع التغير اللغوى لأن مثل هذا التغير اللغوى Language Change ، يتضمن عادة الاختلافات القائمة بين لغة أكبر الأجيال وأصغرها سناً . ولذلك عندما يموت الجيل القديم بأكمله ، لا تبقى غير الصيغ اللغوية التى يستخدمها أحدث الأجيال سناً . وحيث إن التغير اللغوى قد ترك أثره على كل اللغات التى جرتْ دراستها حتى الآن ، فإن ذلك يجعل من لغة مجتمعنا الخيالى لغة متفردة فى نوعها . والطريقة الوحيدة التى تسمح بالتغير اللغوى فى مجتمع مطلق التجانس هو افتراض

أن يعود كل تغير بأثره على كل فرد من أفراد المجتمع بشكل مطلق ومتزامن ، أى أن ينام المجتمع فى ليلة ، ولغته خلو من أحد الأشكال اللغوية ، ويصحو ، فى اليوم التالى ، وقد انتشر ذلك الشكل فى لغة كل فرد من أفراد المجتمع . (وإنه لَمِنَ الصعب أن يتصور المرء أن وسيلة يمكن أن تعلل مثل هذا التغير ، اللهم إلاَّ التواصل الروحى على مستوى المجتمع ، برمته) .

كما أن من سمات هذا المجتمع الخيالى الذى نتناوله بالدراسة أنه ليس للظروف أى أثر يذكر على ما يقوله الناس ، سواء من حيث الشكل أو المضمون ، فليست فيه مواقف رسمية formal « أو غير رسمية » informal ، تتطلب استخدام مفردات لغوية مختلفة (مثل الفعلين receive get) ، أو طرق مختلفة لنطق الكلمات (مثل not و n't) (انظر ٢ - ٤) . كما أنه ليس هنالك أية فوارق على مستوى الشكل أو الدلالة بين discussion (مناقشة) و argument (جدل) أو بين request (رجاء) و demand (مطالبة) . (ففى الجدل argument نقوم بمهاجمة موقف الخصم ، بينما نأخذ بعين الاعتبار موقف الطرف الآخر، فى المناقشة -discussion-). كما أنه لا وجود لاختلافات بين بداية المحادثة ووسطها ونهايتها . مما يستدعى التحية والوداع ، مثلاً . وعليه ، فإنه لا وجود لاختلافات تنشأ عن الظروف . ولو لم يكن الأمر كذلك ، لتطلّب الأمر تعقيبات على المجتمع ، وبصفة خاصة على التعامل الاجتماعى social interaction، وهو ما نتناوله فى الفصل الرابع . وليس من شك، فى أن استبعاد أثر السياق الاجتماعى - Social Context على اللغة ، يجعل من الكلام أمراً يكاد يكون مستحيلاً . لأن الرسائل المنطوقة تُفَصّل خصيصاً حسب احتياجات المتلقين .

وفى النهاية ، علينا أن نفترض أنه ليست هناك علاقة بين ثقافة مجتمعنا الفرضى ، وبين المعانى التى تعبّر عنها لغته وبخاصة مفرداته . ولذلك ، فإن مثل هذه اللغة ، لا يجب أن تتضمن كلمات مثل cricket أو priest، وهى كلمات لا نستطيع تحديد دلالتها دون الرجوع ، ولو جزئياً ، إلى ثقافة هذا المجتمع . وهو ما سنتناوله فى ٣ - ٢ . فافتراضنا ، عكس ذلك ، يعنى أن نسمح بتقديم تعليقات مسهبة عن علاقة اللغة بالمجتمع ، لأن الثقافة هى واحدة من أهم خصائصه . فأى نوع من المفاهيم، على

وجه التحديد ، يمكن لمواطنى هذا المجتمع الفرضى أن يعبّروا عنه ؟ من المؤكد أنهم لن يتمكنوا إلاّ من تأكيد الحقائق المنطقية مثل إذا كان أ = ب وكان ب = جـ إذن أ = جـ، لأن أى نوع آخر من الكلام غالباً ما يتضمن الإشارة إلى ثقافة المجتمع .

وخلاصة القول ، هى أن مثل هذا المجتمع الفرضى الخيالى قد يستعصى على التحقيق . ولقد فرضنا ما فرضناه من قيود على هذا المجتمع بغية أن نتجنب قول أى شىء عن علاقة اللغة بالمجتمع ، خلاف عبارة بسيطة هى : أن هذه الجماعة تتكلم باللغة « س » . وهنا لابد من الإشارة إلى أن مثل هذا النوع من العبارة ، هو ما يقوله علماء اللغة أو (العوام) عموماً عن اللغة ، فيستنفذون بها ما يجدون أنفسهم مكرهين على قوله عن علاقة اللغة بالمجتمع . ولقد هدفنا من هذا الجزء إلى إيضاح أن الجماعة الوحيدة (أو اللغة الوحيدة) التى يمكن لمثل هذه العبارة أن تنسحب عليها ، هى جماعة فرضية خيالية وهى تلك التى قام تشومسكى بتعريفها على أنها الجماعة الملائمة لموضوع البحث فى مجال علم اللغة النظرى (١٩٦٥ : ٣) .

١ - ٢ - ٢ عالم واقعى وغريب :

ولننتقل الآن إلى عالم واقعى ، فيه الكثير مما يمكن أن نقوله عن اللغة فى علاقتها بالمجتمع : وهو عالم شمال غرب الأمازون ، العالم الغريب ، الذى قام بوصفه أ.ب سورينسين (١٩٧١) A. P. Sorensen و ج . جاكسون (١٩٧٤) J. Jackson (هذا على الرغم من أننا سنرى فى القسم (١ - ٢ - ٣) أن الأوضاع فى هذا العالم لا تختلف كثيراً عنها فى المجتمعات المألوفة لدينا) .

ومن الناحية الجغرافية ، تقع نصف رقعة هذه المنطقة فى البرازيل ، والنصف الآخر فى كولومبيا . وهذه المنطقة تتفق لغوياً مع المنطقة التى تُستَخدَم فيها لغة التوكانو Tukano وهى لغة ، يمكن اعتبارها لغة مخاطبة الأجانب Lingua Franca (ونقصد بذلك لغة يستخدمها مواطنو منطقة ما على نطاق واسع فى المعاملات التجارية ، وهى ليست لغتهم الأم) . وهى منطقة شاسعة تساوى إنكلترا فى مساحتها ولا يقطنها إلاّ عدد قليل من السكان يصل إلى حوالى ١٠٫٠٠٠ نسمة ،

معظمهم من الهنود الأصليين ، ينقسمون إلى ٢٠ قبيلة ، تنقسم كل منها إلى ٥ عشائر Phratries .

وعلينا أن نتذكر حقيقتين هامتين عن هذه الجماعة ، أولاهما ، هى أن كُلاً من هذه القبائل تتحدث لغة مختلفة إلى حد أنّ القبائل الأخرى لا تفهمها ، وفى بعض الأحيان ، قد تكون ذات أصل لغوى مختلف عن غيرها من لغات القبائل الأخرى . (أى أن هذه اللغات لا تنحدر من أصل لغوى واحد) . ولا يمكن فى واقع الأمر أن نميّز بين هذه القبائل إلاّ من خلال لغة كل منها . والحقيقة الثانية ، هى أن هذه العشائر الخمس (وكذلك القبائل العشرون) تتصف بأنها أبعادية Exogamous (أى أن الرجل يجب ألاّ يتزوج من نفس القبيلة أو العشيرة) والنتيجة اللغوية الحتمية إذا ما وضعنا هاتين الحقيقتين جنباً إلى جنب : هى أن الزوجة بالضرورة تتحدث لغة تختلف عن لغة زوجها .

وعلينا أن نضيف حقيقة ثالثة : وهى أن الزواج يتم ويستمر فى موطن الزوج Patrilocal (تستوطن الزوجة موطن زوجها) ، كما أن هنالك قاعدة تقول بأن الزوجة لا يجب أن تعيش فى موطن الزوج فحسب ، بل يجب أن تستخدم لغة الزوج فى التحدث إلى أطفالها (ونستطيع أن نطلق على مثل هذا العرف فى الزواج مصطلح «الزواج على لغة الزوج» Patrilingual Marriage والنتيجة اللغوية الحتمية لمثل هذه القاعدة، هى أن أُم الطفل لا تعلم طفلها لغتها الأصلية ، بل تعلّمه لغة تتحدث هى بها كلغة أجنبية - كما لو تعلّم كل طفل فى بريطانيا لغته الإنكليزية من مربية أجنبية . ولذلك فإننا لا نستطيع أن نصف لغة أولئك الأطفال بأنها لغتهم الأم، إلاّ فى شطحة من شطحات الخيال . ولا تذكر التقارير الخاصة بتوصيف هذه الجماعة، أى نوع من المعوقات فى تعلّم اللغة ، أو تدهور عام فى مستوى تعلّمها ، وعليه يمكننا أن نفترض أنه يمكن اكتساب اللغة بكفاءة ودقة متناهية حتى تحت هذه الظروف الصعبة، وذلك بتأثير الأب وبقية أقربائه والأطفال الأكبر سناً . ومن الجدير بالذكر ، أن الزوجة تنتقل إلى « البيت الكبير » Long House حيث يقطن أهل الزوج وأسرته وأخوته وبذلك ، تنتفى شبهة عدم التواصل بين من يتحدثون بلغة الأب باعتبارها اللغة الأم .

فما الذى نستطيع أن نقوله عن اللغة فى علاقتها بمثل هذا المجتمع ؟ أولاً : علينا أن نطرح قضية تتصل بعلاقة اللغات « ككل » بالمتحدثين . فلو فرضنا جدلاً أنه يمكننا من أجل تبسيط الأمور التحدث بطريقة مفيدة عن اللغات « ككل » (وذلك عكس ما سنقوله فى ٢ - ٢) ، من الضرورى بالنسبة للغة ما ، ولنقل اللغة « س » مثلاً ، أن نعرف من هم المتحدثون الأصليون بهذه اللغة ، ولكن ما دام ذلك يعنى الرجوع إلى قبيلة بعينها ، والقبائل قد عرفت بالرجوع فقط إلى لغتها الأصلية ، فإن ذلك يعنى بوضوح أنّ هناك مشكلة . وقد يكون الحل هو ، إما أن نعدد كل البيوت الكبيرة التى تملكها القبيلة المعنية أو أن نقوم بتحديد المنطقة - أو المناطق - الجغرافية التى تقطنها القبيلة (لأن معظم القبائل تستوطن مناطق خاصة بها وتخلو هذه الأراضى من القبائل الأخرى) . ومع ذلك علينا أنّ ندرك أنّ ربع المتحدثين الأصليين على الأقل باللغة « س » ، سيكونون ربع السكان القاطنين بمنطقة بعينها مكونين من الزوجات من القبائل الأخرى ، وعلى ذلك فهم من غير المتحدثين الأصليين باللغة ، ومن المحتمل - نتيجة لذلك - أن يشتمل أى « بيت كبير » بعينه على متحدثين أصليين بعدد من اللغات ، بدلاً من لغة واحدة ، لو افترضنا إن الأخوة لن يتزوجوا جميعاً من نفس القبيلة الأخرى بل ، سيتزوجون من عدد من القبائل . ولذلك فإن على مَنْ يريد أن يرسى قواعد النحو والصرف للغة « س » ، أن يحدد بدقة أولاً ، مَنْ هم الذين تستهدفهم تلك القواعد - فهل هذه القواعد صحيحة بالنسبة للمتحدثين الأصليين الذين ما زالوا يقطنون المنطقة الأصلية للقبيلة ، أم أنها صحيحة لكل المتحدثين الأصليين ، ومن بينهم من تفرقوا بين القبائل الأخرى أم أنها صحيحة لجميع المتحدثين سواء الأصليون وغير الأصليين منهم فى الموطن القبلى الأصلى ؟

ثانياً : هناك المشكلات الخاصة بقضية التخاطب Discourse وأعنى كيفية استخدام الكلام فى التعامل الاجتماعى ؟ وهناك أيضاً الأسئلة التى يثيرها عدد اللغات المُسْتَخدَمَة ، وهى على سبيل المثال : كيف يتعامل الأفراد عندما ينتقلون فى داخل المنطقة كدأبهم دائماً ؟ فهل من المتوقع أن يستخدموا لغة « البيت الكبير » الذى يقومون بزيارته ؟ ويبدو أن هذا الافتراض غير صحيح ، فاختيار اللغة المُسْتَخدَمَة يعتمد فى المقام الأول على مدى ملاءمتها لحاجة المتحدثين بها (باستثناء

القاعدة التى تتطلب من الزوجة استخدام لغة الزوج عند التحدث إلى أطفالها) . فلو كان الزائر لا يعرف لغة « البيت الكبير » الذى ينزل به ، بينما يعرف أحد مضيفيه لغة الزائر ، حينئذ يجرى استخدم لغة الزائر عند التحدث إليه . وماذا ، إذن ، لو كانت اللغة هى مادة الحديث ؟ هنا أيضاً ، تأتى الحاجات العملية فى المقام الأول ، ألا وهى ضرورة معرفة أكبر عدد ممكن من اللغات ؛ حتى يسهل التنقل والسفر وانتقاء شريكة العمر (بالنسبة للشباب) . ومن الطبيعى جداً ، أن يجرى الحديث عن اللغة وبذلك يتم تعلّم مفرداتها وصيغها ، الأمر الذى غالباً ما يمتد إلى سن متقدمة . ولكن هؤلاء الناس لا يدركون كم لغة يعرفون ، ولا يعتبرون تعلّم لغة جديدة وسيلة لاكتساب المكانة الاجتماعية . ولعل ذلك ما نتوقعه فى مجتمع يتحدث كل أفراده ثلاث لغات على الأقل : وهى (١) لغة الأب (٢) ولغة الأم (التى لابد أن تكون قد علمتها لأطفالها بغرض أن تحثهم على البحث عن أزواج وزوجات من قبيلتها) و(٣) لغة مخاطبة الأجانب Lingua Franca - التوكانو - (التى قد تكون لغة الأب أو الأم)، إلاّ أنه بالإضافة إلى جوانب التخاطب التى تتصل اتصالاً مباشراً بظاهرة « تعدد اللغات » multilingualism فإن هناك أموراً كثيرة أخرى ، لابد من ذكرها عن العلاقة بين الكلام والظروف الاجتماعية فى هذا المجتمع الأمازونى المعقد . فهناك على سبيل المثال قاعدة تقضى بالاستماع إلى من تحترمه من الناس ، وأن تردد ما يقوله حرفياً خلال الدقائق الخمس الأولى من حديثه على الأقل .

ثالثاً : تأتى قضية علاقة اللغة بالثقافة ، وهى علاقة لم تتناولها التقارير الواردة أعلاه من شمال غرب الأمازون إلاّ قليلاً ، ورغم ذلك ، يمكننا أن نقدم بعض التصورات شبه المؤكدة عن العلاقة . فَمِنْ غير المعقول مثلاً أن تفتقر أى من هذه اللغات إلى كلمات تدل على « بيت كبير » أو « قبيلة » أو « عشيرة » (رغم أنه قلما تتوفر تسميات لمثل هذه المفاهيم ذات المستوى العالى High Level Concepts كما سنرى فى ٣ - ٣ - ٤) . وكذلك ، يمكننا أن نتنبأ بوجود كلمات فى كل من تلك اللغات للتعبير عن المفاهيم المتعلّقة بالثقافة ، وأن نتنبأ بأن تعبّر غالبية الكلمات عن مفاهيم ثقافية ، لا يمكن تعريفها إلاّ من خلال إطار ثقافى محدد .

ولا يستطيع عالم اللغة - حين يدرس منطقة مثل شمال غرب الأمازون - أن

يقدم شيئاً مقنعاً عن اللغة ، دون أن يقدم - فى الوقت نفسه مقولات معقدة عن اللغة وعلاقتها بالمجتمع ، فلا يستطيع أن يحدد اللغة التى يقوم بوصفها دون الرجوع إلى جماعة سابقة التحديد تستخدم تلك اللغة (وهو ما يفعله حينما يتحدث عن الإنكليزية البريطانية أو « إنكليزية بيرمنجهام » مثلاً) . والمصدر الأساسى لهذا التعقيد ، هو النزعة الأبعادية اللغوية Linguistic exogamy ، وهى ليست نزعة شائعة فى العالم . أما المصدر الثانى لهذا التعقيد ، فهو القدر الكبير من « الازدواج اللغوى individual bilingualism عند الأفراد (أو بشكل أكثر دقة «تعدد اللغات» Multilingualism) والذى يجعل من الصعب تحديد : مَنْ هو المتحدث ومَنْ هو غير المتحدث بلغة بعينها .

وتعد ظاهرة « التعدد اللغوى » واسع الانتشار من الظواهر اللغوية المألوفة للغاية فى العالم كله ، كما يستطيع أى عالم لغة اجتماعى نظرى أن يستنتج بسهولة من حقيقة أن هناك أربعة أو خمسة آلاف لغة مستَخْدَمَة فى العالم فى حين لا يزيد عدد دول العالم عن مائة وأربعين دولة . وعلى ذلك ، فهناك على الأقل بعض الدول التى لابد أن تتحدث بعدد كبير من اللغات ، يتراوح متوسطه بين ثلاثين وخمس وثلاثين لغة . ولو أخذنا فى الاعتبار ضرورة الإتصال بالجماعات المجاورة والمؤسسات الحكومية، فمن المعقول أن نفترض أن الكثير من أفراد هذه الجماعات هم من متعددى اللغات . ومن المهم أن نضع هذه الحقائق نصب أعيننا أثناء قراءة الجزء التالى ؛ لأنه يكشف أن المجتمعات « ذات اللغة الواحدة » Monolingual المألوفة لمعظمنا ، قد تكون فى الواقع غاية فى الندرة والغرابة من منظور عالمى .

١ - ٢ - ٣ عالم واقعى ومألوف :

سأدعو القارىء الآن لتأمل العالم الذى نشأ فيه . فمن غير المتوقع أن تكون للقارىء خلفية لغوية تشبه فى غرابتها غرابة المجتمع الذى وصفناه - لغوياً - فى الجزء السابق ، ولكن معظمنا سيجد أن هناك الكثير مما يمكن قوله عن عوالمنا اللغوية الاجتماعية ، وأن القدر الأكبر مما نقوله قد يكون غريباً ومثيراً للغاية .

وبغية مساعدة القارىء على التركيز على عالمه الخاص ، يمكنه أن يتخيل نفسه وكأنه جالس فى بيته الكبير فى شمال غرب الأمازون يتحدث التوكانو بطلاقة مع مضيفه ، عن لغته ، بنفس الطريقة التى تتحتم على الهنود المسافرين إذا زاروا بيتاً كبيراً لا يعرف لغتهم الأصلية . وعادة ما يُطلب منهم نوعان من المعلومات عن أمور عامة وأمور محددة للغاية . منها : من غير المتكلم يتحدث بهذه اللغة ؟ أين يقيم أولئك المتكلمون ؟ هل يتكلمون لغات أخرى ؟ ماذا يقولون عند مقابلة شخص غريب لأول مرة ؟ ما معنى كلمة « عشاء » ؟ ما هى أسماء الوجبات التى يتناولونها فى مختلف أوقات النهار ؟ هل هناك أساليب خاصة بمحادثة الأطفال ؟ كيف يقومون بالعد؟ هل هناك أسلوب معيّن للدلالة على أن ما تقوله منقول عن آخرين ؟ كيف تبين أن الشىء الذى تود الدلالة عليه معروف لدى المخاطَب ؟ هل هناك طرق مختلفة لنطق أى من الكلمات حسب مسقط رأسك ؟ وعند الإجابة على كل هذه الأسئلة فإننا لا نكون قد تحدثنا عن اللغة فحسب ، بل عن جوانب اجتماعية عديدة للمجتمع الذى يستخدم هذه اللغة . ويمكن لساكن « البيت الكبير » لو كان فضولياً ، أن يضاعف هذه الأسئلة حتى يحصل على وصف كامل للغة التى يتحدث بها الغريب .

والغرض من كل هذه الأسئلة ، هو أن نحفّز القارىء على أن يدرك مقدار ما يمكن أن يقوله عن لغته فى علاقتها بالمجتمع الذى يعيش فيه . وآمل أن يحاول القارىء وضع خلفيته اللغوية نصب عينيه أثناء قراءة هذا الكتاب ، وأن يحاول تصور نتائج الأبحاث اللغوية المدرجة فى هذا الكتاب ، لو كانت قد أُجريت على جماعته اللغوية .

١ - ٣ متحدثون وجماعات : Speakers and Communities

١ - ٣ - ١ الالتزام والفردية : Conformity and Individualism

إذا كان علم اللغة الاجتماعى يختص بدراسة اللغة فى علاقتها بالمجتمع ، فإننا نتوقع أن تتناول كتب علم اللغة الاجتماعى الوحدات الاجتماعية الكبيرة مثل القبائل، والأمم والطبقات الاجتماعية . وسنعرض ، بالطبع ، إلى ذلك كله ، ونناقش صلة بعضها باللغة وبخاصة فى (٥ - ٤) . إلاّ أن المجتمع يتكون فى المقام الأول من

الأفراد ، وقد اتفق كل من علماء الاجتماع وعلماء علم اللغة الاجتماعى على ضرورة جعل الفرد مركز الاهتمام الرئيسى فى هذه الدراسات ، حتى لا يغيب الفرد عن بالنا حين نتحدث عن الأحداث والمجردات واسعة النطاق . فأهمية المتحدث الفرد فى علم اللغة الاجتماعى تعادل أهمية الخلية الفردية فى علم الأحياء . فإذا ما عجزنا عن فهم سلوك الفرد ، فإننا سنفشل حتماً ، وبنفس الدرجة ، فى فهم سلوك الجماعات .

إلاّ أن هنالك سبباً أكثر أهمية يدفعنا للاهتمام بالفرد فى علم اللغة الاجتماعى، لا ينطبق على الخلية فى علم الأحياء (أو على الأقل ، لا ينطبق بنفس الدرجة) : علينا أن نؤكد أنه **ما من فردين يتحدثان بنفس اللغة تماماً لأنه لا يمكن أن يتوفر لهما نفس القدر من التجارب والخبرات باللغة** . وقد تتراوح درجات الاختلاف بين المتحدثين من اختلافات بسيطة لا تُذكر (كما فى حالة الاختلاف بين توأمين نشآ معاً) إلى اختلافات كبيرة فى إطار حدود الخصائص الشمولية Universal للغات . إذ يتشكّل الفرد ، على عكس الخلية المفردة ، من مجموع خبراته اللغوية (كمتلقٍ) بدرجة أكبر من تكوينه الوراثى . وهو يتلقى تلك الخبرات من أحاديث الآخرين ، الذين يتميز كل منهم بخصائصه المنفردة ، والمنظور الذى اتخذناه فى هذا الكتاب هو دراسة المجتمع من الداخل ؛ أى أننا قد اتخذنا وجهة نظر المتحدث الفرد ، وهو يتكلم ويستمع إلى أفراد آخرين ، وذلك بدلاً من ملاحظة هذا المجتمع من الخارج ، كما قد يفعل عملاق قادر على رؤية المجتمع بكامله وعلى تشريحه ، إلاّ أنه لم يتوصل بعد إلى ابتكار مجهر ذى قوة كافية يمكنه من رؤية المتحدث الفرد .

وعلى أية حال ، فإن تفرّد الخلفية اللغوية الاجتماعية لكل فرد ليست المصدر الوحيد للتباين بين المتحدثين بلغة بعينها . فيمكننا أن نتخيل فرداً وهو يقيم نموذجاً تصورياً للجماعة (فى مستوى إدراكى غير واعٍ) التى يعيش بينها وينظم من حوله فى حيّز متعدد الأبعاد multi-dimensional space مبيناً على النموذج أوجه التشابه والاختلاف بينهم ، وذلك استناداً إلى مجموعة من الأبعاد والمعايير المختلفة . وتشتمل بعض هذه الأبعاد على الاختلافات اللغوية – مثل كيفية نطق وحدات صوتية مجردة phonemes أو مفردات بعينها – ولا يغطى هذا النموذج المعايير اللغوية

فحسب ، بل يغطى متغيرات من أنواع أخرى . وسيعكس هذا النموذج تجارب الفرد الشخصية ، وهكذا فإن الأفراد من ذوى الخلفيات اللغوية الاجتماعية المختلفة ، يتجهون إلى إقامة نماذج تصورية تختلف حسب خبرتهم باللغة والمجتمع .

وعلى أية حال ، فإن الفرد ليس مجرد « آلة تصوير اجتماعية » تعكس صورة دقيقة وحقيقية لماضيه فى نموذجه التصورى ، أى بنفس الأسلوب الذى يستطيع به جهاز التسجيل تسجيل الماضى القريب ، وإنما يدوّن تجاربه بعد تنقيتها من خلال مرشح هو مجموع تجاربه الحديثة ونموذجه الحالى . ولذلك يمكن لفردين أن يستمعا إلى شخص واحد ويتأثرا بطريقتين مختلفتين . وعلى سبيل المثال ، يمكن أن يشاهد فردان أحدهما إنكليزى والآخر أمريكى نفس الفيلم الأمريكى ، فيتعلما منه حقائق مختلفة عن اللغة - فما قد يبدو للمشاهد الأمريكى حقيقة جديدة عن طريقة كلام الفقراء البيض فى أقصى الجنوب ، قد يراه الإنكليزى على أنه مجرد حقيقة جديدة عن طريقة الأمريكيين فى الكلام . ومن هذا المنطلق ، علينا أن نتوقع أن تؤدى الاختلافات القائمة فى النموذج الراهن إلى اختلافات فى النماذج اللاحقة ، وحتى وإن كانت التجربة التى استتبعت هذه التغيرات هى نفسها فى كلتا الحالتين (للاطلاع على وجهة نظر مشابهة عن اكتساب اللغة . انظر ماكولى ١٩٧٧ McCawley) .

وحتى نستكمل صورة مصادر الاختلاف بين الأفراد ، علينا أن نعود إلى «الحيز متعدد الأبعاد» الذى أسلفنا ذكره . وهناك أدلة كافية تشير إلى أن المجتمع يستند فى بنيته من المنظور اللغوى الاجتماعى إلى حيّز متعدد الأبعاد ، نعرض له فى الفصل الخامس . وما علينا إلاّ أن نتصور التصنيفات العديدة ، التى يمكن أن يُصنف بها الناس بشكل ما حسب الأبعاد التالية ، وهى السن ومسقط الرأس والطبقة الاجتماعية (أو المهنة) والجنس ، حتى نتمثّل نموذجاً من أربعة أبعاد يرتبط كل منها باللغة ارتباطاً وثيقاً . وعندما ينتهى الفرد من إقامة نموذجه التصورى ، فى صورة حيّز متعدد الأبعاد ، عليه إذن أن يحدد موقعه فى هذا النموذج . وليست اللغة - بالطبع - سوى جزء واحد من الصورة الكاملة ، إلاّ أنها جزء هام منها لأنها تقدم للمتحدث مجموعة محددة وواضحة من الرموز ، التى يمكن استخدامها فى تحديد

موقعه من العالم حوله . فلو تصورنا أن طفلاً يقطن فى منطقة فيها مجموعتان مختلفتان من الأطفال يقاربونه سناً وهو ينتمى بوضوح إلى إحدى هاتين المجموعتين ، فمن المرجّح أن يتبنى فى كلامه نموذج المجموعة التى انضم إليها ، لأن ذلك هو النمط الذى اختاره لنفسه ، أى أن كل ما يقوله هذا الطفل يعتبر « فعلاً » « من » أفعال «تأكيد الهوية» Act of Identity فى حيّز متعدد الأبعاد (لاباج ١٩٧٧ - أ Le Page لاباج وآخرون ١٩٧٤ (Le Page et al .

على ضوء ما أوردناه فى الفقرات السابقة من حديث عن القدر المسموح به من «التباين الفردى» Individual Variation بين المتحدثين بنفس اللغة فإننا قد ندهش لمدى « الاتفاق » Agreement القائم بين المتحدثين ، وسنعرض لذلك مرة أخرى فى الفصل الخامس . ومن المهم أن نشير إلى أن درجة « التشابه » الموجودة بصفة عامة بين المتحدثين تتجاوز القدر المطلوب لضمان كفاءة الاتصال . فعلى سبيل المثال ، يمكننا أن نقول خلافاً لما ذهب إليه فيردناند دوسوسيور Ferdinande de Saussure مؤسس المدرسة البنيوية فى علم اللغة ، أنه لا يكفى أن يميّز الفرد بين وحدتين صوتيتين متجاورتين من الصوائت Vowles ، بل يجب أن يكون نطقه لهاتين الوحدتين متطابقاً تماماً مع نطق من اتخذهم نموذجاً له . وكذلك ، هو الحال بالنسبة للقيود التراكيبية syntactic restrictions المفروضة على استخدام كلمات بعينها . ويجب أن تكون هذه « القيود » متطابقة مع القيود التى يلتزم بها معظم الناس (فعلى سبيل المثال يلتزم معظم المتحدثين باللغة الإنكليزية بقيد استخدام كلمة probable مع المصدر المؤول that-clause وذلك على عكس مرادفها likely الذى يمكن استخدامه مع المصدر المؤول - والمصدر الصريح infinitive أيضاً .)

ولعل أشد ما يبرز تفوق قاعدة « الالتزام » conformity فى اللغة على حدود متطلبات كفاءة الاتصال Efficient Communication ، هو الشذوذ فى الصيغ الصرفية irregular morphology ، حيث إن كفاءة الاتصال لا تجنى شيئاً من جراء وجود أفعال أو أسماء ذات صيغ صرفية شاذة فى اللغة الإنكليزية . (فوجود مثل هذه الشواذ يجعل الأمر أكثر صعوبة بالنسبة للمتحدث والمتلقى ومن يود تعلم اللغة) .

والتفسير الوحيد لاستمرار وجود هذه الصيغ الصرفية الشاذة هو حاجة كل فرد للظهور بمظهر الالتزام بالقواعد الخاصة بالصيغ الصرفية ، وبذلك يحذو حذو مَنْ اتخذهم نموذجاً له . ومن المعروف أن الأطفال يميلون إلى استخدام الصيغ الصرفية المنتظمة بدلاً من الصيغ الشاذة (مثلاً عندما يستخدمون صيغة goed بدلاً من صيغة went) ولكنهم يتخلون عن استخدام هذه الصيغ الصرفية بمرور الوقت ، حتى يلتزموا بنفس القواعد التى يلتزم بها الآخرون .

ويمكن أن نطلق على القوتين اللتين ناقشناهما ، والتى تؤدى أولاهما إلى الفوارق الفردية وثانيتهما إلى التماثل بين الأفراد ، مصطلحى « الفردية » Individualism و « الالتزام » Conformity . ويعتمد قدر التباين الموجود فى أى جماعة على القوة النسبية لهاتين القوتين ، فقد يسود « الالتزام » فى بعض الجماعات، بينما تسود النزعة « الفردية » فى جماعات أخرى . وقد استخدم ر.لا. باج Le Page مصطلح « التضام » Focussing و « الانتشار» Diffusion لهذين النوعين من المواقف (١٩٧٨). وغالباً ما يوجد « التضام » حيث توجد درجة عالـ من الاتصال بين المتحدثين ، وقدر كبير من الالتزام بالصيغ والمعايير اللغـ Linguistic norms ، وعادة ما تتوافر هذه الشروط فى الجماعات الصغيرة محكمـ التكوين (مثل « شبكات الطبقة العاملة » Working class networks فى بلفاست والتى سنناقشها بإسهاب فى ٥ - ٤ - ٣) ، أو فى المجتمعات التى توجد فيها لغة مكتوبة ذات صيغة متواضع عليها standardized مثل اللغة السانسكريتية أو اللغة الفرنسية ، أما الانتشار Diffusionفيوجد عندما لا يتوافر الشرطان السابقان ، وتعد الرومانى Romany ، وهى لغة الغجر ، أفضل مثال على مثل هذا الموقف . وليس هناك بالطبع تمييز واضح بين نزعتى التضام والانتشار ، فهما مجرد اسمين لطرفى نقيض يمكننا أن نحدد على أساسهما موقع أى مجتمع أو موقع أية جماعة .

ومن الغريب أنّ أحداً لم يذهب إلى أنّ الأفراد يمكن أنّ يكونوا - من وجهة نظر لغوية - متفاوتين فى درجة التزامهم ، رغم أنه من الممكن تصور وجود هذه الاختلافات على المستوى الفردى . وحتى نستطيع إثبات وجود مثل هذه الاختلافات

على المستوى الفردى ، فمن الضرورى أن نجد اختلاقات فى الدرجة التى يحافظ بها الأفراد على الصيغ الصرفية الشاذة ، مثلا . ولا يمكن أن نكتفى بأن نبين أن بعض الأفراد يرفضون نموذج الأبوين (كما يفعل البعض بالفعل) ، وقد يكون السبب فى ذلك ، التزامهم بنموذج مختلف (وهو النموذج الخاص بأقرانهم Peers) لا عدم التزامهم بنموذج على الإطلاق . وقد تكون هناك أيضاً اختلافات بين رغبة الأفراد فى خلق مفردات مبتكرة أو فى استخدام اللغة مجازياً ، وقد يتعدى المتحدث «الخلاّق» فى تلك الحالات المعايير المتواضع عليها ، أو يخرق بعض هذه القواعد فى مواقف معينة (عند كتابة الشعر ، مثلا) وعلى أية حال ، فإن مثل هذه « النزعة الإبداعية» غالباً ما تحدث في إطارنظام لغوى التزامى .

١ - ٣ - ٢ النمو اللغوى الاجتماعى عند الطفل :

بالرغم من أننا قد نتصور أن كل متحدث فريد فى تجاربه اللغوية ، وعلى هذا الأساس ، فإنه قد ينمّى أجرومية خاصة به ، فإننا يمكن أن نطلق عدداً من التعميمات على المراحل التى عادة ما يمر بها الأطفال فى نموهم وتكوينهم اللغوى الاجتماعى . ولكن علينا أن نؤكد من البداية أنه يجب التعامل مع التعميمات أدناه على أنها فرضيات غير مثبتة ، لا على أنها نتائج مثبتة لأبحاث تمّ إجراؤها . إذ أن هذه الفرضيات لا تستند إلاّ إلى قدر ضئيل من البحث والدراسة ، إضافة إلى أدلة مروية عن آخرين .

ويختص أول هذه التعميمات بالنماذج اللغوية التى يحتذيها الأطفال ، وغالباً ما يتبع الكثير من الأطفال نماذجهم اللغوية بالترتيب التالى : يتبع الأطفال أولاً نموذج الأبوين ثم الأقران وأخيراً البالغين . ويرى ويليام لابوف (١٩٧٢ - أ : ١٣٨) أن الطفل غالباً ما يحتذى نموذج أبويه حتى يصل إلى الثالثة أو الرابعة من عمره ، وبعد ذلك يستبدل بنموذج الأبوين نموذج الأقران ، حتى يبلغ الثالثة عشرة من عمره عندما يبدأ فى احتذاء البالغين الذين يتجه إلى عالمهم. اختلف العلماء فى تحديد سن الانتقال من احتذاء الأبوين إلى احتذاء الأقران فتتراوح ما بين الرابعة والسادسة عند هوكيت

(١٩٥٨ : ٣٦١ Hockett) إلى ما تحت الثانية عند (بولينجر ١٩٧٥ : ٣٣٤ Bolinger وفى روايات شخصية أخرى لآخرين) . ومن الواضح أن معظم الأطفال إن عاجلاً أو آجلاً يتخذون من أقرانهم ، بدلاً من الأبوين ، نماذج لغوية تحتذى (ولكنه من الواضح أيضاً استناداً إلى التجارب الشخصية وبعض الروايات مثل رواية لابوف (١٩٧٢ - أ : ٣٠٧) أن بعض الأطفال لا يفعلون ذلك مطلقاً) ومن السهل أن نجد أدلة تؤكد هذا الرأى . فعلى سبيل المثال ، نجد أن الكثير من أطفال الجيل الأول من المهاجرين إلى المدن البريطانية يتحدثون بلكنة لا تختلف عن لكنة أصدقائهم من المقيمين ، ولا يمكننا القول أنهم قد اكتسبوا هذه اللكنة باحتذاء نماذج أهلهم .

ولعل الظاهرة الأكثر أهمية والأكثر غرابة هى المسماة « بالنتاج السنى » Age Grading (هوكيت ١٩٥٠ Hockett) وهى ظاهرة موجوده فى كثير من المجتمعات. وتعنى ظاهرة « النتاج السنى » أن هناك صيغاً لغوية لا يستخدمها سوى الأطفال فى مرحلة احتذاء الأقران Peer - oriented stage وتتناقل الأجيال من الأطفال هذه الصيغ دون أن يستخدمها البالغون مطلقاً . وقد تكون هذه الصيغ قديمة للغاية وغير مستخدمة إذا ما قورنتْ بالصيغ التى يستخدمها البالغون - فنجد مثلاً أن الأطفال دون غيرهم من بين الزنوج الأمريكيين هم الذين يستخدمون الكريولية Creole التى يعتقد الجميع أن إنكليزية الزنوج الأمريكيين قد تطورتْ عنها (ديلارد ١٩٧١ Dillard ، وكذلك فقد تعلّم كل منا فى سن الطفولة قدراً كبيراً من الثقافة الشفهية Oral Culture - ومنها التراتيل والقصائد والأغانى إلخ - والتى قد نسينا بالفعل أننا قد تعلّمناها من قبل ، ولم نستخدمها بالتأكيد فى مرحلة البلوغ (ى . ب. أوبى ١٩٥٩ I. & P. Opie) . ومن ناحية أخرى ، رأى بعض العلماء أن مرحلة «احتذاء الأقران» هى التى ترسى قواعد لغة البالغين ، بالرغم من أنها تتضمن الخصائص اللغوية لغير البالغين ، هذه الخصائص التى سيهجرها الأطفال فى آخر الأمر. تقوم الأجيال المتتابعة من الأطفال من سن الرابعة إلى سن العاشرة بنقل جسد اللغة بشحمه ولحمه إلى الأجيال التالية . ويعد التنافس بين الأطفال ومزاعمهم وادعاءاتهم الكبيرة ، عوامل ذات أثر كبير فى تكوين الأنماط الكلامية لدى الفرد طول حياته،

وهى عوامل أكثر تأثيراً من أى نوع من الاتصال مع البالغين (هوكيت ١٩٥٨ : ٣٦١ Hockett وقارن بذلك لابوف ١٩٧٢ - أ : ١٣٨ Labov) . إن الصورة التى قمنا برسمها ، لا تأخذ فى الاعتبار سوى النماذج التى يتبناها الطفل فى كلامه العادى، ولكن يجب علينا ألا ننسى أن الطفل يقوم فى الوقت نفسه بتصور نموذج ذى أبعاد متعددة للعالم من حوله ، وهو يضم فى هذا النموذج أنواعاً مختلفة من الكلام . منها بالطبع ، الكلام الذى يستخدمه الأبوان بالرغم من أنه قد لا يستخدم هذا الكلام . وهناك فى وقتنا الحاضر مصدر مؤثر آخر فى اكتساب الأطفال للغة وهو وسائل الإعلام الجماهيرية وخاصة التلفزيون . وهذا ما يؤدى إلى أن يدرك الطفل أيضاً مدى التباين والصيغ اللغوية القائمة فى المجتمع بالرغم من أنها قد لا تؤثر على كلامه الشخصى إلاّ بطريقة طفيفة ، لو أثرتْ عليه على وجه الإطلاق . وكما سنذكر فيما يلى فإنه قد يتمكن من استخدام بعض أساليب الكلام المتعددة فى الألعاب التمثيلية .

وعلينا الآن أن نحاول الإجابة على سؤال مرتبط بهذه القضية وهو : فى أى سن يبدأ الأطفال فى إدراك الدلالة الاجتماعية لمختلف الصيغ الكلامية ؟ يبدو أنهم يستطيعون إدراك الصيغ الكلامية المختلفة وسبر أغوار اختلاف دلالتها الاجتماعية فى سن مبكرة . فقد لوحظ أن الأطفال الذين نشأوا فى بيئة قائمة على الازدواج اللغوى Bilingual قد بدأوا يدركون أنهم يستخدمون نظامين لغويين منفصلين فى سن ١٨ شهراً . (رونجات ١٩١٣ Ronjat ، اقتباساً عن فان ريخ ١٩٥٣ Weinreich) ويرى البعض أن هذا الإدراك قد يبدأ فى سن مبكرة عن ذلك بينما يقول البعض الآخر أن ذلك يبدأ فى سن أكثر تأخراً . فقد قرر روبينز برلينج Robins Burling ١٩٥٩ ، مثلاً أن ابنه قد اكتسب لغة الجارو Garo (وهى لغة قبيلة مستخدمة فى شمال شرق الهند) عن مربيته ، فى نفس الوقت الذى اكتسب اللغة الإنكليزية عن أبويه . وكان عمره حوالى سنتين وثلاثة أشهر حين أدرك أن أناساً مختلفين يتحدثون بلغات مختلفة ، وعندئذ فقط ، أدرك أن بعض الناس لا يفهمون لغة الجارو . وقبل أن يبلغ هذه السن - أى وهو فى حوالى الشهر الثامن عشر من عمره - كان قد أدرك أن هناك أكثر من كلمة للتعبير عن نفس الشىء ، مثلاً اللبن

باللغة الإنكليزية milk وبلغة الجارو dut ، فى حين أنه لم يتوصل بعد إلى إدراك فكرة وجود نظامين لغويين منفصلين . أما بالنسبة لاختلاف اللهجات ، فهناك قدر ضئيل من الأدلة على إدراك الأطفال له ، ولكن يبدو أنه من المعقول أن نتصور أن الأطفال قادرون على إدراك هذه الاختلافات عندما يبدأون فى محاولة احتذاء نموذج أقرانهم ، وأنهم سيدركون هذه الاختلافات فى اللهجات فى حدود إدراكهم لاختلاف لهجة الأبوين عن لهجة الأقران .

ولو افترضنا أن الطفل قد أدرك أن لغتين أو نوعيتين مختلفتين من اللغة هما نظامان منفصلان ، تستخدم كل منهما مجموعة مختلفة من الناس ، فكم من الوقت يحتاج قبل أن يبدأ فى إدراك تحيزات البالغين ، سواء الإيجابية أو السلبية منها تجاه بعض هذه النوعيات ؟ وكم من الوقت يحتاج طفل ما حتى يتبنّى هذه التحيزات prejudices بنفسه ؟ وهنا أيضاً لا توجد غير أدلة واهية وهذه الأدلة متناقضة فى بعض الأحيان ، ولكننا سنرى فى (٦-٢-٤) أن هناك بعض الأدلة التى تشير إلى أن الأطفال فى الرابعة من جماعات معينة لا يدركون تحيزات البالغين فحسب ، وإنما يعتنقونها أيضاً . إلاّ أن ذلك لا يعنى أن كل الأطفال فى الرابعة من عمرهم يعتنقون تحيزات البالغين اعتناقاً كاملاً ، ولكن من الممكن أن نفترض على أساس أدلة أخرى أن هذه التحيزات تنمو خلال طفولتهم ومراهقتهم . ولا يبدو أن هناك فى الواقع سبباً ما يدعو للاعتقاد بأن هذه العملية تتوقف تماماً ..

ماذا ، إذن ، عن كلام الطفل ؟ وكيف ينمو ذلك بالعلاقة مع بيئته الاجتماعية؟ وكذلك فإن القدر البسيط من الأبحاث الموجودة ، يجعل من الصعب إطلاق تعميمات فى هذا المجال ، ولكن من الواضح أن الأطفال يبدأون فى سن مبكرة للغاية بتكييف كلامهم حسب سياقه الاجتماعى . ففى الوقت الذى يبدأون فيه الكلام ، يتحدثون بأساليب مختلفة إلى أناس مختلفين (جيلز وباوزلاند ١٩٧٥ : ١٣٩ Giles & Powesland) . وليس ذلك بالشيء الغريب لو عرفنا أن الكلام ليس إلاّ جانباً واحداً من السلوك الاجتماعى ، ولو تذكّرنا أنهم يسلكون سلوكاً مختلفاً حيال مختلف الأفراد فور ولادتهم مباشرة . وفضلاً عن ذلك ، فإنهم يستخدمون فى سن مبكرة للغاية ، أى

فى عامهم الأول قبل أن يتعلّموا صيغ البالغين ، أصواتاً مختلفة لأغراض مختلفة مثل السؤال عن شىءٍ ما أو قول ما معناه « أنظروا إلىّ ، إننى أتكلم » (هاليداى ١٩٧٥ Halliday). وقد قرر أحد العلماء أن طفلة فى الشهر الثالث والعشرين من عمرها كانت تعمد إلى فصل مقاطع كلامها ، حين لا يفهمها الآخرون (ويكس ١٩٧١ Weeks) .

وفى الثالثة من عمره يستطيع طفل من أبوين مزدوجى اللغة أن يفرق بمهارة بين اللغتين اللتين يتحدث بهما . ويستطيع أى طفل فى الثالثة أن يبدأ فى تقمص عدد من الأدوار المختلفة ، مثل دور الطفل الرضيع أو دور راعى البقر أو دور الطبيب (ويكس ١٩٧١) . ويحظى دور الرضيع بالذات بأهمية بالغة ، لأن الأطفال يتقنون لعب هذا الدور بمرور الوقت بدلاً من أن يسوء أداؤهم له عند تقدم سنهم ، وذلك مما يتعارض مع نظرتنا الساذجة إلى « لغة الطفل الرضيع » Baby-talk على أنها مستبقاة من فترة الرضاعة (بيركو جليسون ١٩٧٣ Berko Gleason وساكس وديفين ١٩٧٦ Sachs & Devin) فالطفل فى الرابعة من عمره بارع فى إتقان تقمص الأدوار المتنوعة . وكما تقول جين بيركو جليسون (١٩٧٣) إن الطفل فى الرابعة من عمره قد يصرخ فى وجه أمه ، ويشارك أقرانه فى لعب شفاهى معقد ، ويحتفظ برواية حكاياته وأقاصيصه الاستطرادية لأصدقاء أبويه من البالغين . ولا ينبغى أن نعتقد أن هناك نهاية محددة فى عملية اكتساب الأساليب الجديدة فى الكلام ، أو نهاية محددة لأن نصبح أكثر مهارة فى استخدام الأساليب التى نملكها بالفعل .

١ - ٤ - الموجز والخلاصة :

تناولنا فى الجزء الثانى من هذا الفصل التمهيدى ثلاثة أنواع مختلفة من المجتمعات ، وقد حاولنا أن نظهر أن ليس هناك سوى القليل مما نستطيع أن نقوله عن اللغة فى معزل عن السياق الاجتماعى (١-٢-٢) ، وأن هناك الكثير مما يمكن أن

نقوله عن اللغة فى علاقتها بالمجتمع . فلو كان علم اللغة العام يتميز عن علم اللغة الاجتماعى بافتقاره إلى المنظور الاجتماعى فإن علم اللغة العام سيصبح من ناحية موضوعه محدداً للغاية ، ونستطيع أن نؤكد أن دراسة اللغة دون الرجوع إلى السياق الاجتماعى جهد لا يستحق العناء . وعلى ذلك ، فإن استخدام السابقة -socio فى مصطلح علم اللغة الاجتماعى sociolinguistics يعد نوعاً من الحشو . وعليه يجب على علم اللغة العام أن يتضمن دراسة اللغة فى سياقها الاجتماعى (وهو ما نحاول توصيفه فى فصول هذا الكتاب) وأن يتضمن كل الدراسات التى تمتْ فى علم اللغة النظرى والوصفى والتاريخى Theoretical Linguistics, Descriptive Linguistics & Historical Linguistics لأن إهمال السياق الاجتماعى للغة ، قد يؤدى إلى الإضرار بكل هذه الفروع المختلفة من علم اللغة .

فإلى أى مدى يمكن أن نتشاءم من إمكانية إنقاذ الاكتشافات والانجازات القيمة التى قدّمها لنا علم اللغة العام ؟ إنه لَمِنَ الخطأ الجسيم أن نرفض إنجازات علم اللغة غير الاجتماعى رفضاً قاطعاً . بل علينا أن ننظر إلى هذه الإنجازات على أنها قاصرة ، بنفس الطريقة التى نظر بها علم اللغة فى بداية السبعينات إلى الأجروميات الماضية على أنها قاصرة ، لأنها لم تصف « التراكيب » Syntax وصفاً كاملاً ولم تذكر شيئاً عن علم « الدلالة » Semantics أو البراجماطيقا Pragmatics ، ولو أدركنا نوعية وكم المعلومات الاجتماعية التى يمكن أن نحتاج إليها بوصفها مهاداً لعلم النحو لتجنبنا التصورات الخاطئة بأن اللغات أنظمة محكمة - كاملة من القواعد مغلقة على ذاتها . وكذلك لو أدركنا أن الأحكام الخاصة « بالنحوية » Grammaticality و « أحكام التكوين » Well-formedness ودرجة القبول Acceptability لا تعكس خصائص تراكيب بعينها فحسب ، بل تعكس أيضاً الخلفية الاجتماعية لِمَنْ يطلقون مثل هذه الأحكام ، يستوى فى ذلك أن تصدر هذه الأحكام عن علماء اللغة أو غيرهم (مارتين وبراداك وايليوت ١٩٧٧ Martin, Bradac, & Elliot) عندئذ ، لن نهتم كثيراً إذا ما اختلف علماء اللغة أنفسهم حول هذه الأحكام . وعلينا أن ندرك فى الوقت نفسه ، أن نظريات اللغة التى ظهرتْ فى العقود المنصرمة قد تعانى من أخطاء فادحة من جراء

الموقف غير الاجتماعى الذى اتخذه المدافعون عنها ، وتظل مشكلة تحديد نقائص هذه النظريات قائمة حتى نقرر ماذا نستبقى منها وماذا نستبعد .

إن نتائج أبحاث علم اللغة الاجتماعى كما نصفها فى هذا الكتاب تشكّل تحدياً لمعظم النظريات السائدة . وقد حاولنا فى الفصل الثانى أن نعرض لأسباب التشكيك فى الرأى القائل بأن اللغات كينونات منفصلة ومستقلة بذاتها ويمكن تمييزها ، وأن اللغة تتكون من مجموعة من اللهجات يمكن إعادة تقسيمها حتى تصل إلى لهجة الفرد dialect التى تعد نواة أصغر لهجة . ويكشف الفصل الثالث عن أن معرفتنا باللغة « لا يمكن فصلها أو حتى تمييزها عن معرفتنا بالثقافة » . وفى الفصل الرابع نؤكد أن الكلام لا يختلف من ناحية النوعية عن الجوانب الأخرى للسلوك الاجتماعى ، وأن بعض جوانب بناء اللغة لا يمكن وصفها إلاّ بالرجوع إلى الكلام على أنه سلوك اجتماعى فى المقام الأول . ويعد الفصل الخامس لب الكتاب وهو يعرض لمشكلة «التباين» variability فى الصيغ اللغوية التى نستخدمها عند الكلام . ويظهر فى هذا الفصل أنه لا يوجد شىء يمكن أن نطلق عليه مصطلح « الأجرومية المتجانسة » Homogeneous Grammars بالنسبة للفرد أو بالنسبة للمجتمع ككل ، فى حين أن المتحدث يستخدم « التباين » القائم فى الصيغ اللغوية أفضل استخدام حتى يحدد موقعه من المجتمع . ويعرض الفصل السادس لقضيتين منفصلتين أولاهما ، هى كيفية استخدامنا لهذا التباين كمتلقين hearers حتى نحدد موقع الآخرين من المجتمع ويظهر من ذلك أن لدينا جميعاً إدراكاً للدلالة الاجتماعية للاختلافات فى طرق النطق، ضمن أمور أخرى . وقد يدعونا ذلك إلى التساؤل فيما إذا كان من الواجب أن نضمن هذه المعرفة اللغوية فى أجرومية اللغة . ويتناول الجزءان الأخيران من الفصل السادس ثانيتهما وهى : هل هناك مبررات كافية تدعونا لأن نصف لغة بعض الناس « بالنقص» inadequate . ونخلص من ذلك إلى أن هذا ممكن بشرط أن نأخذ فى الاعتبار المتطلبات الاجتماعية المفروضة على اللغة . وتتطلب مثل هذه الخلاصة مدخلاً أكثر إحكاماً فى التمييز بين « الوصفية » و « المعيارية » القائمة فى دراسة اللغة .

* * *

الفصل الثانى

نوعيات من اللغة

Varaities of Language

٢ - ١ مقدمة :

٢ - ١ - ١ قضايا عامة وقضايا خاصة :

نهدف فى هذا الفصل إلى أن نكشف مدى إمكانية وصف اللغة فى علاقتها بالمجتمع ، وذلك باستخدام تصنيفات لغوية شمولية مثل « اللغة س » أو « اللهجة ص» ، واستخدام تصنيفات اجتماعية شمولية مثل « الجماعة ى » . وبقدر ما يمكننا القيام بمثل هذا الوصف ، فإنه يمكننا تناول العلاقات التى سنطرقها هنا فى شكل تصنيفات شمولية ، دونما حاجة للرجوع إلى الوحدات اللغوية Linguistic items المتفردة فى اللغة « س » أو إلى الأفراد فى « الجماعة ى » . وليس هذا التصنيف - من ناحية أخرى - ممكناً فى كل الحالات ، بل إنه ، لا يقين ، فى أنه ممكن أصلاً ، فمثلاً ، تختلف الوحدات اللغوية مثل المفردات ، عن الوحدات الأخرى باختلاف مستخدميها وظروف استخدامها . ونستطيع أن نفترض أيضاً كما فعلنا فى الفصل السابق أن كل فرد من أفراد الجماعة فريد فى لغته . وبقدر اختلاف علاقات الوحدات اللغوية بالمجتمع (من ناحية الناس والظروف) ، فإن علينا بالضرورة أن نصف علاقة كل وحدة من هذه الوحدات بالمجتمع على حدة . ولذلك ، فهناك نوعان من المقولات ، مقولات عن تصنيفات شمولية مثل لغات بأكملها من جانب ، ومقولات عن وحدات لغوية بمفردها من جانب آخر ، وفى كل من هاتين الحالتين فإن المقولة تشير إلى المتحدثين سواء أكانوا أعضاء فى جماعة ما ، أو كانوا مجرد أفراد .

والأسئلة التى طرحناها هنا أسئلة مركّبة تصعب الإجابة عليها ، ولكنها أسئلة مهمة للغاية لكل من تهمه طبيعة اللغة بصفة عامة ، وعلاقتها بالمجتمع بصفة خاصة . فكيف إذن نعرف التصنيفات اللغوية الشمولية مثل « اللغة س » ؟ وكيف نضع حدود أمثلة معينة من تلك التصنيفات ؟ وهل لمثل هذه التصنيفات علاقة بأى نوع من الحقيقة الموضوعية التى تجعل هذه الأسئلة ذات معنى ؟ هل نستطيع التمييز بين أنواع التصنيف الشمولى المختلفة ، ومثال ذلك التمييز بين « اللغة » و « اللهجة » ؟ وما هى العلاقات التى تربط هذه التصنيفات الشمولية بعضها ببعض ؟ ما نوعية أو ماهيا

هذه التصنيفات ؟ كيف يمكننا - لمثل هذه الأغراض - أن نعرف ونحدد الجماعات ؟ هل للجماعات المعرفة على أساس لغوى أى نوع من الوجود الموضوعى ؟ وأسئلة أخرى كثيرة من هذا القبيل . ولعله من السابق لأوانه أن نقدم إجابات محددة عن معظم هذه الأسئلة ، إلاّ أنه من الممكن أن نشكك فى صحة الإجابات المتعارف عليها ، فبإمكاننا أن نبين أن الأمر أكثر تعقيداً مما يعتقده أو يتصوره معظم علماء اللغة ، بالرغم من أن معظم القراء من غير المتخصصين قد يتصورون أن نظرتهم العادية للغة يمكنها أن تقدم تفسيراً كافياً لها . ومن ناحية أخرى ، فإن كثيراً من غير المتخصصين قد يطرحون أسئلة على المتخصصين مثل : أين تستخدم الكوكنى Cockney الحقيقية ؟ أو هل كريولية جاميكا نوع من الإنكليزية ؟ نفترض أن هذه الأسئلة هى أسئلة ذات معنى ، إلاّ أننا سنبين أنه لا يمكن بحث مثل هذه الأسئلة بحثاً علمياً . ولذلك ، فقد يحمل هذا الفصل كثيراً من المفاجآت للقارىء المتخصص والقارىء العادى على حدٍّ سواء، وبخاصة فيما يتصل بنتائجه ، وذلك بالرغم من أن الكثير من الحقائق التى تستند إليها هذه النتائج هى حقائق عادية غير مدهشة فى شىء .

٢ - ١ - ٢ الوحدات اللغوية Linguistic items

كان من الأيسر أن نناقش هذا الموضوع لو توفرتْ لدينا بعض المصطلحات الفنية، وذلك لأننا نحتاج إلى الابتعاد عن المفاهيم التى تتمثل بكلمتى لغة و لهجة، وهى مفاهيم تمثّل انعكاساً مباشرا لفكر العوام غير المتخصص الذى يستند إلى «المعرفة العامة» : (انظر ٣ - ١ - ١) ولكن لا طائل من مثل هذا الفكر فى علم اللغة الاجتماعى، فعلينا أولاً أن نجد مصطلحاً مناسباً « لأجزاء اللغة » التى لابد لعالم اللغة الاجتماعى أن يشير إليها حين يستحيل عليه استخدام التصنيفات الشمولية . وقد قمنا بالفعل باستخدام مصطلح « الوحدة اللغوية » Linguistic item فيما سبق (٢-١-١) ، وسنستمر فى استخدامه مصطلحاً فنياً .

فكيف نعرّف « الوحدة اللغوية » ؟ إن الإجابة على هذا السؤال ترتبط فى المقام

الأول بنظرية بنية اللغة ، وتتباين إجابات الناس على هذا السؤال حسب النظرية اللغوية التى يتبنونها . فأولئك الذين يتبعون النظرية التحويلية التوليدية (التى قدّمها تشومسكى ١٩٦٥ مثلاً) قد يقولون أن الوحدات اللغوية هى : (١) الوحدات المعجمية Lexical items (٢) القواعد المختلفة التى تجمع ما بين نطق ودلالة الوحدات المعجمية فى التراكيب . (٣) القيود المختلفة المفروضة على هذه القواعد (constraints) . وفى إطار هذه النظرية علينا أن نتوقع وجود توصيفات لغوية اجتماعية للمفردات والقواعد والقيود . ولكن قد لا يوافق كل علماء اللغة على هذه الإجابة ، فهناك ، على سبيل المثال ، تقليد عريق فى علم اللغة يستخدم مصطلح العبارات constructions بدلاً من مصطلح القواعد (انظر على سبيل المثال بولينجر Bolinger ١٩٧٥ : ١٣٩) ويُقصد بذلك المصطلح نمطاً مجرداً يتكون مثلاً من «صفة + اسم» وعلى ذلك ، يتضمن التعريف السابق «الأنماط» بالإضافة إلى القواعد والقيود أو بدلاً منها .

ومن حسن الحظ ، أنه لا حاجة لنا للمفاضلة بين هذه الإجابات المختلفة فى هذا الكتاب . ولكن المدخل اللغوى الاجتماعى قد يساعدنا على حذف بعض الإجابات الأخرى ، فلنفترض مثلاً أنه من المفضّل استخدام تركيب مثل The liquid was boiled (لقد غلى السائل) فى سياق التقرير العلمى على The liquid was boiled by us أو We boiled the liquid (لقد غلينا السائل) . وحتى نستطيع تقرير مثل هذه الحقيقة ، علينا أولاً ، أن نضع التركيب الأول فى السياق الاجتماعى المناسب . ولكن السؤال هو ، كيف نعرّف مثل هذه التراكيب ؟ فلو استطعنا مثلاً تعريف هذه التراكيب بالرجوع إلى قاعدتين نحويتين منفصلتين (أولاهما ، خاصة بتحويل التركيب إلى صيغة المبنى للمجهول وثانيهما ، خاصة بحذف الفاعل Agent وهو فى هذا الحال by us ، فإننا - فى هذه الحالة - نشك فى صحة التحليل ، لأنه من الصعب أن نطلق على أى من هاتين القاعدتين مصطلح وحدة لغوية كاملة . وعلى عكس ذلك ، ففى مقدورنا أن نفعل ذلك بسهولة إذا استخدمنا التعبير المعروف (تجريدياً) باسم « المبنى للمجهول بحذف الفاعل »Agentless passive . وسنعرض

فى هذا الفصل إلى الأدلة الخاصة بأن وحدات لغوية مختلفة (فى نفس اللغة) قد يكون لها « توزيعات اجتماعية مختلفة » social distributions .. (وذلك حسب المتحدثين والظروف) ، ومن الممكن أن نفترض أنه من المحتمل أن يكون التوزيع الاجتماعى لوحدة لغوية بعينها فريداً فى نوعه . والحقيقة ، أن التدليل على هذا أكثر صعوبة من بيان الاختلاف بين الوحدات المختلفة ، لأنه ينبغى علينا أن نقارن الوحدة الفريدة فى نوعها بكل الوحدات الأخرى فى اللغة ذاتها ، بغية أن نتأكد أن ليس هناك وحدة مماثلة لها نفس التوزيع . فمن السهل مثلاً أن نظهر أن توزيع الكلمات التالية فى إنكلترا (she,her,hoo,shoo) she يختلف تماماً عن الكلمات التالية am, is, am (be, bin) (انظر الخرائط فى واكلين Wakelin ١٩٧٨ : ٢١ و ٢٣) . ولكنه من الصعب أن نظهر أن أياً من هذه الكلمات لها نفس توزيع أية كلمة أخرى ، أى أن نفس المتحدثين يستخدمونها تحت نفس الظروف . وليست هناك قاعدة معينة تمنع الوحدة اللغوية من أن يكون لها توزيع فريد فى نوعه . ولذلك فقد يبدو أنه من المعقول أن نفترض وجود توزيع فريد لبعض هذه الكلمات على الأقل .

٢ - ١ - ٣ نوعيات من اللغة Varieties of Language :

لو أننا تصورنا أن « اللغة » ظاهرة تتضمن كل لغات العالم ، فإن مصطلح «نوعية من اللغة» (أو حتى مصطلح « نوعية » بمفرده على سبيل الإيجاز) ، يمكن استخدامه للدلالة على مظاهرها المختلفة ، كما نفعل عندما نتصور أن الموسيقى ظاهرة عامة ثم نميز ما بين « نوعيات مختلفة من الموسيقى » وما يميز بين نوعية من اللغة ونوعية أخرى هى ، الوحدات اللغوية التى تتضمنها ، وبالتالى فمن الممكن أن نعرف نوعية من اللغة على أنها **مجموعة وحدات لغوية لها نفس التوزيع الاجتماعى** . ويمكننا مثل هذا التعريف أن نطلق على أى من الظواهر التالية مصطلح « نوعيات من اللغة » وهى : الإنكليزية ، والفرنسية ، والإنكليزية اللندنية، والإنكليزية المستخدمة فى التعليق الكروى ، واللغات التى يستخدمها قاطنو أحد البيوت الكبيرة فى شمال غرب منطقة الأمازون ، واللغة أو اللغات التى يستخدمها شخص بعينه .

وسوف نبين من هذه القائمة ، أن المفهوم الفضفاض لمصطلح (نوعية) يتضمن ما يمكن أن نطلق عليه عادة لغات ولهجات وسجلات سياق registers (وهو مصطلح معناه بصفة عامة « أسلوب » وسنناقشه فى الجزء ٢-٤) . وأن ميزة وجود مصطلح واحد عام يشمل كل هذه المفاهيم ، هو أن ذلك المصطلح يسمح لنا بطرح أسئلة عن الأسس التى تميّز بين هذه المفاهيم - فعلى سبيل المثال : لماذا نطلق على بعض النوعيات لغات مختلفة وعلى بعضها الآخر لهجات مختلفة من نفس اللغة ؟ وسنعرض فى الأجزاء التالية وهى ٢-٢ ، ٢-٣ ، ٢-٤ لمثل هذه الأسئلة ، وسنحاول أن نصل إلى الحقيقة التالية ، وهى أنه ليس هناك أى أساس ثابت للتمييز بين هذه المصطلحات. وبذلك ، لا يبقى لدينا سوى مصطلح « نوعية » ، نستخدمه للإشارة إلى الأشياء التى يطلق عليها غير المتخصصين « اللغات » و « اللهجات » و « الأساليب ».

وقد تبدو هذه النتيجة جذرية ، ولكن التعريف الذى طرحناه آنفاً لمفهوم «النوعية» ، والأمثلة الواردة فى القائمة تمثّل خروجاً أكبر على التقاليد اللغوية المتعارف عليها . وهذا التعريف يجعلنا نلح على أن نتعامل مع كل اللغات التى يستخدمها فرد أو جماعة من متعددى اللغات Multilingual باعتبارها نوعية واحدة، ما دامت كل الوحدات اللغوية فى هذه النوعية لها توزيع اجتماعى متشابه - أعنى أن كل هذه الوحدات يستخدمها نفس المتحدث ونفس الجماعة . وبالتالى ، فإن «النوعية» قد تكون أوسع بكثير من مفهوم « اللغة » عند العامة ، لأنها قد تتضمن عدداً من اللغات المختلفة . وبالمقابل ، فإن « النوعية » ، بناء على هذا التعريف ، قد تتضمن ما لا يزيد على حفنة من « الوحدات اللغوية » ، أو حتى فى بعض الأحيان النادرة لا تتضمن أكثر من « وحدة لغوية » واحدة ، وذلك إذا عرفناها حسب الذين يستخدمونها على تفاوتهم أو فى إطار الظروف التى تُستخدم فيها . ويمكننا أيضاً ، على سبيل المثال ، أن نعرف « نوعية » ما على أساس أنها مكونة من الوحدات اللغوية التى تستخدمها أسرة أو قرية بعينها . وبالتالى فإن « النوعية » قد تكون أصغر حجماً من « لغة » ما أو حتى « لهجة » بعينها . وتسمح مرونة مصطلح «النوعية» لنا بطرح أسئلة عن الأسس التى يُستند إليها فى إطلاق تسميات مثل

«اللغة» أو « اللهجة » أو « سجلات السياق » على مجموعات من «الوحدات اللغوية» . أترانا نفعل ذلك لأن الوحدات تتجمع فى مجموعات أكبر ترتبط بعضها ببعض بشبكات مترابطة من العلاقات البنيوية من نوع أو آخر ، وذلك على النحو الذى تذهب إليه المدرسة البنيوية فى علم اللغة فى القرن العشرين ؟ والإجابة على هذا السؤال ، كما ترد فى الأجزاء التالية ، هى إجابة بالنفى ، لأن المجموعات التى تتكون منها الوحدات اللغوية لا تربطها سوى علاقة « فضفاضة » ، ومن السهل أن تنتقل الوحدات من مجموعة إلى أخرى إلى حد أن هذه المجموعات قد تختلط بعضها ببعض. وسنناقش أقصى حالات الاختلاط فى الجزء ٢ - ٥ .

وفى النهاية ، علينا أن نقول أن دراسة اللغة فى علاقتها بالمجتمع ستتكون من مقولات تشير - لغوياً - إلى الوحدات اللغوية المفردة ، أو إلى النوعيات التى ليست إلاّ مجموعات من هذه الوحدات . وليست هناك أية قيود مفروضة على العلاقات القائمة بين هذه النوعيات ، فهذه العلاقات قد تكون متراكبة أو متشابكة ، وقد تتضمن النوعية نوعية أخرى . وأن ما يحدد كل نوعية هو علاقتها أو درجة ارتباطها بالمجتمع - أو بتعبير آخر مَنْ الذى يستخدم هذه الوحدات اللغوية ومتى يستخدمها. والسؤال الأمبيرقى الذى يطرح نفسه هو : إلى أى حد نستطيع أن نوائم بين المفاهيم التقليدية - وهى مفاهيم « اللغة » و « اللهجة » و « السجل السياقى » - وبين «النوعيات» المعروفة بالطريقة المذكورة هنا ؟ وسنرى فى الأجزاء التالية أن التماثل بين مفهوم النوعية والمفاهيم التقليدية (لغة) و (لهجة) و (سجل سياقى) هو مجرد تماثل تقريبى فى أحسن الحالات ، وفى بعض المجتمعات (أو عند بعض الأفراد) يصبح من الصعب للغاية أن نتعرف على النوعيات المناظرة للتصنيفات التقليدية .

٢ - ١ - ٤ الجماعات الكلامية Speech Communities :

قد يكون من المفيد فى هذه المرحلة أن نناقش نوعية الجماعة التى يمكن ربط «النوعيات» أو « الوحدات اللغوية » بها . ويعد مصطلح « الجماعة الكلامية » Speech Community من المصطلحات شائعة الاستخدام فى علم اللغة الاجتماعى ، وهو مصطلح يُستخدم للدلالة على جماعة تعرف على أساس اللغة . ويُستخدم مصطلح « الجماعة اللغوية » Linguistic Community: بنفس المعنى أيضاً.فلو استطعنا القيام بتحديد «الجماعة الكلامية» لأمكننا القيام بدراستها.ومن الممكن أن نجد اختلافات هامة بين الجماعات ، وعادة تتلازم هذه الاختلافات مع الاختلافات اللغوية . ولذلك ، فقد اهتم علماء اللغة بدراسة الجماعات الكلامية منذ زمن غير وجيز ، وخاصة منذ كتب ليونارد بلومفيلد Leonard Bloomfield فصلاً كاملاً عن الجماعات الكلامية فى كتابه **اللغة Language** (١٩٣٣: الفصل ٣). وبالرغم من ذلك ، فهناك اختلاف وخلط كبير فى التعريف الدقيق لماهية الجماعة الكلامية كما يتضح من العرض التالى :

(١) ويعد التعريف الذى قدّمه جون ليونز John Lyons للجماعة الكلامية أبسط هذه التعريفات (١٩٧٠ : ٣٢٦) :

« الجماعة الكلامية هى كل الناس الذين يستخدمون لغة (أو لهجة) بعينها » . ويمكن على أساس هذا التعريف أن تتراكب الجماعات الكلامية أو تتشابك (حيث يكون هناك أفراد مزدوجو اللغات) دونما حاجة إلى أن تتميز الجماعة بالوحدة الاجتماعية أو الثقافة . ومن الواضح أنّ تحديد ماهية الجماعة الكلامية بهذا الشكل يستند أساساً إلى إمكانية تحديد وتعريف ماهية اللغة أو اللهجة .

(٢) وقد قام تشارلز هوكيت Charles Hockett بتعريف الجماعة الكلامية بشكل أكثر تعقيداً (١٩٥٨ : ٨) . فقال :

« تقوم كل لغة بتعريف جماعتها الكلامية وهى أى جماعة من الناس يتصل بعضهم ببعض سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وذلك عن

طريق لغة شائعة بينهم ». وقد أضاف هوكيت معيار الاتصال داخل الجماعة كشرط لوجود الجماعة الكلامية ، فحتى لو تحدثت جماعتان بنفس اللغة دون أن يكون بينهما اتصال ، فإن ذلك يجعلهما جماعتين كلاميتين منفصلتين .

(٣) والتعريف التالى ، ينقل مركز الثقل تماماً من قضية اللغة المشتركة إلى قضية الاتصال ، وقد قدّم ليونارد بلومفيلد Leonard Bloomfield صورة مبسّطة من هذا التعريف : (١٩٣٣ : ٤٢) :

« إن الجماعة الكلامية هى مجموعة من الناس تتعامل وتتصل عن طريق الكلام » . ولكن ذلك التعريف يترك الباب مفتوحاً لاحتمال وجود بعض الأفراد فى الجماعة اللغوية يتعاملون بلغة بعينها ، بينما يتعامل البعض الآخر بلغة أخرى . وقد تعامل جون جمبرز John Gumperz مع هذه المشكلة بوضوح فى التعريف التالى (١٩٦٢) :

« ونعرف (الجماعة اللغوية) على أنها مجموعة اجتماعية قد تكون أحادية اللغة monolingual أو متعددة اللغات multilingual ، تتماسك كجماعة واحدة من خلال تواتر أنماط التعامل الاجتماعى ، ويفصلها عن الجماعات الأخرى فى المناطق المجاورة ضعف « خطوط الاتصال » .

(٤) وهناك تعريف أحدث قدّمه جمبرز يشترط فيه أن تكون هناك اختلافات لغوية محددة بين أفراد « الجماعة الكلامية » ومن لا ينتمون إليها (١٩٦٨) :

« الجماعة الكلامية » : أى تجمع إنسانى يتميز بكثرة وانتظام التعامل بين أفراده ، وذلك بواسطة مجموعة من الرموز الكلامية المشتركة بينهم، ويختلف هذا التجمع عن غيره من التجمعات البشرية الأخرى باختلافات

هامة فى استخدام اللغة » .

وعلى عكس التعريف رقم (٢) فإن التعريف السابق لا يشترط أن تكون هناك لغة واحدة فقط فى الجماعة الكلامية . ومن آثار نقل مركز الثقل فى التعريف من اللغة إلى الاتصال والتعامل الاجتماعى ، كما هو الحال فى التعريفين الأخيرين ، صعوبة تراكب وتشابك الجماعات الكلامية ، وذلك على عكس التعريفات السابقة ، حيث يتم التشابك - تلقائياً - نتيجة لوجود الازدواج اللغوى .

(٥) والتعريف التالى تعريف حديث نسبياً ينقل مركز الثقل إلى الاتجاهات Atittudes المشتركة فى اللغة ، ويؤكد عليها أكثر من تأكيده على السلوك اللغوى المشترك ، وهو تعريف قدّمه لنا ويليامز لابوف (١٩٧٢ - أ : ١٢) :

لا تعرف « الجماعة الكلامية » على أساس ما بين أعضائها من اتفاق ملحوظ فى استخدام عناصر لغوية معينة ، قدر ما تعرف على أساس اشتراك أفراد الجماعة فى مجموعة من المعايير المشتركة . ويمكن ملاحظة هذه المعايير فى الأنماط العلنية للسلوك التقويمى (انظر ٦ - ٢ فيما بعد) ومن خلال الأنماط الموحدة المجردة للتباين ، والتى لا تتغير أو تتبدل فى مستويات بعينها من « استخدام اللغة » (انظر ٥-٤-١).

وهناك تعريفات مشابهة تؤكد أهمية « *المعايير المشتركة* » *والأنماط* المجردة للتباين ، بدلاً من السلوك اللغوى المشترك ، ومن هذه التعريفات تعريف دل هايمز Dell Hymes (١٩٧٢) ومايكل هاليداى Michael Halliday (١٩٧٢)وسنرى أن هذا النوع الأخير من التعريفات يؤكد على أهمية الجماعة الكلامية باعتبارها مجموعة من الناس تدرك أنها مجتمع بمعنى من المعانى، وذلك أكثر من اعتبارها مجموعة لا يستطيع تحديدها سوى عالم لغة دخيل عليها، كما هو الحال

فى بعض التعريفات السابقة.

(٦) وأخيرا هناك الاتجاه الذى يتجنب مصطلح «الجماعة الكلامية» تماما، ولكنه يشير إلى جماعات فى المجتمع لها خصائص كلامية مميزة، بالإضافة إلى خصائص اجتماعية أخرى. ولابد أن ننوه إلى أن المجموعات هى تلك التى يدرك المتحدث الفرد وجودها ، وليست بالضرورة هى نفس المجموعات التى قد يحددها عالم الاجتماع مستخدماً منهجه العلمى الموضوعى . وليس من الضرورى أن ينتمى كل سكان المجتمع إلى هذه المجموعات ، ولكنها قد تمثّل الحالات الواضحة لأنماط اجتماعية بعينها (أعنى النماذج الأصول Prototypes كما سنحاول تعريفها فى (٣-٢-٢) وقد تبنّى هذا المدخل روبرت لى باج Robert Le Page ١٩٦٨ - أ) :

« يقوم كل فرد بإبداع أنظمة سلوكه الكلامية بحيث - يتماثل وأنظمة الجماعة أو الجماعات التى يود ، من وقت لآخر ، أن ينتمى إليها ويتوقف ذلك على :

أ - قدرته على تحديد هذه المجموعات .

ب - أن تكون لديه القدرة والفرصة على ملاحظة وتحليل أنظمتها السلوكية ،

جـ - وأن تكون دوافعه من القوة بحيث تدفعه إلى أن ينتقى ويكيّف سلوكه ويطوعه لتلك الأنظمة ،

د - وما زال يمتلك القدرة على تكييف سلوكه وتطويعه .

وهذه هى وجهة النظر ذاتها التى سبق أن ذكرناها فى ١ - ٣ - ١ ، والتى ترى أن الفرد يستطيع أنْ « يحدد موقعه فى حيِّز متعدد الأبعاد » ، وتتحدد هذه الأبعاد

بالجماعات التى يستطيع الفرد التعرف عليها فى مجتمعه . وعلى عكس « الجماعات الكلامية » التى سبق أنْ عرفناها فى التعريفات (٣) و (٤) و (٥) فإنّ هذه المجموعات تتراكب وتتشابك ، لا محالة . فقد يتعرّف الطفل ، مثلاً ، على مجموعات بعينها على أساس الجنس والسن والموقع الجغرافى واللون ، وقد تسهم كل من هذه التقسيمات فى تكوين الوحدات اللغوية التى يختارها لغة خاصة به .

ويقوم دوايت بولينجر Dwight Bolinger فى النص التالى بتحديد هذه المجموعات كجماعات كلامية ، ويؤكد مرة ثانية على درجة التعقيد المتناهية فى ذلك (بولينجر ١٩٧٥ : ٣٣٣) :

> « ليست هناك حدود للوسائل التى يستطيع بها الناس أن يتجمعوا فى شكل مجموعات ، وذلك من أجل التعرف على الذات والإحساس بالأمن والمكسب والمتعة والعبادة وأية غايات أخرى مشتركة . وبالتالى ، فليست هناك حدود لعدد ونوعية الجماعات الكلامية القائمة فى مجتمع بعينه » .

ووفقاً لتلك النظرة ، يمكننا أن نتوقع أن سكان أى مدينة أو قرية أو حتى دولة بأكملها يمكن أن يضموا عدداً هائلاً من « الجماعات الكلامية » ، وغالباً ما تتطابق الانتماءات إلى هذه الجماعات وتتشابك. وفى الواقع، فإن الشرط (أ) الذى ذكره لى باج Le Page وهو (قدرة الفرد على تحديد هذه المجموعات) يطرح إمكانية ادراك مختلف الأفراد لعدد مختلف من المجموعات . فلو تبنينا الموقف القائل بأنه لابد أن تحمل الجماعات الكلامية نوعاً من الحقيقة النفسية بالنسبة لأفرادها (كما ورد فى التعريف (٥) انظر ما سبق) لوجب علينا أن نتعرف على مختلف الجماعات الكلامية فى نفس المجتمع ، وذلك وفقاً لمنظور الفرد الذى نتبنّى وجهة نظره .

وبذلك نكون قد انتقلنا من تعريف بالغ البساطة « الجماعة الكلامية » إلى تعريف أكثر تعقيداً . فكيف ، إذن ، نقيم كل هذه التعريفات المختلفة ؟ قد تكون

إحدى الإجابات أنّ كل هذه التعريفات « صحيحة ، لأن كلاً منها يسمح لنا بأن نعرف مجموعة من الناس يجمعهم أمر لغوى مشترك ، وقد يكون ذلك لغة أو لهجة أو تعاملا بواسطة الكلام ، أو مجموعة من « النوعيات » والقواعد الخاصة بها ، أو مجموعة محددة من الاستجابات والمواقف تجاه هذه « النوعيات » أو الوحدات اللغوية. وقد تتباين مجموعات الناس المعرفة على أساس المعايير المختلفة ، تبايناً جذرياً - إذ يسمح أحد المعايير بتراكب المجموعات بينما يحظرها الأخير ، وهكذا دواليك - ولكن لا يبدو أنّ هناك حاجة لمحاولة التوفيق بين التعريفات المختلفة ، لأن كلاً منها يحاول أن يعكس عدداً من الظواهر المختلفة . ومن ناحية أخرى ، فإنّ كل هذه التعريفات تدعى أنها تقوم بتعريف الشيء نفسه - أى ، « الجماعة الكلامية » وتوحى بعض هذه التعريفات (وخاصة تعريف لابوف رقم ٥) إلى أنّ القضية هى قضية إيجاد التعريف الحقيقى « للجماعة الكلامية » . وفضلاً على ذلك ، فإن كلمة « جماعة » تعنى ضمناً وجود أكثر من خاصية مشتركة واحدة . أيّاً كان الأمر ، فإنه يستحيل أن يتحدث المرء عن « جماعة » من الناس تتكون من كل الأفراد الذين تبدأ أسماؤهم بحرف « هـ » ، أو الذين قد تجاوزوا أرصدتهم سحباً . وحتى نكون محقين عندما نطلق كلمة « جماعة » على مجموعة من الناس ، ينبغى أن تتميز هذه المجموعة عن غيرها بأكثر من خاصية واحدة ، ويجب أن تكون بعض هذه الخصائص هامة من منظور حياة الأفراد الاجتماعية . والسؤال المطروح ، إذن ، هو : أى تعريف من تعريفات « الجماعة الكلامية » يؤدى إلى تحديد الجماعة الحقيقية .

قد يخيل للبعض أن كلٍ ما سبق من تعريفات يفى بالغرض . حتى لو أخذنا أبسط هذه التعريفات الذى يقول بأن « الجماعة الكلامية » هى مجرد مجموعة من الناس يستخدمون لغة أو لهجة بعينها ، فإنه يصعب أن نتصور ألا يشترك أفراد مثل هذه الجماعة إلاً بلغة مشتركة أو لهجة تميزهم عن المجموعات الأخرى ، دونما اشتراك فى الثقافة أو منطقة سكنية واحدة ، إلخ .

وإن مجرد إضافة عنصر التعامل الاجتماعى إلى التعريفات ، يغنينا عن

الإشارة إلى وجود عناصر مشتركة أخرى ، ولهذه الإجابة جاذبيتها فى حل مشكلة التوفيق بين التعريفات المختلفة « للجماعة الكلامية » . إلاّ أنها تؤدى حتماً إلى نتيجة، فحواها أن « الجماعات الكلامية » المختلفة قد تتداخل بطرق معقدة ، فيمكن مثلاً ، للجماعة المعرفة على أساس التعامل الاجتماعى أن تتضمن عدداً من قطاعات من عدة جماعات أخرى معرفة على أساس نوعيات لغوية مشتركة . ومن الواضح أن ذلك هو فى الواقع مفهوم « الجماعة الكلامية » كما سبق تعريفها فى (٦) . وعليه ، نستطيع أن نتخذه على أنه التعريف الأمثل والأشمل ، الذى يمكن أن يتضمن كل التعريفات الأخرى .

وقد يبدو أن هذه النتيجة التى وصلنا إليها مرضية ، لأنها توفق ما بين عدد من التعريفات المتعارضة وتستبدل بها جميعاً تعريفاً واحداً . ولكن هذه النتيجة تضعنا أمام مشكلة هامة ، لأن استخدام مفهوم « الجماعة الكلامية » كما عرف هنا ، فى الوصول إلى تعميمات عن اللغة والكلام ، هو أكثر صعوبة من استخدام المفاهيم التى جرى تعريف الجماعة على أساسها ، سابقاً . وأن ما قد يساعد عالم اللغة الاجتماعى فى عمله ، هو إمكانية اكتشاف نوع من الجماعة الكلامية الطبيعية يستند إليه فى إطلاق تعميماته ، كافة ، وقد استندت معظم دراسات علم اللغة الاجتماعى إلى ذلك . فمثلاً ، يستند تعريف لابوف « للجماعة الكلامية » إلى دراسته عن مدينة نيويورك التى زعم فيها أنه يمكن التعامل مع كل مدينة نيويورك على أنها جماعة كلامية واحدة ، وهو ما يشكّل أساساً لعدد كبير من التعميمات ، ولا يتوقف لابوف عند ذلك وإنما يذهب إلى أن هذه الجماعة تشترك فى « أجرومية جماعية » واحدة Community Grammar (انظر ٥ - ٥ - ١) . ويرفض التعريف الذى سبق انتقاده « للجماعة الكلامية » (٦) إمكانية قيام جماعة كلامية كبيرة واحدة - تضم كل قاطنى مدنية نيويورك - تمكن لعالم اللغة الاجتماعى ، أن يتخذها أساساً لإطلاق التعميمات ، بل على العكس من ذلك ، فإنه يمكن أن تنسحب مزاعم أخرى على جماعات تم تحديدها بأشكال مغايرة . وسوف تتأكد هذه النتيجة بالحقائق والمناقشات التى سنقدمها فيما يتبع من أجزاء .

ولعل ما هو أهم من ذلك كله ، هو الشكوك التى تحيط بمفهوم « الجماعة الكلامية » ، وفيما إذا كان هذا المفهوم مفيداً أم مضللاً . فهذا المفهوم يعنى ضمناً وجود عدد من الجماعات المستقلة فى المجتمع ، والتى يتحتم على عالم اللغة الاجتماعي التعرف عليها ، مما يستتبع أن ينتمى الفرد إلى جماعة أو لأخرى . والمشكلة الأولى ، هى أن التعريف رقم (٦) يربط حقيقة هذه الجماعات الكلامية بإدراك المتحدث لها ، مما يفتح المجال واسعاً أمام وجود بعض الجماعات الكلامية غير الواضحة بالنسبة له . فقد يدرك المتحدث أنّ « أهل الشمال » أو أنّ الأطفال يستخدمون نوعية أو وحدة بعينها ، إلاّ أنه لا يعرف كيف يفصل بوضوح ودقة ما بين أهل الشمال والجنوب ، أو ما بين الأطفال والبالغين . والمشكلة الثانية التى سنعرض لها بالتفصيل فى ٥ - ٤ - ٣ هى أنه قد ثبت ، فى بعض الحالات ، أنه من الأفضل أن نحلل علاقات الناس بعضهم ببعض على أساس « شبكات العلاقات الفردية » networks of individual relations بدلاً من تحليلها على أساس الجماعات التى قد ينتمون إليها أو لا ينتمون . أو بعبارة أخرى ، فمن المحتمل ألاّ يكون للجماعات الكلامية وجود حقيقى فى المجتمع إلاّ فى صورة نماذج أصول فى عقول الناس . وفى هذه الحالة ، يصبح البحث عن التعريف « الحقيقى » للجماعة الكلامية بحثاً عن سراب .

٢ - ٢ اللغات :

٢ - ٢ - ١ اللغة واللهجة "Language" and "Dialect" :

نمضى بقية هذا الفصل فى مناقشة أهم أنماط النوعيات اللغوية وهى : «اللغة» و « اللهجة » و « سجل السياق » Language, Dialect & Register ونحاول أن نبين أنّ هناك كثيراً من المشكلات الخاصة بهذه النوعيات الثلاث ، من حيث إيجاد تعريفات عامة تميز كلا منها عن الآخر ، ومن حيث تحديد المعايير الخاصة ، التى تميز كل نوعية عن الأخرى .

ينبغى علينا أولاً ، أن نمحص مفهوم « اللغة » . فماذا نعنى عندما نقول أنّ نوعية بعينها هى « لغة » ؟ يعد هذا السؤال ، فى المقام الأول ، سؤالاً عن الاستخدام الشائع لكلمة « لغة » : أى ، ماذا يعنى الناس عندما يقولون أن نوعية بعينها هى لغة بعينها ؟ وبما أننا أجبنا على هذا السؤال المطروح بهذه الصورة فإننا يمكن - أو لا يمكن - أن نستخدم كلمة « لغة » كمصطلح فنى ، ونقرر كيف نستخدم كلمة « لغة » فى علم اللغة الاجتماعى . وكم كنا نود أن نفعل ذلك ، لو وجدنا أن الاستخدام الشائع لكلمة « لغة » يعكس نوعاً من الحقيقة التى قد نود الإشارة إليها فى علم اللغة الاجتماعى . ولكننا لو انتهينا إلى أنّ هذا الاستخدام الشائع لا يعكس شيئاً من الحقيقة فلن يكون هناك أى جدوى من تعريف أوضح لكلمة « لغة » من أجل استخدامها كمصطلح فنى .

ولكننا لابد أنْ نعترف بأهمية دراسة الاستخدام الشائع لكلمة لغة باعتباره مجرد جزء من مفردات اللغة الإنكليزية ، مثل دراسة الكلمات اللغوية الأخرى مثل « قول محكم » أو « محادثة » وغيرها ، وهى كلمات تعكس بدورها الأجزاء الثقافية المرتبطة باللغة والكلام . وأن التمييز بين « اللغات » Language و « اللهجات » Dialects هو جزء لا يتجزأ من ثقافتنا . وحين نستخدم ، هذين المصطلحين ، فإننا فى الواقع نطرح نمطين مختلفين من التمييز بينهما . ونستطيع أنّ نخلص من ذلك ، إلى نتائج محددة عن نظرة ثقافتنا إلى اللغة (كما نفعل تماماً عندما نستخدم المفردات بوصفها أدلة على جوانب أخرى من الثقافة - انظر ٣ - ٢ - ١) .

ونستطيع ، فى مثل هذا الصدد ، أن نعقد مقارنة بين ثقافتنا وثقافات أخرى لا يوجد فيها مثل هذا التمييز . وقد كان هذا هو الحال فى إنكلترا ، حسب ما يقول إينار هاجين Einar Haugen ، إلى حين استعارة كلمة لهجة Dialect كمصطلح علمى من اليونانية فى عصر النهضة . وبالفعل ، فإنّ التمييز ما بين « اللغة » و « اللهجة » فى الثقافة البريطانية أثر من آثار الثقافة اليونانية ، حيث تطور هذا الفصل بين الكلمتين نتيجة لوجود عدد من النوعيات المكتوبة والمستخدمة فى اليونان القديمة فى مناطق

وآداب مختلفة . ولذا ، فقد كانت دلالات هاتين الكلمتين اليونانيتين ، اللتين ترجمتا إلى «لغة» و « لهجة » باللغة الإنكليزية مختلفتين تماماً عن دلالاتيهما فى اللغة الإنكليزية الآن . ولعل مرادفتيهما فى اللغة الفرنسية أقرب إلى الأصلين اليونانيين ، لأنّ الكلمة الفرنسية لهجة dialecte تستخدم لتدل فقط على نوعيات إقليمية مكتوبة، ذات تراث أدبى ، بعكس نوعيات إقليمية غير مكتوبة ، يُطلق عليها مصطلح patois والغرض من هذه المناقشة ، هو أنْ نبين أنْ ليس هناك شىء مطلق فى هذا التمييز القائم فى اللغة الإنكليزية بين « اللغات » و « اللهجات » (أما القراء الذين يعرفون لغات أخرى غير اللغة الإنكليزية فإن هذه المناقشة قد تكون غير ذات شأن بالنسبة لهم) .

ما هو الفرق إذن عند المتحدثين باللغة الإنكليزية بين « اللغة » و « اللهجة » ؟ هناك طريقتان منفصلتان للتمييز بين المصطلحين ، ويعد هذا الغموض فى المعنى ambiguity مصدراً كبيراً للخلط . (ويرى هاجين Haugen ١٩٦٦) إنّ السبب فى ذلك الغموض والفوضى الناتجة عن ذلك ، هو أن كلمة « لهجة » dialect قد استعيرت من اللغة اليونانية ، حيث كان نفس الغموض قائماً) .

فهناك من ناحية ، اختلاف كبير فى الحجم لأن اللغة أكبر حجماً من اللهجة ، وذلك يعنى أنّ النوعية التى تتضمن العدد الأكبر من الوحدات اللغوية هى « اللغة »، بينما النوعية الأصغر هى « اللهجة » . وذلك هو المعنى الذى نقصده بتعاملنا مع الإنكليزية كلغة تتضمن مجموع المفردات القائمة فى كل لهجاتها . وما « الإنكليزية المتواضع عليها » standard dialect إلاّ لهجة واحدة ضمن عدد من اللهجات (منها لهجة يوركشاير الإنكليزية ، واللهجة الإنكليزية الهندية ، إلخ) . ولذلك ، فإن اللغة الإنكليزية هى النوعية الأكبر حجماً كما أن التعارض الآخر بين « اللغة » و «اللهجة» هو قضية **المكانة** Prestige ، فـ « اللغة » لها « مكانة » تفتقدها « اللهجة » . فلو استخدمنا المصطلحات بهذا المعنى ، فإن « الإنكليزية المتواضع عليها » (ومن الأمثلة على هذه ، النوعية الإنكليزية المستخدمة فى هذا الكتاب) ليست لهجة على

وجه الإطلاق بل هى بالفعل لغة ، فى حين أن النوعيات غير المستخدمة فى الكتابة الرسمية هى لهجات . ويستند الحكم على نوعيةٍ ما بأنها « لغة » أو « لهجة » إلى المكانة التى تتمتع بها ، وذلك أمر واضح بالنسبة لمعظم الناس لأنه يعتمد فى المقام الأول على ما إذا كانت النوعية تستخدم فى الكتابة الرسمية أم لا . وبالتالى ، فإن الناس فى بريطانيا يعدون اللغات غير المكتوبة (أو التى يعتقدون أنها لا يُكتب بها) « مجرد لهجات » فحسب ، دون أن يأخذوا فى الاعتبار وجود لغة (فعلية) تنتمى إليها أو عدمه . (وإنه لَمِنَ العبث بالتأكيد أن نستخدم مصطلح « لهجة » بمعنى «الحجم» فقط) ويعد الاهتمام بحقيقة ما إذا كانت النوعية تستخدم أم لا تستخدم فى الكتابة - كمعيار للتمييز ما بين اللغة واللهجة - حقيقة هامة يجب أن نعرفها عن الثقافة البريطانية . وسنعود إلى أهمية الكتابة فى الجزء ٢ - ٢ - ٢ .

٢ - ٢ - ٢ اللغات المتواضع عليها Standard Languages :

ومن الإنصاف أن نقول أن النوعية التى قد تعد « لغة فعلية » (بالمعنى الثانى لكلمة « لغة ») هى « اللغة المتواضع عليها » . وتكتسب اللغات المتواضع عليها أهميتها من علاقتها المتميزة بالمجتمع ، وهى علاقة غير طبيعية إذا ما وضعناها فى سياق عشرات (بل مئات) الآلاف من السنين التى أُستُخدِمَت فيها اللغة . فبينما نتصور أن اللغات العادية قد تطورت بطريقة عشوائية ، وغالباً ما يكون هذا التطور دون مستوى الإدراك الواعى للمتحدثين ، فإن « اللغات المتواضع عليها » قد تطورت نتيجة لتدخل المجتمع المباشر والمقصود . ويؤدى مثل هذا التدخل الذى يُطلق عليه «المواضعة» standradization إلى لغة متواضع عليها ، لم تكن من قبل سوى «لهجات» (أى نوعيات غير متواضع عليها) Non standard varieties .

ومفهوم « اللغة المتواضع عليها » مفهوم غير دقيق ، غير أنه لابد أن تكون اللغة المتواضع عليها قد مرت بالمراحل التالية (هاجين ١٩٦٦ Haugen ، انظر جارفين وماثيوت ١٩٥٦ Garvin & Mathiot) من أجل قائمة مختلفة بعض الشىء) .

(١) مرحلة الاختيار Selection :

ينبغى أن يكون قد وقع الاختيار على نوعية بعينها ، بصورة أو بأخرى ، كى تصبح النوعية الصالحة للتطور إلى مستوى اللغة المتواضع عليها . وقد تكون نوعية قائمة فعلاً ، مثل النوعيات المستخدمة فى المراكز السياسية أو التجارية الهامة، ولكنها قد تكون خليطا من نوعيات مختلفة. وتمثل عملية الاختيار فى حد ذاتها حدثا ذا أهمية اجتماعية أو سياسية عظيمة لأن النوعية تكتسب بالضرورة « مكانة عليا »، يشاركها فيها من يتكلمون بها. وقد لاتكون النوعية المنتقاه التى وقع عليها الاختيار، فى بعض الأحيان، لغة أم لمتحدثين على وجه الاطلاق، و هناك من الامثلة على ذلك العبرية القديمة فى اسرائيل والباهاسا الاندونيسية (وهى رطانة Pidgin من الملايو - أنظر - ٢-٥-٣ من أجل شرح مصطلح « الرطانة ») فى أندونيسيا (بل ١٩٧٦ : ١٦٧)

(٢) مرحلة التقنين : Codification

ينبغى أن تكون هيئة معينة مثل المجمع أو الاكاديمية قد كتبت المعاجم و«كتب النحو» فى محاولة منها لتثبيت «النوعية» حتى يتفق الجميع على ما هو صواب. وما ان يتواضع على التقنين حتى يتحتم على المواطن الطموح أن يتعلم الصيغ الصحيحة والا يستخدم فى الكتابة أيا من الصيغ غير الصحيحة التى قد يكون قد اكتسبها من نوعيته اللغوية الأصلية. وقد تستغرق عملية التعلم أعواما بأكملها من حياة الطفل المدرسية.

(٣) مرحلة توسيع الوظائف : Elaboration of Function

ينبغى أن تستخدم النوعية المنتقاه فى كل الوظائف المرتبطة بالحكومة المركزية وبالكتابة. ومن الأمثلة على ذلك استخدامها فى البرلمان والمحاكم وفى الوثائق المكتبية والتعليمية والعلمية وفى جميع أنواع الآداب. وقد يتطلب كل ذلك اضافة وحدات لغوية أخرى الى النوعية، وخاصة المصطلحات الفنية. ولكن من الضرورى أيضا أن تطور قواعد جديدة لاستخدام الصيغ القائمة - فى كيفية كتابة أسئلة الاختبارات

وكيفية كتابة الخطابات الرسمية وما إلى ذلك.

(٤) مرحلة «المواضعة على النوعية» Acceptance :

لابد أن يتواضع جميع السكان المعنيون على اتخاذ تلك النوعية خاصة بالجماعة، وغالبا ما تصبح أيضا اللغة القومية.. وما أن يتم ذلك حتى تقوم اللغة المتواضع عليها بدور القوة الموحدة للدولة، وتصبح رمزا لاستقلالها وعلامة لاختلافها عن الدول الاخرى. (اذا ما افترضنا ان اللغة المتواضع عليها فريدة فى نوعها وغير مشتركة مع دول أخرى). وهذه الوظيفة الرمزية بعينها هى ما يدفع الدولة لإن تقوم بكل ما فى وسعها لتطوير اللغة المتواضع عليها. ولقد اتفق معظم علماء علم اللغة الاجتماعى على قبول تحليل العناصر المختلفة المشتركة فى عملية المواضعة على النحو أعلاه، (ومن أجل دراسة أكثر تفصيلا و مزيد من الأمثلة أنظر جارفين ١٩٥٩ Garvinوجارفين وماثيوت ١٩٥٦ Garvin & Mathiotو هال ١٩٧٢Hall وماكولى ١٩٧٣ Macaulay وتردجيل١٩٧٤ -ب ١٤٩Trudgill). الا أن هنالك قدر كبير من الخلاف وعدم الاتفاق على مدى القبول desirabilityلبعض جوانب عملية المواضعة. فليس من الضرورى، مثلا، ان تتضمن عملية المواضعة المسائل الخاصة بالنطق والمسائل الخاصة بالكتابة (ماكولى ١٩٧٣ Macaulay). وليس من الضرورى، ان تقدم اللغة المتواضع عليها على انها النوعية الوحيدة الصحيحة (وهى قضية ناقشها كثير من علماء اللغة وعلماء علم اللغة الاجتماعى وخاصة تردجيل (١٩٧٥- ا) أنظر أيضا الجزء (٦-٢). وفضلا عن ذلك، فإن السياسة المناسبة لجماعة بعينها قد لا تصلح لجماعة أخري. ولذلك علينا أن نحتاط أشد الحيطة وأن نتصف بالحساسية المرهفة والحكمة والمعرفة حتى ننجح فى أية عملية مواضعة (كيلمان ١٩٧٢) .Kelman

و يعد الجزء الحالى عن « اللغات المتواضع عليها » الجزء الوحيد من هذا الكتاب الذى يعرض بالتفصيل للقضايا واسعة النطاق فى علم اجتماع اللغة (انظر الجزء ١ - ١ - ٣ ، لترجع إلى الاختلاف ما بين علم اللغة الاجتماعى وعلم اجتماع

اللغة). ولكننا قد قمنا بضم هذا الجزء هنا لأسباب ثلاثة . أولا : لأنه مرتبط بمناقشة المعنى الثانى للغة وهو ما عرضنا له فى الجزء ٢ - ٢ - ١ (حيث «اللغة» = «اللغة المتواضع عليها ») . وثانياً : من المهم أن نرى كيف يتحكّم المجتمع باللغة عمداً. وثالثاً : وربما ذلك هو أهم الأسباب الثلاثة، هو أن هذه المناقشة تظهر الخصائص غير العادية للغات المتواضع عليها ، وهى تعد أقل اللغات أهمية لأى من المهتمين بطبيعة اللغة البشرية (كما هو حال جميع علماء اللغة) فنستطيع ، مثلاً، أن نقوم بوصف اللغات المتواضع عليها ، بأنها حالة شاذة . نتيجة لافتقارها إلى التباين والتنوع diversity . وإذا ما أردنا رؤية اللغة فى حالتها الطبيعية ، ينبغى أن نجد نوعية ليست لغة متواضعاً عليها أو لهجة ثانوية تابعة للغة متواضع عليها (لأنه تظهر على هذه النوعيات بدورها نفس الأعراض المَرَضية ، وذلك لصعوبة إطلاق الأحكام على اللغة غير المتواضع عليها ، دون أن تتأثر هذه الأحكام باللغة المتواضع عليها) والمفارقة العجيبة هى أن علم اللغة الأكاديمى لا يظهر غالباً إلاّ فى المجتمعات ذات اللغات المتواضع عليها ، مثل بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا ، وأن اللغة الأولى التى يهتم بها علماء اللغة فى هذه الدول هى لغتهم - وهى لغة متواضع عليها

٢-٢-٣ تحديد ماهية اللغات The Delimitation of Language :

ونعود الآن للسؤال الذى سبق أن طرحناه فى بداية الجزء ٢ - ٢ وهو : ماذا نعنى بالضبط لو أطلقنا على نوعية بعينها لفظة « اللغة » ؟، ونستطيع الآن أن نوضح هذا السؤال بالتمييز بين معنيين للفظة «اللغة» يستند المعنى الأول على مفهوم « المكانة » Prestige والثانى على مفهوم « الحجم » size . وقد سبق أن أجبنا على هذا السؤال استناداً إلى « المكانة » التى تتمتع بها اللغة ، وهى أن اللغة هى اللغة المتواضع عليها . ومن ناحية المبدأ ، يعد هذا التمييز تمييزاً مطلقاً : فالنوعية قد تكون لغة متواضعاً عليها ، أو لغة غير متواضع عليها (ومن الواضح أيضاً أن بعض اللغات متواضع عليها بدرجة أكبر من اللغات الأخرى . فعلى سبيل المثال ، قننتْ الفرنسية بصرامة أكثر من اللغة الإنكليزية المتواضع عليها) . ولو عدنا إلى المعيار الثانى للتمييز ، وهو معيار « الحجم » size ، لوجدنا أن الموقف يختلف تماماً، لأن كل

شيء يصبح نسبياً. فلو قارنا على سبيل المثال ، بنوعية أخرى فإن النوعية المنتقاة قد تكون أكبر فى الحجم ، ولكن عند مقارنة النوعية المنتقاة مع نوعية أخرى فقد تكون صغيرة حجماً .

فالنوعية التى تتضمن كل الوحدات المستخدمة فى بريطانيا تبدو ضخمة ، إذا ما قورنتْ بالإنكليزية المتواضع عليها أو الإنكليزية الكوكنى Cockney ، ولكنها قد تبدو نوعية صغيرة إذا ما قورنتْ بالنوعية التى تتضمن كل الوحدات اللغوية المستخدمة فى كل البلاد التى تتحدث باللغة الإنكليزية English speaking countries ، وما دام الأمر كذلك ، فإن الادعاء بأن نوعية بعينها لغة من ناحية الحجم أمر لا يعنى شيئاً . هل توجد ، إذن ، وسيلة ما نستطيع أن نقلل بها من درجة النسبية فى التمييز ما بين « اللغة » و « اللهجة » على أساس الحجم ؟ (والإجابة مقدماً هى قطعاً بالنفى) .

والمعيار الإضافى الوحيد الباقى ، هو معيار « الفهم المتبادل » Mutual Intelligebility ، فإذا استطاع متحدثان بنوعيتين مختلفتين أن يفهم كل منهما الآخر ، فإن النوعيتين المعنيتين تعتبران مثالين من نفس اللغة . ودون هذا الفهم المتبادل ، لا تكون النوعيتان لغة واحدة . ويعد هذا المعيار معياراً شائع الاستخدام ، ولكننا لا نستطيع أن نأخذه على محمل الجد ، لأن هناك الكثير من المشكلات الخطيرة فى تطبيق مثل هذا المعيار واستخدامه .

(١) ولا يتفق « الاستخدام الشائع » Popular Usage مع هذا المعيار ، لأن النوعيات التى يطلق عليها العامة وصف اللغة قد تكون مفهومة لكلا الطرفين فهماً متبادلاً Mutually Intelligible (ومثال ذلك ، كل اللغات الإسكاندينافية باستثناء اللغة الفنلندية واللاب Lapp . إلاّ أنّ بعض النوعيات التى قد نعتبرها نماذج لنفس اللغة ، قد تكون فى الواقع غير ذلك (ومنها ، على سبيل المثال ، ما يُسمى «باللهجات» الصينية). فغالباً ما يلجأ الاستخدام الشائع إلى الاستناد إلى التعريف

الثانى للغة ، والذى يعتمد على المكانة التى تتمتع بها ، وحتى إذا كانت النوعيتان لغتين متواضعاً عليهما أو كانت كل منهما تابعة للغة أخرى متواضع عليها ، فإنهما تعتبران لغتين مختلفتين ، وعلى العكس من ذلك ، فإنهما تعتبران لغة واحدة لو تبعت كل منهما نفس اللغة المتواضع عليها . وقد يُفسّر ذلك الاختلاف بين آرائنا حول النوعيات الإسكاندينافية والنوعيات المستخدمة فى الصين ، فكل دولة إسكاندينافية لديها لغة منفصلة متواضع عليها (ففى النرويج لغتان متواضع عليهما) ، بينما لا يوجد فى الصين بأكملها سوى لغة واحدة متواضع عليها، (وقد تكون نتائج الموقف الصينى غريبة حقاً : إذ لا يستطيع شخص من بكين أن يفهم شخصاً من كانتون أو هونج كونج عندما يتحدث كل منهما بلهجته الخاصة ، ويستطيع كل منهما أن يفهم الآخر فهماً تاماً عندما يكتبان باللغة المتواضع عليها) .

(٢) والفهم المتبادل Mutual Intelligebility مسألة درجة ، قد تتراوح بين درجة الفهم التام إلى عدم القدرة على الفهم إطلاقاً . ما هو إذن مقياس الفهم الذى ينبغى أن تقع اللغتان فى إطاره حتى نستطيع أن نعتبرهما نوعيتين من نفس اللغة ؟ من الأفضل أن نتجنّب مثل هذا السؤال ، لأننا لا نملك إلاّ أن نجيب إجابة اعتباطية عليه . (ومن الجدير بالذكر أن جيليان سانكوف Gillian Sankoff قد استحدثت نظاماً خاصاً بحساب درجات الفهم المتبادل (١٩٦٩) ، ويظهر من هذا النظام أن الفهم المتبادل قد يكون جزئياً فقط عند تطبيقه على جماعات معينة).

(٣) يمكن تنظيم النوعيات على « متواصل اللهجات » Dialect continuum قائم على النوعيات المتجاورة التى يتميز كل زوج منها بالفهم المتبادل ، أما أزواج النوعيات المأخوذة من النهايات المتباعدة للمتواصل ، فهى غير قائمة على الفهم المتبادل ، ويُقال أن مثل هذا

المتواصل يمتد من أمستردام عبر ألمانيا حتى فينا ، ويمتد متواصل آخر من باريس إلى جنوب إيطاليا . ويستند معيار الفهم المتبادل إلى العلاقة القائمة بين اللغات ، فى حين يختلف هذا المعيار عن معيار تماثل اللغات . فلو كانت اللغة « أ » هى نفس اللغة «ب» واللغة « ب » هى نفس اللغة «جـ» فإن اللغتين « أ » و « جـ » يجب أن تكونا نفس اللغة، وهكذا دواليك . وعلى ذلك ، فإن علاقة « تماثل اللغات » هى علاقة «متعدية» Transitive بينما علاقة « الفهم المتبادل » Mutual Intelligebility هى علاقة « لازمة » Intransitive . فلو كانت اللغة «أ» واللغة « ب » مفهومتين فهماً متبادلاً ، واللغة « ب » واللغة «جـ» مفهومتين فهماً متبادلاً ، فإن ذلك لا يعنى بالضرورة أن اللغة « أ » واللغة « جـ » مفهومتان فهماً متبادلاً . والمشكلة هى أن العلاقة «اللازمة» لا يمكن أن تُستخدم لإيضاح العلاقة « المتعدية » .

(٤) والحقيقة أن علاقة الفهم المتبادل ليست علاقة قائمة بين النوعيات ، بل هى علاقة قائمة بين الناس ، حيث أن الناس ، وليست النوعيات ، هم الذين يفهمون بعضهم بعضاً . وبما أن الأمر كذلك ، فإن درجة الفهم المتبادل لا تعتمد على درجة التطابق بين الوحدات اللغوية فى نوعيتين بعينهما ، بل تعتمد على خصائص المتحدثين . ومن أهم هذه الخصائص وأوثقها صلة بالفهم المتبادل ، مسألة « الدافع » Motivation . فإلى أى حد يود الفرد « أ » أن يفهم الفرد « ب » ، ويعتمد ذلك فى المقام الأول، على مجموعة من العناصر منها مثلاً إلى أى حد يميل الفرد «أ» إلى « ب » ، أو بأى قدر يود هذا الفرد أن يؤكد التشابهات أو الاختلافات الثقافية بينهما ، إلخ . و « الدافع » عنصر هام ، لأن فهم شخص آخر يتطلب دائماً مجهوداً كبيراً من جانب المتلقى ، ويظهر ذلك جلياً عندما يقرر الفرد ألاً يسمع أو يفهم ، عندما لا تكون دوافعه نحو الفهم قوية بما فيه الكفاية . فكلما زادت الاختلافات بين النوعيات

المعنية ، تطلّب الأمر مجهوداً أكبر من جانب المتلقى . فلو لم يستطع الفرد « أ » أن يفهم الفرد « ب » ، فإن ذلك يعنى أن مهمته كانت أصعب وأكبر من دوافعه ، ونحن لا نستطيع أن نخمّن ماذا كان يمكن أن يحدث لو كانت دوافعه أقوى . ومن خصائص المتلقى الهامة أيضاً مقدار خبراته السابقة: فما هو مقدار خبرته بالنوعية المعنية التى يستمع إليها ؟ ومن البديهى، أنه كلما زادت خبرته السابقة بنوعية بعينها زاد احتمال فهمه لها . وقد تثير كل من هاتين الخاصيتين مشكلة أخرى حول استخدام « الفهم المتبادل » كمعيار ، وبخاصة أنه ليس من الضرورى أن يكون هذا الفهم « **كامل التبادل** » need not be reciprocal ، لأنه قد لا يتوفر لكل من « أ » و « ب » نفس القدر من الدوافع حتى يفهم أحدهما الآخر ، وقد لا يتوفر لكل منهما نفس القدر من الخبرة بنوعية الآخر . وإنه لَمِنَ الأيسر على المتحدث بغير اللغة المتواضع عليها أن يفهم المتحدث باللغة المتواضع عليها. وليس العكس صحيحا، ذلك لأن المتحدث بغير اللغة المتواضع عليها ستكون لديه خبرة أكبر بالنوعية المتواضع عليها (غالباً من خلال وسائل الإعلام) ، وقد يكون ذلك نابعاً جزئياً من رغبة المتحدث بالنوعية غير المتواضع عليها فى أن يقلل من الاختلافات الثقافية بينه وبين المتحدث باللغة المتواضع عليها (ولو أن ذلك ليس ضرورياً ، بأى حال من الأحوال)، بينما يود المتحدث باللغة المتواضع عليها أن يؤكد هذه الاختلافات .

وفى النهاية ، فإن الفهم المتبادل لا يصلح معياراً لتحديد اللغات من ناحية «الحجم» . وليس هناك معيار بديل نستطيع أن نأخذه فى الاعتبار ، ولذلك ، علينا أن نصل إلى الخلاصة التالية : (وفى ذلك نتفق مع ماثيوز Matthews ١٩٧٩ : ٤٧) **أنه ليس هناك أى أساس حقيقى للتمييز بين « اللغة » و «اللهجة»** باستثناء « المكانة » التى تتمتع بها لغة بعينها ، حيث يحسن استخدام لفظة «لغة متواضع عليها» بدلاً من مجرد استخدام لفظة « لغة » فحسب).

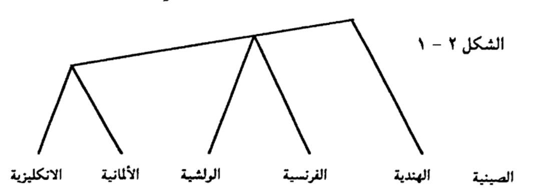
وبتعبير آخر ، لا مكان لمفهوم مثل مفهوم اللغة (س) فى علم اللغة الاجتماعى ، ولنفس الأسباب ، لا يبدو أن لهذا المفهوم دوراً يضطلع به فى علم اللغة بصفة عامة . إن كل ما نحتاج إليه بالفعل هو فكرة « النوعية » « س » Variety X ، كما نحتاج إلى الحقيقة البديهية القائلة بأن نوعية بعينها قد تكون متشابهة نسبياً مع بعض النوعيات الأخرى ومختلفة نسبياً عن غيرها من النوعيات .

٢ - ٢ - ٤ نموذج الشجرة الأسرية The Family Tree Model :

إن الطريقة المُثلى لإظهار العلاقات بين النوعيات هى «نموذج الشجرة الأسرية»، وهو نموذج ابتُكِرَ فى القرن التاسع عشر كوسيلة إيضاح فى مجال الدراسات التاريخية للغات (من أجل دراسة ممتازة انظر بينون ١٩٧٧ : ٦٣ Bynon) . ويسمح لنا مثل هذا النموذج بإيضاح العلاقات الوثيقة القائمة بين بعض النوعيات المستخدمة حالياً، وكيف اختلفتْ هذه النوعيات عن بعضها البعض نتيجة للتغيرات التاريخية ، ونستطيع أن نضرب مثلاً لمحاولة إيجاد العلاقات بين النوعيات التالية ، وهى الإنكليزية والولشية والألمانية والفرنسية والهندية . فلو قمنا ببناء شكل شجرى يتصدّر هذه النوعيات كما فى الشكل ٢ - ١ نستطيع أن نقول أن الإنكليزية أقرب صلة بالألمانية ، وأقل قرباً إلى الولشية والفرنسية ، وأبعد من ذلك عن الهندية (من أجل الحصول على صورة كاملة للعلاقات ما بين هذه اللغات ولغات كثيرة أخرى من أصل «هندو أوروبى » Indo - European انظر بولينجر ١٩٧٥ : ٤٤٦ Bolinger) .

وقد أضفنا الصينية لإيضاح أنه لا توجد أية علاقة بينها وبين اللغات الأخرى .

الشكل ٢ - ١



فإذا ضم نفس الشكل نوعيتين مختلفتين ، فإننا نفترض أن كلاً منهما قد «انحدر» ، خلال عمليات التغير التاريخى ، من نوعية أصلية واحدة يمكن إيرادها فى الشكل ذاته ، وبذلك يمكننا إضافة اللغة الهندو أوروبية الأصل – Proto Indo-European فى العقدة الواقعة فى أعلى الشجرة ، مما يبين أن كل النوعيات المذكورة فى أسفل الشجرة (باستثناء الصينية قد « انحدر » من نوعية أصل واحد . وكذلك يمكن أيضاً أن نطلق على العقدة node التى يلتقى فيها فرعا الألمانية والإنكليزية مثلاً – عقدة « اللغة الألمانية الأصل » Proto - Germanic node بغية توفير تسمية للنوعية التى انحدرتا عنها .

وتكمن القيمة الأساسية لنموذج الشجرة الأسرية المستخدم فى علم اللغة التاريخى فى أنه يوضّح العلاقات التاريخية بين النوعيات التى نبحثها ، ويوضّح بصفة خاصة التوقيت النسبى للتطور التاريخى الذى أدى إلى اختلاف هذه النوعيات وتباينها . أما من وجهة نظرنا الحالية ، فيتميّز مثل هذا النموذج بأنه يوضّح العلاقات الدرَجية Hierarchical القائمة بين النوعيات المختلفة ، التى لا تفرق بين «اللغات» و « اللهجات » . ومن الشائع فى علم اللغة التاريخى أن نطلق على النوعيات التى انحدرتْ من اللاتينية لفظة « اللهجات » اللاتينية (أو لهجات الرومانس The Romance Dialects بالرغم من أنها تضم نوعيات يُطلق عليها مصطلح لغة استناداً إلى معيار « المكانة ») ومثلها الفرنسية المتواضع عليها . ولو أننا أردنا إضافة إنكليزية يوركشاير Yorkshire English أو الإنكليزية الكوكنى Cockeny) English (إلى قائمة النوعيات ، فمن الممكن إضافتها تحت اللغة الإنكليزية دون أن نميزها بإعطائها مكانة مختلفة عن بقية النوعيات . والتغيير الوحيد الذى سنضطر للقيام به فى تأويلنا لشكل الشجرة الأسرية ، هو أنّ « العقد العليا » Higher nodes لن تمثّل النوعيات الأسبق من الناحية التاريخية (مثل الهندو أوروبية الأصل Proto - Indo-European) والتى انحدرتْ منها النوعيات العصرية ، ولكننا سنعتبرها ممثلة للنوعيات الأضخم من ناحية الحجم ، والتى ستتضمن بدورها كل الوحدات اللغوية فى النوعيات الواردة أسفلها .

وليس هناك ميزة لاستخدام نموذج الشجرة الأسرية فى علم اللغة الاجتماعى إلاّ ما أسلفنا ذكره ، لأن مثل هذا النموذج يمثّل تبسيطاً هائلاً idealization للعلاقات القائمة بين النوعيات ، وبخاصة لأن مثل هذا النموذج لا يسمح بتوضيح تأثير نوعية فى نوعية أخرى ، الأمر الذى قد يؤدى فى بعض الحالات المتطرفة إلى « التطابق » ، convergence ، وذلك عندما تنحدر نوعية واحدة من نوعيتين منفصلتين (انظر تروجوت ١٩٧٧ Traugott) . وسنرى فى ٢ - ٥ أن ذلك يحدث فعلاً ، وسنقوم فى الجزء ٢ - ٣ - ٢ بتقديم نموذج أفضل من النموذج الحالى ، وهو نموذج « نظرية الموجات » Wave theory .

٢-٣ اللهجات Dialects :

٢-٣-١ اللهجات الإقليمية و « خطوط توزيع اللهجات » * :

Regional Dialects and Isoglosses

الآن ، وقد رفضنا الفصل بين « اللغة » و « اللهجة » (باستثناء التمييز بينهما على أساس « المكانة » التى تتمتع بها كل منهما) يمكننا أن نطرح سؤالاً أساسياً ، هو : بأى درجة من الوضوح يمكننا أن نضع الحدود الفاصلة بين النوعيات ؟ ويعنى التنظيم الدرجى لنموذج الشجرة الأسرية ضمنياً . أن الحدود بين النوعيات واضحة على كل مستويات الشجرة . فهل الأمر كذلك بالفعل ؟ وهل يمكننا بصفة خاصة الاستمرار فى متابعة التفريغ التفصيلى للشجرة نحو جذورها حتى نوضّح النوعيات الأصغر ثم الأصغر ، إلى أن نصل إلى مستوى « لهجة الفرد الواحد » idiolect ؟ لابد أن تكون الإجابة على هذه الأسئلة بالنفى .

فلو أخذنا فى الاعتبار الاختلافات الواضحة ، والتى تستند إلى الاختلاف الجغرافى ، لأمكننا ، إذ صح نموذج الشجرة الأسرية ، أن نتعرف على « اللهجات

(*) « خطوط توزيع اللهجات » Isoglosses » وقد وُضِعَ هذا المصطلح قياساً على المخططات المتماثلة فى درجات النهايات العظمى للحرارة فى الخرائط الجوية وتسمى Isotherms .

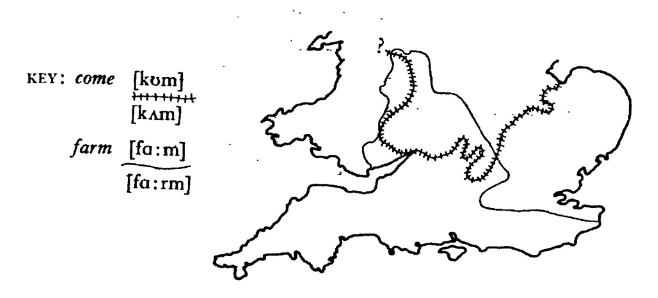
الإقليمية » Regional Dilects الواقعة فى إطار النوعيات الكبرى ، مثل اللغة الإنكليزية ، ومن حسن الحظ ، أنه توجد لدينا الكثير من الدلائل التى ترتبط مباشرة بمثل هذا السؤال ، وقد تولدتْ كل هذه الأدلة من علم معروف باسم علم **اللهجات** Dialectology وبخاصة ما عُرف منه باسم **علم جغرافيا اللهجات** Dialect Geography (انظر على سبيل المثال : بلومفيلد Bloomfield ١٩٣٣ : الفصل ١٩، شامبرز وتردجيل Chambers & Trudgill (ما زال فى طور الإعداد) ، هوكيت Hockett ١٩٥٨ : الفصل ٥٦ ، وهيوز وتردجيل Hughes & Trudgill ١٩٧٩ ، وسانكوف و واكلن Wakelin & Sankoff ١٩٧٢ . انظر أيضاً ٥-٤-٢ من هذا الكتاب . وقد قام علماء اللهجات Dialectologists فى أوروبا والولايات المتحدة (وفى بريطانيا على نطاق ضيق) منذ القرن التاسع عشر بدراسة التوزيع الجغرافى لمختلف الوحدات اللغوية ، مثل أزواج المترادفات (مثلاً ، جردل و دلو Pail & Buckett) ، أو عدد من الصيغ مختلفة النطق لنفس الكلمة ، مثل صيغة Form بوجود أو بدون وجود حرف / r / . وقد سجلتْ نتائج هذه الدراسات على خرائط موضّحة ، توزع هذه الوحدات فى مختلف القرى (وذلك لأن علم جغرافيا اللهجات يجنح نحو دراسة المناطق الريفية حتى يتجنّب التعقيدات القائمة فى المدن) . إذن ، يستطيع عالم جغرافيا اللهجات أن يفصل ما بين المناطق التى تستخدم فيها وحدات معينة ، ومناطق أخرى تُستخدم فيها وحدات أخرى ، محدداً حدوداً فاصلة لكل منطقة معروفة باسم « خطوط توزيع اللهجات » أو Isogloss (وهو مصطلح مشتق من السابقة اليونانية– iso وتعنى « نفس » الجذر Gloss – وتعنى اللغة واللسان) .

ويمكّننا نموذج الشجرة الأسرية من توقع شيء هام خاص « بخطوط توزيع اللهجات » وهو أن هذه الخطوط لا ينبغى أن « تتقاطع » أو تتداخل . وينبع هذا التوقع من التنظيم التدرجى الصارم بين النوعيات القائمة فى النموذج ، والذى يسمح بقيام نوعين من العلاقات بين كل نوعيتين على النموذج ، وهما أن تكون إحداهما قد انحدرتْ عن الأخرى ، أو أن تكون النوعيتان « أختين » . فلنتخيل وجود عالم فرضى توجد فيه نوعية ضخمة نطلق عليها النوعية « ل » ، وهى تتضمن وحدتين

لغويتين هما « س » و « ص » ، لا ينسحب استخدام أى منهما على كل المتحدثين بالنوعية « ل » . وبذلك يمكننا التمييز داخل النوعية « ل » بين أزواج من النوعيات تتضمن « س » أو تخلو منها ، (أى نوعية + س ، ونوعية - س) ، كما يمكننا التمييز بين نوعيتين تتضمن إحداهما « ص » والأخرى تخلو منها (أى نوعية + ص، ونوعية - ص) وثمة احتمال لوجود التركيبات الأربعة الممكنة لهذه النوعيات ، وهى كالتالى : متحدثون يستخدمون كلتيهما (أى + س + ص) ، ومتحدثون لا يستخدمون أيّاً منهما (أى - س ، - ص) ، ومتحدثون آخرون يستخدمون واحدة أو أخرى (أى + س ، - ص أو س ، + ص) . ما هى إذن العلاقات القائمة بين النوعيات التى عرفناها على أنها س (أى + س ، - س) والنوعيات التى عرّفناها بصاد (أى + ص ، - ص) ؟ أى ، ما هى العلاقة بين النوعية + س والنوعية +ص؟ من الواضح ، أن إحداهما لم تنحدر عن الأخرى ، لأن إحداهما لا تتضمن الأخرى كلية ، ولكنهما ليستا بأختين أيضاً ، لأن كلاً منهما تتضمن الأخرى بصورة جزئية ولا يتلاءم مثل هذا النوع من التنظيم مع نموذج الشجرة الأسرية .

وهناك كثير من المواقف الفعلية التى توازى مثل هذا الموقف الافتراضى . ولنضرب مثلاً واحداً فقط على ذلك ، هناك « خطان لتوزيع اللهجات » متداخلان فى جنوب إنكلترا ، كما يظهر من الخريطة ٢ - ١ (وهى مأخوذة من تردجيل Trudgill ١٩٧٤ - ب ١٥٩ و واكلين Wakelin ١٩٧٨ : ٩) يفصل أحد « خطوط توزيع اللهجات » هذين ما بين (منطقة فى الشمال) ، حيث تُنطق كلمة come بنفس الحرف الصائت الذى تُنطق به كلمة stood ، وبين المنطقة التى يُنطق فيها نفس الحرف كحرف صائت مفتوح كما يُنطق فى « النطق المتواضع عليه » RP Received Pronunciation ، وهى لكنة المكانة العليا فى إنكلترا (انظر جيمسون Gimson ١٩٦٢ : ٨٣) ، ويفصل « خط توزيع اللهجات » الثانى ما بين المنطقة (الواقعة فى الشمال الشرقى) التى لا يُنطق بها حرف الـ -r فى كلمة farm والمنطقة التى يُنطق بها بحرف الـ r . والطريقة الوحيدة التى يمكن أن نطوع بها مثل هذا النمط ليتلاءم مع

ليتلاءم مع نموذج الشجرة الأسرية ، هي أن نعطي الأولوية « لخط تحديد لهجة » على حساب الآخر ، ولكن مثل هذا الاختيار اعتباطي ، وسيترك المنطقة المحددة بخط تحديد اللهجات الثانوي دون ارتباط بالمنطقة الأخرى ، في حين يمثّل كل من الخطين تقسيماً فرعياً لنوعية مختلفة ، بينما يمثّل كلاهما في الواقع وبوضوح ظاهرة واحدة .



الخريطة ٢ - ١ . تقاطع خطين لتوزيع اللهجات في جنوب إنكلترا

ونستطيع أن نقدم عدداً ، لا حصر له ، من الأمثلة المتشابهة (ومن أجل مثال واضح آخر ، انظر بولينجر Bolinger ١٩٧٥ : ٣٤٩ ، ومن أجل عرض علمي لهذه القضية ، انظر سانكوف Sankoff ١٩٧٣ - أ) .

وقد استخلص علماء اللهجات من مثل هذه النتائج ، أن لكل وحدة توزيعاً خاصاً بها بين جماهير المتحدثين وأن ليس هناك مبرر لتصور أن الوحدات المختلفة لها توزيعات متطابقة (بينون Bynon ١٩٧٧ : ١٩٠) . ويبدو أن هذه النتيجة ، هي النتيجة الوحيدة المعقولة التي يمكن استخلاصها من المادة العلمية ، بالرغم من أنه قد يكون لنا تحفظات على مدى الاختلاف بين الوحدات المختلفة : فنوعية النمط سالف الذكر - على سبيل المثال - والتي تتداخل فيها « خطوط تحديد لهجات » وتتشابك

بطريقة فوضوية ، أقل شيوعاً فى ألمانيا عنها فى فرنسا (بينون Bynon ١٩٧٧ : ١٩١ ، ماثيوز Matthews ١٩٧٩ : ٤٧) . وقد يؤدى هذا بنا إلى نتيجة ، فحواها أن خطوط تحديد اللهجات لا تقوم بتحديد النوعيات إلاّ بالمعنى الساذج ، وذلك عندما تكون هذه النوعيات مكونة من وحدة لغوية مفردة . وإذا لم يكن بوسعنا الاعتماد على خطوط تحديد اللهجات فى تحديد النوعيات ، فما هو البديل ؟ ولا يبدو أن هناك بديلاً لهذه الخطوط ، وهكذا ، نجد أنفسنا فى موقف مشابه لموقفنا السابق عند مناقشتنا لقضية اللغات . فليست هناك وسيلة لتحديد النوعيات ، ولذلك ينبغى علينا ، إذن ، أن ننتهى إلى أن النوعيات غير موجودة . كل ما تبقى لدينا ، إذن ، هو الناس والوحدات اللغوية ، وقد تتشابه الناس إلى حدٍ ما فيما تتضمنه لغتهم من وحدات . وبالرغم من أن هذه النتيجة لا تأتى بجديد ، فإنها على الأقل نتيجة حقيقية ، وقد تؤدى إلى إثارة أسئلة جانبية مثل : ما الذى يحدد مقدار ونوع التشابه القائم بين الناس ؟

٢ - ٣ - ٢ الانتشار ونظرية الموجات :

Diffusion and the wave theory

وقد استُحدِثَ كبديل لنموذج الشجرة الأسرية فى القرن التاسع عشر ، لتفسير نوعية الظواهر التى بحثناها للتو . وتعرف هذه النظرية « بنظرية الموجات » wave theory وهى تستند إلى الفرضية القائلة ، بأن التغيرات فى اللغة تنتشر من داخل مراكز التأثير إلى المناطق المحيطة بها بنفس الطريقة التى تنتشر بها الموجات من مركز سقوط الحجر فى بركة الماء .

فقد اتفق معظم علماء اللغة على وجهة النظر هذه كتفسير للتغير اللغوى فى كل من علم اللغة التاريخى Historical Linguistics (انظر بينون Bynon ١٩٧٧ : ١٩٢ من أجل مناقشة لهذا الموضوع) وعلم اللغة الاجتماعى ، حيث طوّرها بصفة خاصة شارلز جيمس بيلى Charles - James Bailey (١٩٧٣) وديريك بيكرتون

Derek Bickerton (١٩٧١ ، ١٩٧٣ ، ١٩٧٥) ودافـيـد ديـكـامـب David DeCamp (١٩٧١ - ب) . (وسنعرض للدراسات النظرية الخاصة بنظرية الموجات والتى قام بها أولئك العلماء اللغويون فى الفصل ٥ - ٥ - ٢) .

وتقدم نظرية الموجات تفسيراً للأسباب التى تؤدى إلى تداخل خطوط تحديد اللهجات عن طريق افتراض بؤر جغرافية Geographical foci مختلفة لانتشار الوحدات المختلفة ، فخط تحديد اللهجات الفاصل بين وحدتين مثل كلمة farm بالحرف /r/ أو بدونه ، يبيّن مكان توقف تأثير وحدة معينة ، وبدء استخدام الوحدة الأخرى . ولو افترضنا أن إحدى هذه الوحدات تمثّل وحدة مستحدثة ، فإن ذلك يعنى أن خط تحديد اللهجات يبيّن أبعد النقاط التى وصل إليها تأثير الوحدة الجديدة ، حينما قام عالم اللهجات بجمع مادته العلمية .

وليس هناك ما يمنع من وقوع استخدامات جديدة فى نفس الموقع وفى نفس الوقت ، الأمر الذى قد يؤدى إلى تحديد خطوط تحديد لهجات مختلفة وجديدة . وعليه لا يوجد ما يمنع من أن يتداخل عدد من خطوط تحديد اللهجات .

ولو عدنا إلى التشبيه السابق ، لوجدنا أنه لا يوجد ما يمنع من سقوط حجرين أو أكثر فى نفس المكان من بركة الماء ، ولذلك ، قد تكون هناك مراكز عديدة للتأثير تبدأ منها الموجات وتنتشر وتتداخل . وفضلاً عن ذلك ، فإن هذه المراكز قد تتغير ، مع الزمن ، بتغير المؤشرات سواء قويتْ أو ضعفتْ . ويمثّل كل مركز وحدة مستحدثة تنطلق منها الموجات وتنتشر فى مختلف الاتجاهات .

ولكن هذا التشبيه يعجز عن نقل الصورة الحقيقية الكاملة ، لأن موجات التأثير اللغوى « تتجمّد » وتتوقف عن الإمداد لأن العامل المؤثر فى مركز هذه الأمواج لا يكفى لدفعها نحو الاستمرار . وبتعبير آخر ، فقد يتوقف تأثير الوحدة عندما يقرر الأفراد ، لسبب ما ، عدم استخدامها حتى لا يؤخذوا على أنهم من المنتمين إلى الجماعة التى تستخدم هذه الوحدة ، وذلك فى إطار نظرية «أفعال توكيد الهوية» (انظر ١ - ٣ - ١) . ويعنى ذلك أن موقع خط تحديد اللهجات لم يتغيّر عما كان

عليه منذ قرن مضى ، وذلك على عكس ما نعرفه عن الموجات فى بركة الماء ، لأن تأثير الجماعة التى تستخدم هذه الوحدة قد لا يكفى لدفعها إلى أبعد مما وصلتْ إليه . وفضلاً عن ذلك ، فليس من الضرورى أن تكون الوحدة مستحدثة حتى تؤثر على الناس ، لأن درجة تأثيرها تعتمد على المكانة الاجتماعية التى تتمتع بها الجماعة التى تستخدمها (والتى سبق أن أطلقنا عليها مصطلح « الجماعة الكلامية » Speech Community فى ٢ - ١ - ٤) ، وليست القضية درجة حداثة الوحدة . فمن الممكن أن تُستَبدل كلمة قديمة بكلمة حديثة بعد أن يشيع استخدام القديمة ، فعلى سبيل المثال ، بدأت بعض مناطق الولايات المتحدة حالياً بنطق كلمات مثل farm بحرف/r/ بعد أن كانت تنطقها دون حرف/r/ ، بالرغم من أن الصيغة الأخيرة هى الصيغة المستحدثة (كما قد نستنتج من تهجئة الكلمة) ، وسنعرض لواحدة من هذه المناطق فى الجزء ٥ - ٢ - ٢ .

ويبدو أنه من الأفضل أن نتخلى عن تشبيه سقوط الحجر فى بركة الماء لوجود الكثير من التحفظات عليه . وقد يكون التشبيه التالى أكثر صلاحية لوصف الموقف ، وهو تشبيه مستعار من عالم النبات ، فعندما تُبذر عدة فصائل من النباتات فى حقل بعينه ، تنشر بذورها خارج نطاق المنطقة المحددة لها ، وستمثّل كل فصيلة نباتية وحدة لغوية معينة فى إطار هذا التشبيه ، بمعنى أن لها طريقتها الخاصة فى الانتشار ونشر البذور ، ويمثّل « خط تحديد اللهجات » الحدود المفروضة على انتشار هذه الفصيلة النباتية . ومن الممكن أن تتعايش الكثير من الفصائل النباتية فى نفس المنطقة (ويعد هذا بمثابة نوع من التساهل والتصرف فى قواعد علم النبات) ، ولكن يبدو أنه من الضرورى تحديد فصائل معينة من النباتات تنافس بعضها بعضاً ، على نحو شبيه بالوحدات اللغوية التى تقدم طرقاً مختلفة لنطق نفس الكلمة (مثل صيغتى نطق كلمة farm) . ومن ميزات هذا التشبيه أنه يتجنّب التغير المستمر فى توزيع الفصائل النباتية فى الحقل لكل وحدة من الوحدات ، هذا إلى جانب أنه يمكننا من تمثيل كل الوحدات اللغوية ، لا الوحدات المستحدثة فحسب .

وفى إطار هذا التشبيه الجديد فإن أى استحداث لغوى يعد بمثابة فصيلة

مستحدثة تولدت (من خلال عملية التغير الوراثى أو الاستجلاب من الخارج) ، وقد تنبت أو لا تنبت ، فلو أنها نَمَتْ وانتشرتْ ، فإنها قد تحل محل النباتات المنافسة لها ، فإن لم تفعل ، فقد تندثر تماماً أو تظل محدودة فى رقعة صغيرة من الحقل (أى أن استخدامها يقتصر على جماعة كلامية صغيرة) . ويعتمد نمو وازدهار فصيلة بعينها أساساً ، على قوة مستخدميها (أى على قوة ومدى تأثير الجماعة الكلامية التى تستخدمها) ، فكلما زاد حجم النباتات زاد عدد البذور التى تنتجها ، وزادت فرصتها فى النمو والاستيطان فى مناطق جديدة .

٢ - ٣ - ٣ اللهجات الاجتماعية Social Dialects :

ولا تستند اللهجات فى توزيعها على التوزيع الجغرافى فحسب ، كما قد توحى به المناقشة السابقة . إذ أن هناك مصدرين رئيسين يساهمان فى إضافة بعض التعقيدات على المشكلة ، أولهما القدرة على التحرك الجغرافى ، فالناس ينتقلون من مكان إلى آخر يحملون معهم لهجاتهم ، وإن عدلوا منها لتتوافق بمرور الزمن مع بيئتهم الجديدة . ولذلك ، فإن مجرد تحديد المتحدثين على خريطة قد ينتج عنه نمط غير منتظم ، وذلك حسب مقدرة السكان على التحرك (وغالباً ما نتجنّب هذه المشكلة فى علم اللهجات بانتقاء « رواة » informants من أُناس وُلِدوا ونشأوا فى مكان سُكناهم).

والمصدر الثانى لتعقيد المشكلة ، هو أن العنصر الجغرافى ليس إلاّ عنصراً من العناصر المرتبطة باختلاف اللهجات ، وهناك عناصر أخرى ترتبط باللهجات ، منها : الطبقة الاجتماعية والجنس والسن (انظر ٥ - ٤ - ٢) . ولذلك ، غالباً ما يتحدث علماء اللهجات عن اللهجات الاجتماعية Social Dialects, Sociolects ، وهم يقصدون بذلك الاختلافات اللغوية التى لا تستند إلى اختلافات إقليمية . ونتيجة لوجود هذه العوامل فإن المتحدث قد يكون أكثر قرباً من لغته إلى لغة مَنْ ينتمون إلى نفس المجموعة الاجتماعية ، ويقطنون منطقة مختلفة عنه إلى أناس من مجموعة

اجتماعية مخالفة ، يقطنون نفس المنطقة .

ومن أهم الخصائص المميزة للبنية الهرمية الطبقية فى بلد مثل بريطانيا وجود أسبقية للطبقة الاجتماعية على التوزيع الجغرافى ، كعنصر محدد لنوعية الكلام ، ولذلك فهناك قدر من التباين الجغرافى بين مَنْ ينتمون إلى الطبقات الاجتماعية الدُنيا ، أكبر من التباين الموجود بين « علية القوم » فى المجتمع البريطانى . وقد تمادى الناس فى ذلك لدرجة أن المقتدرين الذين تعلّموا فى المدارس الخاصة باهظة التكاليف Public Schools (أو الذين يرغبون فى الكلام مثلهم) يتكلمون إنكليزية خالية تماماً من الخصائص الإقليمية قد تنفرد بريطانيا دون غيرها من البلاد بهذه الصفة ، فلا توجد هذه الصفة فى بلاد أخرى مثل الولايات المتحدة أو ألمانيا ، حيث تظهر الأصول الاقليمية للمتحدثين من « علية القوم » فى نطقهم للغة ، أكثر من ظهورها فى سمات أخرى من لغاتهم . وبسبب الاختلاف والإحساس بالفوارق الإقليمية والاجتماعية بين النطق والجوانب الأخرى للغة ، فمن الطبيعى أن نميّز ما بين **اللكنة Accent** **واللهجة dialect** ، فنستخدم مصطلح اللكنة للدلالة على الاختلافات فى النطق فحسب ، بينما يُستخدم مصطلح اللهجة للدلالة على مختلف أوجه الاختلافات اللغوية ومن بينها النطق أيضاً . وقد يسمح لنا ذلك بالتمييز بين « اللهجة المتواضع عليها » standard dialect (والتى ينبغى أن نصفها « باللغة المتواضع عليها » ، (انظر ٢ - ٢ - ٢) وبين اللهجات غير المتواضع عليها ، وقد يمكننا ذلك من إطلاق أحكام خاصة عن النطق فقط فى صورة دراسة وصفية للكنات المختلفة . ولذلك ، يمكننا القول إن كثيراً من الناس فى بريطانيا يستخدمون لكنة إقليمية أو لهجة متواضعاً عليها ، ولكن بعض الخاصة يستخدمون لكنة متواضعاً عليها مع نفس اللهجة المتواضع عليها . وقد يؤدى الخلط بين مصطلحى اللهجة المتواضع عليها (وهو يشمل المفردات والتراكيب والصرف) ومصطلح اللكنة المتواضع عليها إلى كثير من الارتباك .

إن كل ما حاولت أن أفعله فى هذا الجزء ، هو تقديم مصطلحات مثل « اللهجة الاجتماعية » و « اللكنة » ، مشيراً إلى أن هناك اختلافات بين المتحدثين لا يمكن تفسيرها بالرجوع إلى الاختلافات الجغرافية القائمة بينهم فحسب ، بل يجب الرجوع

إلى عناصر اجتماعية أيضاً . ويمكننا أيضاً المقارنة بين المشكلات الخاصة بتحديد اللهجات الإقليمية والمشكلات الخاصة بتحديد اللهجات الاجتماعية ، وهو أمر سنتحقق منه فى الفصل الخامس . وقد يكون من الصعب أن نقوم بتحديد خطوط تحديد اللهجات الاجتماعية ، لأننا لا نستطيع تسجيلها إلاّ على خريطة متعددة الأبعاد ، ولكن لا شك فى أننا لو استطعنا رسم مثل هذه الخريطة لوجدنا أن كل خط لتحديد لهجة سيتبع نمطاً فريداً فى نوعه . وعلى ذلك ، فمن الطبيعى أن نرفض مفاهيم «اللهجة الاجتماعية» و « اللكنة » لنفس الأسباب التى سبق أن رفضنا من أجلها مفهوم « اللهجة الإقليمية » ، اللهمّ إلاّ كوسيلة جاهزة وغير دقيقة للدلالة على ظواهر معينة .

٢-٣-٤ نماذج من الوحدات اللغوية Types of Linguistic Items:

لعل أهم الأسئلة التى تطرحها دراسة النوعيات على بساط البحث هى السؤال التالى : هل كل الوحدات اللغوية معرّضة للتباين بنفس الأسلوب ؟ ولقد اقترحنا عند مناقشتنا لمفهوم « اللكنة » ، أنه من الممكن أن يكون هناك اختلاف عام بين وحدات النطق والوحدات النوعية الأخرى ، مثل وحدات (المفردات والتراكيب والصرف) ويكمن الفارق فى أن النطق أقل عرضة « للمواضعة » . وإذا سلّمنا بالعلاقة الخاصة القائمة بين عملية « المواضعة » standarization والكتابة، وسلّمنا بعدم ضرورة امتداد عملية المواضعة إلى النطق (٢-٢-٢) ، فإننا لن ندهش لو كان الأمر كذلك ، بالرغم من أنه يكون مخالفاً لذلك .

ويبدو أن النطق يختلف عن النماذج الأخرى من الوحدات من حيث الوظيفة الاجتماعية التى يؤديها . فإننا نجد ، على سبيل المثال ، أنه بالرغم من التأثير الواضح للولايات المتحدة على بريطانيا ، فإن التأثير الأمريكى على الإنكليزية البريطانية يقتصر على المفردات ، ويبدو أيضاً أن لا وجود لهذا التأثير على تطور الجماعات الأكثر تعرضاً له والأكثر قابلية ، مثل جماعات المراهقين (أما مذيعو الأغنيات فى

الراديو ومطربو « البوب » فهم يعدّون من الاستثناءات المعقدة والغريبة) . ومن الغريب ، أن الاختلاف بين النطق والنماذج الأخرى من الوحدات قد تكون له مظاهر مختلفة ، كما هو الحال عند بعض الأطفال والمراهقين الزنوج من الطبقات المتوسطة فى ديترويت ، والذين قام بعض العلماء بدراستهم فى إطار مشروع بحثى عن « علم لهجات المناطق الحضرية » Urban Dialectology (وذلك هو الموضوع الرئيسى من الفصل الخامس) . وقد ذهب والتر وولفرام Walter Wolfram الذى كتب تقريراً عن هذا المشروع (١٩٦٩ : ٥ - ٢) إلى أن الوحدات الصرفية والتراكيبية التى يستخدمها هؤلاء المتحدثون ، هى ذاتها نفس الوحدات التى تستخدمها الطبقات المتوسطة بصفة عامة (ومن الأمثلة على ذلك ندرة صيغة « النفى المتكرر » Double negative ، وهى صيغة شائعة فى حديث الطبقات الدُّنيا فى ديترويت) ، غير أن أسلوبهم فى النطق مطابق تماماً لأسلوب نطق شباب الطبقات الدُّنيا فيها . وقد ذهب وولفرام أيضاً (١٩٦٩ : ٢٠٤) إلى أن الاختلافات فى النطق قد تكون اختلافات كمية quantitative ، بينما قد تكون الاختلافات الأخرى اختلافات كيفية qualitative ، ومعنى ذلك أن الفوارق الطبقية فى المجال الصوتى phonological ، هى مسألة عدد المرات التى تُستخدم فيها وحدة معينة ، بينما الفوارق الطبقية فى مجال التراكيب syntactic والصرف morphological هى مسألة أى من الوحدات هى المستخدمة . ولكن هذه التعميمات ليست مدعومة إلاّ بقدر ضئيل من الأدلة ، ولم تؤكدها أبحاث أخرى .

ومن المحتمل ، إذن ، أن يؤدى كل من النطق والوحدات الأخرى وظائف مختلفة فى أفعال الفرد المؤكدة للهوية Individual's act of identity ، والتى سبق أن ذكرناها . فقد يكون استخدام النطق ، على سبيل المثال ، دلالة على تحديد أصولنا (أو للإشارة إلى انتمائنا إلى مجموعة بعينها ، سواء أكانت هذه هى الحقيقة أم لم تكن - قارن بين البريطانيين الذين يكتسبون اللكنة الإنكليزية المتواضع عليها (RP) فى وقت متأخر من حياتهم ، وبين الشباب الزنوج من الطبقات المتوسطة فى ديترويت الذين اكتسبوا لكنة الطبقات الدُّنيا فى بداية حياتهم) . وعلى العكس من ذلك ، فإننا قد

نستخدم الصرف والتراكيب والمفردات حتى نحدد مكانتنا الراهنة فى المجتمع ، مثل تحديد مقدار التعليم الذى تلقيناه . وقد يعد كل ذلك مجرد تخمين فى الوقت الحالى ، ولكن هناك قدر كافٍ من الأدلة يشير إلى الاختلافات القائمة بين النطق ومجالات اللغة الأخرى ، مما يدفعنا للبحث عن تفسيرات عامة لهذه الظواهر . وقد سبق أن اقترحنا أن هذه الاختلافات قد تكون مجرد نتاج لعملية المواضعة ، ولذلك فمن الضرورى أن نبحث عن أدلة فى مجتمعات لم تتأثر بعملية المواضعة . ولو وُجِدَتْ هذه الاختلافات فى تلك المجتمعات ، فإننا يمكن أن نفترض ، عندئذ ، أننا قد قمنا باكتشاف حقيقى وجوهرى عن اللغة .

هل هناك أية أدلة على وجود اختلافات داخل ما أشرت إليه بتعبير « النطق » تجنباً لطرح أسئلة غير ضرورية عن العلاقة بين علم الأصوات Phonology وعلم الأصوات العام Phonetics ؟ هل هناك ، على سبيل المثال ، أية أدلة لتدعيم وجهة النظر القائلة بأن الصيغ التحتية Underlying representations (أى المعلومات المقدمة فى المفردات اللغوية عن نطق كلمة معينة ، وذلك على عكس التفاصيل التى تقدّمها عن نطق هذه الكلمة فى تراكيب بعينها) أقل عرضة للتباين variation بين فرد وآخر من القواعد الخاصة بنطق الوحدات الصوتية المجردة phonemes بعينها (وقد اقترح كل من تشومسكى وهالى Chomsky & Halle وجهة النظر هذه ١٩٦٨ : ٤٩) ؟ وليس هناك قدر كافٍ من الأدلة لدعم وجهة النظر هذه ، ولكن الجميع يتفقون على أن الاختلافات فى « الصيغ التحتية » Underlying forms (أى الاختلافات فى المفردات) أمر شائع . ومن الأمثلة على ذلك ، أن الذين ينطقون حرف/r/ فى كلمة farm قد نفترض أن لديهم عدداً من « الصيغ التحتية » المختلفة لهذه الكلمة (وكل الكلمات الأخرى التى يقع فيها حرف / r / قبل ساكن consonant أو فى نهاية الكلمة) ، وتختلف هذه الصيغ عن الصيغ التحتية عند الذين لا ينطقون الحرف / r / (انظر ٥ - ٥ - ١). وفى الحقيقة فأن أى نوع من التباين يمكن تصوره على أساس علم الأصوات Phonology موجود بالفعل ، وعلى نطاق واسع . (انظر الدراسات والبحوث الخاصة بمسح أنواع التباين variation فى النطق فى أوكونور O'Connor

١٩٧٣ : ١٨٠ ، ترويتزكوى Trubetzkoy ١٩٣٦ ، ويلز Wells ١٩٧٠) .

وقد يطرح المرء أسئلة مشابهة عن الجوانب اللغوية الأخرى ، غير النطق . هل هناك أية أدلة على صحة الرأى القائل ، بأن الجانب التراكيبى syntax أقل عرضة للتباين من الجوانب اللغوية الأخرى ، مثل الصيغ الصرفية morphology والمفردات ؟ ويبدو أنه من المؤكد أن الأمثلة المتوفرة فى نوعية يبلغ حجمها حجم لغة والدالة على اختلافات تراكيبية syntactic differences تذكر فى الأدبيات بقدر أقل من ذكر الاختلافات القائمة فى جوانب النطق والصيغ الصرفية ، وهما ما يصعب الفصل بينهما غالباً ، ومن الأمثلة على ذلك تساؤلنا عن الاختلاف بين « -ing » و « -in » فى كلمات مثل coming ، فهل هذا اختلاف فى النطق أو الصيغة الصرفية ؟ وفضلاً عن ذلك ، فغالباً ما يكثر ذكر ومناقشة الاختلافات الموجودة فى المفردات بدرجة أكبر من اختلافات التراكيب فى أدبيات اللهجات . ويبدو أن هناك خلافاً بين مستوى التراكيب وبقية مستويات وجوانب اللغة ، وذلك أمر يحتاج إلى تفسير . (من أجل مناقشة أوسع لهذه النماذج من الوحدات المتباينة انظر ٥ - ٣ - ١) .

ومن الضرورى أن نحذّر من مثل هذا الاختلاف الظاهر . فقد يُعزى عدم وجود أمثلة فى الأبحاث الزاهنة على الاختلافات التراكيبية ، نتيجة لصعوبة دراسة مثل هذه الاختلافات ، لأنها نادراً ما تتكرر فى الكلام العادى ، ومن الصعب أن نجد وسيلة مباشرة لاستخرجها (من الراوى) Direct elicitation ، وبخاصة لو قُورِنَتْ باستخراج المفردات ، مثلا . ثانياً ، قد يكون الاستقرار الظاهرى للتراكيب أمراً مضللاً، لأنه لا يوجد سوى عدد ضئيل نسبياً من الوحدات التراكيبية (أى الصيغ) constructions ، مقارنة بالمفردات ، وعلى ذلك فإنه حتى فى حالة تباين نفس النسبة من الوحدات التراكيبية ، فإن الناتج قدر ضئيل جداً من التباين . ثالثاً، حتى لو كان هناك اختلاف بين التراكيب وبقية اللغة ، فقد يكون ذلك مجرد نتاج «لعملية المواضعة» process of standardization .

وبالرغم من كل هذه التحفظات ، إلاّ أنه يبدو أن هناك جنوحاً أكبر نحو

«التوحيد» uniformity أو عدم التباين فى جانب التراكيب ، لا نجده فى الجوانب اللغوية الأخرى ، وقد يكون من الصعب إيجاد تفسير لذلك . فهل هناك ميل لإلغاء أو رفض البدائل فى مجال التراكيب، بينما هناك بحث إيجابى عن البدائل فى المفردات؟

ويأتى الدليل على صحة هذا الرأى من مصدرين :

فعادة ما تكون « الوحدات التراكيبية » منتشرة عبر حدود « اللغة » إلى المناطق المجاورة . وغالباً ما يُطلق على الخصائص المشتركة بهذه الطريقة من الانتشار والتى لا يمكن تفسيرها كأثر من آثار وجود لغة أُم مشتركة مصطلح (الملامح الجغرافية) **Areal features** انظر بينون **Bynon ١٩٧٧ : ٢٤٤** من أجل دراسة لمثل هذه الملامح) . فعلى سبيل المثال ، توجد ثلاث لغات متجاورة فى البلقان (وهى اللغة البلغارية والرومانية والألبانية) ، وتشترك هذه اللغات الثلاث فى ظاهرة لغوية غير عادية ، وهى وجود أداة التعريف كلاحقة مثبتة فى نهاية الكلمة suffixed definite article وعلى ذلك ، نعرف أن كلمة " mik " فى الألبانية تعنى «صديق» بينما تعنى كلمة " mik-u " «الصديق» ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة اللغوية المشتركة إلاّ « بالانتشار » Diffusion فى الماضى القريب (أى منذ عهد اللغة اللاتينية التى انحدرتْ عنها اللغة الرومانية). ويبدو أن انتشار مثل هذه الظواهر اللغوية عبر حدود اللغات ناتج عن «الازدواج اللغوى » Bilingualism ، وقد يكون شيوع الظواهر التراكيبية فى الملامح الجغرافية أحد نتائج جنوح الأفراد مزدوجى اللغات لرفض أو عدم استخدام صيغة تراكيبية بعينها فى إحدى اللغتين اللتين يتحدثون بهما ، وبذلك يساعد على نشر استخدام هذه الصيغة التراكيبية فى اللغة الأخرى . ومن الصعب أن نفهم ظاهرة الانتشار الجغرافى areal diffusion للظواهر التراكيبية دون التفسير السابق ، لأن التراكيب لا تتأثر غالباً بالتغير التاريخى Historical change .

وهناك دليل آخر يؤيد النظرية القائلة بأننا نمتنع عمداً عن استخدام البدائل التراكيبية ، وقد قدم هذا الدليل كل من جون جمبرز John Gumperz وروبرت ويلسون R. Wilson (١٩٧١) ، وهو مأخوذ عن قرية هندية صغيرة اسمها كابور

Kupwar ، يتحدث سكانها الذين يبلغون ٣٠٠٠ نسمة ثلاث لغات وهى : الماراطى Marathi والأردو Urdu وكلتاهما من أصل هندو أوروبى ، أما الثالثة فهى الكانادا Kannada وهى لغة غير هندو أوروبية . (وهناك عدد قليل من الناس يتحدثون بلغة رابعة هى التيلجو Telugu ، وهى لغة غير هند أوروبية . وكما هو معتاد فى الهند تنقسم هذه القرية إلى جماعات مميزة بوضوح (أى طوائف عنصرية castes) يمكن التعرف عليها من خلال لغتها . ولكن من الطبيعى أن تحتاج هذه الجماعات المختلفة إلى الاتصال بعضهم ببعض ، ولذلك تعد ظاهرة الازدواجية اللغوية أو ثلاثتها Bilinguaism (or trilingualism) ظاهرة واسعة الانتشار وخاصة بين الرجال . فقد تعايشتْ هذه اللغات المختلفة على هذا النحو قروناً عديدة ، إلاّ أنه على الرغم من ذلك الاتصال الطويل فإنه لم يحدث أى تغير فى مجال المفردات vocabulary ، ويرى كل من جمبرز و ويلسون أن السبب فى ذلك ، يرجع إلى أن الاختلافات اللغوية تقوم بوظيفة تحديد الفوارق بين الطوائف الاجتماعية ، التى يحافظ عليها أهل القرية بصرامة شديدة ، ولذلك فإن للمفردات وظيفة الحفاظ على الفوارق بين الطوائف الاجتماعية ، ولولا تلك الوظيفة لأمكنَ لضروريات كفاءة الاتصال أن تزيل مثل هذه الاختلافات بين المفردات عبر القرون . أما بالنسبة للتراكيب ، فإن هذه اللغات الثلاث الرئيسية قد أصبحتْ أكثر تطابقاً فى كابور عنها فى أى مكان آخر . فعلى سبيل المثال ، لا يوجد فى لغة الكانادا المتواضع عليها لفعل **is** فى تراكيب مثل **The postman is my best friend** بينما تتضمن هذه التراكيب فعلاً فى لغة الأردو والماراطى ، ولكن توجد فى لغة الكانادا المستخدمة فى كابور كلمة لمثل هذا الفعل ، وذلك احتذاءً بنموذج الأردو والماراطى . ويبدو أن هذا المثال يتفق على أقل تقدير مع فرضيتنا المطروحة والقائلة، بأن البدائل لا تستخدم غالباً على مستوى التراكيب ، بينما يفضل استخدامها على مستوى المفردات والنطق ، وتستخدم كشواهد ترمز إلى الفوارق الاجتماعية . ولا يبدو أنه توجد ثمة أمثلة على العلاقة العكسية ، حيث يوجد قدر من التباين فى المفردات والنطق أقل منه فى التراكيب بين أفراد الجماعة .

وقد تبرز فرضية ضعيفة حول الأنماط المختلفة للوحدات اللغوية وعلاقاتها بالمجتمع ، ترى فى التراكيب syntax شاهداً على وحدة cohesion المجتمع ، حيث يحاول الأفراد إزالة بدائل التراكيب من لغتهم الفردية (ويبدو أن فى مقولة وولفرام Wolfram عن جنوح الفوارق التراكيبية إلى أن تكون فوارق كيفية qualitative أكثر منها فوارق كمية quantitative تأييداً لمثل هذا الرأى) . وعلى العكس ، فإن المفردات شاهد على وجود الفوارق الفردية فى المجتمع ، وغالباً ما يقوم الأفراد بتنمية البدائل ، حتى يقوموا بإرساء فوارق اجتماعية دقيقة . فالنطق يعكس الجماعة الاجتماعية الدائمة ، التى يود المتحدث أن ينتمى إليها . ويؤدى ذلك إلى ميل الأفراد إلى كبت البدائل ، وهو أمر يعاكس ميول الأفراد فى مجال التراكيب ، حيث تمتنع المجموعات المختلفة عن استخدام البدائل حتى تميز نفسها عن المجموعات الأخرى ، ويحاول بعض الأفراد الحفاظ على بعض البدائل (حيّة) حتى يستطيعوا تحديد أصولهم بشكل أدق ، باستخدام هذه البدائل بنسب مميزة بالعلاقة إلى البدائل الأخرى . وبالرغم من أن ذلك قد يبدو غير قابل للتصديق للوهلة الأولى ، إلاّ أنه يمثّل واحدة من طرق استخدام « متغيرات النطق » pronunciation variables كما سنرى فى الفصل الخامس .

والسبب الرئيسى وراء تقديم الآراء السابقة هنا ، هو أن نبيّن أنه من الممكن طرح فرضيات هامة وقابلة للبحث فى إطار النظرة غير المحدودة إلى اللغة ، والتى نحن بصدد طرحها هنا ، تلك النظرة التى اكتشفنا أن ليس بها مكان لمفاهيم مثل « اللغة س » أو « اللهجة س » أو حتى « النوعية س » .

٢ - ٤ سجلات السياق Registers :

٢ - ٤ - ١ سجلات السياق واللهجات Registers & Dialects :

يشيع استخدام مصطلح « سجل السياق » Register فى علم اللغة الاجتماعى، ونقصد به « النوعيات المعرفة حسب سياق الاستخدام "varieties

"according to use" وذلك على عكس مصطلح « اللهجات » الذى نقصد به «نوعيات معرفة حسب المستخدِم » "Varieties according to user" (هاليداى وماكينتوش وستريفينز ١٩٦٤ Halliday, McIntosh & Strevens انظر أيضاً كريستال ودافى ١٩٦٩ Crystal & Davy وجريجورى وكارول ١٩٧٨ Gregory & Carroll) . وهذا الفصل ضرورى ، لأننا نحتاج للتمييز بين وحدات لغوية مختلفة للغاية قد يستخدمها نفس الفرد ليعبّر عن نفس المعنى بصورة أو أخرى فى مختلف المواقف ، ولا ينبغى توسيع مفهوم « اللهجة » حتى يتضمن مثل هذا التباين . فيمكن لنا عند كتابة خطاب ، مثلاً أن نبدأه هكذا « أود أن أقول لك أن ... » أو أن نكتب «أحيطكم علماً بأن » ، ونستطيع أن نقدّم عدداً لا متناهياً من الأمثلة المشابهة، وأن نثبت أنّ قدر « التباين » الناتج عن اختلافات سجل السياق (لو أمكن إحصاؤها من الناحية الكمية) يمكن أن يكون مماثلاً للاختلافات الناتجة عن اللهجة .

ويمكننا تفسير سبب اختلافات سجل السياق بالرجوع إلى نموذج « أفعال توكيد الهوية » ، كما فعلنا بالنسبة للاختلافات الناتجة عن اللهجات . ففى كل مرة يتحدث الفرد أو يكتب ، فإنه لا يقوم فقط بتحديد موقعه الذاتى من المجتمع حوله ، ولكنه يقوم أيضاً بالربط بين هذا الحدث الاتصالى بعينه ونظام معقّد لتصنيف السلوك الاتصالى . ومثل هذا النظام يتخذ شكل جدول متعدد الأبعاد ، مثل الصورة العقلية التى يتصورها كل فرد لمجتمعه (انظر ١ - ٣ - ١) . وبالرغم من أن ما سنقوله قد يعد تبسيطاً للأمور ، فمن الممكن القول أن لهجة الفرد تكشف عن هويته ، بينما يكشف سياقه عمّا هو بصدد فعله (بالرغم من أن هذه المفاهيم أقل وضوحاً مما تبدو عليه هذه العبارة الطنّانة كما سنرى فيما بعد) ، والأبعاد التى قد نستخدمها فى تحديد موقع أى حدث اتصالى ليست أقل تعقيداً من الأبعاد المستخدمة فى تحديد حالة المتحدث الاجتماعية . وقد قام مايكل هاليداى بالتمييز بين ثلاثة أنواع رئيسة من هذه الأبعاد وهى كالتالى :

المجال Field والمنحى Mode والعلاقة Tenor (وأحياناً يُستخدم مصطلح أسلوب style بدلاً من (العلاقة) ، ولكن من الأفضل تجنب استخدام مصطلح

« أسلوب » لأن استخدامه الشائع بين العوام مماثل لمصطلح « سجل السياق ») .
ويُقصد بالمجال Field مقصد وموضوع Purpose الاتصال ، ويُقصد « بالمنحى » Mode الوسيلة المستخدمة فى الاتصال ، وخاصة إذا ما كانت منطوقة أو مكتوبة ، وتستند «العلاقة » Tenor إلى العلاقات القائمة بين المشتركين participants فى الحدث الاتصالى communicative event . وقد يساعدنا مرة أخرى استخدام العبارات الطنّانة لشرح هذه العلاقات . ويُقصد « بالمجال » Field ما هو مقصد وموضوع الاتصال ، ويُقصد بالمنحى Mode « كيفية » حدوث الاتصال ، ويُقصد بالعلاقة Tenor بِمَنْ « يتم الاتصال » ، (أى كيف ينظر المتحدث إلى المتلقى الذى يحاول الاتصال به) . وفى إطار هذا النموذج ، فإن افتتاحيتى الخطابين اللذين أوردناهما من قبل كمثالين تختلفان من حيث العلاقة ، فإحداهما غير شخصية وذات علاقة رسمية (فالخطاب موجه إلى متلقٍ لا تربطه بالكاتب سوى علاقة رسمية) ، أما الأخرى فهى ذات علاقة شخصية - إلاّ أن « مجال » و « منحى » الافتتاحيتين متطابقان .

طبقاً لهذا النموذج ، تتألف اختلافات السجل السياقى من أبعاد ثلاثة . وقد طرح ديل هايمز Dell Hymes ١٩٧٢ نموذجاً آخر شائع الاستخدام به ما لا يقل عن ثلاثة عشر متغيراً variable تسهم فى تحديد الوحدات اللغوية التى يختارها المتحدث، هذا بالإضافة إلى متغير « اللهجة » . ومن المشكوك فيه جداً أن يعكس هذا العدد الكبير من المتغيرات ، على كثرته ، كل تعقيدات الاختلافات الناتجة عن السجل السياقى . وبالرغم من ذلك ، فإن كلاً من هذه النماذج يقدم لنا إطاراً نستطيع من خلاله أن نحدد الأبعاد الرئيسة للتطابق والاختلاف ، وتتضمن علاقات المتحدث Speaker والمخاطب addressee مثلاً ، أكثر من بُعد واحد (كما سنكتشف فى ٤ - ٤ - ٢) ومن بين هذه الأبعاد بُعد القوة power وهو بُعد يحدد ما إذا كان المتحدث تابعاً أو مساوياً أو متفوقاً على المخاطب ، ومنها أيضاً بُعد التضامن solidarity وهو البُعد الذى يحدد درجات علاقة المتحدث والمخاطب ، وهى علاقة قد تكون وثيقة للغاية أو بعيدة وواهية . فالمتحدث باللغة الإنكليزية يحدد علاقته بالمتلقى استناداً

إلى هذين البُعدين ، وقد يظهر ذلك بشكل واضح فى انتقائه لمصطلحات التخاطب terms of address ومنها على سبيل المثال..Mr. Smith, Sir, John, mate إلخ.

وقد عرضنا حتى الآن لمفهوم « السجل السياقى » كما يُستخدم بصفة عادية ، وباعتباره اسماً يُطلق على نوعية بعينها توازى اللهجة . ومع ذلك ، فقد بينا من قبل أن « اللهجات » غير قائمة كنوعيات مستقلة ، وعلينا الآن أن نسأل ما إذا كان مفهوم « السجل السياقى » قائماً كنوعية مستقلة . ويبدو أن الإجابة على هذا السؤال ، هى أن السجل السياقى لا يزيد عن « اللهجة » من ناحية كونه نوعية مستقلة . ومن السهل أن ندرك ، مثلاً ، أنّ انتقاء الوحدات اللغوية فى تركيب بعينه يعكس عناصر مختلفة ، استناداً إلى ماهية الوحدات المستخدمة . فإحدى هذه الوحدات قد تعكس ، مثلاً ، رسمية الموقف ، بينما تعكس الأخرى خبرة المتحدث والمخاطب . وذلك هو الحال فى جملة مثل We obtained some sodium chloride (* لقد حصلنا على بعض كلوريد الصوديوم) حيث يعد استخدام كلمة obtained (* حصلنا) كلمة رسمية (وذلك بالمقارنة بكلمة got أى « أخذنا » أو أعطونا) بينما تعد كلمة sodium chloride مصطلحاً فنياً (وذلك بمقارنتها بكلمة salt أى ملح) . وعلى ذلك ، فإن محور « الرسمية » formality مستقل تماماً عن محور درجة «الفنية» technicality ، وقد يظهر ذلك بوضوح عندما نجد أن الاختيار بين get و obtain لا يرتبط بالاختيار بين salt و chloride sodium ، ولذلك يمكننا أن نتمثل التركيبات الأربعة «الرسمية» و « الفنية » فى التراكيب الأربعة التالية :

رسمى وفنى : We obtained some sodium chloride لقد حصلنا على بعض كلوريد الصوديوم *

رسمى وغير فنى : We obtained some salt لقد حصلنا على بعض الملح*

غير رسمى وفنى : We got some sodium chloride لقد أخذنا / بعض كلوريد الصوديوم *

غير رسمى وغير فنى : We got some salt لقد أخذنا / بعض الملح *

وتشير مثل هذه الأمثلة البسيطة إلى أن الوحدات اللغوية المختلفة ، قد تتأثر بدرجات متفاوتة بالجوانب المختلفة لعملية الاتصال The act of communication بنفس الطريقة التى تتفاعل بها الوحدات المختلفة مع الخصائص المختلفة للمتحدث (٥ - ٤ - ٢) ، ولا يمكننا التحدث عن « سجلات السياق » إلاّ باعتبارها نوعيات ، بالمعنى الأكثر بساطة ، وهى أنها مجموعات من الوحدات اللغوية لها نفس التوزيع الاجتماعى ، أى أنها تُستخدم فى نفس الظروف أو فى نفس المواقف . ويبتعد هذا المفهوم كل البعد عن مفهوم النوعية حيث يتمسك المتحدث بنوعية واحدة فى كلامه ، أى أنه يتحدث بلهجة واحدة (وربما تكون اللهجة الوحيدة التى يستطيع التحدث بها) و « سجل سياق واحد » . وبالرغم من ذلك ، فإنه من الواجب أن نقول أن الذين يستخدمون مصطلح « سجل السياق » والذى يستخدمه علماء علم اللغة الاجتماعى كمصطلح فنى فقط) لم يقصدوا إلى استخدامه بهذا المعنى ، وذلك لأن كل النماذج المطروحة تؤكد ضرورة الحاجة إلى تحليل متعدد الأبعاد « لسجلات السياق » .

وهناك وجه آخر للتشابه ما بين « اللهجات » و « سجلات السياق » ، وهو أنهما غالباً ما يتداخلان إلى حد كبير ، فلهجة فرد بعينه قد تكون سجل سياق فرد آخر ، والوحدات التى قد يستخدمها فرد بعينه ، مثلاً ، تحت كل الظروف وفى جميع المواقف غير الرسمية ، قد يستخدمها فرد آخر فى المواقف الرسمية فقط ، وذلك عندما يشعر الأخير بحاجته إلى أن يتحدث مثل الفرد الأول قدر استطاعته . وهذه هى العلاقة التى تربط ما بين المتحدثين الأصليين native speakers باللهجات المتواضع عليها واللهجات غير المتواضع عليها . والصيغ اللغوية التى قد تشكل جزءاً من « لهجة » المتحدث بنوعية متواضع عليها هى جزء من « السجل السياقى » الخاص بالمتحدث بالنوعية غير المتواضع عليها . وسنقدم أيضاً كماً كبيراً من الأدلة والبراهين لدعم هذا الرأى ، بالرغم من أن ذلك قد يكون غير ضرورى عندما تكون الحقائق واضحة ، كما هو الأمر هنا .

وننتهى إلى أننا قد قدّمنا نموذجاً للغة يختلف اختلافاً جذرياً عن النموذج الذى يستند إلى مفهوم « النوعية » Variety . وعليه ، فإن أى نص قد يمثّل فى الغالب

نوعية واحدة (بالرغم من أننا يجب أن نعترف باحتمال وقوع « تحويل الشفرة » code-switching (انظر ٢ - ٥) . ومن الممكن أن نقوم بإرساء قواعد « نحو » أو « أجرومية » نوعية بعينها ، أعنى أننا نستطيع أن نقدّم وصفاً لكل أنواع الوحدات اللغوية القائمة فى النصوص ، التى تمثّل تلك النوعية .

ونستطيع أن نطلق على مثل هذا النموذج عبارة « نموذج النوعية » variety-based model وذلك على عكس النموذج الذى قدّمناه ، وهو «نموذج الوحدة» item-based model وترتبط كل وحدة لغوية فى إطار النموذج الأخير بتوصيف اجتماعى يحدد مَنْ يستخدمها ومتى تُستخدم . وهناك مجال لوجود تشابهات بين الوحدات من جهة توصيفها الاجتماعى ، إلى حد أنه يمكن تصنيف هذه الوحدات المتشابهة فى صورة واهية من صور « النوعية » ، وذلك تبعاً لدرجة تشابهها. وقد يكون هناك الكثير من مثل هذه التصنيفات للوحدات فى لغة فرد بعينه، وقد يكون هناك أيضاً الكثير من هذه الوحدات ذات الوصف الاجتماعى المتفرد فى نوعه ، ولا يشير التوصيف الاجتماعى لمختلف الوحدات إلى نفس العوامل ، ولا حاجة ثمة إلى ذلك ، وعليه ، فقد تعكس بعض الوحدات فى التركيب الواحد (أعنى بعض الكلمات) مسقط رأس المتحدث ، وتعكس وحدات أخرى طبقته الاجتماعية ، وقد تعكس وحدات أخرى علاقة المتحدث بالمخاطب ووحدات أخرى رسمية الموقف ، إلخ. وعلى ذلك ، فإن الغرض من الوصف فى علم اللغة الوصفى descriptive Linguistics ليس مجرد وصف « نوعية » بعينها ، بل الوحدة اللغوية ذاتها . والسؤال الذى سنحاول الإجابة عليه ، هو : إلى أى درجة نستطيع أن نصل إلى تعميمات عن الوحدات اللغوية فى داخل إطار لغة الفرد الواحد من ناحية ، ومن خلال لغة الأفراد ، من ناحية أخرى . وبالطبع ، علينا أن نجيب أيضاً على السؤال التالى : أى نوع من التعميمات يمكن أن نصل إليه ؟

٢ - ٤ - ٢ العرف والضرورة Convention and Necessity :

من أهم الأسئلة التى طرحناها عند حديثنا عن « التوصيفات الاجتماعية » social descriptions فى الفقرة السابقة هو : هل تمثّل هذه التوصيفات الاجتماعية «معايير اجتماعية» social norms ، ناتجة عن العرف أم أن هذه المعايير نتاج حتمى للطريقة التى نتعلّم بها اللغة ونستخدمها . وتنشأ هذه المشكلة بالعلاقة بكل من «اللهجات» و « سجلات السياق » ، بمعنى أنها تنشأ بالعلاقة إلى التوصيفات الاجتماعية سواء أشارت هذه التوصيفات إلى المتحدث أم أشارت إلى الظروف . وسنقتصر هنا فى حديثنا على « الظروف » أو « المواقف » ، حيث القضايا أكثر وضوحاً .

فاللغة الإنكليزية المستخدمة فى الخطابات الرسمية تتضمن صيغاً تعبيرية expressions مثل :

further to our letter of ..., we note that ..., we regret that...,

(**بالرجوع إلى خطابنا المؤرخ .... قد لاحظنا أن ... ونأسف لابلاغك بأن** ... وهكذا دواليك . لماذا إذن تُستخدم مثل هذه التعبيرات الخاصة ، بينما هناك صيغ تعبيرية أخرى ذات معنى مماثل مثل" We are sorry to tell you ...(**نأسف لإخبارك أن** ...) غير مستخدمة ؟ قد تكون إحدى الإجابات الممكنة على مثل هذا السؤال ، هى أن المسألة مجرد مسألة عرف متبع ، أو يمكن القول أن تفضيل هذه الصيغ التعبيرية على بدائلها التى كان من الممكن أن تؤدى نفس الغرض دون خلل يُذكر ، هو مجرد صدفة تاريخية . وقد تكون الإجابة ، هى أن العرف المتواضع عليه ، قد يتحول إلى ضرورة لأى سبب من الأسباب ، أعنى أن هذا العرف يتوجب اتباعه حتى يصبح الخطاب خطاباً عادياً ومقبولاً لدى المتلقين . ولكن ، ينبغى علينا أن نقول أنه لم يكن هناك ما يحتم فى أول الأمر تفضيل هذه الصيغ على البدائل الأخرى المناسبة . وثمة إجابة أخرى، هى أنه ليس هناك مطلقاً أية بدائل أخرى مناسبة تؤدى نفس المعنى، ولذلك، فإن استخدام صيغة تعبيرية بعينها يعتبر ضرورة ملحة، لا

يمكن تجنبها إذا أردنا التعبير عن معنى محدد .

ومن الصعب أن نحسم مسألة الصراع القائم بين الضرورة والعرف بما يعتبر تفسيراً لهذه الحقائق . والمشكلة هى أن أحدهما قد يكون مصيباً فى بعض الحالات، بينما يكون الآخر مصيباً أيضاً فى بعض الحالات الأخرى . ويعد الاختيار ما بين الفعلين get و obatin (وكلاهما يعنى يحصل على) مسألة يتحكّم فيها العرف، لأنه ليس ثمة ما يحتّم أن يكون أحدهما أكثر رسمية من الآخر ، (قارن أيضاً ما بين مركبة وسيارة car و vehicle) . وعلى العكس ، فإن الاختيار ما بين لفظى (الملح) salt و sodium chloride وكلوريد الصوديوم ، مسألة تحتمها ضرورة الاستخدام، وذلك لأنه من الضرورى أن نتجنّب الغموض Ambiguity فى استخدام المصطلحات الفنية ، وكلمة ملح salt مستخدمة بالفعل (وتعنى مركّب من أيونين ions مختلفين) من ناحية ، ومن المفيد ، من ناحية أخرى ، أن يكون هناك إسم لملح الطعام تظهر منه علاقات هذه المادة مع المركّبات الكيميائية الأخرى ، وذلك الأسم هو sodium chloride كلوريد الصوديوم ، ومن الصعب أيضاً أن نجد صيغاً تعبيرية بديلة باللغة العادية للصيغ التالية :

further to our letter of ..., we note that ....

ولذلك ، فإن استخدامنا لمثل هذه الصيغ للتعبير عن هذه الدلالات يصبح مسألة تحتمها الضرورة . وعلى العكس من ذلك ، يعد تفضيل الصيغة الأولى We regret to inform you that ... التى تدل على نفس معنى الصيغة الثانية we are sorry to tell you that .. مسألة عرف متبع لا غير .

ولمثل هذا الفصل بين الضرورة والعرف نتائج عملية هامة ، حيث أن هناك ميلاً بين العوام للتعامل مع كل الاختلافات الناتجة عن سجل السياق ، واعتبارها على نفس الدرجة من الأهمية وذلك لنفس السبب . وعلى ذلك يمضى الأطفال الكثير من الوقت، ويبذلون الكثير من الجهد فى تعلّم العرف اللغوى ، (مثل العرف الخاص باستخدام صيغة المبنى للمجهول Passive voice عند كتابة التقارير العلمية باللغة

الإنكليزية) كما يفعلون فى المسائل الخاصة بالضرورة اللغوية ، مثل المصطلحات العلمية فى الكيمياء .

إن الفصل بين القيود الاجتماعية الناتجة عن العرف المتبع وبين القيود الاجتماعية الناشئة عن الضرورة أمر هام جداً وذلك ، بسبب قوة تمسكنا بالحفاظ على سلامة العرف ، ويتضح ذلك بصفة خاصة فى حالة « المحظورات اللغوية » Liguistic taboos مثل كلمات السباب والشتائم باللغة الإنكليزية والمعروفة باسم four-letter words (انظر بلومفيلد Bloomfield ۱۹۳۳ : ١٥٥ وبولينجر Bolinger ١٩٧٥ : ٢٥٥) . وهناك عرف قوى للغاية يحد بل يحظر من استخدام كلمات بعينها مثل (shit) (خراء) ، ويعرف معظم الناس هذه الكلمات جيداً ولكنهم يحافظون على مثل هذا العرف بصرامة شديدة إلى درجة أنهم يمتنعون تماماً عن استخدامها ، (حتى فى حالة إخبار الآخرين أن أطفالهم قد بدأوا فى استخدامها) . ولو نظرنا إلى هذه الحقيقة نظرة موضوعية ، لوجدنا أن هذه مسألة غريبة جداً ، وفضلاً عن ذلك ، فإن القانون يساند مثل هذا العرف لدرجة أنه يمكن محاكمة الناشرين إذا ما تجرأوا وخالفوا هذا العرف بطبع ونشر مثل هذه الكلمات. ويبدو أن استخدام هذه المحظورات اللغوية يؤدى إلى إعطاء مثل هذه الكلمات قيمة رمزية زائدة عند استخدامها ، كرمز للغضب أو الاحتجاج . ويتضح ذلك بشكل جلى للغاية فى الحالات التى تعتمد فيها القيمة الاجتماعية للكلمة على العرف المتبع ، لأن الكلمات الأخرى الدالة على نفس المعنى ليست من المحظورات (وذلك بالرغم من أن استخدامها قد يقتصر على الاستخدام الفنى مثل faeces (أى البراز) أو الكلمات الخاصة بالأطفال مثل "poo-poo" (أى كا - كا) إلخ . إن قضية « المحظورات اللغوية » وأشباه المحظورات اللغوية semi-taboo language (مثل اللغة العامية السوقية والسباب والشتائم والإهانات إلخ) تستحق المزيد من البحث الجاد من قبل علماء علم اللغة الاجتماعى ، فهى قد تخبرنا بالكثير عن اللغة وعلاقتها بالمجتمع .

٢ - ٤ - ٣ ازدواج اللهجات (الديجلوسيا) Diglossia :

إذا كنّا فيما سبق قد أكدنا على الإمكانية النظرية لأن تتسم كل وحدة لغوية بتوزيع اجتماعى فريد تبعاً لظروف استخدامها ، فينبغى علينا أن نقرر الآن أن مثل هذه الإمكانيات لا تُسْتَغَل فى بعض المجتمعات ، حيث يوجد نظام بسيط يسمى بالازدواج اللهجى أو الديجلوسيا Diglossia ، وهو نوع من القيود الاجتماعية المفروضة على الوحدات تتخذ صورة قيود على « نوعيات واسعة الانتشار » Large scale varieties ، بدلاً من القيود التى تقتصر على كل وحدة على حدة . وقد كان شارلز فرجسون Charles Fergusson (١٩٥٩) هو أول مَنْ استخدم هذا المصطلح فى أبحاث علم اللغة الاجتماعى لوصف المواقف اللغوية الموجودة فى اليونان والعالم العربى بصفة عامة ، وسويسرا المتحدثة باللغة الألمانية وجزيرة هايتى . ويوجد فى كل هذه المجتمعات نوعيتان منفصلتان متميزتان تميزاً كافياً بشكل يسمح للعوام بوصفهما على أنهما لغتان منفصلتان ، تُستخدم إحداهما فى المواقف الرسمية والعامة ، بينما تُستخدم الأخرى فى الظروف العادية واليومية .

وقد عرَّف فرجسون Fergusson الازدواج اللهجى على النحو التالى :

> « الديجلوسيا أو الازدواج اللهجى موقف لغوى ثابت نسبياً توجد فيه بالإضافة إلى اللهجات الأساسية للغة بعينها (والتى قد تتضمن لهجة متواضعاً عليها ، أو لهجات إقليمية متواضعاً عليها) نوعية أخرى مختلفة صارمة من ناحية التقنين (وهى غالباً ما تكون أكثر تعقيداً من ناحية قواعدها النحوية) . هذه النوعية غالباً ما تكون مفروضة من جهة عليا ، وهى أيضاً لغة الكتابة الأساسية فى الأدب ولغة التراث وربما لغةلجماعة كلامية فى الماضى ، وهذه « النوعية » يدرسها ويتعلّمها الناس من خلال النظام التعليمى الرسمى للبلاد . وهى تُستخدم فى جميع المواقف والأغراض الرسمية المنطوق منها والمكتوب ، ولكنها

ليست مُستخدمة فى أى قطاع من قطاعات المجتمع لتجاذب أطراف الحديث اليومى والعادى .

فعلى سبيل المثال ، تكون اللغة المُستخدمة فى المنزل فى أى جماعة «ديجلوسية» تتسم بالازدواج اللغوى ، نوعية محلية من اللغة العربية (وقد تكون هناك اختلافات كبيرة بين أى من اللهجات العربية واللهجات الأخرى ، وقد تصل هذه الاختلافات أحياناً إلى درجة عدم الفهم المتبادل) ، ولا تتباين بين أكثر الناس حظاً من التعليم وأقلهم حظاً منه . ولكن لو أراد أحدهم أن يلقى محاضرة فى الجامعة أو خطبة فى المسجد ، وجب عليه أن يستخدم اللغة العربية المتواضع عليها ، وهى نوعية تختلف فى كل المستويات عن النوعية المحلية ، ويشعر الجميع أنها تختلف كثيراً عن اللهجة المحلية الشائعة vernacular ، لدرجة أن هذه النوعية تدرس فى المدارس بنفس الطريقة التى تدرس بها اللغات الأجنبية فى المجتمعات المتحدثة باللغة الإنكليزية . وعندما يتعلّم الأطفال الكتابة والقراءة ، فإنهم يتعلّمونها أو يدرسونها باللغة العربية المتواضع عليها بدلاً من اللهجة المحلية الشائعة .

والاختلاف الواضح بين « المجتمعات » التى « تتسم بالازدواج اللهجى » والمجتمعات المتحدثة باللغة الإنكليزية ، يكمن فى أنه لا يوجد فى المجتمعات الديجلوسية فرد واحد يتمتع بميزة تعلّم « النوعية العالية » High variety (المستخدمة فى المواقف الرسمية وفى التعليم) باعتبارها لغته الأم لأن الجميع يتحدثون « بالنوعية الدارجة » Low variety فى المنزل . ونتيجة لذلك ، فالطريقة المثلى لاكتساب « النوعية العالية » فى مثل هذه المجتمعات ، هى الذهاب إلى المدارس لا النشأة فى أسرة من نوع معيّن . وهناك بالطبع اختلافات بين الأسر فى قدرتها المادية على تحمل نفقات التعليم . ولذلك ، فإن الازدواج اللهجى لا يضمن المساواة اللغوية Linguistic equality بين الغنى والفقير . ولكن هذه الاختلافات لا تظهر إلاّ فى المناسبات العامة الرسمية التى تتطلّب استخدام النوعية العالية على عكس ظهورها فى المواقف التى تحدد فيها انتماءات الفرد الاجتماعية فور نطقه باللغة، (كما يحدث فى المجتمعات المتحدثة باللغة الإنكليزية) . وسنقول الكثير عن المواقف

فى المجتمعات غير الديجلوسية فى ٦ - ٢ و ٦ - ٤ .

ومن الواضح أن تعريف الازدواج اللهجى الذى قدّمه فرجسون شديد التحديد فى عدد من النقاط . ويطالب فرجسون ، على سبيل المثال ، أن تكون النوعيتان الدارجة والعالية منتميتين إلى نفس اللغة ، مثل العربية المتواضع عليها (الفصحى) والعربية الدارجة . ولكن ، بعض العلماء قد تجاوزوا ذلك التحديد باستخدام هذا المصطلح للدلالة على مواقف قد لا تعد ديجلوسية تماماً ، إذا ما اتبعنا هذا التعريف بدقة . فجوشوا فيشمان Joshua Fishman ، على سبيل المثال يصف باراجواى Paraguay على أنها مثال على الجماعة الديجلوسية (١٩٧١ : ٧٥) ، بالرغم من أن النوعيتين العالية والدارجة فيها تنتميان إلى الأسبانية والجوارنية Guarani ، وهى لغة هندية لا تنتمى على وجه الاطلاق إلى الأسبانية . ولأننا نوافق على فكرة عدم وجود فرق بين نوعيات لغة بعينها ونوعيات اللغات الأخرى ، فمن المعقول قبول مثل هذا التساهل فى تطبيق مثل هذا التعريف فى مواقف بعينها .

ولكن فيشمان Fishman (متبعاً جون جمبرز John Gumperz) تجاوز أيضاً هذا التعريف المصطلح ، وطبقه على كل مجتمع تُستخدم فيه نوعيتان أو أكثر تحت ظروف مختلفة أو فى مواقف مختلفة ١٩٧١ : ٧٤) . وقد يبدو أن ذلك استحداثاً يثير الأسف ، لأنه يجعل كل المجتمعات مجتمعات ديجلوسية ، حتى المجتمعات المتحدثة باللغة الإنكليزية (باستثناء المهاجرين من ذوى اللغات الأصلية الأخرى) حيث تُستخدم « سجلات السياق » و « اللهجات » فى ظروف ومواقف مختلفة (قارن على سبيل المثال بين الخطاب الوعظى والتعليق الرياضى) . وتكمن القيمة الحقيقية لمفهوم « الديجلوسيا » ، فى إمكانية استخدامه فى التصنيفات الدراسية للنوعيات Typology المختلفة فى علم اللغة الاجتماعى ، وأعنى بذلك تصنيف الجماعات وفقاً للموقف الاجتماعى اللغوى الذى يميزها . وتقدم لنا الديجلوسيا أو الازدواج اللهجى موقفاً معارضاً للمواقف السائدة فى دول مثل بريطانيا أو الولايات المتحدة والتى قد نطلق عليها « اللهجة الاجتماعية » social dialectia ويظهر من ذلك المصطلح أن هذه النوعيات تعد لهجات اجتماعية وليست سجلات سياق .

وأخيراً ، كيف يمكننا أن نوفق بين تعريف الديجلوسيا وبين زعمنا أن النوعيات لا توجد إلاّ باعتبارها وسيلة غير رسمية للتحدث عن مجموعات من الوحدات اللغوية ذات التوزيع الاجتماعى المتشابه ؟ ولو تمسكنا بهذا الموقف الأخير ، فإننا قد ننظر إلى هذه الجماعات الديجلوسية على أنها جماعات تنتمى فيها معظم الوحدات اللغوية إلى إحدى مجموعتين منفصلتين ، تستخدم كل منهما تحت ظروف أو فى مواقف مختلفة .

وعلى نقيض هذا الموقف ، فإن الوحدات اللغوية فى الجماعة غير الديجلوسية لا تقع فى عدد ضئيل من المجموعات المنفصلة ، ولكنها أقرب إلى النقيض الآخر ، حيث يكون لكل وحدة توزيع اجتماعى متميز عن غيرها . ولو اتخذنا هذا النمط كنموذج ؛ فإننا سنجد أن الاختلاف بين الجماعات الديجلوسية وغير الديجلوسية ليس أقل أهمية أو أحقية بالبحث ، ولكنه قد يتضح أنه أقل وضوحاً مما ضمنه فرجسون فى تعريفه للديجلوسيا .

٢ - ٥ خليط النوعيات Mixture of Varieties :

٢ - ٥ - ١ تحويل الشفرة Code-Switching :

سنستخدم مصطلح «نوعية» فى هذا الجزء للدلالة على ما يعبّر عنه تقليدياً باللغة أو اللهجة أو السجل السياقى. وقد يساعدنا ذلك على المناقشة فى هذا الجزء ولكن هناك أسباباً إضافية تجعلنا نشك فى جدية مفهوم « النوعية » كجزء من نظرية علم اللغة الاجتماعى ، لأن ما يُطلق عليه عادة لفظة النوعية قد يكون مختلطاً مع نوعيات أخرى حتى فى نفس الفقرة من الحديث . ومن أوضح الأمثلة على ذلك وأوسعها انتشاراً الظاهرة المسماة « بتحويل الشفرة » code-switching ، حيث يستخدم المتحدث الواحد أكثر من نوعية واحدة فى أوقات مختلفة . ويعد ذلك نتيجة تلقائية لوجود العديد من « سجلات السياق » ، لأن المتحدث قد يستخدم بالضرورة سجلات مختلفة فى مواقف مختلفة (انظر دينسون Denison ١٩٧١ وباركين Parkin ١٩٧٧ من أجل عدد من الدراسات الواضحة لظاهرة تحويل الشفرة فى

مجتمعات بعينها) . وإذا كان ذلك هو مفهوم « تحويل الشفرة » ، فماذا أضاف هذا المفهوم لما نعرفه بالفعل ؟ ولكنّ هناك مزيداً على ذلك .

أولا : هنالك ما يُطلق عليه « التحويل المجازى للشفرة » Metaphorical code-switching (بلوم وجمبرز Blom and Gumperz ١٩٧١) ، حيث يتم استخدام نوعية بعينها تُستخدم فى موقف معيّن غالباً ، فى موقف آخر مختلف ، لأن الموضوع هو من النوع الذى قد يُثار عادة فى النوع الأول من المواقف . ومن الأمثلة على ذلك ، الموقف المذكور فى أبحاث جان بيتر - بلوم Jan - Petter Blom وجون جمبرز John Gumperz عن مدينة همنسبرجت Hemnesberget فى شمال النرويج ، حيث يتسم الموقف هناك بالازدواج اللهجى Diglossic situation وتعد إحدى اللغتين، وهى النرويجية المتواضع عليها (البوك مال) Bokmal النوعية العليا ، وتعد اللهجة المحلية (الرانامال) Ranamal النوعية الدارجة .

> « لاحظنا خلال صبح أمضيناه فى مكتب إدارة الجماعة ، أن الموظفين يستخدمون تعبيرات من كل من اللغة المتواضع عليها ومن اللهجة المحلية أيضاً ، ويعتمد ذلك فى المقام الأول على ما إذا كانوا يتحدثون عن مسائل رسمية أم لا . وكذلك ، فعندما يتقدم بعض المواطنين بطلبات للموظفين ، فإن التحيات والاستفسار عن صحة أسرة المواطن عادة ما تكون باللهجة المحلية ، بينما يجرى الجزء الرسمى من التعامل باللغة المتواضع عليها .

(بلوم وجمبرز Blom and Gumperz ١٩٧١ : ٤٢٥)

ويظهر من مثل هذه الأمثلة أن المتكلمين يملكون القدرة على التحكم فى المعايير التى تتحكّم بدورها فى استخدام النوعيات ، وذلك بنفس الأسلوب الذى يتحكّم به المتكلمون بقواعد معانى الكلمات عند استخدامها استخداماً مجازياً . وذلك

شيء يعرفه الجميع من خبرتهم اليومية ، ولكنه يستحق أن يُذكر صراحة فى كتاب عن نظرية علم اللغة الاجتماعى ، لأنه يساعدنا على تجنّب النظر إلى المتحدثين على أنهم آلات لغوية اجتماعية ذاتية الحركة ، لا تستطيع التحدث إلاً فى إطار الحدود التى تحددها المعايير الاجتماعية .

وهناك شيء آخر يجعل من « تحويل الشفرة » أمراً أكثر أهمية ، وهو أن المتكلم يستطيع أن يحول الشفرات (أى النوعيات) فى إطار التركيب الواحد ، وقد يفعل ذلك مرات عديدة . ويقترح جون جمبرز John Gumperz ١٩٧٦ استخدام مصطلح « تحويل الشفرة » فى المحادثة Conversational code-switching لمثل هذا النوع ، حتّى يمكن تمييزه عن « تحويل الشفرة فى المواقف » situational code-switching(والذى يطلق هو عليه « الازدواج اللهجى » بمعناه الأكثر عمومية والمذكور سابقاً) والذى تتطابق لحظة تحويل الشفرة فيه مع لحظة تغير الموقف . ولا يطرأ مثل هذا التغيير على الموقف فى « تحويل الشفرة فى الحديث » ، كما لا يوجد أى تغيير فى الموضوع قد يؤدى إلى « التحويل المجازى للشفرة » . وعلى خلاف ذلك، فإن الانطباع الذى نخرج به ، هو أن الغرض من تحويل الشفرة فى المحادثة إنتاج أمثلة من النوعيتين بنسبة متعادلة تقريباً . ويمكننا تحقيق مثل هذا التوازن عن طريق استخدام نوعية للتعبير عن تركيب بعينه ، ونوعية أخرى للتعبير عن تركيب آخر ، وهكذا دواليك ، ولكن من الممكن أيضاً استخدام النوعيتين فى أجزاء مختلفة من التركيب الواحد . ويبدو أن « تحويل الشفرة فى المحادثة » أمر مسموح به فى بعض المجتمعات ، وغير مسموح به فى مجتمعات أخرى . هو شيء لا يفعله الفرد مزدوج اللغة ، إلاً عندما يتحدث إلى عضو من أعضاء المجتمع الذى يسمح بذلك .

ومن أوضح الأمثلة على « تحويل الشفرة فى المحادثة » ، هو تلك الأمثلة التى تكون فيها النوعيات المستخدمة مختلفة للغاية ، كما هو الأمر عندما تكون هذه النوعيات لغات مختلفة . والفقرة التالية ، نص من حديث متحدث من أصل « بورت ريكى » Peurto Rican من سكان مدينة نيويورك ، وقد قدّم ذلك المثل ويليام لابوف

١٩٧١ ، وقد ترجمت الأجزاء الأسبانية من هذا الحديث داخل أقواس :

Por eso cada (therefore each ...), you know it's noting to be proud of, porque yo no estoy (because I'm not) proud of it, as a matter of fact I hate it, pero viene Vierne y sabado yo estoy, tu me ve hacia mi, sola (but come (?) Friday and saturday I am, you see me, you look at me, alone) with a, aqui solita, a veces que Frankie me de ja (here alone, Sometimes Frankie leaves me), you know a stick or something ...

وتعدمثل هذه الأمثلة هامة ، حيث إنها تظهر أن التصنيفات التراكيبية المستخدمة فى تصنيف الوحدات اللغوية قد تكون مستقلة عن توصيفاتها الاجتماعية. ففى النص السابق ، مثلاً ، تتبع الفعل الأسبانى (estoy) (am) صفة، ولكنه استخدم صفة من اللغة الإنكليزية (proud) . وقد يؤيد ذلك وجهة النظر القائلة بأن بعض التصنيفات التراكيبية (وتصنيفات أخرى غيرها) المستخدمة فى التحليل اللغوى قد تكون تصنيفات « شمولية » Universals ، أى أنها لا تقتصر على لغة بعينها ، بل تتعداها لتصلح لتصنيف معظم اللغات الأخرى .

وهناك مثال أوضح من ذلك على تحويل الشفرة فى المحادثة داخل التركيب الواحد اقتبسته جيليان سانكوف Gillian Sankoff ، وهو مأخوذ من كلام رجل أعمال من قرية فى غينيا الجديدة (سانكوف Sankoff ١٩٧٢ : ٤٥) ، واللغات المعينة هنا هى ما يُسمى بالبوانج Buang والرطانة الميالنيزية الحديثة Neo-Melanisian Pidgin أو « توك بيزين » Tok Pisin (والتى سنعود إليها فى الجزء ٢-٥-٣) .

فصيغة النفى فى لغة البوانج تتحدد باستخدام صيغة su قبل المسند Predicate وصيغة re بعده . ولكن وجد المسند فى أحد التراكيب (وهو أطول من

أن نورده هنا) باللغة الإنكليزية ، إلا أنّه وقع بين حَدّىْ صيغة النفى فى البوانج وهما su ... re . ونستطيع أن نصل إلى نتيجة ، فحواها أنه حتى الوحدات التى تنتمى إلى لغتين مختلفتين مثل البوانج والرطانة المالينيزية الحديثة يمكن أن يصنفها المتحدثون وعلماء اللغة على صورة مجموعة من التصنيفات التراكيبية المشتركة (كما هو الحال بالنسبة للمسند فى هذه الحالة) . والموضوع الجدير بالبحث فى إطار جماعة تسمح « بتحويل الشفرة فى المحادثة » ، هو إمكانية وجود أية قيود على مكان وقوع التغيير فى الشفرة فى التركيب . فهل يمكن مثلاً أن يحدث هذا التغيير فى منتصف أشباه الجمل الأسمية ، noun phrase .

وسواء أكانت هذه القيود ناتجة عن العرف الاجتماعى أو ناتجة عن قصور قدرات العقل البشرى ، فإن نتائج مثل هذه الأبحاث قد تكون هامة .

٢ - ٥ - ٢ الاستعارة Borrowing :

ومن الوسائل الأخرى التى قد تختلط بها النوعيات المختلفة بعضها ببعض ، هى حدوث ذلك من خلال عملية الاستعارة (انظر برلينج Burling ١٩٧٠ : الفصل ١٢ من أجل عرض موجز وجيد ، وهناك عرض أطول فى بينون Bynon ١٩٧٧ : الفصل ٦) . ومن الواضح أن ما نعنيه بكلمة استعارة ، هو استعارة وحدة بكاملها من نوعية إلى أخرى مثل استعارة اسم طبق فرنسى boeuf bourguignon للاستخدام كمصطلح إنكليزى ، وقد استعير بأكمله بما فيه نطقه باللغة الفرنسية (وهو ينطق بحرف "r" « اللهوى » uvular "r" إلخ) ، والمتحدثون الإنكليز الذين يعرفون أن هذه الوحدة جزء من لغة أجنبية يعيدون تصنيفها عن طريق تغيير وصفها الاجتماعى من « الفرنسية » إلى اللغة « الإنكليزية » (تغيير صفتها من كونها كلمة يستخدمها الفرنسيون إلى كونها كلمة أستخدمها أنا) . وعلى عكس عملية تحويل الشفرة ، فإن هذه العملية لا تتطلب أى تغير فى النوعية عند استخدام مثل هذه الوحدة فى تركيب إنكليزى مثل : Let's have some boeuf bourguignon. ما

دامت كلمة boeuf bourguignon قد أصبحت جزءاً من اللغة الإنكليزية من وجهة نظر المتحدث . ولو أن المتحدث قال : .Let's have du boeuf bourguignon فإنه يكون قد حول الشفرة لأن كلمة du (بعض) كلمة فرنسية ، وليست كلمة إنكليزية وهى لا تستخدم إلاّ بصحبة اسم فرنسى ، ويمكننا أن نقول بمنتهى الثقة أن التركيب let's .have du bread لا يمكن حدوثه إلاّ فى حالة كون كلمة bread bourguignon قد استعيرت من الإنكليزية إلى الفرنسية ، وعندئذ ، تعد كلمة فرنسية . ولا تُستعار غالباً كلمات مثل du كما تُستعار الكلمات المنفصلة مثل boeuf bourguignon ، لأنه ليست هناك حاجة لاستعارتها فى النوعية المستعيرة .

ومن المألوف أن تستوعب assimilated الوحدات المستعارة إلى حد ما فى الوحدات القائمة فعلاً فى النوعيات المستعيرة ، وغالباً ما تُستبدل الأصوات المحلية بالأصوات الأجنبية . فقد فقدت كلمة "restaurant" مثلاً حرف "r" اللهوى uvular عندما استعيرت من الفرنسية إلى الإنكليزية ، ولذلك فهى لا تُستخدم بحرف (r) اللهوى فى التراكيب الإنكليزية ، إلاّ كمثال على تغيير الشفرة . ومن الناحية الأخرى، فإنه لا يشترط أن يكون مثل هذا الاستيعاب استيعاباً كاملاً فكثير من المتحدثين ما زالوا يحتفظون بالصائت الأنفى nasal vowel فى نهاية الكلمة ، ولولا كون الكلمة مستعارة من الفرنسية لما وُجِدَ هذا الصوت فى نهايتها . ومثل هذه الكلمات تجعل من الصعب أن نفصل بين الإنكليزية والنوعيات الأخرى ، وتجعل من الصعب توصيف «نظام الوحدات الصوتية الإنكليزية المجردة» English Phoneme System لأن النظام الإنكليزى غالباً ما يختلط مع أنظمة اللغات الأخرى . ومن ناحية أخرى ، فإن هذه الظاهرة شائعة للغاية فى اللغة الإنكليزية وكذلك فى اللغات الأخرى . لاحظ مثلاً الصوت الحنكى الاحتكاكى velar fricative فى نهاية كلمة loch (لوخ : بحيرة ، باللهجة الإسكوتلندية) والحروف الاحتكاكية الجانبية المهموسة voiceless lateral fricatives فى كلمة Llangollen ، وكلاهما قد يقع فى تركيب إنكليزى عادى دون وقوع أى تحويل فى الشفرة .)

والكلمة المستعارة loan word غير المستوعبة تماماً تقع فى إحدى نهايتى

المتواصل scale ، بينما تقع فى النهاية الأخرى وحدات لا توجد بينها وبين الكلمات الأجنبية الأصلية التى اشتقت منها أية علاقات شكلية . وغالباً ما يُطلق على مثل هذه الكلمات الأخيرة ترجمات مستعارة loan translations ، فالكلمة الإنكليزية مثلاً superman هى مجرد ترجمة مستعارة للكلمة الألمانية Ubrmensch ، أما العبارة الإنكليزية .I've told him I don't know how many times فهى ترجمة للعبارة الفرنسية .Je le lui ai dit je ne sais pas combien de fois (بلومفيلد ١٩٣٣ : ٤٥٧) . وما يظهر من هذه الأمثلة ، هو أن الاستعارة قد تحدث على مستوى التراكيب syntax والدلالة semantics دون الإخلال بالنطق . وذلك قد يرجعنا إلى مسألة الملامح الجغرافية ، التى سبق أن ناقشناها فى ٢ - ٣ - ٤ ، حيث سبق أن رأينا أنه من المألوف أن تُعار وتُستعار الخصائص التراكيبية من لغة إلى لغات أخرى مجاورة ، وذلك عن طريق الأفراد مزدوجى اللغة ، ولدينا ثلاث وسائل يمكن من خلالها تفسير كيفية حدوث ذلك . أولاً : هناك ميل واضح نحو حذف البدائل فى التراكيب (انظر ٢ - ٣ - ٤) ، ثم هناك أيضاً الترجمات المستعارة loan translations ، كتلك التى سبق أن ذكرناها والتى قد تقوم بدور نماذج تحتذى عندما يُراد تطوير بعض التعبيرات المحلية . وثالثاً : هناك تحويل الشفرة فى المحادثة (٢ - ٥ - ١) ، وهو يساعد على أن تكون اللغات المتجاورة أكثر تشابهاً وتطابقاً من ناحية التراكيب ، حتى يصبح من السهل استبدال الوحدات بين كل من النوعيتين دون تغيير التركيب ، فإذا كانت اللغتان المعنيتان تضعان المفعول به object بعد الفعل ، مثلاً ، فإن تحويل الشفرة يصبح أكثر يُسراً مما لو كانت إحدى هاتين اللغتين تضعه قبل الفعل ، بينما تضعه الأخرى بعده . والسؤال الآن ، إذن ، هو : هل ثمة جوانب لغوية لا يجوز استعارتها من لغة إلى أخرى . ويبدو أن الجواب على هذا السؤال هو بالنفى (بينون ١٩٧٧ : ٢٥٥) . فحتى الصيغ الصرفية النحوية inflectional morphology يجوز استعارتها من لغة إلى أخرى ، وكشاهد على ذلك ، يبدو أن اللغة التنزانية المسماة «مبوجو» Mbugu قد استعارت صيغها الصرفية من لغة « البانتو » ، أو من واحدة أو أكثر من لغات البانتو Bantu المجاورة ، بالرغم من أن جوانب لغة « المبوجو»

النحوية الأخرى « غير بانتوهية » بالمرة Non-bantu . وتتضمن خصائص نحو «المبوجو» غير البانتوهية ضمائر الغائب personal pronouns والأرقام الأساسية من ١ إلى ٦ ، والتى تعد فى الظروف العادية من المفردات الأساسية فى اللغة basic vocabulary ، والتى لا يجوز استعارتها (بينون Bynon ١٩٧٧ : ٢٥٣) . وتتسبب مثل هذه الحالات فى خلق مشكلات كثيرة لنموذج الشجرة الأسرية ، لأنه ينبغى أن تمثّل كل لغة فى شجرة واحدة فقط ، بينما الواقع هو أن بعض الخصائص تنتمى فى المقام الأول إلى شجرة البانتو أما البعض الآخر فينتمى إلى شجرة أخرى (وقد تكون هذه الشجرة « شجرة » اللغات الكوشيتية Cushitic Languages ، فكيف يمكننا إذن أن نجد حلاً لمثل هذه المشكلات ؟ هل يمكننا تطبيق المبادىء العامة فى الموازنة بين الأدلة المأخوذة من الصيغ الصرفية والأدلة المأخوذة من المفردات الأساسية» ؟ (قد نلاحظ بطريق الصدفة أن الصيغ الصرفية مماثلة لأنماط العلاقات الوفاقية Concord فى قواعد لغة البانتو ، وهى تعد طبعاً جزءاً من علم التراكيب) . وقد نتساءل عما إذا كان هناك أى نوع من « الحقيقة الخارجية » نستطيع أن نقيس عليها أو تقوم على أساسها إجاباتنا على مثل هذه الأسئلة .

ولو افترضنا أنه ليست هناك جوانب لغوية لا تجوز استعارتها ، فعلينا أن نطرح أسئلة عن اللغة قد تساعدنا على التمييز بين الجوانب اللغوية المختلفة . فعلى سبيل المثال ، هل هناك أية قيود على الظروف أو المواقف التى يمكن استعارة الجوانب اللغوية المختلفة فى ظلها ؟ قد نتصور مثلاً أنه يجوز استعارة بعض الجوانب اللغوية فى ظل ظروف أو مواقف « الازدواج اللغوى الواسع » wide spread bilingualism ، بينما يجوز استعارة جوانب لغوية أخرى عندما يكون بعض الأفراد فى المجتمع مزدوجى اللغة فى لغات بعينها . وتعد بعض الجوانب اللغوية فى النوع الأول أقل قابلية للاستعارة ، بينما تعد جوانب النوع الثانى أكثر قابلية للاستعارة . وذلك يمكننا من أن نقيم « متواصلاً » يحدد قابلية الوحدات اللغوية للاستعارة ، وتقع فى الجانب الأقل قابلية للاستعارة من هذا المتواصل الصيغ الصرفية « والمفردات الأساسية » ، مثل الأرقام الصغيرة ، بينما تقع فى الجانب الأكثر قابلية للاستعارة المفردات الدالة على

الأجهزة والأشياء (مثل areoplane (طائرة) و (هامبرجر) hamburger . ولا يُستعار ، مثلاً ، المفرد الدال على « واحد » إلاّ فى الحالة التى يمتلك الجميع فيها القدرة على التحدث باللغتين « اللغة المستعيرة » borrowing language واللغة المصدر source language ، بينما يمكن استعارة مفردات مثل « طائرة » بسهولة عندما لا يكون أحد من المتحدثين قادراً على التحدث باللغتين بطلاقة ، ولكن قد يكون ثمة شخص أو شخصان من المتكلمين على معرفة باللغة المصدر بشكل يسمح له، أولهما، بمعرفة المفرد الدال على طائرة مثلاً . غير أنه قد يتضح أن الحقيقة أكثر تعقيداً مما تصورناه ، وبخاصة فيما يتعلّق بتنظيم الوحدات اللغوية على صورة مستويات منفصلة كالتراكيب والمفردات والأصوات ، لأنها تضع المفردات فى النهايتين المتضادتين للمتواصل . « فالاستعارة » ظاهرة لغوية قادرة على الكشف عن التنظيم الداخلى للغة وبخاصة علاقة اللغة بالمجتمع ، وذلك إذا قام العلماء بالنوع الصحيح من البحث العلمى .

٢ - ٥ - ٣ « الرطانة » Pidgin :

هناك وسيلة أخرى بالإضافة إلى « تحويل الشفرة » و « الاستعارة » قد تؤدى إلى وقوع اختلاط بين النوعيات وخاصة فى حالة تكوين نوعية جديدة مشتقة من نوعيتين (أو أكثر) من النوعيات القائمة فعلاً . وعملية « تركيب النوعية » variety-synthesis قد تتخذ أشكالاً عديدة ، على سبيل المثال ، تكوين لغات صناعية إضافية Artificial auxiliary languages مثل لغة الإسبرانتو Esperanto واللغة الإنكليزية الأساسية Basic English (انظر بولينجر Bolinger ١٩٧٥ : ٥٨٠) . وعلى أية حال ، فإن خير مثال على ذلك هو عملية تكوين الرطانة ، أو ما يمكن أن نطلق عليه عملية « الترطين » pidiginisation ، وهى العملية التى تتكون عن طريقها اللغات الرطنة أو الرطانات Pidigin languages or Pidgins . وقد تكونت هذه النوعيات لأغراض عملية ومباشرة بغرض الاتصال بين أناس لا توجد لديهم

لغة اتصال مشتركة ، وغلاباً ما يتعلّمها فرد من آخر داخل جماعات بعينها ، باعتبارها وسيلة مقبولة للاتصال بأفراد جماعة أخرى (وهناك عرض ممتاز للقضايا المدروسة هنا وفى الجزء ٢ - ٥ - ٤ فى كتاب ديكامب DeCamp ١٩٧٧) .

ولأن السبب الرئيس للرغبة فى الاتصال بأفراد الجماعات الأخرى هو التجارة ، فإن « الرطانة » غالباً ما تكون هى « لغة التجارة » Trade language ، ولكن لا يقتصر استخدام كل الرطانات على هذا الغرض ، وبالتالى فليست كل لغات التجارة رطانات . وخلافاً لذلك ، يمكن أن تستخدم الجماعات الأخرى لغة جماعة بعينها فى المنطقة لأغراض التجارة المشتركة . وقد سبق ذكر أن لغة التوكانو Tukano ، وهى لغة واحدة من عشرين قبيلة من القبائل التى تقطن منطقة شمال غرب الأمازون ، تُستخدم لغة للتجارة بين القبائل الأخرى فى نفس المنطقة . كما تُستخدم اللغتان الإنكليزية والفرنسية على نطاق واسع باعتبارهما لغتى تجارة فى مناطق كثيرة من أفريقيا . وعلى عكس ما يحدث بالنسبة لهذه اللغات ، فإنّ الرطانة نوعية تتكون خصيصاً بغرض الاتصال بجماعة أخرى ، لا للاتصال بين أفراد الجماعة أنفسهم .

ويعتقد الكثيرون أن مصطلح الرطانة باللغة الإنكليزية Pidgin مشتق بتحريف من الكلمة الإنكليزية Business (وهى تعنى « العمل » « الأعمال » و «التجارة») كما تنطق فى الرطانة الإنكليزية التى تكونت فى الصين (وذلك لأن كلمتى Business English كانت تُنطق Pidgin English ، انظر ديكامب DeCamp ١٩٧١ - أ) . وينتشر عدد كبير من لغات الرطانة فى كل قارات العالم بما فيها أوروبا حيث استطاع العمال المهاجرون ، فى بلد مثل ألمانيا ، تكوين نوعيات رطانة من اللغة المحلية القومية المستخدمة فى البلد التى يعملون فيها بعد الهجرة . وقد تكونت كل من هذه الرطانات لتناسب احتياجات مَنْ يستخدمونها ، يعنى ذلك أنَ مثل هذه الرطانات يجب أن تتضمن كل المصطلحات والتراكيب ، التى يحتاج إليها هؤلاء العمال فى الاتصال والتعامل العادى الذى غالباً ما يقع بين هذه الجماعات ، وليس من الضرورى أن تتعدى الرطانة هذه الحدود لتقوم بسد الحاجة للاتصال فى المناسبات نادرة الوقوع . فلو اقتصر هذا الاتصال أو التعامل على بيع الماشية ، مثلاً ،

فإن المفردات اللغوية الخاصة بمثل هذا التعامل هى التى تتكون وتُستخدم، وعلى ذلك، فلن تكون هناك مفردات أو وحدات تسمح بالتحدث عن نوعية الخضروات أو العواطف أو أية موضوعات أخرى نستطيع التحدث عنها فى أية لغة عادية .

ومن المتطلبات الرئيسية الأخرى فى الرطانة أن تكون بسيطة وسهلة التعلّم ، وبخاصة من قبل أولئك الذين لا ينتفعون إلاّ قليلاً من تعلّم مثل هذه اللغة ، وعلى ذلك فإن مفردات مثل هذه اللغة غالباً ما تؤخذ من مفردات لغة الجماعة الكلامية السائدة . وعلى سبيل المثال ، لن تنتفع جماعة العمال الأتراك المهاجرين الذين يعملون ويقطنون فى ألمانيا كثيراً من رطانة اشتقتْ مفرداتها من اللغة التركية ، لأنه لا يوجد إلاّ عدد قليل من الألمان على استعداد لبذل الجهد الكافى لتعلّم مثل هذه الرطانة ، ولذلك فإن الرطانة التركية تأخذ مفرداتها من اللغة الألمانية . وبالمثل ، ففى موقف استعمارى ، حيث يحتاج ممثلو السلطة الأجنبية المستعمرة للاتصال بالسكان الأصليين فى المسائل التجارية والإدارية ، تكون مفردات الرطانة الناتجة مأخوذة أصلاً من مفردات لغة القوة المستعمرة ، وذلك إذا كان من مصلحة السكان الأصليين اكتساب القدرة على الاتصال ، ولذلك توجد أعداد كبيرة من الرطانات المنتشرة فى مختلف أرجاء العالم مأخوذة أصلاً من اللغات الإنكليزية والفرنسية والبرتغالية والهولندية .

ولكن بالرغم من أن مفردات الرطانة قد تكون مأخوذة أصلاً عن لغة جماعة بعينها ، فإن « النوعية » السائدة Dominant variety أى الرطانة تظل قائمة على نوع من التوفيق بين النوعية « السائدة » والنوعيات الثانوية الأخرى Subordiante varieties ، وذلك من جهة أن تراكيبها وصوتياتها قد تكون مشتقة من النوعيات الثانوية ، مما يجعل تعلّم الرطانة أسهل على الجماعات الأخرى من تعلّم النوعية «السائدة» فى حالتها العادية . أما « الصيغ الصرفية » morphology فهى غير واردة تماماً فى الرطانات ، وذلك يجعلها أيسر فى تعلمها . وإذا كانت الاختلافات الناتجة عن اختلاف الزمن tense والعدد †numberوالحالة الإعرابية case غير واضحة تماماً ، فإنها يمكن أن يستدل عليها من خلال الحروف الإضافية المنفصلة ، لا من خلال الصيغ الصرفية . والحقيقة هى أن غياب الصيغ الصرفية يعد واحداً من أهم الخصائص

المميزة للرطانة . وإذا ما وُجِدَتْ نوعية معينة تتضمن صيغاً صرفية ، وبخاصة صيغ صرفية ذات وظيفة نحوية Inflectional Morphology ، فإن معظم المتخصصين يترددون كثيراً فى معاملة النوعية المتضمنة لتلك الصيغ على أساس أنها رطانة (ولا يعنى ذلك بالطبع أن كل لغة لا تتضمن صيغاً صرفية تكون بالضرورة رطانة) .

وغياب الصيغ الصرفية النحوية من الرطانات أمر هام ، وبخاصة إذا كان الأمر لا يزيد عن كونه خصيصة من خصائص المواقف الاتصالية ، سواء أكانت اللغة المعنية تتضمن قدراً كبيراً من الصيغ الصرفية ذات الوظيفة النحوية ، أم كانت هذه الصيغ نادرة فى اللغة (كالإنكليزية مثلاً) . وقد يشير هذا الأمر إلى سمة عامة فى اللغة الإنسانية ، هى أنّ الصيغ الصرفية ذات الوظيفة النحوية تمثّل بمعنى ما وسيلة غير عادية للتعبير عن الاختلافات الدلالية والتراكيبية . وعلى ذلك ، فإن هذه الصيغ لا تستخدم إطلاقاً فى الرطانة حتى ولو كانت تتسم بالبساطة ، والمثال على ذلك الصيغة الصرفية للجمع فى الإنكليزية وهى الـ « s - » التى لا تظهر قط فى الرطانات المشتقة من هذه اللغة ، فالذى يحدث غالباً هو استبدالها بكلمات منفصلة للدلالة على الجمع . وإذا كان الأمر فى الصيغ الصرفية النحوية هو أمر صعوبة أو أمر عدم كفاءة فى الاتصال، فمن الغريب حقاً انتشار هذه الصيغ مثل هذا الانتشار الواسع بين كل اللغات، وما هو أكثر غرابة من ذلك ، هو أن هذه اللغات قادرة على تحمل كل هذا التعقيد والشذوذ فى صيغها الصرفية النحوية والاحتفاظ بهما ، مع التسليم بأن هذه الصيغ لا تفيد أحداً على وجه الإطلاق . وقد سبق فى ١ - ٣ - ١ أن اقترحنا أن الدافع وراء استبقاء وتطوير الصيغ الصرفية الشاذة ، هو نوع من الضغط على الفرد حتى يلتزم بتطابق لغته مع لغة الآخرين. وقد يكون هناك ضغط مشابه واقع من قبل المجتمع على الأفراد ، وقد يعد ذلك تفسيراً لاستبقاء الصيغ الصرفية عامة ، والاحتفاظ بها سواء أكانت شاذة أو عادية ، ومثل ذلك الضغط الاجتماعى الذى يمنع الأفراد من إزالتها عندما يكون المعيار اللغوى الوحيد هو كفاءة الاتصال وسهولته .

وبتعبير آخر، لو كانت النوعية المقصودة هى لغتك الأصلية native language فإنك ستستخدمها لتحديد انتمائك إلى الجماعة التى تستخدمها، وذلك

عن طريق الالتزام بمعايير الجماعة اللغوية ، بما فى ذلك أدق تفاصيل النطق والصيغ الصرفية . فلو بسطنا الصيغ الصرفية الشاذة أو نظمناها ، فإننا بذلك نكون قد ميزنا أنفسنا عن بقية الجماعة وكأننا دخلاء غير منتمين . ولكن إذا كانت النوعية المعنية «رطانة» فلا يوجد ثمة مَنْ يستخدمها وسيلةً لإظهار الانتماء إلى جماعة معينة . ولذلك ، لا توجد أية ضغوط لاستبقاء الجوانب الشاذة فى النطق . ويقوم مثل هذا الرأى بالطبع على نوع من التخمين ، ولكن ظاهرة عدم وجود أية صيغ صرفية نحوية فى الرطانات ظاهرة تستوجب التفسير . والرأى المطروح هنا واحد من التفسيرات التى تستحق البحث . ومن اليسير أن نرى من المناقشة السابقة ، العلة وراء اهتمام علم اللغة بالرطانة إلى هذا الحد الكبير ، وذلك لأنها دليل على ما قد يحدث للغة إذا لم تُستخدم كرمز للهوية الاجتماعية .

ولنعد ، إذن ، إلى السؤال الأكثر عمومية وهو ما يتعلّق بقضية العلاقة بين الرطانة والمجتمعات التى خلقتها . وكما رأينا من قبل ، فإن الرطانة غالباً ما تنشأ بصفتها لغة التجارة ، وقد نعدها بصفة عامة نوعيات مستخدمة فقط لغرض التجارة والإدارة . ومن الأمثلة على الرطانات التى نشأت بهذه الطريقة أو تحت مثل هذه الظروف ، الرطانة المالينيزية الحديثة Neo-Melanesian أو التوك بزين Tok Pisin أى بيدجين توك Pidgin talk (انظر ٢ - ٥ - ١) . وهذه الرطانة مأخوذة عن اللغة الإنكليزية المستخدمة فى غينيا الجديدة وعدد من الجزر المجاورة New Guinea ، وقد نشأت تلك الرطانة وتطورتْ كوسيلة للاتصال بين الإداريين المتحدثين باللغة الإنكليزية والسكان المحليين ، الذينَ يتحدثون بدورهم مجموعة ضخمة من اللغات المختلفة (وإحدى هذه اللغات هى لغة البوانج Buang) . وقد تعطينا التراكيب التالية من «التوك بيزين» Tok Pisin (المقتبسة من بولينجر ١٩٧٥ : ٣٥٦) فكرة عن علاقتها باللغة الإنكليزية . وتظهر الكلمات الواقعة بين قوسين الأصل الإنكليزى لعبارات توك بيزين السابقة عليها :

Bimeby (by and by) leg belong you he - all - right gain (again)

'Your leg will get well again'

Sick he - down - im (him) me.

' I am sick '

Me like - im saucepan belong cook - im bread.

'I want a pan for cooking bread'

ومثل عدد كبير من الرطانات الأخرى ، فقد تطورتْ التوك بيزين بكفاءة عالية وأصبحتْ الوسيلة المقبولة للاتصال فى العديد من المواقف ، لدرجة أنها قد تحولتْ الآن إلى « لغة متواضع عليها » فى غينيا الجديدة (هال Hall ١٩٧٢) . (وقد تحولتْ التوك بيزين أخيراً إلى لغة كريولية كما سنرى فى ٢ - ٥ - ٤) .

ولكن كل الرطانات الأخرى دون استثناء لم تنشأ بدافع الحاجة إلى لغة تجارية كما نشأتْ التوك بيزين . فهناك مواقف أخرى نشأتْ فيها الحاجة إلى رطانات عندما اضطر أُناس من خلفيات لغوية مختلفة ، للتعامل مع بعضهم بعضاً والاتصال فيما بينهم أو مع الجماعة السائدة . وهذا هو الموقف الذى وَجَدَ معظم الأفريقيين أنفسهم فيه عندما أُخذوا عنوة عبيداً إلى العالم الجديد ، فقد حاول تجار العبيد دائماً فسخ الروابط القبلية اللغوية بين الجماعات ، حتى يقللوا من مخاطر التمرد والثورة . ولذلك أصبحتْ الطريقة الوحيدة التى يستطيع العبيد بها أن يتصلوا ببعضهم بعضاً أو بأسيادهم هى الرطانة التى تعلّموها من تجار العبيد ، والتى أُخذتْ فى الأصل عن لغة هؤلاء التجار. ولأن معظم العبيد لم يكن لديهم الفرصة لتعلّم لغة أسيادهم العادية ، فقد أصبحتْ هذه الرطانة وسيلة العبيد الوحيدة للاتصال بقية حياتهم . وقد نتجتْ عن هذا الموقف نتيجتان : أولاهما ، أن الرطانات أصبحتْ مرتبطة بالعبيد ، ولذلك اكتسبتْ سمعة سيئة (ووصم العبيد بالغباء لأنهم لم يتمكنوا من التحدث بلغة « صحيحة » !) وقد كانت النتيجة الثانية ، هى أن الرطانة قد تزايد استخدامها فى كثير من المواقف

المختلفة ، وذلك مما أدى تدريجياً إلى اكتسابها مكانة اللغة الكريولية (انظر ٢ - ٥ - ٤) .

وقد يكون من المفيد هنا أن نجمع بعض خصائص « الرطانة » التى قد تميزها عن الأنماط الأخرى من النوعيات وعن خليط النوعيات أيضاً variety mixture .

(١) الرطانة المشتقة من النوعية س مثلاً ليست مجرد مثال على نوعية ردئية من اللغة س ، كما قد نصف محاولة الفرد الأجنبى الفاشلة لتعلّم النوعية س . فالرطانة بحد ذاتها « نوعية » مستقلة لها جماعة من المتحدثين بها يقومون بتوريثها إلى الأجيال التالية ، وبالتالى فإن للرطانة تاريخاً خاصاً بها . ويعتقد الكثيرون فى الواقع أنّ معظم الرطانات قد نشأت من أصل واحد ، هو الرطانة المشتقة من اللغة البرتغالية والتى تطورتْ بدورها فى الشرق الأقصى وغرب أفريقيا خلال القرن السادس عشر تحت تأثير البحارة البرتغاليين ، وقد تكون لمثل هذه الرطانة المشتقة من البرتغالية جذور فى « لغة التعامل مع الأجانب » Lingua Franca والتى نشأتْ وتطورتْ فى البحر الأبيض المتوسط منذ الحملات الصليبية . ويمثّل هذا الرأى محاولة من محاولات تفسير وجود عدد كبير من الخصائص المتشابهة القائمة فى معظم الرطانات فى مناطق كثيرة من العالم . (انظر ديكامب ١٩٧١ - أ ، ١٩٧٧ من أجل عرض ممتاز لكل هذه القضايا) .

(٢) وليست الرطانة مجرد محصّلة كم هائل من الاستعارة بين نوعية وأخرى ما دامت لا توجد نوعية سابقة معينة يمكن أن تستعير من نوعيات أخرى ، وأية رطانة مشتقة من « س » مثلاً ليست « نوعية » من «س» استعارت الكثير من التراكيب والخصائص الصوتية من نوعيات أخرى ، لأنه قد لا تكون هناك نماذج فى هذه النوعيات الأخرى للتغيير فى أشكال الكلمات ، وبخاصة فقدان الصيغ الصرفية الذى سبق ذكره .

وليست الرطانة أيضاً نوعية من لغة أخرى قامت باستعارة الكثير من مفردات اللغة س ، لأنه لا يشترط أن تكون التراكيب والصوتيات والصيغ الصرفية مشابهة للنوعيات الأخرى المذكورة . وعلى أية حال فليس من الواضح ، أي الجماعات هي المستعيرة لأن الرطانة تتطور تطوراً مشتركاً بمساهمة كل من الجانبين اللذين يحاولان إيجاد وسيلة للاتصال . وهناك بالطبع قضية هامة تتصل بالاستعارة لأننا قد ندرس الاستعارة فى رطانة قائمة بالفعل ، كما نفعل مع أى من النوعيات الأخرى بينما لا يمكننا أن نقول أن الاستعارة جزء من عملية تكوين الرطانة عند نشأتها . والمشكلة هنا أن ذلك قد يعنى وجود فرق واضح بين فترتين فى تاريخ الرطانة ، الفترة السابقة على نشأتها وتكوينها ، والفترة التالية لذلك . وقد تكون هذه المشكلة نتيجة لاعتمادنا الكامل على مفهوم « النوعية » الذى أشرنا من قبل إلى أن هناك من الأسباب ما يجعلنا نتشكك فيه .

(٣) وليس للرطانة كما هو الحال بالنسبة للغات العادية متحدثون أصليون يتحدثون بها باعتبارها لغتهم الأم ، وقد يكون ذلك نتيجة لاستخدام الرطانة بوصفها وسيلة للاتصال فقط بين أفراد الجماعات المختلفة ، حيث لا توجد نوعية عادية يمكن استخدامها وسيلة للاتصال . وليس هذا التحديد ، من ناحية أخرى ، واضحاً لأن هناك مواقف بعينها ، مثل موقف العبودية ، تنشأ من خلالها جماعة لا تملك لغة مشتركة سوى الرطانة ، هذا على الرغم من أن جميع أفراد هذه الجماعة قد تعلّموا تلك الرطانة باعتبارها اللغة الثانية ، وأن عدم وجود جماعة من المتحدثين الأصليين محددة تحديداً واضحاً يؤدى إلى نتيجة مؤداها وضع معظم الرطانات بالقرب من نهاية المتواصل « المنتشرة » diffuse ، وذلك يؤدى بدوره إلى وجود تعارض تام بين التضام focussing والانتشار diffusion (١ - ٣ - ١) . وقد يتعارض ذلك مع اللغات المتواضع

عليها والمتضامة للغاية (highly focussed) مثل اللغة الفرنسية . وذلك أمر يجعل الرطانة هامة بالنسبة لعلماء علم اللغة الاجتماعى ، إلاّ أنه سبق أن ذكرنا أن بعض الرطانات هى التى تُستخدم فى الوقت الحالى كلغات متواضع عليها ، وذلك يعنى أن هذه الرطانات قد تحركتْ من مكانها على المتواصل نحو نهاية « التضام » focussing- ، وهى ظاهرة أخرى تستحق البحث من قبل أولئك المهتمين بعلاقة اللغة بالمجتمع .

٢ - ٥ - ٤ الكريولية Creoles :

عندما تكتسب الرطانة جماعة من المتحدثين الأصليين ، فإنها تصبح لغة كريولية Creole Language أو كريول Creole ، والعملية التى تتحول بها الرطانة Pidgin إلى « الكريولية » هى ما تسمى بعملية « الكريلة » creolization . ومن السهل أن نرى كيف تكتسب الرطانة متحدثين أصليين ، وخاصة عندما يتحدث بها الأبوان ، ثم ينشئون الأطفال على الحديث بالرطانة كلغة أُم . وقد حدث ذلك بشـ واسع بين العبيد الأفريقيين الذى أُخذوا عنوة إلى العالم الجديد ıne New World . كما حدث ذلك بشكل أقل انتشاراً فى الجماعات الحضرية فى مناطق مختلفة ، مثل منطقة غينيا الجديدة .

وتعد الكريولية من منظور اجتماعى أكثر أهمية من الرطانة لثلاثة أسباب :

أولا : إن عدد المتحدثين بالكريولية أكبر من عدد المتحدثين بالرطانة ، وقد قدر عدد المتحدثين بالكريولية فى أحد التقديرات بما يتراوح بين عشرة ملايين وسبعة عشر مليوناً ، بينما يتراوح عدد المتحدثين بالرطانة بين ستة ملايين واثنى عشر مليوناً (ديكامب DeCamp ١٩٧٧) . **ثانياً** : تعد معظم اللغات الكريولية التى يتحدث بها أحفاد العبيد الأفريقيين ذات شأن عظيم بالنسبة للمتحدثين ذاتهم وبالنسبة لغيرهم، باعتبارها أحد مصادر المعلومات التى تدلّ على أصولهم ، كما تعد أيضاً رمزاً على هويتهم . وهناك أيضاً اهتمام باللغة من جانب مَنْ يتحدثون بالنوعيات ذات

الأصل الكريولى والتى « زالت عنها صفة الكريولية » "decreolized" ، أى أنها تحركتْ باتجاه النوعية السائدة بفقدانها لمعظم صفات الكريولية وخصائصها . ويبدو أن اللغة الإنكليزية التى يتحدث بها الزنوج فى الولايات المتحدة تنتمى إلى هذه النوعية، ولذلك فإن اللغة الكريولية ذات أهمية خاصة بالنسبة لكثير من علماء اللغة الأمريكيين (انظر ١ - ٣ - ٢ و ٥ - ٤ - ٢ وهناك عرض ممتاز فى وولفرام Wolfram ١٩٧١) .. **ثالثاً** : هناك أقليات Minority groups ، مثل المهاجرين من الهند الغربية إلى بريطانيا ، يتحدث أفرادها نوعاً من الكريولية . وإذا كانت هذه الكريولية مشتقة من لغة الغالبية فى البلد التى هاجرت إليها هذه الأقليات كالكريولية المأخوذة عن اللغة الإنكليزية English based-creole ، فى حالة المهاجرين إلى بريطانيا فقد تنشأ مشكلات تعليمية خطيرة فى حالة عدم معرفة الطلاب أو المعلمين بدقة فيما إذا كانت هذه الكريولية لغة تختلف عن لغة الغالبية ، أو أنها مجرد لهجة من لهجاتها . فإذا اتضح أنها نوعية مختلفة عن لغة الغالبية ، فإنه يكون من المناسب استخدام وسائل تدريس اللغات الأجنبية لتعليم لغة الغالبية (وهى اللغة الإنكليزية فى مثل هذه الحالة) ، ولكن هذا الأسلوب يكون غير ملائم إذا كانت لغة المهاجرين مجرد لهجة من لغة الغالبية . وتحتاج هذه القضية ، بالتالى إلى مزيد من البحث حتى نستطيع تحديد مدى اختلاف الكريولية عن لغة الغالبية وهناك مشكلات مشابهة فى الدول التى تكون فيها لغة الغالبية هى الكريولية، وبخاصة عندما تكون اللغة التى يتطلبها النظام التعليمى هى ذاتها النوعية المتواضع عليها والمأخوذة عن الكريولية ، كما هو الحال فى كثير من الدول الواقعة فى منطقة البحر الكاريبى . وقد تبدو القضية أكثر صعوبة إذا أخذنا فى الاعتبار أنه لا يوجد اختلاف بين صفتى «التماثل» و «الاختلاف» ، وذلك عند استخدامها لوصف النوعيات اللغوية ، كما سبق أن بيّنا من قبل فى ٢ - ٢ ، ولعل التوصل إلى نموذج أكثر واقعية للغة ، قد يساعدنا على حل بعض هذه المعضلات . (انظر لاباج Le Page ١٩٥٦ب من أجل دراسة أكثر تفصيلاً) .

ومع ذلك لا تكتسب الكريولية ، من منظور ما يُقال عن اللغة ، أهمية خاصة

ذلك لأنها لا تختلف عن اللغات العادية إلا من ناحية أصولها . (سانكوف Sankoff ١٩٧٧) . وربما أمكن إضافة تعديل واحد على هذه المقولة ، وهو احتمال وجود علاقة خاصة بين الكريولية والنوعية التى تمثّل اللغة السائدة ، والتى اشتقت الرطانة فى الأصل منها ، وذلك حين تتعايش النوعيتان فى نفس المنطقة ، كما يحدث فى أغلب الأحيان . وتعد جيانا Guyana من الأمثلة على الدول التى يحدث فيها هذا الموقف ، وقد قام ديريك بيكرتون Derek Bickerton (١٩٧١ ، ١٩٧٣ ، ١٩٧٥) بدراسة الكريولية فى هذه الدولة . وقد استخدم فى دراسته ، مصطلحات ويليام ستيوارت ، أحد مؤسسى دراسات الكريولية فى الولايات المتحدة ، فأطلق بيكرتون على الكريولية الخالصة اسم « اللهجة الأساسية » BASILECT ، وأطلق على النوعية المحلية من الإنكليزية المتواضع عليها اسم « اللهجة العليا » ACROLECT (والسابقة -ACRO هى من أصل يونانى ، وتعنى « أعلى » كما فى كلمات مثل Acrobat أو Acropolis) . كما قام بيكرتون بتحديد « متواصل » continuum يصل بين طرفى « اللهجة الأساسية » و « اللهجة العليا » مروراً بـ «اللهجات الوسطى» MESOLECTS ، على أساس أن هذه اللهجات الوسطى هى الطريق الوحيد المتاح للذين يودون « تحسين » لغتهم عن طريق دفعها نحو « اللهجة العليا » ACROLECT . وقد قدم بيكرتون عدداً من البراهين والأدلة العلمية تثبت بشكل قاطع إمكانية وضع غالبية المتحدثين فى العينة الضخمة التى درسها على هذا المتواصل وتحديد مواقعهم عليه (انظر الفصل ٥ - ٥ - ٢ من أجل مناقشة أكثر تفصيلاً) . وقد بيّن بيكرتون أن هناك اختلافات لا يستهان بها بين «اللهجة العليا» و « اللهجة الأساسية » فى مجال التراكيب والدلالة ، وبخاصة فيما يتعلّق بأزمنة الأفعال وصيغها Time and tense relations ، إذ تستخدم صيغ الفعل نفسها فى اللهجة الأساسية ، مثلاً ، للدلالة على الأفعال التى تحدث وقت الحديث ، كما تستخدم فى الوقت نفسه للدلالة على أفعال فى صيغة الماضى ، بينما تستخدم صيغتان من الفعل فى « اللهجة العليا » ، أى الإنكليزية المتواضع عليها ، للدلالة على كل من الحالتين .

قارن ما بين الصيغتين التاليتين :

I see my mistake.

After looking for an hour I saw my mistake.

(بيكرتون ١٩٧٥ : ٤٦).

وهناك خصيصتان تميزان « متواصل الكريولية » Creole continuum مقارنة بالموقف الذى لا نتوقع فيه وجود الكريولية . أولاً : هناك اختلافات بين النوعيات المتعايشة فى مثل هذه الجماعة أكثر عمقاً مما قد نتوقع وجوده فى مجتمع تمزقه العمليات العادية لتكوين اللهجات Normal processes of dialect formation ، ويوجد على وجه الخصوص قدر من التباين variation فى مجال التراكيب syntax أكبر مما قد نتوقع ، وذلك للأسباب التى سبق أن ناقشناها فى ٢ - ٣ - ٤ . وهذه الاختلافات أكثر شبهاً ، فى حقيقتها ، بالاختلافات القائمة فى مواقف « الازدواج اللهجى » Diglosia ، هذا مع العلم بأن الموقف الذى ندرسه ليس موقف إزدواج لغوى لأن كلاً من « اللهجة العليا » و « اللهجة الأساسية » تستخدمها مجموعات مختلفة محلياً . والسبب فى وجود هذه الاختلافات الكبيرة بين « اللهجة العليا » و «اللهجة الأساسية» هو أنهما لم تنفصلا عن طريق عمليات الانتشار العادية diffusion ، التى غالباً ما تؤدى إلى اختلاف اللهجات ، ولكنهما انفصلتا عن طريق عمليات الرطانة Pidginisation ، التى قد تؤدى تلقائياً إلى الاختلافات الجذرية بين الرطانة واللغة السائدة .

والخصيصة الثانية « لمتواصل الكريولية » ، هو وجود سلسلة واحدة من النوعيات تصل ما بين « اللهجة الأساسية » و « اللهجة العليا » ، وذلك ما لا يسمح للمتحدثين إلا ببعد لغوى واحد يحددون عليه موضعهم بالنسبة لبقية المجتمع ، غير أن الصورة التى نقلها لنا بيكرتون هى بالفعل أكثر تعقيداً من ذلك ، لأن الأفراد المتحدثين يستطيعون استخدام مجموعة من range النوعيات الواقعة على هذا المتواصل ، بدلاً من اقتصارهم على نوعية واحدة (بيكرتون Bickerton ١٩٧٥ :

٢٠٣) ، ولكن ، مع وجود ، بُعد لغوى واحد يحدد المتحدث عليه موقعه فى أية مناسبة . ويتعارض مثل هذا الموقف تماماً مع الموقف الذى يوجد فيه عدد كبير من الأبعاد المنفصلة التى توفّرها للمتحدث وحدات أية نوعية ، والتى يستطيع الفرد استخدامها فى تحديد موقعه على المتواصل . وقد يكون السبب فى ذلك نشأة الكريوليات ، ومن الصعب أن نفهم بالتحديد السبب وراء ذلك . (انظر بيكرتون ١٩٧٥ : ١٧ - ١٧٨ والذى يطرح رأياً مختلفاً) .

والكريولية لغة عادية باستثناء اختلافها فى مسألة « المتواصلات » ، ولا تقدم لنا شيئاً خاصاً قد يعمق فهمنا للغة بصفة عامة . ويصدق هذا الأمر على الكريوليات التى تأصلتْ منذ أجيال . وقد تكون معظم الكريوليات القائمة من هذا النوع لأنها نشأتْ من خلال تجارة العبيد ، وبدأت وجودها فى صورة كريولية منذ تلك اللحظة . ويمكننا تتبع تاريخ معظم تلك الكريوليات من خلال سجلات مكتوبة منذ قرون عديدة (ومن الأمثلة على ذلك ، سجل لتاريخ كريولية مشتقة من اللغة الإنكليزية فى نيكاراجوا Nicaragua يقدمه هولم Holm ١٩٧٨) . وعلى أية حال ، فإن الاختلافات بين الرطانة والكريولية أقل وضوحاً مما قد نتوقعه تأسيساً على تعريفاتها ، وقد تكون المراحل الأولى من تطور الكريولية ونشأتها لها نفس أهمية الرطانة بالنسبة لنظرية علم اللغة العام .

وقد سبق أن ذكرنا أنّ « المراحل المبكرة » فى نشأة الكريولية ، هى المراحل التى تبدأ فيها الكريولية فى اكتساب متحدثين أصليين native speakers ، وعندئذ تتوقف عن أن تكون رطانة ، وتتحول إلى كريولية ، وعندئذ نتوقع نوعين من التغيرات الفرضية : أولاً تغيرات ناتجة عن بدء المتحدثين فى تعلم النوعية كلغة أولى أو أصلية بدلاً من تعلّمها كلغة ثانية ، فالأطفال معدون وراثياً لتعلّم اللغات العادية فحسب ، ولأن الرطانات ليست لغات عادية ولا يوجد بها صفات وخصائص اللغات العادية ، فعلينا إذن أن نتوقع حدوث تغيرات كثيرة بها عندما يحاول الأطفال تعلّم الرطانات كلغات أصلية ، لأنهم سيحتاجون لتعديل الجوانب التى تختلف فيها عن اللغات العادية ، وذلك حتى تصبح سهلة التعلّم (ويرجع الرأى القائل بأن الأطفال

معدون وراثياً لاكتساب اللغات العادية فقط إلى ناعوم تشومسكى Noam Chomsky ، (انظر على سبيل المثال ، تشومسكى Chomsky ١٩٦٥ ، ٤٧، و١٩٦٨) . غير أنه لا توجد فى الوقت الحاضر أية أدلة على حدوث مثل هذه التغيرات بالفعل .

والنوع الثانى من التغيرات الفرضية ، ناتج عن البدء باستخدام الرطانة فى عدد كبير من المجالات والمواقف اليومية والمنزلية للتحدث عن موضوعات لا تستطيع لغة التجارة العادية التعامل معها . وعلى أية حال ، فمن الواضح أن هذه التغيرات ليست إلاّ استمراراً لما كان يحدث بالفعل فى حالة الرطانة ولذلك لا تقتصر هذه التغيرات على « عملية الكريلة » Process of creolization ، إذ يتحتم أن يكون الأبوان قد اكتشفا وسيلة ما للتحدث بالرطانة عن الشؤون المنزلية قبل إنجاب أطفالهما ، وقد سبق أن رأينا أن بعض الرطانات كانت قد تطورتْ إلى درجة استخدامها كلغة متواضع عليها، كما هو الحال بالنسبة « للتوك بيزين » Tok Pisin ، وقد قامت كل من جيليان سانكوف Gillian Sankoff وبينلوب براون Penelope Brown (١٩٧٦)، بإجراء بحث مهم فى هذا الشأن على التوك بيزين . وقد درستا فيه نشأة وتطور أشباه التراكيب الموصولة relative clauses فى التوك بيزين ، وقد بينتا كيف نشأت وتطورت أداة الوصل من كلمة (ia) و (المشتقة) أصلاً من الكلمة الإنكليزية (here) (هنا) ، وهى أداة توضع الآن قبل وبعد الكثير من أشباه التراكيب الموصولة:

Na pik <u>ia</u> ol ikilim bipo <u>ia</u> bai ikamap olsem draipela ston.

(Now pig here past kill people here future become huge stone)

'And this pig which they had killed before would turn into a huge stone.'

« وقد يتحول هذا الخنزير الذى كانوا قد قتلوه إلى حجر ضخم » (سانكوف وبراون Sankjoff & Brown ١٩٧٦ : ٦٣٢)

وقد يقدم مثل هذا التركيب مثالاً لتأثير تراكيب اللغات المحلية على تراكيب الرطانة ، لأن لغة البوانج Buang لديها كلمة تُستخدم كاسم إشارة demonstrative . وتُستخدم شاهداً على أشباه التراكيب الموصولة مثل كلمة ia . ومما يثير الاهتمام بشكل خاص فى هذا البحث ، هو أن متحدثى الرطانة يستمرون فى تطويرها مستخدمين كل المصادر المتاحة ، وتلك عملية مستقلة عن عملية التحول إلى كريولية. وقد أثبت سانكوف وبراون أن عملية التطوير - فى التوك بيزين - كانت قد بدأت قبل عشرة أعوام ، على الأقل ، من وجود عدد ملحوظ من المتحدثين الأصليين بهذه اللغة . ولا توجد أيضاً فى هذه الأبحاث أية براهين تدل على أن التغيرات التى تمتْ خلال عملية التحول إلى الكريولية مغايرة لتلك التى قد تحدث فى رطانة ليس لها متحدثون أصليون .

ويبدو أن الخلاصة التى قد نصل إليها على أساس هذه الدراسة : أنه لا يوجد اختلاف واضح بين الرطانات والكريولية ، فيما عدا أن الكريولية لها متحدثون أصليون ، بينما لا يوجد متحدثون أصليون للرطانة . ولا يبدو أن هناك اختلافات أخرى بين الرطانة والكريولية ناتجة من الاختلاف السابق . وحيث إننا كنّا قد زعمنا أن الكريولية مجرد « لغة عادية » (مع بعض التحفظات على متواصلات الكريولية) وأن الرطانة لغة مليئة « بالغرابة والشذوذ » ، فقد يترتب على ذلك أن يكون التمييز بين ما هو « عادى » وما هو « غريب وشاذ » (كما هو متمثّل فى المراحل المبكرة فى عملية نشوء الرطانة وتكوينها) غير واضح ، فهو اختلاف من نوع اختلاف المتواصلات وليس اختلافاً كيفياً . ومن الواضح ، فضلاً عن ذلك أنه ليست هناك لحظة بعينها تخرج فيها الرطانة إلى الوجود ، ولكنها فيما يبدو عملية من « عمليات تكوين النوعيات » process of variety - creation ، وهى عملية نطلق عليها عملية نشوء وتكوين الرطانة pidginisation ، وهذه العملية تخلق الرطانة من لا شىء . وقد نتساءل عما إذا كانت هذه العملية تختلف اختلافاً جوهرياً عمّا يحدث فى عملية التعامل الاتصالى العادى interaction ، حيث يظن الناس أنهم يتحدثون بالفعل نفس اللغة ، ولكنهم فى الحقيقة يقومون بتكييف حديثهم ولغتهم بصفة مستمرة ، حتى

يتلاءم مع احتياجات بعضهم بعضاً (قارن بين هذا الرأى ورأى روبرت لاباج Robert Le Page (١٩٧٧ ب) فى أن كل « فعل كلامى » Speech Act ليس سوى ردة فعل لرطانة مؤقتة instant pidgin ترتبط بالمقدرة اللغوية linguistic competence لعدة أفراد) . ونستطيع ، على سبيل المثال ، أن نجد تشابهاً بين مواطنين من غينيا الجديدة يحاولون تعلّم مفردات قريبة من اللغة الإنكليزية من بعضهم بعضاً ، تارة ، ومن الإنكليز المقيمين ، تارة أخرى ، وبين طلاب علم اللغة وهم يحاولون تعلّم المفردات والمصطلحات التى يستخدمها أساتذتهم من بعضهم تارة ، ومن أساتذتهم ، تارة أخرى. ومن الواضح فى كلتا الحالتين ، من الذى يبذل جهداً أكبر فى عملية التعلّم ، بالرغم من أن المجموعة السائدة بإمكانها استخدام الصيغ اللغوية التى تستخدمها المجموعة التابعة حتى تسهل الأمر عليها . وتنشأ فى كلتا الحالتين نوعية من اللغة يتناقلها الأفراد فيما بينهم ، وقد تطورتْ هذه النوعية نتيجة لمقابلات عديدة بين المعلمين والطلاب من جهة ، وبين الطلاب أنفسهم ، من جهة أخرى . وقد يبتسم قارىء هذا الكتاب عندما يتوقف أمام هذا الرأى القائل بأنه من متحدثى «رطانة علم اللغة»، ولكنى أعنى أن يؤخذ هذا الرأى مأخذ الجدية .

٢ - ٦ الخلاصة :

عرض هذا الفصل لكثير من أنماط النوعيات اللغوية ، ومن ضمنها « اللغات » و « اللهجات » (الإقليمية منها والاجتماعية) و « سجلات السياق » و « اللغات المتواضع عليها » والنوعيات « العليا » و « السفلى » 'High' and 'Low' varieties فى الازدواج اللهجى و « الرطانة » و « الكريولية » . وقد وصلنا إلى نتائج سلبية بخصوص قضية « النوعيات » . **أولاً** ، هناك مشكلات لا يستهان بها فى فصل « نوعية » بعينها عن « النوعيات » الأخرى من نفس النوع ، (ومن الأمثلة على ذلك محاولة تمييز لغة عن لغة أخرى أو لهجة عن لهجة أخرى) . **ثانياً**، هناك مشكلات حقيقية عند محاولة تمييز الأصناف المختلفة عن النوعيات ، مثل محاولة تمييز اللغات عن « اللهجات » ، و « اللهجات » عن « سجلات السياق »

واللغات العادية عن الكريولية والكريولية عن الرطانة . (وكان بإمكاننا أن نعرض لمثل هذه المشكلات القائمة فى التمييز بين « النوعيات المتواضع عليها » و «النوعيات غير المتواضع عليها ») . وثالثاً ، سبق أن اقترحنا أن الطريقة المثلى لحل بعض هذه المشكلات هى تجنب مفهوم النوعية تماماً كمفهوم تحليلى أو نظرى ، وأن نركّز بدلاً من ذلك على « الوحدات اللغوية » المستقلة Individual linguistic item ، لأن كل وحدة مستقلة تتطلب نوعاً من « التوصيف الاجتماعى » يحدد مَنْ يستخدم تلك الوحدة ، وتحت أى ظروف يمكن استخدامها ، وقد يكون هذا التوصيف الاجتماعى أحياناً فريداً فى نوعه ، بينما يكون التعميم فى بعض الأحيان ممكناً على عدد كبير من الوحدات . وقد يكون هذا المنهج أكثر قرباً إلى مفهوم « النوعية » من حيث إن مجموعة من «الوحدات» ذات التوصيف الاجتماعى قد تكون نوعية ، ولكن خصائص تلك الوحدات (النوعية) تختلف عن خصائص نوعيات ، مثل « اللغات » و « اللهجات » ، ومن ناحية أخرى ، يمكننا استخدام مصطلحات مثل « النوعية » و « اللغة » بشكل غير محدد علمياً كما سبق أن استخدمناها فى الأجزاء الأخيرة ، دون أن نقصد استخدامها كوحدات نظرية محددة .

وقد وصلنا إلى نتائج مشابهة بخصوص مفهوم « الجماعة الكلامية » Speech community ، وهو مفهوم يبدو واضحاً فقط بقدر ما يستطيع فرد بعينه أن يتعرف على جماعة بعينها ، وأن يحدد موقعه بالنسبة إلى هذه الجماعة . ولأن الأفراد المختلفين قد يحددون بالطريقة نفسها جماعات مختلفة ، علينا أن نتخلى عن أية محاولة لوضع معايير موضوعية ومطلقة عند تحديد « الجماعات الكلامية » . وبذلك لا يتبقى أمامنا ، من ناحية ، سوى المتحدث ومجموع الوحدات اللغوية التى قد يستخدمها ، ومن الناحية الأخرى ، لا يتبقى لنا سوى جماعات معرفة دون الرجوع إلى اللغة ، ولكننا قد نجد أنه من المفيد أن نربط هذه الجماعات باللغة .

وبما أننا قد قصرنا موضوع علم اللغة الاجتماعى على دراسة الوحدات اللغوية المستقلة التى يستخدمها متحدثون بعينهم ، فعلينا إذن أن نتساءل عن ماهية نوعية التعميمات التى نستطيع إطلاقها على اللغة والمجتمع . وقد سبق أن رأينا أنّ هناك

كثيراً من الأسئلة العامة التى تتطلب إجابات عليها مثل : هل ترتبط النوعيات المختلفة من الوحدات اللغوية بجوانب المجتمع المختلفة (مثل النموذج الفردى الخاص بالمجتمع) ؟ وقد سبق أن اقترحت بعض الإجابات على مثل هذا السؤال ، وإجابات على أسئلة أخرى فى هذا الفصل ، ولكننا لا نستطيع أن نقدم فى هذه المرحلة المبكّرة سوى محاولات للإجابة تستند إلى التخمين . ولكن لابد أن نفهم بوضوح ، أن هذه الأسئلة تستحق أن تُطرح ، وأنّ البحث العلمى فى المستقبل قد يقدم لنا إجابات على مثل هذه الأسئلة تدعمها الأدلة الاختبارية .

* * *

الفصل الثالث

اللغة والثقافة والفكر

Language, Culture and Thought

٣ - ١ مقدمة :

٣ - ١ - ١ الثقافة Culture :

لقد رأينا فى الفصل السابق أنه لا توجد فى ظاهرة اللغة أية تقسيمات طبيعية بين نوعيات اللغة ، نستطيع أن نطلق عليها اسم « لغات » ، أو « لهجات » أو «سجلات سياق» ، بالرغم من أنه قد تكون هناك تقسيمات طبيعية داخلية فى اللغة ذاتها ، تستند إلى المستويات اللغوية المختلفة مثل المفردات Vocabulary والتراكيب Syntax والصيغ الصرفية Morphology وعلم الأصوات Phonology . وننتقل الآن إلى دراسة علاقات اللغة بما هو خارجها ، فنتساءل : هل هناك فواصل طبيعية بين الظواهر التى تشتمل عليها لفظة « اللغة » وظواهر أخرى ، نخص فيها ما نطلق عليه الثقافة والفكر ؟ سوف نصل مرة أخرى إلى إجابة معقدة إلى حد ما ، ولكنها إجابة تؤكد التشابهات ، لا الاختلافات ، بين اللغة وهذه الظواهر الأخرى (انظر لاكوف ١٩٧٧ من أجل معالجة مشابهة) ، كما تؤكد هذه الإجابة الارتباطات الوثيقة بين الظواهر بدلاً من انفصالها . ومثال ذلك ، أننى سأذهب إلى القول أن كثيراً من خصائص اللغة التى درسناها فى الفصل السابق هى أيضاً من خصائص الثقافة بصفة عامة ، وأن أفضل سبيل إلى دراسة المعنى أو الدلالة ، هو دراسته من ناحية علاقته بالثقافة والفكر . وبقدر ما تتضح صحة هذه النتائج ، فإنها تشكّل تحدياً لوجهة النظر التى سادت علم اللغة فى القرن العشرين ، وهى أن اللغة مستقلة ومنفصلة عمّا سواها .

وتجنباً للخلط ، ينبغى أن نبدأ الدراسة بتوضيح بعض الأمور المتعلّقة بالمصطلحات المستخدمة . أولاً كلمة ثقافة ستفهم بالمعنى المستخدم فى علم الإنثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropology الذى تكون الثقافة فيه شيئاً يملكه كل إنسان فى مقابل « الثقافة » التى يقتصر وجودها على الدوائر المثقفة ، أى فى دور الأوبرا والجامعات ، وما أشبه ذلك . ويُستخدم هذا المصطلح بعدد من المعانى،

تختلف تبعاً لرؤية عالم الإنثروبولوجيا الذى يستخدمه . ولكنه يدل دائماً على خاصية ما للجماعة ، وخاصة عندما يُراد التمييز بين هذه الجماعة والجماعات الأخرى . ويهتم بعض علماء الإنثروبولوجيا بما يُطلق عليه « الثقافة المادية » material culture ، أى الأجهزة والأدوات التى تستخدمها الجماعة كالأوانى الفخارية أو المركبات أو الملابس إلخ. ولكننا سنتبع تعريف وارد جوديناف Ward Goodenouh « للثقافة » والذى يحددها بأنها المعرفة المكتسبة « اجتماعياً » : Socially acquired knowledge

> « إننى أعتقد أن ثقافة مجتمع ما تتألّف من كل ما ينبغى أن يعرفه أو يؤمن به الفرد ، حتى يستطيع التعامل فى مجتمعه بأسلوب يقبله الأفراد الآخرون . ولما كانت الثقافة هى ما ينبغى على الناس تعلّمه ، فى مقابل سماته البيولوجية الموروثة ، فلابد أن يكون قوامها هو الحصيلة النهائية للتعلّم ، وأعنى المعرفة بأكثر معانيها عمومية .
>
> (جوديناف Goodenouh ١٩٧٥)

وكما ذكر جوديناف ، علينا أن نأخذ المعرفة هنا بمعناها الواسع ، بحيث تشتمل على المعرفة العملية أو التطبيقية 'know-how' ومعرفة الحقائق النظرية 'know-that' ، بمعنى أنه ينبغى أن تتضمن كيفية ربط العقد ومعرفة أن عشر عشرات من القروش تشترى ما يشتريه الجنيه الواحد . ومن مميزات وجهة النظر هذه ، والمقبولة على نطاق واسع بين علماء الإنثروبولوجيا ، أنها تسمح لنا بمقارنة الثقافة باللغة (كما فى ٣ - ٢ - ١) .

وإذا كانت الثقافة نوعاً من المعرفة ، فمعنى ذلك أنها لا توجد إلاّ داخل رؤوس الناس ، ولذلك كانت هناك مشكلة فى دراستها وهى : كيف نعرف ماهية المعرفة الثقافية لدى زيد من الناس ؟ والأكثر صعوبة من ذلك ، هو كيف نعرف ماهية الثقافة الموجودة لدى الجماعة س ؟ هل ينبغى أن نفحص المعرفة الثقافية لدى كل من أفراد الجماعة ؟ وماذا نفعل لو كانت هناك اختلافات بين الأفراد ؟ مثل هذه المشكلات بالطبع

مألوف تماماً لدارسى علم اللغة ، والحلول التى نقدم لها واحدة تقريباً ، سواء أكنا من المهتمين بالثقافة أم باللغة . أولاً ، ففى استطاعتنا أن نراقب السلوك العادى للناس (أى خارج إطار المواقف الاختبارية التى نصطنعها) ، ونتوصل إلى استنتاجات عن المعرفة التى لابد أنها كامنة وراء هذا السلوك . وثانياً ، نستطيع تنظيم لقاءات ونطرح على الناس مجموعة من الأسئلة المباشرة عن معرفتهم ، ومع أخذ إجابتهم بشىء من الحذر إذا ما احتاج الأمر ، ثالثاً ، نستطيع أن نستخدم أنفسنا كرواة informants . رابعاً ، نستطيع القيام بتجارب نفسية من نوع آخر ، مثل قياس الزمن الذى يستغرقه الأفراد لأداء مهام محددة ، وذلك حتى نقوم بوضع مقياس لدرجة التعقيد أو الصعوبة النسبية لأنواع المعرفة المختلفة . (develop a measure of the relative complexity of the knowledge involved) (ومن أجل مناقشة تفصيلية للمناهج المستخدمة فى مثل هذه التجارب انظر ٥ - ٢) . ويمكن استخدام كل هذه الأساليب ، وقد تمَّ استخدامها بالفعل فى كل من علم الإنثروبولوجيا الثقافية وعلم اللغة .

وبعد أن نكتشف الحقائق التى تلزمنا بالنسبة لعدد من الأفراد ، تبقى مشكلة التعميم فى كل من هذين العلمين . فإلى أى حد ، يمكننا أن نفترض أن الأفراد الذين تمت دراستهم يمثلون بالفعل الجماعة بأكملها ؟ وإلى أى حد يمكننا أن نفترض أنه إذا اشترك فردان فى معرفة معلومة واحدة ، فإنهما سيشتركان أيضاً فى معرفة معلومة أخرى ؟ لقد سبق أن توصلنا عند مناقشة الوحدات اللغوية فى الفصل الثانى إلى النتيجة القائلة ، بأن من أصعب الأمور الوصول إلى التعميمات بين الأفراد ، وكذلك بين الوحدات اللغوية ، وهذا يصدق أيضا على وحدات المعرفة الثقافية (سانكوف Sankoff ١٩٧١) . ويعنى ذلك بإيجاز أن نفس المشكلات المنهجية القائمة فى دراسة اللغة هى التى تعترض طريقنا أيضاً عند دراسة الثقافة .

وعلينا قبل أن نترك مسألة الثقافة ، أن ندرك أن المعرفة المتضمنة فى ثقافة ما ، ليس من الضرورى أن تكون صحيحة من الناحية الواقعية والموضوعية حتى نعمل لها حساباً . فقد يعتقد بعض الناس ، على سبيل المثال ، أن التدريبات البدنية العنيفة

تدنى الأجل ، وقد يعتقد البعض الآخر عكس ذلك ، ولكن مادام قد أمكن إثبات أنّ كلا من هذين الرأيين قد اكتسب اجتماعياً (أعنى من أفراد آخرين) فإننا نعدهما معاً وحدات ثقافية . وكثيراً ما يُطلق على معرفة العوام اسم « المعرفة العادية الشائعة» common-sense knowledge ، وهو أهم أنواع المعرفة فى نظر علماء الإنثروبولوجيا ، مثلما إن علماء اللغة يهتمون بالاستخدام اليومى للغة أكثر مما يهتمون بقواعد النحو التعليمية والإرشادية presciptive grammars والمعاجم . ومن ناحية أخرى ، فإن المعرفة التخصصية للعلماء والمثقفين جزء من المعرفة الثقافية ، ومن أهم الأسئلة المطروحة فى دراسة الثقافة السؤال عن العلاقة بين المعرفة العادية الشائعة والمعرفة الشخصية ، إذ من الواضح أن التأثير والتأثر عملية متبادلة بين الطرفين . وقد كانت إحدى مشكلات كتابة هذا الكتاب مثلاً ، وجود كمية كبيرة من المعلومات المبنية على المعرفة العادية الشائعة عن اللغة فى كل الثقافات ، وقد يكون بعضها صحيحاً والبعض الآخر غير صحيح ، ولذلك من الصعب التنبؤ بمعتقدات القارىء الخاصة عن اللغة . وهناك مشكلة أخرى مشابهة بالنسبة لعلم اللغة الاجتماعى ذاته ، وهى أن عالم اللغة الاجتماعى يعرف أن بعض معتقداته الشخصية قد تكون خاطئة وغير مفيدة ، بينما قد تكون بعض معتقداته الأخرى أقرب للحقيقة ولذلك يمكنه اعتبارها جزءاً من نظريته ، ولكنه لا يستطيع أن يعرف مقدماً أيهما صحيح وأيهما باطل .

٣ - ١ - ٢ الفكر Thought :

تشتمل كلمة « الفكر » على أنواع مختلفة من النشاط العقلى تقع فى مجال «علم النفس المعرفى» Cognitive Psychology . وسأحاول أولاً ، أن أميّز بين «الذاكرة» Memory و « الاستدلال » Inference وكذلك بين « المفاهيم » concepts و « القضايا » propositions باعتبارهما موضوعين من الذاكرة والاستدلال . ولا حاجة بنا أن نفسّر هذه المصطلحات ، وذلك لوضوحها ، فإذا اعتبرنا أن « القضايا »

مطابقة بشكل تقريبي للمقولات statements والمفاهيم مطابقة للتصنيفات العامة التي تُصاغ القضايا على أساسها وتجهز الخبرات . فمثلاً، قد تعد المفردات الإنكليزية مثل **زيت** ، **ماء** ، **ويطفو** ، **وعلى** ، على أنها أسماء لمفاهيم (أعنى أنها تدل على مادتين و « حالة » "STATE" وعلاقة واحدة) ولكننا نعد تركيب « **الزيت يطفو على الماء** » اسماً لقضية هي « **الزيت يطفو على الماء** » . وأعنى أن إحدى المادتين في حالة « **طفو** » على المادة الأخرى . وقد نتذكّر هذه القضية (المختزنة فعلياً في الذاكرة) أو نستنتجها ، (أي نستدل عليها) ، بمعنى أنها قد تكون شيئاً نعرفه أو تكون شيئاً اكتشفناه (وفي الحالة الأخيرة ، نضيفها إلى ما هو قائم بالفعل في الذاكرة حتى تصبح مختزنة فيها كمعرفة قد نحتاج إليها بعد ذلك) . وقد تكون المفاهيم أيضاً موجودة في الذاكرة باعتبارها إحدى التصنيفات المستخدمة في الفكر ، أو قد نقرر تكوينها على شكل تصنيفات جديدة يمكن عندئذ اختزانها في الذاكرة . (من الطبيعي في علم النفس أن نستخدم مصطلح « تكوين المفاهيم » Concept formation ، بدلاً من مصطلح الاستدلال Inference للدلالة على عملية تكوين المفاهيم الجديدة) ، ولكن هذه العملية تبدو أكثر شبهاً بعملية الاستدلال على القضايا. وعندما نصل إلى دراسة علاقة الفكر بالفكر ، فإننا سنجد أنه من المهم أن نميّز بين هذه الأنواع المختلفة من « الفكر » .

فما هي ، العلاقة بين « الفكر » و « الثقافة » ؟ إذا سلمنا بتعريف الثقافة على أنها « معرفة مكتسبة اجتماعياً » ، فمن السهل أن نفهم أن الثقافة تمثّل أحد أجزاء الذاكرة ، وخاصة ذلك الجزء الذي نكتسبه اجتماعياً ، مقابل الجزء الآخر الذي لا يتدخل الآخرون في اكتسابه . ومثل هذا التقسيم تقسيم مبهم للغاية ، وعلينا ألاّ نثق به ثقة عمياء ، بل يجب أن نأخذه بشيء من الحذر ، غير أنه قد يساعدنا على التمييز بين نوعين من « القضايا » هما : « القضايا » التي نعرف أنها صحيحة نتيجة لتجاربنا الشخصية ، والقضايا التي تعلّمناها من الآخرين . ومن الأمثلة على النوع الأول من « القضايا » القضية التالية « لقد تناولت السجق على الغداء اليوم » ، فهذه القضية لا تدخل في مفهوم الثقافة ، أما قضية من نوع « اكتشف كولومبس أمريكا »

فهى تنتمى بوضوح للمعرفة الثقافية ، لأننا تعلّمناها من الآخرين . وكذلك ، قد نعد بعض المفاهيم مفاهيم ثقافية بينما لا يمكننا وصف المفاهيم الأخرى بذلك ، فنحن نقوم بتكوين المفاهيم الثقافية لأننا نعرف أن الآخرين حولنا يستخدمونها فى تفكيرهم ، كما قد يتضح من المفاهيم التى يكونها طلاب علم اللغة وطلاب علم اللغة الاجتماعى إذ يكتشفون أن أساتذتهم يستخدمونها . (وغالباً ما تكون هناك كلمة للدلالة على مثل هذه المفاهيم ، ولذلك فإن أهم ما يهدى الطالب إلى وجود مفهوم مثل « الازدواج اللهجى » هو وجود كلمة أو مصطلح للدلالة على ذلك) . أما « المفهوم غير الثقافى» non-cultural concept ، فهو المفهوم الذى نكونه دون الرجوع للآخرين كوسيلة مناسبة لتأويل خبراتنا الشخصية ، مثل مفهوم « أنا » أو « الطريقة التى تتحدث بها زوجاتنا » أو « رائحة الصبغ » .

ويعتمد هذا التمييز بين « المعرفة الثقافية » و « المعرفة غير الثقافية » على طبيعة مصدر هذه المعرفة . فإذا كانت هذه المفاهيم مشابهة لمفاهيم وقضايا تدور فى أذهان الآخرين ، فإنها تعد عندئذ مفاهيم ثقافية ، وإن لم تكن ، فهى غير ذلك . ومن أهم خصائص المعرفة الثقافية القدر المشترك من الخبرة ، الذى يستطيع من خلاله الناس أن يؤولوا سلوك بعضهم بعضاً وأن يصلوا من خلال ذلك إلى نفس المفاهيم والقضايا . وعلى سبيل المثال ، يحضر ملايين الناس ، كل عام ، أنواعاً مختلفة من الحفلات الموسيقية فى بريطانيا ، ويبدو أنهم جميعاً متفقون (فيما عد القلة القليلة) على نفس مفاهيم تصنيف هذه الحفلات (مثل « البوب » والكلاسيك والجاز إلخ) ، وتقوم هذه التصنيفات بتحديد نوع السلوك المناسب والمتبع فى كل نوع من هذه الحفلات (فغالباً ما يكون سلوك الحاضرين فى الحفلات الكلاسيكية ومشاركتهم محدوداً للغاية، وذلك لما يستطيعون فعله ومتى يمكنهم فعله) . فلو لم يشترك الناس فى مثل هذه المعرفة التفصيلية فإن سلوكهم فى مثل هذه الحفلات قد يصبح عشوائياً ولا يمكن التنبؤ به ، وبخاصة أن بعض هذه التقاليد المتعارف عليها عشوائية التحديد .

ولا يعنى ذلك أن المعرفة غير الثقافية يجب أن تختلف من فرد لآخر ، لأنه يمكن لأفراد مختلفين أن يصلوا إلى استنتاجات متشابهة استناداً إلى خبرات شمولية

متشابهة ، أو بسبب استعداد وراثى مشابه . فلو وجدنا أن جميع الناس لديهم مفهوم « البعد الرأسى » vertical dimension ، فلا داعى لتصور أنهم قد تعلّموه من آخرين ، وذلك حتى يمكننا الوصول إلى تصور سلسلة الاتصال بينهم ، فمن المحتمل أنهم جميعا قد وصلوا إلى نفس الاستنتاج لأنهم جميعاً يعيشون فى عالم تسيطر عليه قوى الجاذبية الأرضية ، ويقطنه بشر يسيرون ممشوقى القوام . (انظر كلارك وكلارك Clark & Clark ١٩٧٧ : الفصل ١٤ ، وبخاصة ص ٥٤٣ ، حيث يقدم دراسة ممتازة لأوجه الشبه بين المفاهيم غير الثقافية) .

وعلى ذلك نجد أن هناك ثلاثة أنواع من المعرفة :

(١) **المعرفة الثقافية :** التى نتعلمها من الآخرين .

(٢) **المعرفة المشتركة غير الثقافية :** وهى نوع من المعرفة يشترك فيه الناس داخل نفس الجماعة ، أو فى العالم أجمع ، ولكنها ليست نوعية المعرفة التى نتعلّمها من الآخرين .

(٣) **معرفة غير مشتركة وغير ثقافية :** وهى معرفة تقتصر على فرد واحد . وليس من الصعب أن نجد مكاناً للغة فى مثل هذا النظام . إذ أن بعض أجزاء اللغة هى معرفة ثقافية ، لأنه يجب تعلّمها من الآخرين فى حين أن أجزاء أخرى هى معرفة مشتركة غير ثقافية . وسنعود إلى هذه المسألة فيما بعد فى ٣ - ١ - ٣.

وقد يتشكك القارىء فى قدرتنا على دراسة الفكر فعلاً ، ولا يتشكك فى قدرتنا على إطلاق بعض الآراء التخمينية عنه ، ولذلك فمن المفيد أن نرجع بإيجاز شديد إلى الكم الكبير من الأبحاث التى أُجريتْ عن الفكر ، ونرجع إلى النتائج التى أمكن التوصل إليها . ويمكننا انتقاء واحد من أحدث التطورات فى مجال دراسة المفاهيم لعرضه ، وسنعود إلى هذا البحث وبصفة خاصة فيما بعد عند دراسة المعانى (٣-٢-٣) . (وقد تعرض كل من جونسن ليرد و واسون Johnson-Laird& Wason ١٩٧٧ : الجزء الثالث ، وكلارك وكلارك Clark & Clark ١٩٧٧ : ٤٦٤

بإيجاز لتطور دراسة المفاهيم) . فترى إحدى النظريات المطروحة عن المفاهيم ، أن كلاً منها يتكون من مجموعة من الخصائص set of features الضرورية والكافية حتى يعد شيء بعينه مثالاً على هذا المفهوم . فيتكون مفهوم « الطائر » مثلاً ، من مجموعة من الخصائص تتضمن الجناحين والريش والزغب والبيض وكونه شيئاً حيّاً animate ، إلخ . ولكن هناك عدة مشكلات فى قبول مثل هذه النظرية المطروحة ، وليس أقل هذه المشكلات شأناً أنه من المستحيل فى الواقع أن نحدد من ناحية المبدأ الشروط الضرورية والوافية التى تجعل كائناً ما « طائراً » . وحتى يمكن التغلب على بعض هذه المشكلات ، قدم عدد من علماء النفس ومن بينهم بصفة خاصة ألينور روش Eleanor Rosch نظرية بديلة عن هذه النظرية ، لا يعرف المفهوم فيها استناداً إلى مجموعة من الخصائص الضرورية والوافية ، ولكن يعرف استناداً إلى «النموذج الأصل» prototype ، وهو توصيف لمثال نموذجى لمفهوم بعينه. وعلى ذلك، يعرف مفهوم «طائر» بأنه يتضمن وصفا لطائر نموذجى مثل طائر « أبو الحناء » Robin فى صورة مجموعة من الخصائص أو فى صورة مرئية . واستناداً إلى هذه النظرية ، فإن الشىء ليس مجرد « طائر » أو ليس « طائراً » ولكنه يعد طائراً بقدر تشابهه مع « النموذج الأصل » . (من أجل مناقشة أكثر تفصّيلاً لهذا الموضوع انظر ٣ - ٢ - ٢ فيما يلى).

وهناك كثير من الأدلة والبراهين تؤكد صحة نظرية « النموذج الأصل » مقابل نظرية « الخصائص المميزة » Criterial features . ويستند معظم هذه الأدلة إلى تجارب معملية . فقد ثبت من التجارب المعملية مثلاً ، أن الزمن الذى يستغرقه الناس للتحقق من أن كلمة « **س** » فى التركيب س « **طائر** » مثلاً تدل على مفهوم حقيقى هو أقل كثيراً فى الحالات التى يكون فيها س اسماً لطائر نموذجى عنه فيما إذا كانت «س» كلمة تدل على طائر مثل **البطريق أو النعامة** ، وهى طيور غير نموذجية (روش ١٩٧٦) . وهناك أدلة أخرى مأخوذة عن تجارب طُلِبَ فيها من المشتركين تصنيف مجموعة من الأمثلة المنتمية إلى مجموعات عامة استناداً إلى مدى انطباقها على هذا التصنيف . وتعد هذه التجارب ناجحة للغاية ، حيث وُجِدَ أن هناك قدراً

كبيراً من الاتفاق بين الناس على « الترتيب » rankingالنسبى لهذه الوحدات، فعلى سبيل المثال كان هناك قدر كبير من الاتفاق على أن « **أبو الحناء** » و « **طائر الخطاف** » من أكثر الطيور تمثيلاً للنموذج فى قائمة تتكون من ثمانية طيور ، بينما وُجِدَ أن « **الدجاج** » و « **البطريق** » من أقل الطيور تمثيلاً ، وبين وحدات الأثاث وُجِدَ أن « الكراسى » و « الخزانة » من أكثر هذه الوحدات تمثيلاً للنموذج ، بينما وُجِدَ أن « أجهزة المذياع » و « الطفايات » من أقلها تمثيلاً ، كما وُجِدَ أن « التفاح » و «البرقوق» يُعدان من أكثر وحدات الفاكهة تمثيلاً للنموذج بينما وُجِدَ أن «جوز الهند» و « الزيتون » من أقلها تمثيلاً ، كما وُجِدَ أيضاً أن « البنطال » و « المعطف » من أكثر وحدات الملابس تمثيلاً للنموذج بينما وُجِدَ أن «أكياس النقود» و«الإساور» أقلها تمثيلاً (كلارك وكلارك ١٩٧٧ : ٤٦٤) . ولو كانت هذه المفاهيم مثل «الطيور» و « الأثاث » و « الفاكهة » و « الملابس » قد عُرِفتْ بواسطة مجموعة من الخصائص المميزة ، فقد لا يكون لدينا ما يفسّر التفاوت فى درجة ترتيبها. وإن المرء ليتوقع، بدلاً من ذلك ، تمييزاً محدداً وقاطعاً بين ما يُعد مثالاً وما يعد غير مثال على هذه التصنيفات .

ومما يدعو إلى لجوء عالم اللغة الاجتماعى وعالم الإنثروبولوجيا إلى نظرية النموذج الأصل Prototype ، أنه ليس من الصعب فهم كيف يتعلّم الناس مثل هذه المفاهيم من بعضهم بعضاً . فلنتصور إذن أن طفلاً رضيعاً لم يتعلّم اللغة بعد وهو يتعلّم مفهوم « المكان الذى ينام فيه » ، وهو مثال واضح للمفهوم الثقافى ، لأنه يعتمد على ما يتوقعه الآخرون من الطفل ، ولا يعتمد على مجرد رغبة الطفل ذاته . والمكان النموذجى لنوم الطفل ، بالطبع ، هو « المهد » ، وفى اللحظة التى يتمكن فيها الطفل أن يتعرّف على مهده على أساس أنه المكان الأمثل لنومه ، تكون مهمة تكوين المفهوم قد انتهتْ بالنسبة له . وعليه ، فإنه يمكن ، كلما دعت الحاجة ، أن يدرج تحت هذا المفهوم ، أماكن أخرى للنوم ، مثل المهود الأخرى ، وأسرة البالغين ، والأسرّة الموضوعة على الأرض ، أو حتى المقعد الخلفى فى السيارة ، وهكذا دواليك ، ويمكن فى بعض الحالات تجاوز ذلك المفهوم وقتياً ، ولكن إذا تكرر ذلك الموقف فإن الطفل قد يختزن مكان النوم الجديد فى ذاكرته ، لدرجة أنه يمكنه أن يستبدل النموذج الأصل

بنموذج أصل جديد . والغرض من ذكر هذا المثال ، هو أن نؤكد أنه يمكن تعلّم النموذج الأصل من عدد صغير جداً من الأمثلة ، أو من مثال واحد ، وذلك دون أية محاولة لتعريفه تعريفاً شكلياً . بينما تستوجب نظرية الخصائص المميزة ، تعلّم مثل هذا المفهوم من عدد كبير من الأمثلة والأمثلة المضادة ، قبل أن يتمكّن المتعلّم من الاستدلال على الخصائص المميزة الضرورية وغير الضرورية . ومن المزايا الأخرى لنظرية النموذج الأصل ، أنها تسمح بنوع من المرونة الخلاّقة فى تطبيق المفاهيم التى نمر بها فى حياتنا الفعلية ، أعنى أنها تتنبأ مقدماً أن حدود هذه المفاهيم ستكون مبهمة fuzzy ، وغير واضحة المعالم ، وهى فى الواقع كذلك . فنتخيل ، مثلاً ، أن لدينا مفهومين مثل مفهومى « الفاكهة » و « الخضار » يعتمد كل منهما على كلام الآخرين ، وعلى تجاربنا الشخصية غير اللغوية ، فالفاكهة ، مثلاً غالباً ما تؤكل كحلوى أو تؤكل بين الوجبات ، وهى حلوة الطعم ، وتنمو على الأشجار والشجيرات ، بينما تؤكل الخضروات مع اللحوم، وتنمو على الأرض، أو تحتها، وهى لذيذة المذاق والرائحة.ويعد « التفاح » نموذجاً أصلاً للفاكهة ، إذ أن فيه كل خصائصها ، بينما يعد «الكرنب» مثلاً نموذجاً أصلاً للخضراوات ، إذ أن فيه كل خصائصها . ولكن هناك حالات شاذة مثل « الطماطم » و « الرواند » ، حيث يمكن أن ينسب كل منهما إلى أحد النموذجين الأصليين ، ويعتمد الاختيار فى مثل هذه الحالات على مدى اتصال المعايير بالمناسبة . ومهمة الفرد ، عند تطبيق مفهوم « الفاكهة » ، ليست مجرد البحث عن الخصائص المميزة للفاكهة فى كل من الطماطم والرواند ، ولكن عليه أن يستخدم حساسية فائقة ومهارة ذكية فى تحديد أى من المعايير يصلح لموقف بعينه . وعند مقارنة نظرية «الخصائص المميزة» بنظرية « النموذج الأصل » ، نجد أن الأخيرة تضع المسؤولية فى الاختيار على المستخدم ، إلاّ أنها تعطيه أيضا حرية مطلقة فى استخدام مفاهيمه بطريقة خلاّقة .

وهناك ميزة ثالثة لتبنّى نظرية « النموذج الأصل » بصفة خاصة ، وهى أنها تقدم لعالم اللغة الاجتماعى تفسيراً للكيفية التى يصنّف بها العناصر الاجتماعية المتصلة باللغة – وهى عناصر ، مثل نوعية الفرد المتحدث والظروف أو الموقف الذى

يتحدث فيه . وكما رأينا فى الفصل السابق ، فإن الناس يتعلّمون أن هناك وحدات لغوية معينة ، وثيقة الاتصال بنوعية معينة من الناس ، أو مواقف بعينها . ولكننا لم نعرض لكيفية قيام الناس بتصنيف المتحدثين والمواقف . وإذا كانت هذه المفاهيم تستند فى تكوينها إلى نظرية « الخصائص المميزة » ، يصبح من السهل أن نقرر إذا كان المتحدث أو الموقف مثالاً على تصنيف بعينه أم لا . أما إذا كانت هذه المفاهيم تستند إلى نظرية « النموذج الأصل » ، فكل ما نحتاجه عند اكتساب وحدة لغوية جديدة ، هو معرفة ماهية المتحدث أو المستخدم والظروف التى تُستَخدم فيها هذه الوحدة عادة ، تاركين بذلك الحالات الغامضة أو المبهمة دون إيضاح ، وذلك للتعامل معها عند الحاجة فقط .

ويعد ذلك أساساً سليماً لنظام تحليلى ابتكره وقدّمه جوشا فيشمان Joshua Fishman ، وقد أطلق عليه نظام « المجالات » domains ، ويتضمن هذا النظام مجموعة من المفاهيم مثل « منزل » « مدرسة » « عمل » « دين » ، إلخ (انظر فيشمان Fishman ١٩٦٥ ، ١٩٧٢ د) . والفرضية الأساسية التى يستند إليها هذا النظام التحليلى ، هى أن عملية انتقاء اللغة فى مجتمع « مزدوج اللغة » bilingual تختلف من مجال إلى آخر ، وأن هذه المجالات تعد تركيبات متلائمة congruent تتكون من نوعية معينة من المتحدثين والمتلقين فى مكان بعينه ، يتحدثون فى موضوع معيّن . فإذا كان المعلّم يحدث الطلاب فى المدرسة - مثلاً - عن موضوع تاريخى ، فإن العناصر المؤثرة فى هذا الموقف هى التى تحدد المجال - وهو مجال المدرسة - ، ولن تكون هناك صعوبة تذكر فى اختيار نوعية اللغة المستخدمة . ولكن إذا غيّرنا أحد هذه العناصر المتلائمة ، وجعلناه عنصراً غير متلائم ، كأن نغيّر المكان - مثلاً - من المدرسة إلى بيت الطالب ، فإننا نجد أن نوعية الاتصال قد أصبحت مبهمة، و يصبح فى غير الإمكان تصنيف نوعية الاتصال فى مجال واحد دون إبهام أو غموض، ولذلك يصبح من الضرورى أن يستخدم المتحدث فطنته عند تحديد نوعية اللغة التى سيستخدمها .

لابد أنه قد اتضح من هذه الدراسة لنظرية « النموذج الأصل » فى المفاهيم أن

عالم اللغة الاجتماعى قد يتعلّم الكثير من علم النفس المعرفى Cognitive Psychology وعلم اللغة النفسى Psycholinguistic . ومن الضرورى أن نعرف أن أية محاولة للفصل بين المداخل « النفسية » و « الاجتماعية » للغة قد يكون مدمّراً لدراستنا وللمهتمين منا ، بصفة خاصة ، بالقضايا النفسية .

٣ - ١ - ٣ اللغة والثقافة والفكر :

كان الغرض الأساسى من الجزأين السابقين ، هو محاولة توضيح المصطلحات المتعلّقة بالثقافة والفكر ، وما بينهما من علاقة . ولكننا لم نقل شيئاً بعد عن اللغة فى حد ذاتها ، وعلينا الآن أن نضع اللغة فى مكانها الطبيعى فى الصورة التى قمنا برسمها حتى هذه اللحظة . دعنا ، أولاً ، ننتهى من رسم الصورة الكاملة .

كما رأينا من قبل ، فإننا نستطيع تعريف الثقافة على أنها نوع من المعرفة نتعلّمها من الآخرين ، سواء من خلال التعليم المباشر أو مراقبة سلوك الآخرين . ولكننا ميّزنا بين نوعين آخرين من المعرفة هما « المعرفة المشتركة غير الثقافية » و « المعرفة غير الثقافية وغير المشتركة » . ومن هذه الأنواع من المعرفة قلنا أن النوع المشترك هو أقربهما ارتباطاً باللغة ، بالرغم من أنه لا يأتى عن طريق التعلّم ، ويمكننا الآن تجاهل النوع غير المشترك من المعرفة لأن اللغة ترتبط ارتباطاً دائماً ووثيقاً بالمفاهيم المشتركة (أو المفاهيم التى يُعتقد أنها مشتركة) .

وتقع كل هذه الأنواع الثلاثة من المعرفة (كما نستخدم المصطلح هنا) فى مجال « الذاكرة » memory لا فى مجال « الاستدلال » inference ، بالرغم من أنه يمكن توسيع هذا المصطلح كى يشمل كل ما توصلنا إلى معرفته ذاتياً فى مناسبة بعينها . فإذا تحدثنا عن نتيجة ضرب رقمين ، لوجدنا أن إجابة الفرد ستتضمن الإجابات التى قام باستظهارها نتيجة لحفظ جدول الضرب ، (مثلاً ٣ × ٢ = ٦) ، وستشمل أيضاً معرفته بالقواعد العامة لعملية الضرب . ولكن إذا وسّعنا مصطلح «المعرفة» ليشمل نتائج الاستدلال أيضاً، فإننا قد نقول أن معرفة الفرد تتضمن أيضاً

حاصل ضرب ٢٣× ١٩ = ٤٣٧ ، لو قام بالعملية الحسابية اللازمة للحصول على تلك النتيجة.

وكل هذه الأنواع الثلاثة من « المعرفة » قد تتطلّب، مفاهيم خاصة بها ، وهذه المفاهيم ترتبط بعضها ببعض فى شكل قضايا ، وتلعب المفاهيم والقضايا دوراً فى عملية الاستدلال ، كما أنها تؤدى وظيفة هامة فى الذاكرة . ويمكننا تجاهل السؤال الهام الخاص بمعرفة نوعية الاختلاف بين « المفهوم » و « القضية » ، بالرغم من أننا قد اعترفنا ضمنياً بوجود هذا الاختلاف . ويمكننا أيضاً تجاهل العلاقة القائمة بين المعرفة التطبيقية العملية know-how والمعرفة النظرية know-that ، وسنفترض جدلاً فى الوقت الحالى أن كلا النوعين يمكن تضمينهما فى فكرة « القضية » . (وتعد هذه المعضلة من القضايا الهامة بالنسبة لعالم اللغة ، لأنها مسألة خلافية فيما إذا كانت اللغة من الأمور التى تتطلّب « المعرفة النظرية » بأن التراكيب محكمة ودلالاتها محددة ، أو أنها تستلزم « المعرفة التطبيقية العملية » فى كيفية تكوين produce وفهم التراكيب) وقد سبق أن اتخذنا موقفاً من قضية طبيعة المفاهيم ، وذهبنا إلى أننا يجب أن نراها على أنها « نماذج أصول » تحدد الحالات الواضحة ، تاركة الحالات الأقل وضوحاً لعملية الاستدلال عندما يتطلّب الموقف ذلك .

وينبغى أن نعود الآن لدراسة اللغة . وهناك أربع نقاط تتصل فيها اللغة بالمعرفة. وسنعرض لهذه النقاط الأربع فى هذا الجزء ونناقش هذه النقاط تفصيلياً فيما بعد فى هذا الفصل .

(١) الوحدات اللغوية مفاهيم Linguistic Items are Concepts :

أياً كانت نظرتنا لفكرة « الوحدات اللغوية » (انظر ٢ - ١ - ٢) ، فإننا يمكننا أن نراها على أنها التصنيفات المستخدمة فى تحليل تجاربنا ، أعنى أنها مفاهيم، ذلك أن كل كلمة ، مثلاً ، تمثّل مجموعة من الخصائص الصوتية والتراكيبية والدلالية ، وذلك يشبه تماماً مفهوم « الفاكهة » الذى يمثّل بدوره مجموعة من الخصائص مثل موعد

أكلها ، وأين تنمو ، ما هو مذاقها ، إلخ . ويعد أى تركيب مجموعة معقدة من الخصائص بنفس الأسلوب الذى نستخدمه فى تعريف مفهوم « منضدة » أنه تنظيم معيّن من الأجزاء الرأسية والأفقية . وفضلاً عن ذلك ، فمن الواضح أن كثيراً من (إن لم يكن كل) الوحدات اللغوية تعرف على أنها « نماذج أصول » تماماً ، مثل المفاهيم غير اللغوية ، وغالباً ما يكون ذلك هو السبب وراء استحالة التمييز الدقيق والثابت بين التراكيب « الجيدة » والتراكيب « السيئة » . وإن المسند إليه النموذجى مثلاً لفعل مثل **يطهو** cook هو الفاعل أو مَنْ يقوم بالطهى (**طهتْ مارى اللحم** Mary cooked the meat. ، ولكن هذا المسند إليه قد يكون أيضاً أداة instrument للطهو فقط ، مثل (**طها الموقد اللحم** – The oven cooked the meat. وقد يكون أيضاً الشيء المطهو ، مثل **اللحم مطهو جيداً** The meat cooked well . إن المسند إليه النموذجى لفعل مثل يطهو يتكون من عدد من الخصائص المختلفة ، التى قد تشمل كون هذا المسند إليه هو الفاعل agent أو المسؤول الأول عن الحدث ، ولكن من الممكن أيضاً أن نعمم هذا التركيب على الحالات التى يكون فيها الفاعل مسئولاً فقط عن الطهو ، لا عن الحدث كله ، مثل حالة (**طها الموقد اللحم** The oven cooked the meat.) ، ولكن إذا فقدنا مثل هذه الخصيصة ، فإن التركيب يصبح أقل قبولاً مثل التركيب التالى «طها الإناء اللحم» The saucepan cooked the meat. (انظر لاكوف Lakoff ۱۹۷۷ من أجل دراسة تفصيلية لمثل هذه الأمثلة ، ويدافع لاكوف عن مدخل «النماذج الأصول» بالنسبة لدراسة الوحدات اللغوية) .

(٢) المعانى مفاهيم Meanings are Concepts :

هناك جدل ونقاش كبير محتدم حول تعريف « المعنى » . ولكنَّ هناك أيضاً اتفاقاً تاماً على أن معنى « الوحدة اللغوية يمثّل أحد معانيها sense » ، أعنى ذلك الجزء الدائم المرتبط بعلاقتها الدائمة بالعالم وليس مدلولاتها كلها referents ، أى الأشياء والأحداث objects & events التى تدل عليها الكلمة فى مناسبات بعينها

(انظر كمبسون Kempson ١٩٧٧ : ١٢ ، وليونز Lyons ١٩٧٧ الفصل السابع).
وهناك قدر أكبر من الخلاف حول تحديد مغزى الكلمة وعلاقته بالمفهوم الذى ترتبط به فى ذاكرة المتحدث ، أعنى مطابقة الوحدة للمفهوم الذى تعبّر عنه ، فمغزى كلمة قط ، على سبيل المثال ، هو مفهوم قط ، الذى ربما كان موجوداً فى ذاكرة الفرد قبل أن يتعلّم الكلمة التى تعبّر عن هذا المفهوم (انظر كلارك وكلارك Clark & Clark ١٩٧٧ : ٤٣٩ ، ٤٤٩ ، الذى يقدم هذا الرأى) . فليس لكل الوحدات اللغوية مفهوم مقابل مثل قط ، فبعض هذه الوحدات يبدو أنها مجرد محاولة لمساعدة المتلقى على الفهم مثل أداة التعريف الـ (the) ونظيرها العكسى أداة التنّكير (a) . وربما يكون التعميم الوحيد الصحيح الذى نستطيع أن نطلقه على المعنى هو أنه « كيان ذهنى » mental entity وأنه قد يكون مفهوماً أو قد يكون إجراء procedure .

(٣) التصنيفات الاجتماعية ، وثيقة الصلة باللغة مفاهيم:

Linguistically relevant social catagories are concepts

وكما أشرنا فى نهاية ٣ - ١ - ٢ ، يمكننا افتراض أن الناس يقومون بتصنيف المتحدثين والظروف فى صورة مفاهيم تستند إلى « النماذج الأصول » . وقد ذهبنا إلى أن المتحدث يحدد نفسه فى حيّز متعدد الأبعاد بالنسبة لباقى المجتمع، وإنه يحدد كذلك كل « فعل كلامى » فى حيّز متعدد الأبعاد بالنسبة لبقية جوانب حياته الاجتماعية. ويمكننا القول أن كل « بعد » من هذه الأبعاد يتحدد بالنسبة لمفهوم بعينه لمتحدث نموذجى فى موقف نموذجى. ويسمح لنا مثل هذا الرأى بالتنبؤ بكثير من الظواهر الموجودة بالفعل فى علم اللغة الاجتماعى ، مثل التحويل المجازى للشفرة metaphorical code-switching ، وهى الظاهرة التى سبق أن ذكرناها فى ٢-٥-١، كما يسمح لنا بتوقع الدرجات الأخرى المختلفة التى يحدد بها حديث الناس درجة انتمائهم إلى جماعات بعينها (الفصل الخامس وخاصة ٥-٤-٣ ، أدناه) .

(٤) معانى التراكيب قضايا :

Sentence-meanings are prepositions

وبسبب الفصل القائم بين « المفاهيم » و « القضايا » ، يمكننا القول أن معظم الوحدات اللغوية المختزنة فى الذاكرة يمكن تصور معانيها فى صورة مفاهيم ، غير أن التراكيب التى تتكون عن طريق تجميع هذه الوحدات يمكن القول أنها تعبّر عن قضايا . وعلى النقيض من معانى الوحدات اللغوية المختزنة فى الذاكرة ، مثل الكلمات والعبارات ، فإن المتلقى يصل إلى معانى التراكيب المنطوقة عن طريق الاستدلال ، بالرغم من أنه ليس هناك ما يحول دون اختزان تركيب بأكمله فى الذاكرة واختزان معناه كذلك ، وكثيراً ما يحدث ذلك . (ومن الأمثلة العادية على مثل هذه التراكيب المختزنة التركيبان التاليان :

A good time was had by all.

Two and two make four.).

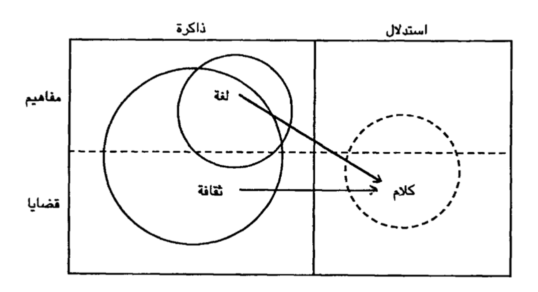
وذلك يعنى أن علينا أن نعدل ما قلناه فى الجزء رقم (٢) ، حيث قلنا أن المعانى مفاهيم ، لأن ذلك لا يصح إلاّ بالنسبة للوحدات المختزنة الأصغر من أشباه التراكيب .

ولو بسّطنا الأمور نوعاً ما ، فإننا قد نخلص من ذلك إلى أن ما يُختَزَن من النظام اللغوى فى الذاكرة هو مجموعة من المفاهيم ، وهى الوحدات اللغوية ، وذلك بالإضافة إلى معانيها المتمثلة فى صورة مفاهيم أو قضايا . وتُختَزَن أيضاً بعض المفاهيم الإضافية التى تحدد التوزيع الاجتماعى للوحدات اللغوية . وعندما نتحدث أو نتلقى ، فإننا نقوم باستخدام المفاهيم التى نعرفها حتى نستدل على القضايا (أى معانى التراكيب) ، وحتى نستدل أيضاً على التصنيفات الاجتماعية المُحَدَّدَة فى شكل مفاهيم .

أما بالنسبة للعلاقة بين اللغة والثقافة ، فإن معظم اللغة مضمن فى الثقافة . ولذلك ، فإننا لن نجانب الصواب عندما نقول « بأن لغة المجتمع تمثّل أحد جوانب

ثقافته... إن العلاقة بين اللغة والثقافة هى علاقة الجزء بالكل » (جوديناف Goodenough ١٩٧٥) . وتتكون منطقة التطابق بين اللغة والثقافة من كل الأجزاء اللغوية التى نتعلّمها من الآخرين . ولكن علينا أن نفهم أن بعض جوانب اللغة لا يتم تعلّمها بهذه الطريقة ، مثلما يحدث فى حالات بعض المفاهيم التى لا نتعلّمها من الآخرين . ومن هذا النوع المفاهيم المرتبطة بالكلمات ارتباط معنى فحسب . (ومنها على سبيل المثال فهم الطفل لمفهوم « الرأسية » قبل أن يتعلّم الكلمة الدالة على ذلك ، وقد تكون هناك جوانب أخرى من اللغة لا يحتاج الطفل لتعلّمها ، وذلك مثل قائمة «الخصائص الصوتية» أو مفاهيم « الاسم » أو « الفعل » . وبقدر ما تكون هناك جوانب من اللغة لا نتعلّمها من الآخرين ، تكون اللغة غير مضمنة كلية فى الثقافة .

وقد يساعدنا الشكل ٣ - ١ على إيضاح العلاقة بين الفكر من جهة (المربع كله) ، والثقافة واللغة والكلام من جهة أخرى (الممثلة بالدوائر الثلاث داخل المربع).



الشكل ٣ - ١ العلاقات بين الفكر والثقافة والكلام

٣-٢ النسبية الثقافية والنسبية اللغوية : Linguistic & Cultural Relativity

٣-٢-١ معانى الكلمات والمكونات الدلالية : Word-meaning and semantic components

بعد أن قمنا بإيضاح بعض جوانب العلاقة بين اللغة والفكر والثقافة ، علينا أن نلتفت الآن إلى قضيتين سادتا مجال دراسة علاقة اللغة بالثقافة والفكر .

أولاً : إلى أى مدى تختلف اللغات والثقافات عن بعضها بعضاً ؟ وهل تتبع كل منهما نفس الشكل عاكسة نمطاً « إنسانياً » تحتياً واحداً ، أم أنهما تختلفان اختلافاً تعسفياً مطلقاً ، انعكاساً لحقيقة أن الشعوب المختلفة تعيش فى عوالم فكرية ومادية مختلفة؟ هذا هو السؤال الخاص بقضية النسبية relativity ، والتى يمكن دراستها من الجانب اللغوى أو من الجوانب غير اللغوية للثقافة ، أو من مواقع الالتقاء والاتصال بين الجوانب اللغوية والجوانب غير اللغوية للثقافة . وسنقوم بدراسة هذه العلاقة الأخيرة فى هذا الجزء من الكتاب ، حيث سنحاول التركيز على اختلاف المعنى بين النوعيات المختلفة وبيان ما إذا كانت هناك أية ارتباطات بين الاختلافات الموجودة فى المعنى وبين الاختلافات الثقافية ؟ أما القضية الثانية فهى قضية « الحتمية » determinism (التى سنقوم بدراستها فى ٣-٣) وهى تختص بدراسة أثر اللغة على الفكر .

ومن السهل إيضاح أحد جوانب « النسبية » ، لأننا نستطيع أن نذكر وحدات بعينها فى بعض اللغات تعبّر عن معانٍ لا يمكن التعبير عنها فى لغات أخرى . وقد نرى ذلك بوضوح فى صعوبة الترجمة بين اللغات التى تنتمى إلى ثقافات مختلفة ، ولذلك توجد فيها أسماء لأنماط مختلفة من العادات والتقاليد (ومن الأمثلة على ذلك الاختلافات بأعياد الميلاد birthday) وأسماء لبعض الأشياء (مثل الهوفركرافت hovercraft والسجق sausages) وأسماء بعض المؤسسات (مثل الجامعة University) . وهكذا دواليك . وعندما تكون هناك حاجة ملحة لترجمة مفهوم لا يوجد له مقابل ولا تعبّر عنه كلمة جاهزة فى لغة بعينها ، هناك سبيلان للتغلّب على

مثل هذه الصعوبة . إما أن نقدم صيغة جديدة تحمل المعنى المطلوب ، أو نفكك المعنى المرغوب فى التعبير عنه . (ولذا ، يمكننا الدلالة على معنى كلمة « جامعة » بتفكيكها إلى مكافىء هو **مكان يذهب إليه الناس ليتعلموا أشياء صعبة بعد بلوغ سن الثامنة عشرة)** .

وسواء لجأنا إلى هذا الحل أو ذاك ، فالمفاهيم الموجودة فى صورة وحدات لغوية مختزنة فى إحدى اللغات لا يتحتم وجود مثلها للدلالة عليها فى لغة أخرى .

ويمكننا توسيع هذه المقولة باتجاهين ، على الأقل ، أولاً ، يمكننا أن نضع فى الاعتبار ما قلناه فى الفصل الثانى ، وأن نتخلى عن فكرة اللغة باعتبارها فكرة غير مفيدة ومضللة ، وأن نركز ، بدلاً من ذلك ، على الوحدات اللغوية القائمة لدى فرد بعينه . وذلك يسمح لنا بالقول بأن أنواع الاختلافات التى سبق أن رجعنا إليها من قبل بالنسبة لجماعات بأكملها ، تماثل الاختلافات القائمة بين الأفراد داخل إطار الجماعة الواحدة . فنحن نعرف جيداً من خبراتنا اليومية ، أن بعض الناس يعرفون أسماء لأشياء ومؤسسات قد يجهلها أفراد أسرتهم أو أصدقاؤهم إلى حدٍّ يمكننا معه القول ، أن هناك اختلافات فردية فى المعانى بين مجموع الوحدات اللغوية الموجودة لدى مختلف الأفراد ، ولذلك ، فإن كل مَنْ وصل فى قراءة هذا الكتاب إلى هذا الجزء سيكون قد اختزن عدداً من الوحدات اللغوية فى ذاكرته (منها مثلاً ، « ازدواج لهجى » Diglossia و « وحدة لغوية » Linguistic item و « خط توزيع السمات اللهجية » Isogloss ، وهذه الوحدات ستكون غير قائمة فعلا لدى مَنْ لم يدرس علم اللغة الاجتماعى.

ثانياً : يمكننا أن نتجاهل أية اشارة إلى الثقافة غير اللغوية لأن هناك اختلافات فى المعنى فى أى لغة لا دخل لها بالجوانب الأخرى للثقافة (على الأقل فى حدود ما يمكن معرفته) . فيوجد فى اللغة الألمانية ، على سبيل المثال ، فعلان يعنيان « يأكل » ، بينما يستخدم أحدهما eassen للدلالة على قيام البشر بالأكل ، بينما يدل الآخر fressen على قيام الحيوانات بالأكل ، وذلك على عكس اللغة

الإنكليزية حيث يُستخدم فعل واحد ، للدلالة على الفعلين . وبذلك تعبّر اللغتان الإنكليزية والألمانية عن معانٍ مختلفة من خلال وحداتهما اللغوية ، وتفتقر اللغة الألمانية إلى وجود فعل يوازى الفعل الإنكليزى يأكل ، بينما تفتقر اللغة الإنكليزية إلى الفعلين الأكثر خصوصية فى اللغة الألمانية (بالرغم من أن اللغتين تتضمنان فعلاً أكثر عمومية هو الفعل « يستهلك » consume ، غير أنه يعنى تناول الشراب أيضاً وعلى ذلك ، فنحن لم نضمنه فى المناقشة) . وإنه سوف يكون من الصعوبة بمكان أن نجد أية ظواهر أخرى فى الثقافتين الألمانية والإنكليزية ترتبط بالاختلاف آنف الذكر .

وهكذا ، نرى أن هناك بعض الاختلافات بين فردٍ وآخر أو بين جماعةٍ وأخرى من ناحية المفاهيم التى تعبّر عنها الوحدات اللغوية التى يستخدمونها . ولكن هذه النتيجة تترك عدداً من الأسئلة دون إجابة . فهل من الممكن ، مثلاً ، أن تختفى هذه الاختلافات ، لو وضعنا فى اعتبارنا المكونات components التى تصنع المعنى ، بدلاً من فحص التركيبات التى تظهر فيها هذه المكونات فى اللغات المختلفة ؟ لو فعلنا ذلك، لوجدنا أن الألمانية والإنكليزية ، مثلاً ، أقل اختلافاً مما تصورنا عندما قارنا بين أفعال الأكل ، وذلك لأن كل المكونات الفردية التى تكون معانى 'essen' و 'fressen' يمكن التعبير عنها باللغة الإنكليزية بوحدة مثل يأكل + إنسان أو حيوان ، ومن ناحية أخرى أكثر عمومية ، فقد يتضح من تفكك مكونات المعنى (كما سبق أن فعلنا بالنسبة لكلمة جامعة) ، أن هذه المكونات مشتركة بين هاتين اللغتين . ولذلك ، فإن من لا يملك وحدة واحدة لكلمة جامعة ، ستكون لديه وحدات مختلفة لكلمات مثل «ناس» و « يتعلّم » إلخ . وهى جدلاً المكونات التى تكوّن المعنى .

وقد لقى هذا الرأى رواجاً كبيراً بين علماء اللغة كأساس لنظرية الدلالة (انظر كمبسون Kempson ١٩٧٧ : ٩٦ من أجل مناقشة مفيدة) . وقد يؤدى هذا الرأى إلى إعادة طرح مشكلات عديدة ، ولكن ينبغى علينا ، أولاً ، أن نفحص بدقة مثالاً مطولاً عن التحليل الدلالى فى صورة مكونات ، قبل أن نبدأ فى بحث بعض هذه المشكلات . (وغالباً ما يُطلق على هذا النوع من التحليل مصطلح «تحليل المكونات» Componential analysis وقد كان وليام جوديناف Goodenough (١٩٥٦)

عالم الإنثروبولوجيا ، أول مَنْ ابتكره كأداة لدراسة بعض جوانب الثقافة وخاصة مسألة القرابة kinship terms) . ويتناول هذا المثال ضمائر لغة البالونج Palaung ، وهى لغة تتحدث بها قبيلة صغيرة فى بورما (برلينج Burling ۱۹۷۰ : ١٤) ، حيث يمكننا ترتيب الضمائر فى هذه اللغة فى نظام محكم يسمح بالتمييز بين ثلاثة مكونات منفصلة هى :

(١) هل يدل الضمير على المتحدث (من بين الآخرين) ؟

(٢) هل يدل الضمير على المخاطب (من بين الآخرين) ؟

(٣) هل يدل الضمير على واحدٍ أو اثنين أو أكثر ؟

ويوضّح الجدول ٣-١ كيف تتقاطع هذه المكونات لتحدد صيغة الضمير .

الجدول رقم ٣-١ ، ضمائر البالونج Palaung

(مأخوذ من برلينج Burling ۱۹۷۱ : ١٧)

(١) المتحدث	(٢) المخاطب	(٣) واحد	اثنان	أكثر من اثنين
نعم	نعم	–	ar	ε
نعم	لا		yar	εy
لا	نعم	m i	par	εp
لا	لا	An	gar	εg

ويوضح الجدول ٣-١ كيف تتقاطع هذه المكونات لتحديد صيغة الضمير. وتتميّز الضمائر فى البالونج بأنها تقوم بتحديد عدد من التميزات بالنسبة للمكونات المذكورة أكبر مما يحدث فى اللغة الإنكليزية . فاللغة الإنكليزية لا تميز بين « المثنى »

و« الجمع » أو بين « المتحدث » و « المخاطب » (**نحن الشاملة**inclusive we) أو بين « المتحدث » و « فرد آخر غير المخاطب » (**نحن المحددة**). ولكن كل هذه المكونات الثلاثة مستخدمة فى اللغة الإنكليزية بشكل أو بآخر . أما بالنسبة لمكونات « المتحدث » و « المخاطب » ، فليس علينا ألاّ أن نفحص نظام الضمائر حيث يُستخدم كلاهما للتمييز ما بين we **نحن** (التى تتضمن المتحدث) **وأنت** **you** (التى تتضمن المخاطب ولكنها لا تتضمن المتحدث) **وهم** **they** (التى لا تتضمن أيّاً منهما). أما بالنسبة للمكون العددى ، فاللغة الإنكليزية تميّز ما بين كلهم all وكلاهما both أو لا أحد منهم none أو لا أحد منهما **neither** كما لو كان هناك مدلولان أو أكثر من مدلولين . وعلى ذلك ، فإننا نصل إلى النتيجة التالية وهى أن كلاً من اللغة الإنكليزية والبالونج لا تختلفان فى مكوناتهما الدلالية ، ولكنهما تختلفان فى الطريقة التى تستخدم كل منهما بها هذه المكونات .

والفرضية التى نناقشها هنا ، هى أن اللغات تختلف فى الطريقة التى تركّب بها المكونات الدلالية ولكن المكونات ذاتها ليست مختلفة . ويبدو أن الأدلة والمادة المقدمتين هنا تدعمان هذه الفرضية (ويمكننا إضافة الكثير إلى هذه المادة) . ولكن هناك مشكلة مباشرة تواجهنا لو سلّمنا بما سبق أن قلناه فى (٣-١-٣) من أن هذه الدلالات تعد مفاهيم (فردية) . ولو كان الأمر كذلك ، لكان معنى ذلك أن معنى كلمة نحن we فى الإنكليزية مفهوم فردى ، يتضمن « المتحدث » و « كثيرين » كخصائص مميزة لهذه الكلمة بدلاً من كونها مكونات لمعنى كلمة we (نحن) ذاتها . وأعنى أن العلاقة بين الكلمات والمفاهيم مثل « المتحدث » و « المخاطب » و «الكثيرين» ليست علاقة مباشرة ، وإنما يتوسطهما مفهوم يصل بينهما كمعنى . فلو أننا اتخذنا هذا المنظور ، لوجدنا أن ما أطلقنا عليه مصطلح « مكونات الدلالة » ليس جزءاً من علم الدلالة على وجه الإطلاق ، بل هو جزء من « البنية المعرفية العامة » general cognitive structure ، ومن هنا نخلص إلى القول بأن المعانى تختلف فى اللغات المختلفة اختلافاً كبيراً . (فمعظم الضمائر فى لغة البالونج لها معانٍ لا يمكن التعبير عنها بأى من الضمائر الإنكليزية ، والعكس صحيح أيضاً .). وعلى أية حال،

فقد يعد ذلك فى المقام الأول خلاقاً على المصطلحات ، وهو أمر لا أرى أية ضرورة فى الاستمرار فيه بجدية هنا .

٣ - ٢ - ٢ « النماذج الأصول » Prototypes :

من نتائج دراسة المكونات التى تسهم فى تكوين المعنى ، أن النظم الدلالية للغات المختلفة تبدو أكثر شبهاً بعضها بالبعض الآخر ، وأقل اختلافاً عما إذا كنا قد درسنا المعانى كاملة دون تفتيتها إلى مكونات . وإذا درسنا النماذج الأصول (انظر ٣-٢-١) التى تنظم من حولها معانى الكلمات ، فقد يتضح من ذلك أيضاً أن هذه النماذج أكثر تشابهاً وأقل اختلافاً عما لو درسنا معانى الكلمات ذاتها . وقد يبدو ذلك صحيحاً بصفة خاصة بالنسبة لمجالين من مجالات المفردات ، وهما مجالا اللون colour والقرابة kinship ، وهما المجالان اللذان استخدما مراراً لتبيان الاختلافات الشديدة القائمة بين اللغات . وفيما يتصل بالألوان ، تُقَسم اللغات المختلفة ألوان الطيف تقسيمات مختلفة . وطالما لفتت هذه الحقيقة نظر علماء اللغة وعلماء الإثنوغرافيا . فكلمة واحدة بلغة الزونى Zuni على سبيل المثال ، توازى معنى كل من اللونين البرتقالى orange والأصفر yellow باللغة الإنكليزية (بولينجر Bolinger ١٩٧٥ : ٢٤٥) ، أما الكلمة الويلشية جلاس glas† فهى تشمل الألوان التالية فى اللغة الإنكليزية : الأخضر والأزرق والرمادى (روبينز Robins ١٩٦٤ : ٧٢) .

أما فيما يتعلّق بالمفردات الدالة على مفاهيم القرابة ، فإن اللغات تختلف اختلافاً مذهلاً فى الطريقة التى تصنّف بها هذه المفاهيم كما سنرى فيما بعد (انظر كلارك و كلارك Clark & Clark الذى يقدم مناقشة تفصيلية لمصطلحات الألوان ١٩٧٧ : ٥٢٤ ، وانظر أيضاً روش (١٩٧٤) الذى يقدّم عرضاً جيداً لكل الدراسات التجريبية الحديثة عن النسبية اللغوية) .

ولعل أهم التطورات التى سنرجع إليها بالنسبة لمصطلحات القرابة kinship terminology ، هى التى استحدثها عالم الإنثروبولوجيا فلويد لونزبرى Floyed

Lounsbury ، والذى توصل إلى فكرة المعانى التى ترتكز إلى «النماذج الأصول» بمنأى عن الأبحاث النفسية التى أجرتها ألينور روش Eleanour Rosch ، والتى سبق أن ذكرناها فى ٣ - ١ - ٢ (انظر بصفة خاصة لونزبرى Lounsbury ١٩٦٩ ، والدراسة الموجودة فى برلينج Burling ١٩٧٠ : ٤٩) . ولنبدأ هذه الدراسة لمصطلحات القرابة بفحص المادة العلمية التى يتصدى لها دارسو هذه المصطلحات من علماء الإنثروبولوجيا وعلماء اللغة.

ويمكننا استخدام مصطلح (س) فى الكثير من المجتمعات ، ومن بينها مجتمع هنود السيمنولا Seminole Indians الذين يقطنون فلوريدا وأوكلاهوما ومواطنو جزر التروبيراند (الواقعة شرق غينيا الجديدة) ، للدلالة على العلاقات التالية

(١) الأب	1) Father
(٢) أخو الأب (العم)	2) Father's brother (English <u>Uncle</u>)
(٣) ابن أخت الأب (ابن العمة)	3) Father's sister's son (English <u>Cousin</u>)
(٤) ابن أخت أم الأب (ابن خالة الأب) لا يوجد مصطلح	4) Father's mother's sister's son (English ?)
(٥) ابن بنت أخت الأب (ابن بنت العمة) لايوجد مصطلح	5) Father's sister's daughter son (English ?)
(٦) ابن أخ أخ أب الأب (ابن أخى الجد) لا يوجد مصطلح	6) Father's father's brother's brother's son (English ?)
(٧) ابن اب أخت أب الأب (حفيد عمة الأب) لا يوجد مصطلح	7) Father's father's sister's son's son (English ?)

وقد قمنا بذكر مصطلحات القرابة الإنكليزية بين قوسين ، إذا وُجدَتْ ، غير أن المصطلحات الإنكليزية ليست بالترجمة الدقيقة لهذه المصطلحات ، لأن لها معانى أوسع من المعانى المعطاة هنا : فيدل لفظ <u>العم</u> <u>uncle</u> باللغة الإنكليزية مثلاً على أخ الأب أو أخ الأم (الأخير بالعربية خال) ، بينما لا يجوز استخدام (س) للدلالة على أخ الأم . وفضلاً عن ذلك ، فإنه لا يوجد بالنسبة لمعظم المتحدثين باللغة الإنكليزية

مصطلح ما للدلالة على المعانى المذكورة فى أرقام ٤ و ٥ و ٦ و ٧ ، بالرغم من أنه ما من شك فى وجود قلة ضئيلة من ذوى الخبرة فى هذه الأمور ، (وهم أقلية ضئيلة فى بريطانيا) يمكنهم إيجاد أو تركيب تركيبات مثل second cousin twice removed، وليس من الضرورى التأكيد ثانية على أنه لا توجد مصطلحات إنكليزية مرادفة للمصطلح (س) فى هذه اللغات .

وليس معنى (س) محيّراً بالنسبة للمتحدث الإنكليزى العادى فحسب ، ولكنه قد يحيّر أيضاً المتخصص ، وذلك فى تحليل الخصائص المميزة للأقرباء الذين يمكن الدلالة عليهم بمصطلح (س) من القرابة ، وإحدى هذه الخصائص العامة هى وجوب كون المدلول عليه ذكراً ، ولكن يصعب بعد ذلك إيجاد أى من الخصائص الأخرى التى تحدد (س) . (وعلينا أن نلاحظ أن (س) لا تعنى قريباً ذكراً من جانب الأب لأنها لا تتضمن أبا الأب ، مثلاً) . ولو أننا اتبعنا منهج « النماذج الأصول » بدلاً من منهج البحث عن الخصائص المميزة ، فإن الأمور قد تبدو مختلفة – إذ يمكننا – وعلى حد قول لونزبرى – التنبؤ بكل هذه المعانى ، لو افترضنا أن المعنى الأصلى (النموذج الأصل) هو مجرد « الأب » والمعانى الأخرى مشتقة منه ، وذلك عند تطبيق أى واحدة من قواعد التكافؤ الثلاث التالية :

ا – أخت الرجل = أمه .

ب – الإخوة والأخوات = بعضهم بعضاً لو كانوا من نفس الجنس .

جـ – الإخوة غير الأشقاء = الإخوة الأشقاء .

ونحن نحتاج لهذه القواعد الثلاث ، دون سواها حتى يمكننا التنبؤ بمعانى مصطلحات القرابة الأخرى فى هذه اللغات . فلنبدأ إذن بمثل سهل ، وهو « أخو الأب » ويمكننا اشتقاق المصطلح (٢) من القاعدة ب ، حيث إن الأب وأخاه أخوان من نفس الجنس ولذلك فهما متكافئان . أما بالنسبة للمصطلح (٣) « ابن أخت الأب » ، فعلينا تطبيق القاعدة « ب » محولين بذلك « الأب » إلى « أخو الأب » ثم تطبيق القاعدة «جـ» التى تستبدل « بالأخ » « ابن الأم » و (هى وسيلة للدلالة على الإخوة غير الأشقاء) . وأخيراً تطبيق القاعدة « أ » مستبدلين « أم الأب » ب « أخت الأب » ، ويعطينا ذلك العلاقة التى نسعى وراءها وهى « ابن أخت الأب » ، ويتضح من الجدول

٣-٢ كيف نشتق المعنى (٧) ابن ابن أخت أبى الأب « من » « الأب » .

الجدول ٣-٢ اشتقاق مصطلحات القرابة فى بعض اللغات

القاعدة	المعنى
الأنموذج	الأب
ب . أخ = أخ	أخو الأب
جـ . أخ غير شقيق = أخ شقيق	ابن أبو الأب
ب . أخ = أخ	ابن أخو أبو الأب
جـ . أخ غير شقيق = أخ شقيق	ابن ابن أم أبو الأب
أ . الأخت = الأم	ابن ابن أخت أبو الأب

والشىء اللافت للنظر فى هذا التحليل ، هو أن المعنى الأساسى لمصطلح (س) هو نفس مصطلح « الأب » باللغة الإنكليزية ، وأن الاختلافات بينهما ناتجة عن وجود قواعد اشتقاق derivation rules فى اللغات الأخرى ، ليست قائمة فى اللغة الإنكليزية . (وينبغى أن نلحظ أن هناك أيضاً معانى ثانوية أخرى لمصطلح « أب » Father باللغة الإنكليزية مثل « قسيس » Priest أو « أب متبنى ») . ويفتح هذا الاكتشاف آفاقاً جديدة للمقارنة بين معانى « النماذج الأصول » لمصطلحات القرابة فى مختلف اللغات (لو افترضنا أن بإمكاننا تحديد معانيها) ، وسنجد أنه لا توجد سوى اختلافات بسيطة وضئيلة فى عدد من الأنماط العامة ، ولكننا قد نجد اختلافات واسعة وكبيرة فى قواعد الاشتقاق . وليس بإمكاننا تجاهل هذه الاختلافات واعتبارها غير ذات أهمية ، لأنه قد يكون لهذه الاختلافات نتائج وآثار هامة وجسيمة . ولكننا نستطيع ، على أقل تقدير ، تقييد أنواع الاختلافات بين مصطلحات القرابة فى اللغات المختلفة ، ولذلك فنحن لا نستطيع اتخاذ هذه الاختلافات دليلاً على وجود النسبية اللغوية المتطرفة .

وقد يخطىء من يظن أن مدخل « النماذج الأصول » يجعل كل أنظمة

مصطلحات القرابة تبدو وكأنها واحدة ، باستثناء قواعد اشتقاقها ، لأن ذلك ليس بالطبع هو الموقف . فحتى معانى « النماذج الأصول » قد تكون مرتبطة ارتباطاً شديداً بالتنظيم الاجتماعى لمجتمع بعينه . فهناك ، على سبيل المثال ، قبيلة من السكان الأصليين لاستراليا يُطلق عليها اسم « النجمال » Njamal ، وتشير عادات الزواج فى هذه القبيلة إلى وحدة يطلق عليها علماء الإنثروبولوجيا « الفخذ » moiety حيث تقسّم هذه العادات القبيلة إلى فخذين (قارن بذلك المصطلح الفرنسى moitiè ويعنى «النصف») ، ويعتمد الوصف التالى أساساً على دراسة برلينج Burling ١٩٧٠ : ٢١) . وفيها ينتمى الفرد إلى الفخذ الذى ينتمى إليه أبوه دائماً ولا ينتمى إلى فخذ أمه ، لأن القواعد تحتم على الزوج والزوجة الانتماء إلى « فخذين » مختلفين . different moieties

ولا تنعكس أهمية اختلاف الفخذين فى قواعد الاشتقاق فقط (والتى صيغتْ أصلاً لتمنع الخلط بين الأقارب الذين ينتمون إلى فخذين مختلفين ، وذلك عند الإشارة إليهم بنفس المصطلح) ، بل تنعكس أيضاً فى معانى « النماذج الأصول » ، فهناك ، على سبيل المثال ، أربعة مصطلحات تدل أساساً على المنتمين لجيل الأبوين : مصطلح لكل من « الأب » و « الأم » ، كما هو الحال فى كل اللغات ، ولكنَّ هناك أيضاً مصطلحين إضافيين يدل أحدهما على « أخو الأم » mother's brother ويدل الآخر على « أخت الأب » father's sister . والسؤال هو ، لماذا تمَّ اختيار هاتين العلاقتين دون العلاقات الأخرى مثل « أخو الأب » للإشارة إليهما بمصطلحين بعينهما ؟ ويبدو أن الإجابة على هذا السؤال هى ، أن هاتين العلاقتين تقدمان لنا تعارضاً جنسياً أساسياً عن « تعارض الأفخاذ » moiety contrast ، إذ ينتمى «الأب » و « أخت الأب » ، مثلاً ، إلى نفس الفخذ الذى ينتمى إليه الفرد المعنى ، ولكنهما من جنسين مختلفين ، بينما « الأم » و « أخو الأم » ينتميان إلى الفخذ الآخر ، ولكنهما من جنسين مختلفين أيضاً) . وعلى العكس ، فأخو « الأب » ينتمى إلى نفس الفخذ ونفس الجنس الذى ينتمى إليه « الأب » ، ولذلك ، فإنه لا يعد « نموذجاً أصلاً » منفصلاً ومميزاً .

ويبدو أننا حتى لو اتخذنا « النماذج الأصول » مدخلاً للتعامل مع مصطلحات

القرابة ، فإنه سيظل هناك مجال كاف يعكس الاختلافات القائمة فى التنظيم الاجتماعى ، سواء أكان ذلك الاختلاف فى « النماذج الأصول » ذاتها أم فى قواعد اشتقاق المعانى الأخرى من هذه « النماذج الأصول » . (يمكننا مثلاً أن نعرف مفهوم «الأب» فى صورة عدد من العناصر المختلفة ، مثل « أبوة الدم » و « الولاية » و «الوصاية العادية» ويمكن تأكيد هذه العناصر المختلفة من وجهات نظر مختلفة فى مجتمعات مختلفة) . وفضلاً عن ذلك ، يبدو أننا سنحتاج إلى مفهوم مثل « الفخذ » moiety ، وذلك عند محاولة تعريف النماذج الأصول فى لغات مثل لغات النجمال Njamal ، ولكننا لن نحتاج إلى مثل هذا المفهوم فى اللغات المرتبطة بأنواع أخرى من الأنظمة الاجتماعية . وعليه ، فإننا لا يمكن أن نكون على يقين من « المكونات الدلالية » 'semantic components المكونة للنماذج الأصول مكونات شمولية universal components .

أما النقطة الأخيرة فى هذه المناقشة ، فهى خاصة بمفهوم النموذج الأصل فى حد ذاته . سبق أن ناقشنا ثلاث طرق ، يمكننا بها تجاوز المعنى النموذجى الأصل للكلمة word's prototypical meaning ، أولاً ، يستطيع المتحدث استخدام ما سبق أن أطلقنا عليه « المرونة الخلاّقة » creative flexibility (٣-١-٢) ، ومعنى ذلك أن المتحدث سيتجاوز معنى الكلمة بطريقة مبتكرة ، ويمكننا أن نطلق على هذا النوع من التجاوز « التجاوز المجازى » metaphorical extension (ومن الأمثلة على هذا النوع من التجاوز ، استخدام « نموذج الأصل » شائع الدلالة ، للدلالة على شىء غريب تماماً لا يناسب هذا أو يتلاءم معه) . ثانياً ، قد تكون هناك قواعد ثابتة وواضحة لتجاوز المعنى ، كما هو الحال فى تحليل لونزبرى لمصطلحات القرابة Lounsbury's analysis ، وربما نفترض أن بعض هذه المعانى التجاوزية هى معان يتم توليدها عند استخدامها كل مرة دون اختزان فى ذاكرة المتحدث .

ثالثاً : هناك مفردات تتركّز دلالتها فى نموذج أصل بعينه ولكن معانيها التجاوزية قد تكون مختزنة أيضاً فى الذاكرة . فقد نفترض مثلاً أن أحد معانى sense كلمة « الأب » والتى تسمح باستخدامها بمعنى « القسيس الكاثوليكى »

مختزنة أيضاً فى الذاكرة ، بالرغم من أنها قد اشتقت تاريخياً من المعنى الأولى البيولوجى لكلمة « أب » . وهناك كثير من الأسئلة الهامة التى يمكن طرحها عن العلاقات بين هذه الأنواع الثلاثة من التجاوز ، وهى أسئلة لا نستطيع طرحها ومتابعتها هنا . ولكن قد يلحظ القراء الذين يألفون دراسات « تكوين المفردات » word formation ، أن الطرق التى يمكن بها تجاوز معانى النماذج الأصول يمكن مطابقتها تماماً مع الطرق التى تتكون بها الأعداد الترتيبية ordinal numbers ، فالمتحدث ، على سبيل المثال ، الذى ينطق بالرقم « سبعة وعشرين » يقوم بصياغة شكل أو صيغة جديدة عن طريق تطبيق إحدى القواعد (الحالة ٢) ، أما المتحدث الذى يقول **أولاً وثانياً** ، فلابد أنه استخرج شكلاً مختزناً من الذاكرة (الحالة ٣) ، أما الذى يود الدلالة أو الرجوع إلى المثال المرقم ٣-١ بالقول إنه **المثال الثالث** ، فإنه يقوم عندئذ بعملية صياغة أو خلق جديد (الحالة ١) (انظر بولينجر Bolinger ١٩٧٥ : ١٠٨ ، وليتش Leech ١٩٧٤ الفصل ١٠ ، وماتيوز Matthews ١٩٧٤ : الفصل ٣ ، وهم يقدمون دراسة ومناقشة لموضوع « تكوين الكلمات » word formation .

٣ - ٢ - ٣ مفاهيم المستوى الأساس Basic-level concepts :

سبق أن رأينا أن التركيز على المكونات الدلالية و « النماذج الأصول » ، يؤدى إلى تضييق هوة الاختلافات القائمة بين اللغات من ناحية المعانى . وسنصل الآن إلى النظرية التى استحدثتها ألينور روش Eleanor Rosch (التى قدمت كما سبق أن ذكرنا مفهوم « النموذج الأصل » فى علم النفس) . وتفترض هذه النظرية وجود أقل مما نتوقعه من الاختلافات بين اللغات من ناحية <u>تنظيم</u> organization معانى الكلمات (انظر على سبيل المثال كلارك وكلارك Clark & Clark ١٩٧٧ ، وروش ١٩٧٦ ، وقد تنبأ براون ببعض جوانب هذه النظرية فى ١٩٥٨ أ ، ب) . والمنطلق الأساس لهذه النظرية هو الفرضية القائلة بأن الأسلوب الذى تنظم به اللغة العالم من حولها ، من خلال المعانى التى تقوم بتمييزها ، يعتمد فى جزء منه على بناء وتنظيم

العالم ذاته ، ويعتمد أيضاً على احتياجات المتحدثين الاتصالية . ويستند مفهوم «النموذج الأصل» إلى الحقيقة القائلة ، بأن الخصائص لا تتجمع فى العالم بطريقة عشوائية بل إن هناك ميلاً نحو تواجدها فى مجموعات معقدة . ومن الأمثلة على ذلك، أنه من المحتمل أن تكون لذى الريش رجلان وأن يكون قادراً على الطيران ، وأن يكون له منقار وأنه يبيض ولا يلد . وكل ما نفعله عندما نكون مفهوماً لنموذج أصل، هو أننا نبدأ فى إدراك هذه الحقيقة عن العالم موقنين فى نفس الوقت بأن هناك حالات استثنائية لا تنطبق عليها هذه القواعد . ويمكننا القول بأن هذا المنهج أكثر قدرة من بديله ، والذى يتلخص فى تحديد تصنيفات مانعة جامعة لكل « الخصائص المميزة » الكافية والوافية .

وقد استخلصتْ روش نتيجة أخرى من هذه الفرضية الأساسية ، وهى ضرورة وجود ما نطلق عليه « مفاهيم المستوى الأساس » ، وذلك على عكس المفاهيم الأخرى التى قد تكون على درجة أعلى من الخصوصية أو العمومية . فلو افترضنا أن هناك نوعاً من التدرج الهرمى فى تنظيم مفاهيمنا ، حيث تشتمل ، فى مثل هذا النظام ، المفاهيم الأكثر عمومية « مثل الأثاث » على المفاهيم الثانوية أو الأقل عمومية مثل «مقعد» أو « كرسى » ، يصبح من السهل أن نحدد فى إطار هذا التدرج الهرمى مستوى المفاهيم التى تعطينا أكبر قدر من المعلومات (أى التى تشتمل على معظم مكونات المفهوم ، بأقل قدر من الجهد (أعنى باستخدام أقل عدد من المفاهيم المستقلة) . فهناك قدر أكبر من المعلومات فى قولنا « لقد اشتريت كرسياً » ، يزيد عن قولنا « لقد اشتريت قطعة من الأثاث » ، لأن لفظة كرسى تتضمن عدداً من الخصائص المادية (مثل وجود سطح أفقى وعدد من الأرجل وظهر رأسى) ، بينما لا تتوافر هذه الخصائص لكل قطع الأثاث . وتحمل لفظة كرسى أيضاً معلومات خاصة عن الوظيفة التى يؤديها كقطعة من الأثاث ، أى أنه يخبرنا بما نستطيع أن نفعله به ، على عكس لفظة قطعة من الأثاث ، والتى لا تخبرنا إلاّ بقدر قليل من المعلومات الغامضة عن وظيفتها الحقيقية . أما لفظة كرسى المطبخ ، فلا تضيف سوى خصيصة إضافية واحدة عند مقارنتها بلفظة كرسى ، وهى خصيصة غير ذات فائدة عظيمة

وغالباً ما تكون هذه الخصيصة غير مرتبطة بالموقف . ويعد الجهد المبذول للتعرف على كرسى ما بأنه كرسى مطبخ ، بدلاً من كونه مجرد كرسى جهداً أكثر مما نحتاجه لتحديد هذه الخصيصة . ولذلك ، يعد مفهوم كرسى من مفاهيم المستوى الأساس ، لأنه التصنيف الأكثر حضوراً بشكل طبيعى ، عندما نود الدلالة على شىء يمكننا تسميته أثاثاً أو كرسياً أو كرسى مطبخ . ومما يؤكد هذه النظرية ، هو كون لفظة كرسى مكونة من كلمة واحدة ، بعكس كل من لفظتى كرسى المطبخ وقطعة من الأثاث ، ومعظم هذه الأدلة مأخوذة من الطريقة التى يستخدم بها المتحدثون هذه الكلمات ، كما وردت فى دراسة روش .

إن علاقة مفاهيم المستوى الأساس بقضية النسبية اللغوية علاقة ذات شقين :

أولاً : إذا ثبت أن المفاهيم تُرَتّب هرمياً فوق المفاهيم الأساسية ، فينبغى علينا أن نتوقع وجود قدر من التشابه بين اللغات فى تنظيمها الدرجى للمفردات . وقد أكدتْ دراسات علم « الأحياء الشعبى » folk biology التى أجراها برنت برلين Brent Berlin وزملاؤه هذه النظرية . (وهناك ملخص لهذه الدراسات فى كلارك وكلارك Clark & Clark ١٩٧٧ : ٥٢٨) . وقد وَجَدَ برنت برلين أن أسماء النباتات والحيوانات قد رُتِبَتْ فى صورة خمسة أو ستة مستويات فى عدد كبير من اللغات ، ويشكّل فيها المستوى الثالث من القمة المستوى الأساس . فقد وَجَدَ ، مثلاً ، أن اللغة الإنكليزية فيها نظام ترتيبى يتمثّل فى مصطلحات مثل ، **نبات وشجرة والصنوبرية و الصنوبرية الباندورسية والصنوبرية الباندورسية الشمالية** .

Plant, tree, Pine, Ponderosa Pine, and Northern Pine

وتمثّل كلمة الصنوبرية **Pine** المستوى الثالث فى هذا النظام ، وهو المستوى الأدنى . الذى تُستخدم فيه كلمة واحدة . مما يشير إلى أنها مستوى الأساس . ومن الغريب حقاً أن برلين وزملاءه قد وَجَدوا أن كل اللغات التى درسوها ، وهى حوالى ٥٠٠ لغة ، بها نفس العدد من مصطلحات المستوى الثالث فى متدرج « الأحياء »

Biology Hierarchy ، وتمثّل هذه النتائج نسبة عالية من التشابه بين اللغات من ناحية بنيتها الدلالية Semantic Structure ، بالرغم من أن المفاهيم ذاتها قد تختلف حسب اختلاف أنواع الحيوانات والنباتات ، التى تستوطن الأماكن التى تُستَخدم فيها هذه اللغات المختلفة .

والشق الثانى من العلاقة بين مفاهيم المستوى الأساس ومسألة النسبية اللغوية ، يتلخّص فى أن هذه المفاهيم تضيف إلى معلوماتنا مجالاً إضافياً يختلف فيه الناس من الناحية اللغوية ، ولذلك ، تبدو النسبية اللغوية أكثر مما هى عليه فعلاً. فالناس يختلفون فيما يعتبرونه مفاهيم أساسية . فقد ظهر ، على سبيل المثال ، من الأبحاث التى أجرتها روش أن أهل الحضر يعدون لفظة **شجرة** لفظاً أساسياً ، ولا يعدون لفظة **صنوبرية** كذلك (روش Rosch ١٩٧٦) ، وذلك لأنهم لا يألفون خصائص الأشجار الصنوبرية كما يألفها أهل الريف الذين دَرَسَهم برلين وزملاؤه . وعلى عكس ذلك ، فإننا قد نتوقع أن نجد أن لفظة « الصنوبرية البندروسية » تعد من مفاهيم المستوى الأساس بالنسبة لِمَنْ يعملون فى الحراجة ، وقد ينعكس ذلك فى اختصارهم للاسم إلى كلمة واحدة وهى **بندروسا** (كلارك وكلارك ١٩٧٧ : ٥٥٣).(والاسم البديل « **للصنوبرية** » هو « **شجرة الصنوبر** » ، وقد يكون من المهم أن نعرف ما إذا كان أولئك الذين يعدون لفظة **شجرة** من مفاهيم المستوى الأساس أكثر قدرة من أهل الريف على استخدام الصيغة الأطول **للصنوبرية**) .

٣ - ٢ - ٤ الخلاصة :

هناك عدد من الجوانب الهامة لقضية النسبية التى لم نناقشها بعد فى الأجزاء السابقة ، وخصوصاً قضية النسبية فى مجالات المعنى التى تنعكس فى التراكيب أو الصيّغ الصرفية أكثر من انعكاسها فى المفردات . لقد اهتممنا اهتماماً خاصاً بالمفردات، لأننا قد توقعنا حدسياً أن نجد فى القضايا Propositions التى يمكن التعبير عنها من خلال التراكيب قدراً من التباين أقل مما نجده فى المفاهيم التى تعتمد على المفردات.

ولكن ، لو وَجَدْنا أن النسبية محدودة ، حتى فى المفردات ، فإن ذلك يعد أمراً غاية فى الأهمية . وهناك أيضاً اختلافات فى المفاهيم التى تعكسها الصيغ الصرفية ، حيث تتفاوت هذه الاختلافات بين اللغات الغنية بالصيغ الصرفية المعبّرة واللغات التى لا توجد بها صيَّغ صرفية . ومن ناحية أخرى ، فإن عدداً من المفاهيم مثل الزمن time والعدد number والحالة أو المنحى mood (أعنى موقف المتحدث من مضمون قوله ، مثل مدى يقينه من صحة قوله أو القضية المضمّنة فى قوله) غالباً ما يُعبّر عنها من خلال الصيّغ الصرفية فى كثير من اللغات . وقد تكون هناك إذن قيود صارمة على النسبية فى مجال الدلالة بصورة موازية للصيّغ الصرفية ، ولذلك فهى مثل التراكيب قد لا تمثّل مجالاً مناسباً ، كالمفردات ، للبحث عن النسبية .

ولذلك تقتصر النتيجة التالية على المعانى ، كما تنعكس فى المفردات فقط ، وذلك يعنى أننا لن نتعامل إلاّ مع هذا الجزء من المعنى والذى يقتصر على المفاهيم بدلاً من « القضايا » . لقد وصلنا إلى النتيجة القائلة بأن موقف « النسبية المتطرِّفة » Extreme relativism غير مقبول ، لأن هناك قيوداً واضحة على نوعية وطبيعة الاختلافات القائمة بين الناس فى صورة المفاهيم التى تعبّر عنها لغتهم ، وقد تكون هذه القيود ناتجة عن قيام الناس ، على اختلافهم ، وانتمائهم إلى مجتمعات شديدة الاختلاف ، باستخدام نفس المفاهيم فى تعريف معانى الكلمات ، أو بعبارة أخرى قيامهم بتعريف معانى الكلمات فى شكل « مكونات » « دلالية » غالباً ما تكون مشتركة لا بين هذه اللغات فحسب ، بل ربما بين الجنس البشرى بأجمعه . ويمكن «للمكون الدلالى » أن يكون مكوناً « شمولياً universal لأنه جزء من التركيب أو البنية المعرفية البشرية » human cognitive make-up ، مثل القدرة البشرية على إدراك الأشكال والألوان ، أو لأنه جزء من عالم الإنسان العادى ، مثل التعارض القائم بين البعدين « الرأسى » و « الأفقى » أو القائم بين أفراد الأسرة البيولوجية الواحدة .

ويمكننا تفسير القيود الأخرى الموضوعة على النسبية على أساس أنها ناتجة عن وحدة متطلبات البشر الاتصالية ، وخاصة الحاجة إلى توصيل أكبر قدر من المعلومات بأقل قدر من الجهد . وهذا يؤدى إلى وجود اتجاه شمولى لإعطاء الأولوية لمفاهيم

المستوى الأساس ، وأن يكون ذلك هو السر وراء تفضيلها عل كل من مفاهيم المستويين الأعلى والأدنى higher and lower level concepts . وقد نتج عن ذلك أيضاً ، التشابه فى الأنظمة أو الأبنية التدرجية hierarchical structure القائمة فى المفردات ، دون التقيد بالمضمون الفعلى للمعانى التى تعبّر عنها . وترجع أنواع القيود الأخرى المفروضة على النسبية إلى إحدى سمات العالم من حولنا ، وهى اتجاه لفرض بنيته الذاتية ، وذلك عن طريق تقديم مفاهيم جاهزة يمكن استخدامها « نماذج أصول » ، وهى نماذج يقل تباينها بين الأفراد أو المجتمعات عن المفاهيم « التجاوزية » extended المبنية عليها (انظر المناقشة عن كلمة « أب » فى عدد من اللغات المختلفة ، أعلاه) .

وينبغى علينا أن نؤكد أن هذه النتائج مجرد فرضيات مطروحة لم يتم اختيارها إلاّ من خلال قدر ضئيل من المادة العلمية ، ولكنها تستوى مع الفرضيات البديلة والخاصة بالنسبة المتطرفة extreme relativism أو الشمولية المتطرّفة extreme universalism (والتى تزعم عدم وجود أية اختلافات فى المعانى التى تعبّر عنها مختلف أنظمة المفردات) .

هذا بالإضافة إلى أن هذه الفرضيات تستند إلى تفسيرات بسيطة ومقنعة ، ويؤيدها قدر معقول من المادة العلمية data .

وبغية الإنصاف والموضوعية ، يتوجب علينا الآن أن نوجز النتائج التى تبيّن وجود اختلافات دلالية بين اللغات ، وأن هذه الاختلافات واسعة النطاق ، وذلك مقارنة بالنتائج السابقة وفحواها أن تلك الاختلافات محدودة . لقد سبق أن رأينا أن هناك اختلافات فى المكونات الدلالية ، حتى فى تلك المجالات الشمولية محكمة البناء ، مثل مصطلحات القرابة (فمصطلح « الفخذ » moiety ذو أهمية فى بعض الأنظمة ، بينما هو مفهوم غير ذى شأن فى الأنظمة الأخرى) . ومن الواضح أن هناك اختلافات فى تركيب مكونات معانى الكلمات (قارن مثلاً ، بين الضمائر فى البالونج والضمائر فى اللغة الإنكليزية) . وهناك أيضاً اختلافات فى « النماذج الأصول » (مثل «جامعة» أو أى نموذج يشير إلى « فخذ ») . وهناك أيضاً اختلافات هائلة فى الطرق

التى يمكن بها تجاوز دلالة « النماذج الأصول » (ومنها على سبيل المثال القواعد الثلاث ، لتجاوز « نماذج » القرابة « الأصول » فى لغة مثل السمينولا Seminole والتى لا توجد فى أى مكان آخر) . وأخيراً ، يوجد هناك اختلاف فى المفاهيم التى يعدها البعض مفاهيم أساس، وهى مفاهيم تختلف من جماعة إلى أخرى ، وتختلف من متحدث لآخر فى نفس الجماعة حسب خبرة المتحدث ومهارته . ويمكننا القول بإيجاز أن أوجه التشابه والاختلاف قائمة بكثرة وفى صور عديدة ، ويجدر بنا لذلك ، أن نولى دلالة المفردات من ناحية الدراسة المقارنة عناية أكبر مما أوليناها حتى الآن .

٣ - ٣ اللغة والكلام والفكر :

٣ - ٣ - ١ اللغة وبقية الثقافة :

ينبغى علينا الآن أن نتناول قضية « الحتمية اللغوية » Linguistic determinism ، فإلى أى حد وبأى الطرق تحدد اللغة الفكر ؟ غالباً ما تتم الإجابة على هذا السؤال بالرجوع إلى فرضية سابير - هورف - SAPIR WHORF HYPOTHESIS ، والتى تفترض أن اللغة تحدد الفكر إلى حدٍ كبير ، وبشتى الطرق، وسنناقش هذه الفرضية بإيجاز فى ٣ - ٣ - ٥ . وعلى أية حال ، هناك نقاط التقاء بين اللغة أو الكلام والفكر .

يجب علينا أولاً ، تحديد العلاقة بين اللغة والجوانب الأخرى للثقافة . ونظراً لأننا نتعلّم الوحدات اللغوية من الآخرين ، فإنها تمثّل جزءاً واحداً من الثقافة الاجمالية، وعليه فإنه من المرجّح أن ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالجوانب الأخرى من الثقافة ، والتى نتعلّمها ، لذلك من الآخرين . ولذلك ، علينا أن نتوقع أنه لو تعلّم فرد بعينه وحدتين لغويتين مختلفتين من جماعتين مختلفتين من الناس ، فقد تكون كل من هاتين الوحدتين مرتبطة بمجموعة مختلفة من القيم والمعتقدات الثقافية . وفضلاً عن ذلك ، فلن يكون من الصعب تصور أن كلاً من هاتين الوحدتين تحرض مجموعة مختلفة من المعتقدات والقيم عند استخدامها ، ويمكننا القول أن اللغة (فى هذه الحالة اختيار

نوعية لغوية بعينها بدلاً من الأخرى) ، تُحدد الفكر .

وهناك بعض الأدلة على وقوع ذلك بالفعل ، كما ظهر من سلوك بعض اليابانيات اللاتى انتقلن إلى الولايات المتحدة كزوجات لجنود أمريكيين سابقين ، وتعلّمنَ اللغة الإنكليزية فى وطنهم الجديد . وقد اشتركتْ هؤلاء النسوة فى تجربة أجرتها سوزان أرفين تريب Susan Ervin-Tripp وهى من رائدات الدراسات النفسية والاجتماعية للغة . (أرفين تريب Ervin-Tripp ١٩٥٤ - ١٩٦٤) . وقد أجرت أرفين تريب مقابلات مع كل من هؤلاء النساء مرة بالإنكلزية ومرة أخرى باليابانية ، وطلبت منهن القيام بمهام مختلفة تتطلّب الاستخدام الخلاّق للغة . وتطلبتْ إحدى هذه المهام اكمال الجمل الناقصة (باللغة التى تجرى بها المقابلة) ، إننى أحب القراءة ... (أو ما يقابلها باليابانية) . وقد تكون التكملة المثالية لهذه الجملة باليابانية هى « إننى أحب قراءة علم الاجتماع » ، وتعكس هذه الاجابة مجموعة من القيم اليابانية ، بينما تكون أفضل إجابة باللغة الإنكليزية لنفس السيدة هى « أحب قراءة المجلات المصورة بين الحين والآخر لأنها تريح أعصابى » . وربما تعكس هذه الإجابة مجموعة القيم التى تعلّمنها فى أمريكا . وقد ظهرتْ اختلافات مشابهة فى مهام أخرى طُلِبَ منهن أن يقمنَ بها ، فقد طلبتْ منهن وصف صورة تصور مزرعة بها مزارع يحرث الأرض فى الخلفية ، وامرأة مستندة إلى شجرة ، وبنت شابة فى المقدمة تحمل كتباً تحت ذراعها . وكانت الاجابة التالية ، إجابة نموذجية فى المقابلة اليابانية :

> تبدو الشابة كما لو كانت تمر بصراع نفسى بسبب دخولها الجامعة . فأُمها مريضة ، وأبوها يقوم بعمل شاق دون جزاء مالى كاف . وبالرغم من ذلك ، فإنه يستمر فى العمل بمهارة وجد دون أن ينبس ببنت شفة ، داعياً لابنته بالنجاح والتوفيق ، وهو زوج لا يشكو همومه لزوجته أبداً .

وعندما أُجريتْ نفس المقابلة باللغة الإنكليزية مع نفس السيدة قدمتْ الوصف التالى لنفس الصورة :

تبدو فى الصورة طالبة علوم اجتماعية تراقب المزارعين وهم يعملون،
وربما تشدها صعوبة الحياة وعمل الزراعيين.

وقد يكون من غير الحكمة أن نستخرج نتائج علمية استنادا على هذا البحث الصغير غير المرضى من جوانب معينة. فليس من الواضح كم سيدة من السيدات اللاتى اشتركن فى البحث قد أظهرن مثل هذا التغيير الكبير فى موقفهن تجاه كل من اللغتين. وكم من المهام ادت إلى مثل هذا التغيير. وعلى أية حال، فمن الخطأ دائما أن نعمم سلوك الناس على اساس المقابلات الاختبارية الرسمية. ولكن يبدو أن هذه النتائج تتفق مع ما توقعناه على اساس العلاقة بين اللغة وبقية جوانب الثقافة. ولذلك يبدو أن هناك قدر من الصواب فى الرأى القائل بأننا نستخدم انظمة مختلفة من القيم والمعتقدات، وذلك حسب النوعية اللغوية التى نستخدمها فى مناسبة بعينها.

٣-٣-٢ الكلام والاستدلال Speech and Inference :

العلاقة الثانية التى سنعرض لها هنا هى العلاقة القائمة بين الكلام وما يمكن تسميته « بالاستدلال » Inference ، وهو يشمل كل جوانب الفكر فيما عدا «الذاكرة» (انظر ٣-١-٢). وليس هناك ادنى شك أن الكلام فى البعض الاحيان يؤثر على الاستدلال، لأنه قد ييسر عملية الاستدلال أو يجعلها صعبة، وأعنى أن الكلام يقوم بوظيفة الاداة. وقد يتفق معظم القراء، على سبيل المثال، على أنهم يستخدمون الكلام كعامل مساعد اذا كان عليهم القيام بعملية حسابية معّقدة فى سرهم مثل جمع عدد كبير من الارقام أو ضرب عددين يتجاوزان جداول الضرب المختزنه فى الذاكرة. وأيضا، يكلم كثير من الناس انفسهم أو يتمتون، وذلك اذا كان عليهم حل مشكلة معقدة نسبيا مثل اعادة تركيب ساعة مفككة أو اعادة تنظيم مقال. وبالطبع تتضح قيمة الكلام باعتباره أداة، بشكل واضح للغاية، اذا كان لابد من الوصول إلى الاستدلال بالاشتراك مع الآخرين، لأن الكلام يسمح لفردين أو أكثر بالاتفاق على تعريف واحد لمشكلة ما ، ثم مناقشة حلول هذه المشكلة.

إن هذه العلاقات بين الكلام والاستدلال واضحة للغاية ، ولا تحتاج لأية أدلة

اثبات ، ولكن توجد أدلة على أن تأثير الكلام على الفكر الاستدلالى أكثر مما تصورنا. فالكلام المُستَخدَم فى تعريف مشكلة بعينها قد تكون له نتائج جذرية بالنسبة لقدرتنا على حلّها . ومن هذه الأدلة ، على سبيل المثال ، إحدى التجارب التى عُرِضَتْ فى كلارك وكلارك (١٩٧٧ : ٥٥٦) . وقد قُدِمَ للمشتركين فى هذه التجربة شمعة وعلبة من دبابيس الحائط وعودان أو ثلاثة من الثقاب ، وطُلِبَ منهم إيجاد وسيلة لتثبيت الشمعة على الحائط عمودياً ، بحيث لا يسقط الشمع المذاب على الأرض . وقد قُدِمَتْ هذه الأشياء لبعض المشتركين دون أن يُقال لهم ماهية هذه الأشياء، بينما قُدِمَتْ للبعض الآخر بعد إخبارهم بماهية هذه الأشياء ، وهى علبة وبعض دبابيس الحائط وعدد من عيدان الثقاب وشمعة . ولكن مجرد تسمية الأشياء قد لَفَتَ أنظار المشتركين إلى العلبة كشىء منفصل بدلاً من مجرد كونها وعاء لدبابيس الحائط، وقد ساعد ذلك المشتركين على إيجاد حل للمشكلة ، وهو تثبيت العلبة على الحائط بواسطة الدبابيس ثم وضع الشمعة أُفقياً عليها . ولكن المشتركين الذين تسلّموا الأشياء دون إخبارهم بماهيتها ، استغرقوا فى المتوسط خمسة عشر ضعفاً من الوقت الذى استغرقه الذين أُخبروا بماهية الأشياء ، ولكن من المرجّح ، من ناحية أخرى ، أن يكون تفوقهم فى إيجاد الحل راجعاً لتسمية الأشياء **الهامة** ، لا مجرد تسمية كل الأشياء ، فلو أنهم استخدموا لفظة **علبة من الدبابيس** بدلاً من **علبة وبعض الدبابيس** لما كان ذلك قد ساعد المشتركين على حلِّ المشكلة . وربما جعل ذلك التغيير البسيط المشكلة أكثر صعوبة ، لأنهم فى هذه الحالة يؤكدون الميل الطبيعى نحو تجاهل العلبة . ومن المؤسف حقاً أن هذا الاحتمال لم يُختَبَر فى التجربة .

إن العلاقة بين هذه التجربة وعلم اللغة الاجتماعى قد لا تتضح لأول وهلة ، ولكنها قد تتضح أكثر لو أننا تذكّرنا أن واحدة من أهم الوظائف الاجتماعية للكلام موجودة فى مجال « حلّ المعضلات » problem-solving ، وهو المجال الذى يمكننا من حلِّ أية مشكلة عن طريق الكلام . وغالباً ما نجد حلّ معضلة ما فى مجرد التحدث عنها بدلاً من الاعتماد على حلٍّ يقدّمه أحد الحاضرين ، فالتحدث عن أمر قد يساعدنا على أن نراه بشكل أكثر وضوحاً . وكلما تحسّن فهمنا لتأثير الكلام على قدرتنا على

الاستدلال ، اقتربنا من معرفة السبب فى ذلك .

٣-٣-٣ الكلام واكتساب السلوك الاجتماعى Speech and Socialisation:

وهناك أيضا نقطة التقاء أخرى بين الكلام والفكر، هى قيام الجيل الأكبر سناً باستخدام الكلام لنقل ثقافته إلى جيل الشباب. أى أن الكلام هو الأداة التى تُستَخدم لتهيئة الجيل الجديد وتأهيله لاكتساب السلوك الاجتماعى socialisation ، وهى العملية التى تحول الأطفال إلى أعضاء كاملين و مُؤهَّلين لدخول المجتمع. ومن الواضح أن كل جوانب الثقافة لا تُنقل من خلال الكلام، فهناك، مثلاً، عدد كبير من جوانب السلوك الظاهرى يمكن تعلّمها من الملاحظة والمشاهدة ، مثل كيفية المشى والضحك والإشارة (علماً بأن هذه الأمور تختلف من مجتمع إلى آخر) . ويمكننا القول بأن الفرد يتعلَم اللغة بنفس الطريقة ، لأن الكلام لا يُستَخْدَم عادة كوسيلة لنقل المعرفة بل كنموذج يصلح للاحتذاء . ولكن جزءاً كبيراً من الثقافة يُنقل شفهياً ، وقد قيل مراراً أن تطور مَلَكَة اللغة لدى الإنسان قد أدى إلى استبدال قانون التطور والرقى الثقافى بقانون النشوء والترقى البيولوجى ، الذى يقوم بتعديل الجينات الوراثية لدى البشر ، ويعمل قانون التطور والرقى الثقافى على تطوير العقل البشرى . ولا داعى لمزيد من النقاش حول الرأى القائل بأن الكلام مكّون أساسى فى عملية اكتساب السلوك الاجتماعى .

ومن الغريب أن يختلف الناس فى الأسلوب الذى يستخدمونه لاكتساب السلوك الاجتماعى . فقد يختلف الكثير من المحاضرين والأساتذة الجامعيين فى أسلوب أدائهم لمهمتهم الأساسية ، وهى تأهيل طلأبهم اجتماعياً فى مجالاتهم الثقافية المختلفة ، وبذلك يقدمون أفضل مثال على ذلك . فقد يستخدم بعض المحاضرين الكلام لتوصيل حقائق محددة بدلاً من المبادىء العامة ، بينما يقوم آخرون بعكس ذلك تماماً ، ويؤكد البعض الآخر الجانب الترفيهى أو الجانب الخاص بإثارة الاهتمام ، بينما يحاول آخرون إشراك طلأبهم عاطفياً وفكرياً عن طريق حثّهم على استخدام الكلام لتطوير شتى القضايا . وهناك اختلافات مشابهة لذلك بين رجال السياسة ورجال الوعظ الدينى

ورجال الاعلام والصحافة . وهذه الاختلافات التى تذكرها هنا لست الاختلافات الخاصة بسجل السياق (انظر ٢ - ٤) ، أى **كيفية** قول الأشياء ، وإنما هى اختلافات خاصة **بما يُقال** وبأى جانب من جوانب اكتساب السلوك الاجتماعى أكثر أهمية من الجوانب الأخرى . فلو أننا نظرنا إلى أهم جوانب عملية اكتساب السلوك الاجتماعى ، وهى تأهيل الأطفال لاكتساب هذا السلوك ، لوَجَدَنا أن هناك دلائل على أن الأبوين - وخاصة الأُم - يستخدمان الكلام بعدة أساليب فى محاولة لتأهيل أطفالهم لذلك . وتستند كل هذه الأدلة إلى أبحاث عالِم الاجتماع بازيل برنستاين Basil Bernstein من لندن وروبرت هِس Robert Hess من شيكاغو (برنيستاين وهندرسون Bernstein & Henderson ١٩٦٩ وهِس وشيبمان Hess & Shipman ١٩٦٥ ، انظر روبينسون Robsinon ١٩٧٢ : الفصل التاسع الذى يقدّم ملخصاً مفيداً عن هذا الموضوع) . والفرضية المطروحة للبحث ، هى أن الأُمهات اللاتى ينتمين إلى طبقات اجتماعية مختلفة يستخدمن الكلام بشكل مختلف فى عملية تأهيل أطفالهن لاكتساب السلوك الاجتماعى . فإن صح ذلك ، فإن هذه الفرضية قد تقدّم لنا تفسيراً جزئياً للاختلافات القائمة بين أطفال الطبقات الاجتماعية المختلفة فى طرق استخدامهم للكلام . وسنناقش هذه الاختلافات فى كلام الأطفال فى ٦-٣-٢ و ٦-٤-٢ ، ولكننا سنقتصر هنا على السؤال الخاص بأسلوب الأُمهات فى الكلام .

وقد حصلنا على معظم المعلومات التالية من مقابلات سئلت فيها الأُمهات عن مواقف افتراضية ، مثلاً ، ما مدى صعوبة قيام الأبوين بالعمل (س) مع أطفالهما لو لم يكن الأبوان يستطيعان الكلام ؟ (وقد تكون س « مجرد اللعب مع أطفالهم ألعاباً مختلفة » أو « إرشادهم إلى الصواب والخطأ » أو عدد متنوع من الأنشطة المختارة ، التى قد تساعد الأطفال على اكتساب سلوك اجتماعى ؟ أو ماذا تقول لو عاد طفلك إلى المنزل ، ومعه شىء أخذه من موقع بناء عمارة ؟ وهناك مشكلات واضحة فى تأويل إجابات مثل هذه الأسئلة ، إذا ركّزنا اهتمامنا أساساً على ما تقوله الأُمهات فى الواقع ، لا على ما قد يقلن أنهن سيقلن . فَمِنَ المرجّح أن بعض الأُمهات سيقدمن لنا سلوكهنّ المثالى . ولكن على أية حال ، فقد ظهر أن هناك اتفاقاً شبه كامل بين

إجاباتهن ، وقد اتفق ذلك أيضاً مع نتائج بعض التجارب القليلة التى حاولتْ اختبار سلوك الأُمهات الحقيقى (فى موقف اختبارى) ، ولذلك نستطيع القول أن هذه التجارب تعكس ما ستقوله وتفعله الأُمهات ، نوعاً ما .

ويظهر من نتائج هذا البحث ، أن هناك بالطبع اختلافات بين أُمهات الطبقات المتوسطة وأُمهات الطبقات العاملة الدُنيا ، وهما الطبقتان اللتان قارن بينهما بازيل برنيستاين Basil Bernstein . ويبدو أن أُمهات الطبقة المتوسطة يستخدمن كماً من الكلام أكثر من أُمهات الطبقة العاملة الدُنيا فى المسائل الشخصية الخاصة بالعواطف ، بينما تستخدم أُمهات الطبقة العاملة الدُنيا الكلام أكثر من أُمهات الطبقة المتوسطة فى تعليم المهارات . ويبدو أيضاً أن أُمهات الطبقة المتوسطة لديهن استعداد أكبر من أُمهات الطبقة العاملة الدنيا لاستخدام صيغ تفسير الأوامر وتعليلها (**يجب عليك ألاّ تفعل لأن ...**) ، وأيضاً لتقديم المعلومات العلمية عن الأشياء والناس ، وقد يكون نتيجة ذلك (فرضاً) أنهن أكثر قدرة على إثارة فضول أطفالهن وإرضائهم .

فإن صحتْ هذه النتائج فقد تكون لها آثار ضمنية بعيدة المدى سواء من الناحية النظرية أو من الناحية العملية ، وسنناقش بعض هذه النتائج فى ٦ - ٤ . ولسوء الحظ ، فقد كانت دلائل اختلاف « أسلوب الأُمهات » maternal style جزءاً من نظرية عامة ، كانت تشتمل أيضاً فى وقتٍ من الأوقات على نظرية فرعية عن الاختلافات اللغوية بين أطفال الطبقة المتوسطة والطبقة العاملة . غير أن هذه النظرية قد أُستُبعِدَتْ إلى حدٍ كبير فى الوقت الحالى (انظر ٦ - ٣ - ٢) . وقد أدى ذلك إلى انصراف النقّاد من علماء اللغة عن مشكلة أسلوب الأُم فى الكلام ، ولم يعودوا يأخذونها مَأخَذاً جدياً .

وهناك ، بالطبع ، اختلافات هائلة بين مختلف الثقافات فى طبيعة الدور الذى يؤديه الكلام فى اكتساب السلوك الاجتماعى . فالجونجا Gonja ، على سبيل المثال ، الذين يقطنون غرب أفريقيا ينظرون إلى الأسئلة على أنها نوع من تأكيد سيادة فرد على آخر ، ولذلك ، فليس من المستحب أن يوجه التلميذ أسئلة إلى أستاذه .

وبالتالى، يتحتم على الصبية الذين يتدربون على صناعة الغزل أن يحذقوا هذا الفن دون أن يسألوا عنه أسئلة مباشرة (جودى Goody ١٩٧٨) .

وقد تبيّن هذه الأمثلة لنا كيف تتصارع متطلبات بعض جوانب عملية اكتساب السلوك الاجتماعى (وهى عدم توجيه أسئلة للرؤساء) مع جوانب أُخرى لنفس العملية (وهى تعلّم الغَزَل) ويمكننا أن نقول نفس الشىء عن الاختلافات القائمة بين الطبقات الاجتماعية فى أساليب الأُمهات التى سبق أن ذكرناها .

٣-٣-٤ اللغة واكتساب السلوك الاجتماعى Language and Socialisation :

يعد الكلام أحد العناصر الهامة فى عملية اكتساب السلوك الاجتماعى، إلا من خلال ما ينقله لنا من معلومات وافية فقط ، بل من خلال المفاهيم التى يطالب الطفل بالتعرف عليها كمعان للوحدات اللغوية المختلفة التى يتعلّمها من كلام الآخرين . وبعبارة أخرى ، فإن اللغة التى يتعلّمها الأطفال ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمفاهيم التى يتعلّمونها كجزء من عملية اكتساب السلوك الاجتماعى . والسؤال هو : هل نستطيع القول بأن اللغة تؤثر على هذه المفاهيم أَم تعكسها فقط ؟ ويبدو أن الإجابة الصائبة على هذا السؤال تتضمن كِلا الجانبين .

نستطيع أن نؤكد أن بعض المفاهيم تكون مستقلة تماماً عن اللغة بما فى ذلك تلك المفاهيم التى نتعلّمها ونحن أطفال رُضّع قبل أن نكتسب اللغة ، أى فى أواخر العام الأول من حياتنا ، وهناك أيضاً مفاهيم أخرى تتكون فيما بعد ، دون الرجوع إلى اللغة ، وذلك لأننا لا نملك مفردات للتعبير عنها فى لغة البالغين . فلدينا على سبيل المثال ، مفهوم للأشياء التى نشتريها من بائع الجرائد Newsagent (أو بائع التبغ أو المتاجر التى تبيع أدوات ومواد عمل الاصلاحات بنفسك) ، ولكن ليس لدينا اسم لأى من هذه المفاهيم ، وذلك على عكس الأشياء التى نشتريها من أنواع أخرى من المتاجر مثل « البقّالة » . ولا يؤثر وجود أو عدم وجود أسماء لمثل هذه المفاهيم ، بأية حال ،

على قدرتنا على تعلّم هذه المفاهيم . ويمكننا أيضاً أن نرى وجه الشبه بين المسامير العادية والبراغى والصواميل ، إلخ . فكل هذه الأشياء تؤدى نفس الوظيفة ونتوقع أن يختزن الناس فى ذاكرتهم كل هذه الأشياء متجاورة ، ولكن لا يوجد باللغة الإنكليزية اسم لهذا المفهوم . ويمكننا تقديم الكثير من هذه الأمثلة التى تعد بمثابة عقبة ، تمنعنا من افتراض عدم وجود المفاهيم التى لا توجد أدلة لغوية تشير إلى وجودها . ومن الطريف أن هذه « الفجوات المعجمية » lexical gaps تقع فى مستوى أعلى من المستوى الأساس (انظر ٣-٢-٣) ، (ومن الصعب التعرف على الفجوات الموجودة قبل هذا المستوى أو تحديدها ، لأنه من الممكن إيجاد صيغ مركبة compound لملء هذه الفجوات ، « مثل » الصنوبرية البندروسية Ponderosa Pine) .

وهناك من الناحية الأخرى مفاهيم لا توجد إلاّ من خلال اللغة ، من أهمها وأوضحها المفاهيم المتعلقة باللغة ، كظاهرة ، ومنها ، المفاهيم الخاصة « باللغة » و «المعنى» و « الكلمة » ، وما إلى ذلك . وهناك مفاهيم أخرى لا نتعلّمها إلاّ بعد أن نتعلّم أسماءها ، وقد يكون الاسم هو دليلنا الوحيد على وجودها . وقد قدّم لنا كلارك وكلارك Clark & Clark (١٩٧٧ : ٤٨٦) واقعة قالتْ فيها أُم لابنها ذى الخمس سنين ، « لابد أن نترك الباب السلكى مغلقاً يا حبيبى حتى نمنع الذباب من الدخول ، فالذباب يجلب معه الجراثيم إلى داخل المنزل » . وعندما سئل الطفل ، فيما بعد ، عن ماهية الجراثيم قال : « هى أشياء يلعب بها الذباب !! » وقد توضّح لنا هذه الواقعة بطرافة كيف تصبح كلمة جديدة دليلاً على وجود مفهوم مجهول ، وذلك عن طريق ترك المستمع يحاول فهم هذا المفهوم من خلال الدلائل اللغوية الموجودة . ويفعل كثير من طلاّب علم اللغة ذلك فى مواقف معينة ، عندما يواجهون مصطلحات جديدة مثل تجريبى empirical أو حتى مكمّلات complementiser .

وفضلاً عن ذلك ، فإننا نتعلّم كثيراً من المفاهيم عندما يحدثنا أحد عنها ، وخاصة أثناء عملية التعليم الرسمى ، ولذلك فإننا بالفعل نتعلّم الكثير من المفاهيم من خلال اللغة سواء استطعنا أن نتعلّم هذه المفاهيم دون اللغة أو لم نستطع . فلو لم تكن هناك لغة ، فإننا لن نجد المفاهيم التى نطلق عليها هذه الأسماء **شبه جزيرة** ،

اقطاعى ، والتأيض Metabolism [1] وكلاسيكى ، وعنصر . ويعد تعلّم المفاهيم من أهم الوظائف التى تقوم بها عملية التعليم ، كما يعد تعلّم المصطلحات الفنية أهم وسائل المعلّم الإيضاحية لأداء هذه المهمة . (وعلينا أن نلاحظ على أية حال، أن هناك جنوحاً واضحاً من ناحية المعلمين نحو الخلط بين معرفة المفهوم ومعرفة المصطلح الفنى الصحيح) .

وختاماً ، ينبغى علينا أن نقول أن اللغة أساسية عند تعلّم مفاهيم معينة ، دون غيرها . وقد يكون المبدأ العام هو أن اللغة قد تصبح أكثر أهمية عندما تكون المفاهيم المعينة بعيدة عن تجربة الفرد الحسّية المباشرة ، أو بعبارة أخرى ، عندما تصبح المفاهيم أكثر تجريداً .

٣ - ٣ - ٥ فرضية سابير هورف Sapir - Whorf hypothesis :

وفى النهاية ، نأتى إلى فرضية سابير هورف المشهورة . وقد أُطلق على هذه الفرضية هذا الاسم ، تخليداً لذكرى كل من عالمى اللغة الأمريكيين أدوارد سابير Edward Sapir (١٨٨٤ - ١٩٣٩) وبنيامين لى هورف Benjamin Lee Whorf (أحد تلاميذ سابير ١٨٩٧ - ١٩٤١) . وقد أسهم كل من سابير و هورف بالكثير فى الدراسات اللغوية للغات الهندية الأمريكية ، وقدّما الكثير لزيادة معرفتنا بهذه اللغات وأسهما فى تطوير نظرية علم اللغة العام (لو تجاهلنا كل ما قدّمه سابير لعلم الإنثروبولوجيا وعلم النفس) . وقد أجريا أبحاثهما الخاصة بهذه الفرضية فى نهاية حياتهما العلمية ، أى فى الثلاثينات ، بعد حياة علمية حافلة ، كرّساها للدراسة الجادة فى مجالَى علم اللغة والثقافة ، ولذلك لا نستطيع أن نأخذ دراستيهما إلاّ بشىء من الجدية . وليس من الواضح ، من الناحية الأخرى ، أى من صياغات هذه الفرضية كان مقبولاً لدى سابير وهورف؛ لأن كليهما لم يحاولا تعريف هذه الفرضية. كما أن كليهما قد غيّرا وجهة نظرهما جذرياً فى القضايا المرتبطة بهذه الفرضية من وقتٍ لآخر.

---

(١) مجموعة العمليات المرتبطة ببناء البروتابلازما فى الخلايا الحيّة .

ولذلك ، فَمِنَ الأفضل أن نبدأ عرضنا هذا بالصيغة المتطرفة لما فهمه العلماء الآخرون من فرضية سابير وهورف ، وذلك فى صورة التصنيفات التى سبق تقديمها . (من أجل عرض لفرضية سابير وهورف انظر مثلاً ، براون Brown ١٩٥٨ ب : ٢٢٩ - ٢٦٣ ، وكارول Carroll ١٩٥٦ : « مقدمة » ، ١٩٦٤ الفصل السابع ، وسلوبين Slobin ١٩٧١ ، وأعمال سابير Sapir الكاملة الموجودة فى ماندلبوم Mandelbaum ١٩٤٩ ، وأعمال هورف Whorf فى كارول Carroll ١٩٥٦) .

والصيغة المتطرفة من هذه الفرضية عبارة عن مزيج من النسبية المتطرفة Extreme Relativism والحتمية المتطرفة Extreme Determinism ، وترى هذه الصيغة المتطرفة أنه ليس هناك أية قيود على كم ونوع التباين القائم بين اللغات المختلفة ، ومن ضمنها الاختلافات فى البُنى (الأبنية) الدلالية ، وترى أيضاً أن تأثير اللغة على الفكر تأثير كامل ، أى أنه ليس هناك فكر دون لغة . ولو جمعنا بين هذين الرأيين ، فسنكتشف أنه لا توجد أية قيود على التباين القائم بين الناس فى أسلوب تفكيرهم ، وخاصة فى المفاهيم التى يكونونها ، وينتج عن ذلك أننا لو وجدنا وسيلة للتحكّم فى اللغة التى يتعلّمها الناس ، فإننا بالتالى نستطيع التحكّم فى أسلوبهم فى التفكير ، كما يحدث فى رواية جورج أورويل **١٩٨٤** (1984) **أربعة وثمانون وتسعمائة وألف Ninteen Eighty Four** .

ومن الواضح أن الفرضية المتطرفة خاطئة . ولقد ذكرنا من الأسباب والمبررات ما يكفى لرفض هذه الصيغة المتطرفة فى الجزأين الأخيرين ، ولذلك لن نكرر هذه المناقشة مرة أخرى ، ولكن هناك شيء من الحقيقة فى كل جانب من النسبية والحتمية . فعلينا أن نتوقع أن اللغة مسؤولة عن بعض الاختلافات القائمة فى مفاهيم الناس ، وسنورد فيما يلى نصاً يتضمّن فقرة كاملة من هورف Whorf (١٩٤٠) ، وتقدم لنا هذه الفقرة إحدى الصياغات الأكثر تطرفاً لنظريته ونظرية سابير ، وهى صياغة يمكن مقارنتها بالفرضية المتطرفة التى أشرنا إليها :

«إن مهاد النظام اللغوى (أى الأجرومية) للغة بعينها ليس مجرد

أداة للتعبير عن الأفكار ، ولكنه يشكّل تلك الأفكار . إنه البرنامج الموجّه لنشاط الفرد الذهنى وتحليل انطباعاته وتركيبه للأفكار التى يستخدمها فى حياته . فصياغة الأفكار ليست عملية مستقلة مقصورة على العقلانية فى مفهومها التقليدى ، إنما هى جزء من أجرومية خاصة ، وهذه الأجرومية تتفاوت من لغةٍ إلى أخرى . فنحن نصنّف العالَم استناداً إلى الخطوط القائمة فى لغتنا الأصلية . والتصنيفات والأنماط التى نستخرجها من عالَم الظواهر ليست قائمة أمامنا بالفعل ، بل على العكس من ذلك ، فإننا نستقبل العالَم على صورة دفق من الانطباعات المشوّشة ، يتولى أمر تنظيمها ، وإلى حدٍ كبير ، النظام اللغوى القائم فى عقولنا .

فنحن نصنّف الطبيعة وننظّمها فى مفاهيم ، وإذ نفعل ذلك فإننا نحدد الأهميات ، وذلك لأننا ، فى المقام الأول ، شركاء فى اتفاقية تحتّم علينا أن ننظمها على ذلك النحو ، وهى الاتفاقية التى تنسحب على مجموع جماعتنا الكلامية ، وتقنن فى أنماط لغتنا . وغالباً ما تكون هذه الاتفاقية ضمنية وغير صريحة ، ولكن شروطها إجبارية بصورة مطلقة . وذلك لأننا لا نستطيع الكلام مطلقاً ، دون أن نشترك فى الاتفاقية الخاصة بتنظيم وتصنيف المادة العلمية حسب الاتفاقية المسبقة ... وبذلك ، نكون قد عرضنا لمنظور جديد من النسبية ، وينصّ ذلك المنظور على أن كل مَنْ يعيشون فى العالَم لا يصلون إلى نفس الصورة للعالَم من خلال المادة العلمية المقدّمة إلاّ إذا كانت خلفياتهم اللغوية واحدة أو يمكن قياسها بشكلٍ أو بآخر » .

ويكشف لنا هذا النص عن طبيعة المعضلات المرتبطة بتأويل هورف وسابير. فبعض الفقرات تمثّل النسبية المتطرفة والحتمية المتطرفة ، ومنها على سبيل المثال،

«فنحن نصنّف العالَم استناداً إلى الخطوط القائمة فى لغتنا الأصلية »، بينما هو يعدل من تأكيداته مستخدماً « إلى حدٍ كبير » و « فى المقام الأول » فى أجزاء أخرى من النصّ (وقد أكدت أهمية ذلك بوضع خطوط تحتها) ، وذلك من شأنه أن يترك لنا فرصة للقول بإمكانية وجود فكر دون لغة . فهل نستطيع القول إذن ، أن هذا النصّ يمثّل صورة متطرفة من الفرضية ؟

من الضرورى أن يكون قد اتضح لنا أن كل ما تضمنه هذا النصّ ، بما فيه من بلاغة ، يعارض كل ما ذكرناه فى هذا الفصل . فالأفكار هى التى تشكّل وتحدد اللغة لا العكس ، وذلك باستثناء المسائل المجرّدة من الفكر ، وصياغة الأفكار عملية مستقلة عن اللغة إلى حدٍ كبير . فنحن نقوم بتصنيف الكون وفقاً لمعايير تضعها الطبيعة وتحددها احتياجاتنا المعرفية والاتصالية ، لا حسب لغتنا . ويمكن للفرد تعديل وتكييف معانى الوحدات اللغوية حسب حاجته بواسطة « التجاوز » الاستعارى . ولأننا نتعلّم المعانى من الآخرين ، فلا حاجة بنا لاتفاق الجماعة الكلامية بأسرها على المعانى ، لأن هناك كثيراً من الجماعات الكلامية الثانوية المتخصصة Specialist Sub-Communities ذات نظم دلالية خاصة بها من جهة ، ومن جهة أخرى فلأن أثنين من أكفأ علماء اللغة قد رأيا غير ذلك ، فإن ذلك يدعونا للتريث والتفكير قبل أن نقبل أية مزاعم خاصة (ومن ضمنها ما قدّمناه فى هذا الفصل) عن اللغة والفكر .

* * *

الفصل الرابع

الكلام باعتباره نوعاً من التعامل الاجتماعى

Speech as Social Interaction

٤ - ١ الطبيعة الاجتماعية للكلام :

٤ - ١ - ١ مقدمة :

نقوم فى هذا الفصل بدراسة ما أطلقنا عليه لفظة « الكلام » ، أى مجموعات الوحدات اللغوية سواء أكانت طويلة أَم قصيرة ، ومستخدَمة فى مناسبات معيّنة لأغراض بعينها . وقد سبق أن استخدمنا لفظة « الكلام » ليشمل كلاً من النصوص المكتوبة والمنطوقة ، على حدٍ سواء ، هذا بالرغم من أننا لم نذكر شيئاً عن المكتوب منها . ولن نذكر شيئاً عن النصوص المكتوبة ، كما نتجاهل أنواعاً مختلفة من النصوص المنطوقة ، حتى نستطيع التركيز على ما يُطلق عليه **التعامل القائم على اللقاء المباشر** FACE-TO-FACE INTERACTIONأو بعبارة أخرى، ماذا يحدث عندما يتحدث فرد مع آخر وجهاً لوجه . وبالرغم من أننا سنتجاهل جميع أنواع الاتصال غير الشخصى مثل وسائط الإعلام ، على الرغم من أهميتها فى الحياة العصرية (وأيضاً تحدث الفرد مع نفسه) ، فسيتبقى أمامنا الكثير من أنواع الأنشطة الكلامية مثل : المحادثة والمنازعة والنكات ومحاضر الاجتماعات والمقابلات والمقدمات والمحاضرات والمغازلة والمشاكسة والهزل وأنواع أخرى كثيرة .

ويعد السؤال الخاص بالموازنة بين ما هو اجتماعى وما هو فردى من أهم الأسئلة التى يجب أن نطرحها هنا . وتميل الكفة - فى اللغة - إلى الجانب الاجتماعى ، ما دامت تعنى المعرفة بالوحدات اللغوية ومعانيها ، وذلك لأن الناس يتعلّمون اللغة من الآخرين . وفى الوقت نفسه ، تعد لغة كل فرد بذاته لغة فريدة فى حد ذاتها ، لأنه لا يوجد فردان لهما نفس الخبرة باللغة . ماذا إذن عن مثل هذه الموازنة فى الكلام ؟ زعم فرديناند دى سوسيور Ferdinand de Saussure أن الكلام مسألة فردية تماماً ، لأنه يعتمد على « إرادة المتحدث » will of the speaker (١٩١٦ / ١٩٥٩ : ١٩) ، بينما اللغة ، على عكس ذلك ، مسألة اجتماعية تماماً لأنها تتطابق تماماً بين جميع أفراد الجماعة الكلامية . من الواضح أنه أخطأ الحكم بالنسبة « للغة » ، ولكن هل كان مصيباً بالنسبة « للكلام » ؟ سنرى أنه لم يكن مصيباً كذلك بالنسبة للكلام .

ولقد سبق أن رأينا أن اللغة مسألة ذات أهمية فى عدد من الأنشطة الاجتماعية ، ومن بينها اكتساب السلوك الاجتماعى (انظر ٣ - ٣ - ٣) ، وليس من الضرورى أن نؤكد أهمية اللغة فى الحياة الاجتماعية بصفة عامة ، فتلك مسألة واضحة وجلية . فالكلام يسمح لنا بالاتصال بعضنا ببعض على مستوى أكثر تركيباً وتعقيداً ، عمّا لو لم يكن هناك كلام ، ولأن الاتصال نشاط اجتماعى ، يمكننا القول بأن الكلام نشاط اجتماعى أيضاً . زعم أن ذلك صحيح ، إلاّ إنه لا يرتبط مباشرة بزعم دى سوسيور أن الكلام مسألة فردية بحتة ، حيث إنه لم يأخذ باعتباره إلاّ المعرفة المضمنة فى الكلام دون استخداماته الفعلية . وقد اعتقد دى سوسيور أنه لا توجد أية قيود اجتماعية على الكلام ، بينما اعتقد أن اللغة مقيدة من الناحية الاجتماعية تماماً. وطالما عرف المتحدث اللغة المناسبة ، التى عرفها دى سوسيور بأنها معرفة التركيبات والأنماط الصوتية المستخدَمة للدلالة على معنى بعينه ، فبإمكانه الكلام بطريقة صحيحة ومناسبة كلما أراد ذلك . ولكننا نود أن نظهر أن هناك ، على عكس ذلك ، قيوداً اجتماعية social constraints مفروضة على الكلام ، بالإضافة إلى القيود المفروضة على الوحدات اللغوية المعروفة لدى الناس .

ومن الواضح أن هناك كثيراً من هذه القيود المفروضة على اللغة ، والتى تختلف من مجتمع لآخر . ففى بريطانيا ، مثلاً ، علينا أن نرد التحية عندما يحيِّينا الآخرون ، وعندما نتحدث عن أحد علينا أن نضع فى اعتبارنا ما يعرفه المخاطب عنه من قبل ، وعندما نخاطب أحداً علينا أن نختار الكلمات بدقة حتى نحدد علاقتنا الاجتماعية به ، وعندما يتحدث شخص آخر علينا أن نلزم الصمت (ولا نعنى بذلك الصمت التام) . وليس الأمر بالضرورة كذلك فى كل المجتمعات الأخرى ، وسنحاول أن نوضّح ذلك فيما يلى :

ومهمتنا فى الفصل الحالى أن ندرس أنواع القيود التى يفرضها علينا المجتمع الذى نعيش فيه ، وأن نكتشف العلاقة بين هذه القيود وما نقوم به كأفراد ، سواء امتثلنا لهذه القيود الاجتماعية أم رفضناها أو استخدمنا مبادراتنا الشخصية فى المواقف التى لا يقدم لنا المجتمع فيها أى نوع من العرف المتبع . وفى نهاية الفصل،

نرجو أن يتّضح لنا أن الموازنة بين المجتمع والفرد ستكون فى صالح الفرد بالنسبة للكلام (وفى هذا ، كان دى سوسيور على حقٍّ فى رأيه عن الكلام) ، ولكن هناك من القيود الاجتماعية المفروضة علينا ما هو أكثر مما قد ندرك للوهلة الأولى .

وقد يتّضح لنا أيضاً فى نهاية هذا الفصل ، أن التمييز بين « اللغة » و «القيود الاجتماعية المفروضة على الكلام » Social constraints on speech ليس تمييزاً واضحاً ، لأن معظم هذه القيود التى سنبحثها فيما يلى تدل على وحدات لغوية بعينها ، أو تصنيفات عريضة من هذه الوحدات ، ولذلك فَمِن الممكن أن نعتبرها جزءاً مما نعرفه فعلاً عن اللغة ، إضافة إلى ما نعرفه عن المعانى . ولا ينبغى أن يبدو ذلك شيئاً غريباً ، لأن معظم الوحدات اللغوية تدل على بعض جوانب « الأحداث الكلامية» Speech events التى تُستخدم فى إطارها . ومنها بصفة خاصة كل « الوحدات الإشارية » deictic الدالة على المتحدث (**أنا ونحن**) والمخاطب (**أنت**) وزمن الحديث (صيغ المضارع والماضى و**اليوم** إلخ) ومكان الحديث (هنا إلخ) (انظر ليونز Lyons ١٩٧٧ : الفصل ١٥ من أجل مناقشة كاملة لهذه الوحدات) . وفضلاً عن ذلك ، فقد رأينا أن الكثير (٢ - ٤) من هذه الوحدات يقتصر استخدامه على مواقف اجتماعية بعينها مثل الفعلين الإنكليزيين get vs. obtain أى (**يحصل على ويظفر بـ**) ، وقد سبق لنا أن قلنا أن كل هذه المعلومات جزء من معرفتنا بلغتنا .

ولذلك ، فقد يعد من الطبيعى أن نطرح نفس الافتراض على المعلومات المرتبطة بالكلمة الفرنسية tu (أنت) ، والتى يقتصر استخدامها على مخاطبة المقربين (والأطفال والحيوانات) . وبما أننا قد قررنا أن مثل هذه المعلومات جزء من معرفتنا بلغتنا ، فَمِنَ السهل ، عندئذ ، أن تشتمل اللغة على معلومات عن تصنيفات بأكملها مثل تصنيف الأسماء الأولى باللغة الإنكليزية ، والتى تُستخدم فقط مع الأصدقاء المقربين (على عكس الألقاب مثل Mr. Brown (انظر ٤ - ٢ - ٢) فيما يلى من أجل مناقشة أكثر تفصيلاً للقيود المفروضة على الضمائر الفرنسية وأسماء العَلَم الإنكليزية) .

ومن السهل أن نرى كيف تختلط « اللغة » « بالقيود الاجتماعية على الكلام»، وسنحاول أن نوضّح من بعض نقاط المناقشة التالية أن القيود الاجتماعية المفروضة على الكلام لا تسرى فقط على السلوك الكلامى ، ولكنها تسرى أيضاً على كل أنواع السلوك الاجتماعى . (ويبدو أن هذه الخلاصة تؤيد الرأى المعروض فى الفصل الثالث ، حيث قررنا أنه ليس ثمة فصل واضح بين « اللغة » و جوانب « الفكر » الأخرى ، وخاصة فيما يختص بالمعانى) . والمصطلح الشائع المُستخدَم للدلالة على جوانب السلوك الذى نستطيع من خلاله التأثير على الآخرين والاستجابة لهم ، هو «التعامل الاجتماعى» Social Interaction ، وليس الكلام إلاّ جانباً واحداً من هذا السلوك ولكنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بجوانب السلوك الأخرى . ويعد مايكل أرجيل Michael Argyle واحداً من أهم الباحثين فى هذا المجال (مجال علم النفس الاجتماعى Social Psychology ، وقد وصف هذا المجال على النحو التالى (أرجيل ١٩٧٣ : ٩) :

« يعد تحديد العناصر الأساسية التى يتكوّن منها « التعامل الاجتماعى » من أهم منجزات الأبحاث الحديثة فى هذا المجال، وتحاول الأبحاث الراهنة الكشف عن كيفية قيام هذه العناصر بأداء وظائفها. ومن المعروف الآن أن قائمة العناصر هذه ، تتكون من عدد من الإشارات المتنوعة منها : الشفاهى وغير الشفاهى والمحسوس والمرئى والمسموع - بالإضافة إلى أنواع مختلفة من الاتصال الجسدى Bodily contact والتجاور Proximity واتجاه الجسد ووضعه والمظهر الخارجى وتعبيرات الوجه وحركة الرأس واليدين واتجاه النظر وتوقيت الكلام والنبرة العاطفية للكلام والأخطاء الكلامية ونوعية العبارات المنطوقة والبُنى اللغوية المُستخدَمة . ويمكن إعادة تقسيم هذه التصنيفات وإعادة تحليلها لاكتشاف أبعاد جديدة ، فكل منها يقوم بدور متميّز فى التعامل الاجتماعى بالرغم من تواشج كل هذه العناصر » .

وسنحاول فى الجزء ٤ - ٤ دراسة بعض الجوانب غير الشفهية للتعامل الاجتماعى بشكل تفصيلى ، وسنبحث ماهية العلاقة القائمة بينها وبين الكلام .

وتتطلب دراسة الكلام باعتباره جزءاً من التعامل الاجتماعى ، الاستعانة بكثير من العلوم الأخرى ، مثل علم النفس الاجتماعى Soical Psychology وعلم الاجتماع والإنثروبولوجيا والإيثولوجيا Ethology (وهو علم دراسة سلوك الحيوان) ، والفلسفة والذكاء الاصطناعى Artifical Intelligence (أى دراسة الذكاء الإنسانى من خلال محاكاة Simulation الحاسب الآلى) وعلم اللغة الاجتماعى وعلم اللغة . وتقدم كل من هذه العلوم عدداً من المعضلات والمناهج المختلفة ، التى قد تساعدنا بدورها على كشف وجهات نظر جديدة فى دراسة المادة ، وكل من هذه العلوم يمكن أن يفيد من العلوم الأخرى . والمناهج الرئيسة المُستخدمة فى هذه الدراسات هى منهج الاستبطان Introspection ، ومنهج ملاحظة المشتركين فى التعامل الاجتماعى، بالاضافة إلى قدرٍ محدود من التجارب (يقوم به علماء النفس الاجتماعيون وعلماء الإيثولوجيا) ومحاكاة Simulation الحاسب الآلى (ويقوم بذلك باحثو الذكاء الاصطناعى) . ومن أهم الاسهامات الجديدة فى هذا المجال ، ما قدّمه علماء الإنثروبولوجيا ، الذين قاموا بإرساء مبادىء ما يُسمى بإثنوجرافيا الحديث أو إثنوجرافيا الاتصال The Ethnography of Speaking أو The Ethnography of Communication ، وهو مجال تحكمه أعمال ديل هايمز Dell Hymes (انظر مثلاً، هايمز ١٩٦٢ ، ١٩٦٤ - ب ، ١٩٧٤ ، وانظر أيضاً المجموعات التالية : باومان وشيرزر Bauman & Sherzer ١٩٧٤ ، جمبرز وهايمز Gumperz & Hymes ١٩٦٤ ، ١٩٧٢) ، ومن أهم الإسهامات التى قُدِمَتْ فى هذه الأبحاث ، تقديم مادة علمية عن مجتمعات أخرى غير المجتمعات الغربية المتقدمة التى يعيش فيها معظم علماء علم اللغة المعاصر ، وتوضيح كم التباين القائم على القيود الاجتماعية المفروضة على الكلام . وعلى القراء أن يتوقعوا عدداً من المفاجآت فى الصفحات التالية ، ولكن النسبية اللغوية محدودة فى هذا المجال كما هى محدودة فى مجال المعنى ، (انظر ٣ - ٢ فيما بعد) كما سيتبينّ فيما يلى :

٤ - ١ - ٢ وظائف الكلام The Functions of Speech :

ما هو الدور الذى يؤديه الكلام فى التعامل الاجتماعى ؟

لا يبدو أن هناك إجابة بسيطة ، أو حتى إجابة مركّبة واحدة عن هذا السؤال ، لأن الكلام يؤدى وظائف عديدة فى مختلف المواقف والمناسبات . وقد صرح عالم الإنثروبولوجيا برونيسلاف مالينوفسكى Bronislav Malinowski « أن اللغة فى استخداماتها البدائية ، تقوم بدور حلقة فى سلسلة الأنشطة الإنسانية المتآلفة ، باعتبارها جزءاً من السلوك الإنسانى . فهى وسيلة من وسائل الفعل ، وليست أداة للتأمل » . (مالينوفسكى Malinowski ١٩٢٣) ومن الأمثلة على ذلك ، نوع الكلام الذى نسمعه من عمال نقل الأثاث :

« خذ عليك ... ودلوقتى ارفع شويه لفوق ... » وما إلى ذلك ، حيث يقوم الكلام بالتحكّم بالأنشطة الجسدية والجهد البشرى المبذول ، وذلك على عكس وظيفته عند إلقاء المحاضرات حيث يُستخدَم فى التأثير على أفكار المتلقين لا على أفعالهم. ومن وظائف الكلام الأخرى ، استخدامه لتأسيس العلاقاتّ والروابط الاجتماعية أو تحسينها - وقد أطلق مالينوفسكى على هذه الوظيفة « التواصل الودى » Phatic Communion ، وهو نوع الحديث الذى يتجاذب الناس أطرافه للتعارف والتواصل . ويمكننا أن نضيف كثيراً من استخدامات الكلام إلى هذه القائمة ، ومنها الكلام المُستخدَم للحصول على المعلومات (مثلاً، اين براد الشاى؟) وللتعبير عن العواطف والمشاعر (مثلاً، **يا لها من قبعة جميلة !**) أو الكلام من أجل ذاته (**إنها تبيع القواقع البحرية بجانب شاطىء البحر**) وما إلى ذلك. ولن نحاول تقديم تصنيف دقيق لوظائف الكلام فى هذا المستوى ، ولكننا سنقتصر على القول بأن الكلام يؤدى وظائف عديدة فى التعامل الاجتماعى ، لا تنحصر فقط فى توصيل القضايا التى لا يعرفها المتلقى . (من أجل عرض لمحاولات تصنيف وظائف الكلام ، انظر روبينسون Robinson ١٩٧٢ : الفصل الثانى).

وسنخص بالذكر هنا ، واحداً من أهم مداخل التصنيفات الوظيفية للكلام Functional Classification of Speech لأنه ذو تأثير هام وأهمية عظيمة . ويشير ذلك المدخل إلى « الأفعال الكلامية » Speech Acts ، وهو المدخل الذى ابتكره أصلاً مجموعة من الفلاسفة وعلماء اللغة الذين تأثروا بأعمال الفيلسوف البريطانى ج . ل . اوستين J.L. Austin (انظر أوستين Austin ١٩٦٢ ، وهناك أيضاً عرضان ممتازان فى ليونز Lyons ١٩٧٧ : الفصل ١٦ ، وكمبسون Kempson ١٩٧٧ : الفصلين ٤ و ٥) . وكان أوستين قد ذهب إلى أن دراسة المعنى يجب أن تبتعد عن التراكيب الجوفاء مثل **الجليد أبيض** ، بمعزل عن سياقها لأن اللغة عادة تُستخدَم داخل سياق الكلام لتأدية كثير من الوظائف ، فعندما نتكلم فإننا نقدم اقتراحات suggestions ونبذل وعوداً promises ونوجه الدعوات invitations ونبدى مطالب requests ونذكر محظورات Prohibitions ، وما إلى ذلك . وبالطبع فإننا نستخدم الكلام ذاته ، فى بعض الحالات ، لتأدية فعل بعينه (كما قال مالينوفسكى Malinowski) وخاصة عندما يصبح الكلام هو الفعل ذاته ، فهناك على سبيل المثال، العبارات التالية « **لقد أطلقت على هذه السفينة اسم سوسى سو** »، وهى عبارة يجب استخدامها حتى تتم تسمية السفينة . ويُطلق على مثل هذه العبارات «العبارات الأدائية» Performative utterances ، وينبغى علينا عند تقديم وصف لكل هذه الوظائف المختلفة للكلام صياغته فى إطار نظرية متكاملة للنشاط الاجتماعى ، وهذا ما حاول أوستين وأتباعه أن يقدموه .

« فالفعل الكلامى » ما هو إلا جزء من الكلام المُستخدَم كجزء من التعامل الاجتماعى ، وذلك على عكس التراكيب والأمثلة اللغوية الخارجة عن السياق التى يستخدمها علماء اللغة والفلاسفة . فالثقافة البريطانية ، مثلاً ، تتضمن مجموعة غنية من المفاهيم لتصنيف أجزاء التعامل الاجتماعى ، وهى بذلك تعكس أهمية التعامل الاجتماعى فى المجتمع ، فنحن نميِّز مثلاً بين « العمل » و « اللعب » أو «تزجية الفراغ» ، ونميِّز بين « اللعب » و « التقاتل » وبين « التزاور » و « المعايشة».

وهناك ، أيضاً الكثير من المفاهيم الثقافية ، ذات العناوين اللغوية ، لأنواع من الأفعال الكلامية ، وغالباً ما ترتبط دراسة هذه الأفعال الكلامية بمعانى هذه المصطلحات ، ومن الأمثلة على ذلك ، ما هو معنى مصطلح promise **الوعد** بالتحديد ؟ (انظر سيرل Searle ١٩٦٥ ، من أجل إجابة على هذا السؤال) .

ومن أهم ما قدّمه أوستين Austin ، هو محاولة الفصل بين ما يُطلق عليه «القوة البلاغية» Illocutionary force للفعل الكلامى و «قوته التأثيرية الفعلية» Perlocutionary force وليس من السهل تعريف المصطلح الأول بدقة ، ولكنه بشكل أو آخر « الوظيفة الكامنة » imerent function† فى الفعل الكلامى ، ويمكننا تحديد تلك الوظيفة بفحص الفعل ذاته وعلاقته بالمعتقدات السائدة فى اللحظة ذاتها . ويمكننا على سبيل المثال ، أن نصنّف عبارة أنه « **سيغادر المكان فى الحال** » على أنها نوع من **الوعد** ، لو أننا تصورنا أن المتلقى سيسعد لتلقى هذا الخبر ، أعنى لأن فلاناً سيغادر المكان بالفعل . أما « القوة التأثيرية الفعلية » للفعل الكلامى فهى خاصة **بآثاره أو نتائجه** ، أى سواء كانت مقصودة أو فعلية ، فالقوة التأثيرية الفعلية المقصودة لعبارة « إنه سيغادر المكان حالاً » قد تكون إسعاد المتلقى .

ويعد التمييز السابق هاماً ، لأنه يعكس ميلاً عاماً نحو تصنيف أجزاء من التعامل الاجتماعى حسب طريقتين مختلفتين ، حسب (١) خصائصها الكامنة (٢) وتأثيرها ، فنحن نميز ، على سبيل المثال بين « التقاتل » و « الفوز » ، وبين «اللعب» و « إمتاع النفس » أو مجرد « قضاء الوقت » . إن هذا الترادف بين « التصنيف الوظيفى للكلام » وبين الأنواع الأخرى من السلوك الاجتماعى هو ما قد نتوقعه بداهة، لو سلمنا بوجهة النظر القائلة بأن الكلام هو مجرد نوع واحد من أنواع السلوك الاجتماعى . وقد نتوقع أيضاً أن تكون المفاهيم المُستخدَمة فى تصنيف الأفعال الكلامية هى ذاتها المُستخدَمة فى المفاهيم الثقافية ، لأنها معرفة فى صورة « نماذج أصول » (انظر ٣-١-٢) ، وذلك هو ما سنجده بالطبع ، لو حاولنا تحديد الشروط الضرورية لكى يعد الفعل الكلامى وعداً . فالوعد النموذجى ، ينبغى أن تتوفر فيه

صفة الصدق (sincerity) ، ولكن يبدو أنه من الطبيعى أن نقول أن فلاناً قد وَعَدَ حَانثاً (insincerity) (دون إخلاص) أن يفعل شيئاً ما .

إذا اعتبرنا تصنيفات الفعل الكلامى مفاهيم ثقافية فمن الممكن أن نتوقع تباينها من مجمتع إلى آخر ، وهذا ما يحدث فعلاً . ومن الأمثلة النمطية لنوع من الأفعال الكلامية ذات « القوة البلاغية » المميزة الفعل الكلامى الخاص بالتعميد فى «الدين المسيحى» ، وهناك فعل (verb) خاص بهذا الفعل وهو (عمد Baptise) والذى يُستخدم فى « العبارات الأدائية » من نوع (عمدتك ...) . وتقتصر القوة التأثيرية الفعلية لهذا النوع من العبارات على المجتمعات التى تعد فيها عملية التعميد عرفاً قائماً ، وهناك أيضاً أمثلة أخرى مشابهة من العبارات ذات القوة التأثيرية الفعلية ، والتى يقتصر استخدامها على ثقافات بعينها (ومن أجل أمثلة أخرى ، انظر ليونز ١٩٧٧ : ٧٣٧) . ومن المهم أن نقارن بين المفاهيم المنبثقة عن اللغة الإنكليزية ومفاهيم المجتمعات الغربية غير المألوفة لنا ، مثل مفاهيم ثقافة هنود التزلتال Tzeltal (وهم فرع من ثقافة المايا Maya فى المكسيك) ، وقد قدّم هذه الاختلافات ودرسها براين ستروس Brian Stross (١٩٧٤) . ويملك هنود التزلتال حصيلة ضخمة من مصطلحات تصنيف « الأفعال الكلامية » ، مثل « كلام البيع » أو « كلام ينفى فيه المتكلّم اللوم عن نفسه حتى لا يُلام وحده » . ويبدو أن هذه أمثلة على تصنيفات « القوة البلاغية » ، ولكن حصيلتهم من هذه المصطلحات تتعدى التصنيفات القائمة ، فهى تشمل مصطلحات مثل « كلام الشهيق » ، و « كلام الزفير» و « كلام الليل » أو « المساء » أو « كلام مَنْ يزور منزلاً آخر ، ويمضى الوقت فى الحديث بالرغم من مرض الآخر » . وتعبّر لغة التزلتال عن كل هذه المفاهيم بوحدة لغوية واحدة ، مكوّنة من كلمة واحدة تتبعها كلمة Kop ، وتعنى « الكلام » . ومن المعقول أن نتصور أن متحدث التزلتال يختزن كل هذه المفاهيم فى ذاكرته ، (بينما ينبغى على القارىء أن يعيد بناءها على أنها مفاهيم جديدة ذات تركيب داخلى معقّد) تماماً كما يختزن المفاهيم المركّبة فى ذاكرتنا مثل « يعد » و « يعمد » و

«يقترح» . ومع ذلك ، فليس هناك قدر من التطابق بين النظامين اللغويين حتى مع الفحص الدقيق لمصطلحات لغة التزلتال ذات القوة البلاغية .

كيف إذن نوفق بين تصنيف « الأفعال الكلامية » وتصنيف الوظائف الكلامية، الذى سبق أن ناقشناه عند حديثنا عن التواصل الودى Phatic communion وعن « الكلام للحصول على المعلومات » إلخ ؟ يمكننا الإجابة عن هذا السؤال بقولنا ، أن كلاً من هاتين المجموعتين من المفاهيم تصلح لتصنيف أجزاء من الكلام مختلفة الطول، فتوضع الأفعال الكلامية التى هى أقصر أجزاء الكلام فى إطار « القوة البلاغية » أو « القوة التأثيرية الفعلية » ، بينما تصنّف الأجزاء الأطول من الكلام تحت مفهوم «التواصل الودى» .. وهكذا ، غير أن هذه الإجابة تسلم جدلاً بوجود نظام تدرجى لتنظيم الكلام ، وسنبحث هذه الفرضية فى القسم ٤ - ٣ - ٢ فيما يلى ، ولكننا لا نستطيع التسليم جدلاً بمثل هذا التنظيم التدرجى للكلام . ويمكننا أيضاً طرح إجابة بديلة على السؤال السابق ، فحواها أن للمتحدثين نوايا متباينة فى أية لحظة من لحظات الكلام ، وتتراوح مجالات هذه النوايا بين نوعين : الدائمة مثل الرغبة فى المحافظة على حُسْنِ العلاقة بالمتلقى ، والنوايا المؤقتة مثل الرغبة فى إسعاد المتلقى ، أو بذل الوعد ، وما إلى ذلك . وتمكننا وجهة النظر هذه من التعامل مع أى تغيير فى نوايا المتحدث ، وهذا هو ما يميّزها عن النموذج التدرجى . ولكننا لا نستطيع ، على أية حال ، القيام بأى تحليل وظيفى مُرضٍ لأية قطعة من الكلام باقتصارنا على استخدام مجموعة واحدة فقط من التصنيفات ، لأنه من الممكن أن تجتمع مقاصد المتحدث المختلفة فى نفس الوقت ، وبذلك نجد أن المتحدث هنا أيضاً يحدد كلامه فى حيّز متعدد الأبعاد ، مثلما يفعل بالنسبة للآخرين من البشر (انظر ١-٣-١ و ٢-١-٤) ، ومثلما يفعل بالنسبة للأنواع الأخرى من المواقف (انظر ٢-٤-١) .

٤-١-٣ الكلام باعتباره نوعاً من العمل الماهر Speech as skilled work :

سبق أن رأينا أن للكلام ، فى علاقته بالمجتمع ، أهمية تضعه فى مكانة خاصة، مما يفرض معاملته معاملة خاصة فى إطار الثقافة ، وذلك صحيح بالنسبة لأية ثقافة، باعتباره شيئاً يمكن تصنيفه والكلام عنه . لكن ذلك فى حد ذاته لا يجعل الكلام عملية اجتماعية بالمعنى الذى يقصده دى سوسير de Saussure ، لأنه من المحتمل أن تعكس التصنيفات المعترف بها اجتماعياً ، طرق استخدام الكلام فى المجتمع ، ولا تحددها ، أى بعبارة أخرى ، لو أراد أن يقول شيئاً لا يتوافق مع أى من التصنيفات المعترف بها اجتماعياً أو يناسبها ، فإن ذلك لن يمنعه من قول ما يريد (بالرغم من أن هذه المسألة قابلة للجدل والنقاش) .

وننتقل الآن لمناقشة جانب من جوانب الكلام أكثر تحديداً من الجوانب السابقة ، وهو الذى سبق أن أطلقنا عليه مصطلح « العمل الماهر » . والكلام « **عمل** » لأنه يتطلّب مجهوداً ، وتعتمد درجة النجاح أو التوفيق فيه على قدر الجهد المبذول . وهو عمل « **ماهر** » لأنه يتطلّب معرفة نظرية know-how ، ويعتمد النجاح فى ذلك على درجة المران الذى حصل عليه الفرد ،(وعلى عناصر أخرى منها درجة الذكاء الفردى). ولو جمعنا هاتين الخصيصتين سوياً ، يمكننا القول بأن الكلام قد يكون أكثر نجاحاً فى بعض الأحيان عنه فى أحيان أخرى ، وقد يتقنه بعض الناس أكثر من بعض . وليس هناك أدنى شك فى أن الأمر كذلك فعلاً : فكلنا نعرف أننا أحياناً نشعر بأننا غير قادرين على الكلام ، وأن بعض الناس يجدون صعوبة شديدة فى إيجاد «القول المناسب فى الوقت المناسب» . (ولن نلتفت فى هذا الفصل إلى الاختلافات الناتجة عن تباين اللهجات ، حيث تتأثر الأحكام بالعرف الاجتماعى المتبع والتحيزات الاجتماعية السائدة Social conventional prejudices (انظر ٦ - ٢) .

وإذا كان الكلام نوعاً من العمل الذى يتطلّب المهارة ، فإن ذلك يصدق أيضاً على جوانب التعامل الاجتماعى الأخرى ، فى الاتصال المباشر Face-to-face

communication (أو التعامل الاجتماعى المركّز focussed interaction)، «ومن المفيد أن ننظر إلى سلوك الأفراد المشتركين فى الاتصال المباشر ، على أنه نوع من الأداء المنظّم والماهر مثل المهارات الأخرى ، ومنها على سبيل المثال ، مهارة قيادة السيارات» (أرجيل وكندون ١٩٦٧ Argyle & Kendon) . فمثلما يكون بعض السائقين أكثر مهارة من الآخرين (أى بقدر ما ينجح بعض الناس فى امتحانات القيادة ويفشل البعض الآخر) ، يكون بعض الناس أكثر مهارة فى التعامل الاجتماعى مع الآخرين . ولكن ينبغى أن نذكر تحذيرين أساسيين،

أولهما : أن النجاح فى الكلام يتباين حسب الوظيفة التى يؤديها ، وحسب الجوانب الأخرى للموقف . ولذلك ، فإن بعض الناس يتميّزون بالمهارة فى المناظرات الفكرية ، ولكنهم غير ماهرين فى المواقف التى تقتضى « التواصل الودى »، والعكس صحيح . وسنرى فى (٦-٤) أن الأطفال الذى يتميّزون بمهارة عالية فى الألعاب الكلامية verbal games قد يفشلون فى الكلام فى الفصول الدراسية ، أو فى المقابلات الرسمية .

ثانيهما : من الصعب أن نقيس درجة النجاح ، إلاّ بالنسبة لقدرة المتحدث على تحقيق نواياه. على سبيل المثال، إذا التقى شخص ثرثار (حـ) مثلاً، مع شخصٍ آخر (س) يلزم الصمت حين يتحدث الآخرون ، فإن (حـ) قد يعتقد أن(س)غير ناجح فى مسألة الكلام ، لأنه لا يقوم بدور فى سد ثغرات الحديث ، وقد يعتقد (س) أنه ناجح تماماً (لأنه ليس لديه شىء ذو أهمية يقوله) ، كما يعتقد أن (حـ) شخص ثرثار لا يقول سوى الأشياء التافهة . ويسرى هذان التحذيران أيضاً على جوانب التعامل الاجتماعى الأخرى .

وليس هنا مجال تحديد أنواع المهارات المطلوبة للحديث الناجح ، لأنها تتضمن بالطبع كل المهارات العامة المطلوبة فى التعامل الاجتماعى ، بالإضافة إلى المهارات اللغوية الخاصة بالمقدرة على استخدام الوحدات اللغوية . وتتباين هذه المهارات اللغوية بين المهارات الخاصة (مثل ، متى ينبغى استخدام لقب سيدى عند المخاطبة) ، وبين

المواقف الخاصة (مثل كيفية عقد صفقة تجارية من خلال مكالمة تليفونية باهظة التكاليف عبر الأطلسى) ، وبين المهارات اللغوية العادية مثل كيفية انتقاء الاسم المناسب لمدلول بعينه . وربما نتصور أن هذه المهارات منظّمة بطريقة هرمية ، أى بأكثرها تحديداً وتخصصاً فى أسفل الهرم وأكثرها عمومية فى قمته ، وقد نتصور أيضاً أن المتكلّم عند التعامل مع مواقف خاصة سيبحث عن المهارة المناسبة التى قد يفضّلها على نظائرها الأكثر عمومية ، حيث قد تتطلّب الأخيرة مجهوداً معرفياً أكبر ، ولكنها قد تكون أقل نجاحاً . فعند شراء تذكرة لحافلة عامة ، مثلاً ، يبدو أنه من الأيسر استخدام العبارة التى نعرفها للحديث إلى جابى التذاكر ، وذلك بدلاً من استخدام القاعدة العامة الخاصة بالمطالبة بصفة عامة من أى شخص (مثلاً تقول « **بعد إذن سيادتك هل تسمح أن تبيعنى تذكرة من ... إلى)** . (إن الرأى الخاص بدرجية المعرفة استحدثه علم الذكاء الاصطناعى ، حيث أثبت جدارة كبيرة فى حلّ المشكلات – انظر مثلاً وينوجراد Winograd ١٩٧٥) . وقد يمكننا تخمين أن أحد الأسباب الكامنة وراء حُسْنِ أداء بعض الناس فى بعض المواقف ، هو أنهم قد تعلّموا بعض المهارات الخاصة والمناسبة للاستخدام فى مثل هذه المواقف ، غير أن ذلك لا يعدو أن يكون فى الوقت الراهن تخميناً لا يؤكده دليل . وهذا يثير بدوره سؤالاً عن مدى ارتباط المهارات بمواقف بعينها ، فعلى سبيل المثال ، أثبتَ كل من كارين واتسون جيجيو Karen Watson Gego وستفين بوجز Stephen Boggs (١٩٧٧) أن الأطفال فى هاواى يستطيعون نقل transfer المهارات التى يستخدمونها عادة فى تبادل الشتائم والسباب إلى مجال رواية الحكاية ، وهو موقف مختلف عن الموقف الأول .

ويمكننا الآن أن ندرك إلى أى حدٍ يعد الكلام عملاً **اجتماعياً** : فنحن نتعلّم قواعد ومهارات استخدام الكلام من الآخرين بنفس الطريقة التى نتعلّم بها الوحدات اللغوية . فنحن نتعلّم ، مثلاً ، كيفية الحصول على تذكرة من مشاهدة الآخرين وسماعهم ، مثلما نفعل تماماً عندما نتعلّم كيفية تنظيم الأسماء والأفعال فى شكل تراكيب ، على النحو الذى نسمعه من الآخرين .

وهناك جانب اجتماعى آخر للكلام يرتبط « **بالعمل** » أكثر من ارتباطه بالمهارة،

وخاصة أن المجهود الذى يبذله الإنسان فى الكلام يعتمد على الدافع إليه motivation، وهو ينشأ بدوره جزئياً من علاقات الفرد بالمشتركين الآخرين . ويقدم لنا علم النفس الاجتماعى عدداً من النظريات فى تفسير استعداد الناس لبذل الجهد اللازم للقيام بالتعامل الاجتماعى ، واستعدادهم أيضاً للالتزام بالقيود الاجتماعية المفروضة التى سبق أن ناقشناها فى (٤-١-٤) . ويبدو أن السبب الرئيسى المتكرر فى جميع هذه النظريات ، هو أن الناس يستجيبون لمطالب الآخرين لأنهم يرغبون فى حب وقبول الآخرين .

وإحدى هذه النظريات ، هى النظرية التى قدمها عالم الاجتماع إرفينج جوفمان ERVING GOFFMAN ، وهى نظرية ذات أهمية خاصة فيما يتعلق بمناقشة الكلام، وهى خاصة بما أطلق عليه جوفمان (١٩٥٥) « عمل الوجه » FACE-WORK، وأعنى الطريقة التى يتعامل بها الفرد من خلال تعبيرات الوجه (بالمعنى القائم فى **يفقد ماء الوجه**) . وهو ما يتم عن طريق تقديم صورة واحدة متسقة للآخرين ، وقد نفقد ماء وجهنا أو نحافظ عليه عن طريق إفساد تلك الصورة أو تحسينها . وكلما تحسّنتْ هذه الصورة لدى الآخرين ، زاد قبول الآخرين لنا ، ولكن من الخطورة أن نطمح إلى ما ليس لنا قدرة عليه ، لما ينطوى عليه ذلك من احتمال فقدان ماء الوجه بالوقوع فى الخطأ . وعليه ، فإن هنالك ميلاً قوياً للبقاء فى متوسط الجماعة التى ننتمى إليها، بدلاً من التطلّع إلى ما هو أعلى من ذلك . وهناك ميل واضح من جانب الجميع فى الجماعة نحو استخدام نفس المعايير فى الحكم على الناس، لأن الجميع يعرفون أنها نفس المعايير التى يتم بها الحكم عليهم ، ومن الصعب، مثلاً، أن ننتمى إلى جماعة مؤمنة بالمحافظة على نظافة البيت أو باجادة التزحلق بالقبقاب أو التفوق فى الامتحانات العامة ، دون أن نقبل هذه المعايير كمعايير هامة بالنسبة لنا .

ويعد الكلام من أهم الوسائل التى تمكّن الفرد من أن ينقل صورته أو ملامحه الشخصية للآخرين ، حتى يتمكّن الآخرون من تقييمها من خلال ما يقوله الفرد ومن خلال طريقته فى الكلام . (براون ولفينسون ١٩٧٨ Brown & Levinson) وفضلاً عن ذلك ، فإن معظم الناس يودون لو ينقلون إلى مَنْ حولهم صورة من

الكياسة والتهذيب ، لأن ذلك سيزيد من شعبيتهم لدى الآخرين ، وبذلك يتحوّل الكلام إلى نشاط تعاونى co-operative حيث يقوم الجميع ببذل قصارى جهدهم حتى يساعدوا الآخرين على المحافظة على صورتهم الشخصية . وغالباً ما نحاول أن نتجنّب فضح مواطن ضعف الآخرين أو إثارة المناقشات الحامية ، حتى نتأكد أنها لن تؤثر على مواقف الآخرين تجاهنا إلاّ إذا كنا لا نبالى برأيهم فينا . وغالباً ما نحاول ، باعتبارنا متلقين ، فهم ما يقوله الآخرون ، حتى عندما يتطلّب ذلك قراءة ما بين السطور (انظر العدد الكبير من الأبحاث المنشورة عن « مبدأ التعاون » Co-operative principle والذى قدّمه بول جرايس Paul Grice وكيفية استخدامه لقراءة ما بين السطور، انظر مثلاً كمبسون Kempson ٦٩/١٩٧٧ وليونز Lyons ١٩٧٧ : ٥٩٣). وينبغى علينا كمتحدثين ، أن نتوقع مقدماً المشكلات التى قد يقابلها المتلقون عند محاولة فهم ما نقوله ، ولذلك يجب أن نتوخى الحذر فى اختيار ما نقوله وما نتوقع أن يفهموه. وبالطبع، فإن الناس يختلفون فى مقدرتهم على توقع رد فعل المتلقى لما يقولون أو فى قدرتهم على تجنّب وقوع سوء التفاهم ، ولكن نظرية «عمل الوجه» Face-work تقول بأن كل البالغين يدركون إدراكاً واعياً حاجة المتحدثين للقيام بتسهيل مهمة المتلقى .

إن نتائج الفشل فى التعاون بنجاح قد تكون وخيمة ، كما يقول جوفمان Goffman (١٩٥٧) :

> « فالشخص الذى يتسبب فى عدم استراحة الآخرين من كلامه ويقوم دائماً بإفساد التواصل ، يعد فاشلاً فى قدرته على القيام بالاتصال الاجتماعى ، وقد تكون لذلك نتائج وخيمة على حياته الاجتماعية والحياة الاجتماعية من حوله ، ويمكن أن نصفه بأنه شخص فاشل أو ناقص » .

وإذا اقتنعنا بوجهة النظر القائلة ، بأن الكلام والاتصال الاجتماعى بصفة عامة هما نوع من العمل الماهر ، فإننا نخلص إلى أن مثل هذا الفشل الذى يصفه جوفمان

ينتج عن نقص فى المهارة أو فقدان الدافع للنجاح (أو عن كليهما) . وكما رأينا فيما سبق ، فإن كلاً من المهارة والدافع للعمل ينتج عن المجتمع الذى يعيش فيه الفرد (والقدر الذى يؤثر فيه ذلك المجتمع على الكلام) ، يمكن أن نخلص إلى أن دى سوسيور كان مخطئاً فى تصور أن الكلام نوع من النشاط الفردى ، لا يدين بشىء للمجتمع من حوله أو يؤثر فيه .

٤-١-٤ المعايير المتحكّمة فى الكلام The norms governing speech :

تعتمد درجة المهارة فى الكلام على مجموعة من العوامل ، وتتضمن هذه العوامل معرفة القواعد التى تتحكّم بالكلام . وتلك القواعد أنواع مختلفة ترتبط بجوانب الكلام المختلفة ، وكل ما نستطيع أن نفعله هنا هو ذكر بعض الأمثلة . فالقواعد المعمول بها تختلف من مجتمع لآخر ، وذلك يسهل التعرف على وجود هذه القواعد ، ولا يجب أن يؤخذ ذلك على أنه يعنى ضمنياً أن كل هذه القواعد متباينة بنفس الطريقة . (ومن المحتمل أن تكون بعض هذه القواعد ، واسعة الانتشار ، إن لم تكن قواعد شمولية ، هذا بالرغم من أن الأبحاث فى هذا المجال غالباً ما تهتم بتأكيد الاختلافات بين الثقافات ، بدلاً من مجرد تأكيد أوجه التشابه بينها) . وسنطلق على هذه القواعد لفظة **المعايير Norms** ، لأنها تحدد السلوك المعيارى الشائع فى مجتمع بعينه ، دون أن ترتبط بالعقوبات التى قد تُفرض على مَنْ لا يتبعها . (ويتضمن كتاب براون وليفنسون Brown & Levinson ١٩٧٨ ، مناقشة للعلاقة المركّبة القائمة بين المعايير والعقلانية كعناصر محددة للكلام) .

أولاً : هناك معايير خاصة بالتحكّم فى حجم الكلام الذى يقوله الناس ، وهذا الحجم الكمى قد يتراوح ما بين القليل جداً والكثير جداً . وقد قام ديل هايمز Dell Hymes بوصف مجتمع ، يكون المعيار فيه قدراً قليلاً جداً من الكلام (هايمز Hymes ١٩٧١ - ب) :

قام بيتر جاردنر Peter Gardener (١٩٦٦) ببعض العمل الميدانى فى جنوب الهند مع قبيلة تدعى باسم البوليا Puliya وَصَفَ فيه اكتساب أفرادها للسلوك الاجتماعى . ولا توجد فى هذا المجتمع زراعة أو صناعة،ولايبدو أن هذا المجتمع مجتمع تعاونى بصفة خاصة، أو أنه من ذلك النوع من المجتمعات التى تتسم بالمنافسة الحادة ، ولذلك ينشأ الأطفال، دون تعويدهم على التعاون بصفة خاصة ، أو حتى دون تغذيتهم بروح المنافسة الحادة فيما بينهم ، ولكنهم ينشأون على ممارسة أعمالهم الخاصة فى فلك درجة معقولة من التجاور المكانى . وقد لاحظ جاردنر أنه عندما يبلغ الرجل سن الأربعين فى هذا المجتمع، يكون قد توقف عن الكلام تماماً : فليس لديه ما يدفعه للكلام . والناس هناك لا يتحدثون كثيراً ، وغالباً ما لا يجدون ما يتحدثون عنه ، وقد استنتج جاردنر أن هذه الظروف قد جاءت نتيجة لأنماط السلوك الاجتماعى الشائعة بينهم .

ونستطيع مقارنة المجتمع السابق بمجتمع آخر فى روتى Roti ، وهى جزيرة صغيرة فى شرق أندونيسيا وصفها جيمس فوكس James Fox (١٩٧٤) على النحو التالى : « يعد الكلام بالنسبة لأهل روتى واحداً من أهم مباهج الحياة ، فالكلام ليس مجرد ثرثرة تافهة لإضاعة الوقت ، ولكنه نوع من اتخاذ المواقف الرسمية إزاء المشكلات التى لا تنتهى والمناقشات والقوافى أو المنافسة الكلامية ، وذلك باستخدام التعبيرات المنمقة فى المناسبات الرسمية .. ويعد عدم الكلام علامة على الحزن والاكتئاب . وغالباً ما يردد القول بأنهم ، حين تملأ الحسرة والحزن قلوبهم ، يصمتون . وعلى عكس ذلك ، فإن الاتصال الاجتماعى بفرد ما يتطلّب محادثة واعية ونشطة » .

وقد تحدث مشكلات نتيجة للقاء أفراد من مجتمعات مختلفة ، تتبنّى معايير متباينة وتتضح هذه المشكلات فى الحكاية التالية التى رواها كولتهارد Coulthard (١٩٧٧ : ٤٩) ، حيث توجد فى هذا الكتاب أمثلة أخرى من المعايير المختلفة المتصلة بالحجم الكمى للكلام :

« يصف أحد علماء الاثنوجرافيا زيارة قام بها لأقربائه بالمصاهرة فى الدنمارك ، حيث صحبه فى الزيارة صديق أمريكى ، أصرَّ ، بالرغم من تحذيره مسبقاً ، على الاستمرار فى الكلام بحدة أمريكية ، حتى غادرنا المضيفون وآووا إلى فراشهم فى التاسعة، ويبدو أنهم لم يستطيعوا احتمال هذا الموقف أكثر من ذلك .. »

وهناك نوع آخر من المعايير ، يتحكّم فى عدد الناس الذين يُسمح لهم بالكلام فى نفس الوقت فى المحادثة الواحدة . وقد يتفق معظم القراء مع المبدأ القائل بأن يُسمح لشخصٍ واحدٍ فقط بالكلام فى وقتٍ بعينه (وإلاّ جرتْ أكثر من محادثة فى نفس الوقت كما يحدث فى الحفلات) ، ولكن يبدو أن هذا المعيار ليس معياراً شمولياً. فقد قام كارل رايزمان ١٩٧٤ بوصف العرف المتبع فى إحدى قرى أنتيجوا فى جزر الهند الغربية فى النصّ التالى :

« تكاد تبدو أعراف أنتيجوا ، فى ظاهرها ، فوضوية فليست هناك ، من ناحية الأساس ، شروط لا تسمح لأكثر من فرد بالتحدث فى وقتٍ واحد . فبدء فرد بالكلام لا يعد إشارة للمتحدث بالصمت أو بالبدء فى عملية اختيار من سيستمر فى الحديث . وعندما ينضم فرد إلى جماعة تتحدث بشكل عادى لا تتوفر له الفرصة لكى يشترك فى الحديث ، كما لا توجد أية وقفة أو إشارة رسمية تُعلن عن انضمامه لجماعة المتحدثين . ولا يبدو أن أحداً يعيره أى اهتمام . وعندما يشعر باستعداده للحديث فإنه يبدأ فى ذلك على الفور . وقد يستمع إليه الآخرون

أو لا يستمعون إليه ، أو قد يتوقف بعضهم ، وقد يبدأ بعضهم في النظر إليه وقد لا يفعلون ذلك . فإن لم يسمعه أحد في المرة الأولى ، فإنه سيحاول مرةً أخرى ، وقد يحاول مرةً ثالثة (في الغالب بادئاً بنفس العبارة) . وقد يستمع إليه الآخرون في نهاية الأمر ، أو ييأس هو من الحديث فيستسلم للأمر الواقع » .

وقد يتفق معي معظم القراء أيضاً ، بأنه لابد أن تكون هناك حدود على عدد مرات المقاطعة المسموح بها في أية محادثة ، ولكن يبدو أن الأمر ليس كذلك بالنسبة لأنتيجوا :

« قامت محدثتي أثناء محادثة قصيرة لم تستغرق أكثر من ثلاث دقائق بالنداء على أحد المارة في الشارع ، وبتوجيه تعليق لطفلٍ صغير ، وغنتْ قليلاً ، وطلبتْ من طفلٍ مار بأن يذهب إلى مدرسته ، ثم غنّتْ قليلاً مرةً أخرى ، وطلبتْ من طفلٍ آخر التوجه لشراء الخبز إلخ .. ، وطوال هذا الوقت استمرت في محادثتي عن أختها » .

وتتناول معايير أخرى « مضمون » ما يُقال . فمثلاً ، يستلزم « مبدأ التعاون» الذي قدّمه بول جرايس Paul Grice (والذي سبق أن ذكرناه بإيجاز) الوفاء بعدد من الشروط ، ومنها الشرط « الخاص بأن يحمل ما يقوله المتحدث قيمة إخبارية informative (جرايس ١٩٧٥) . ومن نتائج هذا الشرط ، أن نحدد الشخص الذي نتحدث عنه بكل الدقة الممكنة والمتاحة . ولذلك ، فإنني لو أردت أن أخبرك بأن شقيقتك تنتظرك بالخارج ، فينبغي عليّ أن أقول « **أن شقيقتك** » (وينبغي استخدام اسمها ، لو كنت أعرفه) ، تنتظرك في الخارج بدلاً من أن أقول أن « **فلانا** » أو « **بنتا** » أو حتى **سواء أختك أم أخوك** قد حضر ، فإذا استخدمت إحدى العبارات غير الدقيقة السابقة ، فسيكون من حقك أن « تقرأ ما بين السطور »، وتفهم من ذلك أنني لا أعرف مَنْ هذا الشخص بدقة كافية ، لأنك تعرف جيداً أننا

خاضعون لمعيار القيمة الإخبارية فيما نقول ، كما تعرف أننى كنت سأستخدم عبارة أكثر دقة لو كنت أستطيع ذلك .

وليس هذا المعيار « شمولياً » ، كما قد نتصور لأول وهلة . فعلى حد قول ألينور كينان Elinor Keenan (١٩٧٧) ، هناك منطقة فى مدغشقر لا تأخذ بهذا المعيار . فَمِن الطبيعى ، للغاية ، مثلاً أن تدل على أختك مستخدماً لفظ « بنت » (وقد نصتّ كينان على مناسبة بعينها ، أخبرها فيها غلام فى ماجاس « أن هناك بنتاً قادمة » وكان بذلك يقصد أخته) وأيضاً :

> « لو أن (أ) سأل (ب) : « أين أمك » ؟ وأجاب (ب) قائلاً : « بأنها إما فى المنزل أو فى السوق » ، فإن عبارة (ب) لا تؤخذ عادة على أنها تعنى أن (ب) لا يستطيع تقديم المعلومات الأكثر دقة ، والتى يرغب المتلقى فى أن يعرفها . إن مثل هذا الاستنتاج الضمنى implicative لا يصح ، لأن توقعنا الفرضى القائل بأن المتحدثين سيلبون الاحتياجات الإخبارية للمتلقين ، ليس معياراً أو شرطاً أساسياً » .

وهناك عدد من الأسباب وراء عدم قيام المتحدثين بتقديم المعلومات اللازمة فى هذا المجتمع . وأحد هذه الأسباب أنهم يخافون من أن التعريف بفردٍ ما قد يؤدى إلى جذب انتباه قوى الشر الغيبية إليه ، أو قد يسبب له متاعب من نوعٍ أو آخر ، والسبب الآخر هو أنه لا يوجد قدر كافٍ من الأخبار فى هذه القرى الصغيرة المنعزلة ، ولذلك يفضّل الناس أن يحتفظوا بهذه الأخبار ، وكأنها بضاعة ثمينة ! ولذلك ، لا يوجد ما يمنع من تداول الأخبار عندما تكون متوفرة لدى الجميع ، فلو كان هناك ، مثلاً ، إناء من الأرز يُطهى على النار فإن الناس سيشيرون إليه « بالأرز » لأن الجميع يستطيعون رؤيته . ومن الواضح أن معايير الكلام المختلفة فى كثير من هذه المجتمعات المختلفة يمكن تفسيرها بالرجوع إلى الجوانب الأخرى لهذه المناقشات ، ولذلك لا يمكن دراستها دراسة وافية بمعزلٍ عن الثقافة التى تنتمى إليها .

وأخيراً ، هناك معايير بعينها تختلف من مجتمع إلى آخر مثل طلب التذكرة من الكمسارى (جابى التذاكر) فى حافلة . وسنعطى مثالاً آخر ، ففى ألمانيا قد تقول المضيفة لضيوفها فى حفل عشاء رسمى « وسأطلب منكم الآن أن تأخذوا أماكنكم حول المائدة **Ich darf jetzt bitten, Platz zu nehmen**) ، وهى تستخدم فى ذلك عبارة إخبارية declarative construction ، وذلك على عكس استخدام صيغة السؤال التى تستخدمها المضيفة الإنكليزية :

هل أطلب منكم أن تتفضلوا بالجلوس الآن ؟ May I ask you to come and sit down now ? ، وسنقوم بذكر أمثلة أخرى على مثل هذه القيود فى الأجزاء التالية .

٤-١-٥ الخلاصة :

لعل هذه المناقشة تكون قد أوضحت إلى أى مدى أخطأ دى سوسيور فى اعتبار الكلام نتاجاً لإرادة الفرد ، ولا يخضع لقيود المجتمع . وقد يكون ذلك أقرب إلى الحقيقة بالنسبة لبعض جوانب الكلام فى أنتيجوا ، ولكنه غير صحيح بالمرة بالنسبة لمعظم المجتمعات المألوفة لدى القارىء ، (وبالنسبة للمجتمعات المألوفة لدى دى سوسيور ، ذاته) .

فالمجتمع يتحكّم بالكلام بطريقتين . أولاً : عن طريق تحديد مجموعة من المعايير norms ، نتعلّم كيفية الالتزام بها بمهارة (أو حذقها بين الآونة والأخرى) وقد تختلف بعض معايير الكلام من مجتمع لآخر ، ولو أن بعضها قد يكون أكثر شمولية وانتشاراً من بعضها الآخر ، فحتى فى مدغشقر ، مثلاً ، يلتزم الناس بالمعايير الخاصة بالقيمة الإخبارية للكلام informativeness ، إلاّ عند تعارضها مع معايير أخرى (مثل تأمين سلامة الآخرين أو الاحتفاظ بالأخبار للذات) ، ويبدو أن معيار الإخبارية معيار شمولى . ثانياً : يوفّر المجتمع الدوافع motivation الضرورية لحثّنا على الالتزام بهذه المعايير ، ولحثّنا على بذل الجهد فى الكلام (كما يحدث فى العامل

الاجتماعى بصفة عامة) . وتفسّر نظرية « عمل - الوجه » Face-work هذه الدوافع ، كما تستطيع أن تفسّر لنا أيضاً ، لماذا يبدو الكلام على أنه مسألة سلسة وسهلة ، رغم مخاطر سوء التفاهم والصعوبات الأخرى القائمة فى أية عملية اتصالية .

وبالإضافة للتحكّم فى الكلام بهاتين الطريقتين ، يهتم المجتمع اهتماماً كبيراً بالكلام ، يوفّر لنا على وجهِ الخصوص مجموعة من المفاهيم للتفكير فيه والتحدث عنه. وإحدى هذه المجموعات من المفاهيم ، المجموعة الخاصة بوظائف الكلام ونظرية الأفعال الكلامية ، التى تعكس بدورها التصنيف الاجتماعى للكلام حسب وظائفه . ويُشار إلى هذه التصنيفات الوظيفية ، إلى حدٍ ما بمعايير الكلام ، فمثلاً ، لو طُلِبَ أن تُسمى سفينة، فعليك أن تكتشف المعايير الخاصة بهذا النوع من التصنيفات الوظيفية، وأن تكتشف المعايير الخاصة ببذل الوعد أو القَسَم أو التعهد ، وهى أن تقول فى بداية حديثك « **إننى أعدك / أعاهدك على / أقسم لك** .. (بالرغم من أن هذه التعبيرات لا تغطى كل التعبيرات الخاصة بالتعهد أو القَسَم أو الوعد) .

وخلاصة القول أن هذا التصنيف الوظيفى للكلام هو جزء من الأداة التى يتحكّم بها المجتمع فى الكلام .

ولقد استخدمنا لفظة المجتمع بطريقة عامة وغير محددة ، ولكننا نخطىء إذا أعطينا انطباعاً بأن المجتمعات أكثر توافقاً وتجانساً من ناحية الوسائل التى تتحكّم بها فى الكلام ، عنها من ناحية الطرق التى تتحكّم بها فى الوحدات اللغوية التى يستخدمها الأفراد . فليس لدينا من الأسباب ما يدفعنا إلى الاعتقاد بصحة هذا الزعم، وعلينا أن نتوقع نفس القَدْر من التباين بين الأفراد فى معايير الكلام ، كما هو الحال بالنسبة لاستخدام الوحدات اللغوية .

ومن الواضح أيضاً ، أن الناس يستخدمون الكلام مثلما يفعلون فى حالة استخدام الوحدات اللغوية ، أى لتحديد موقعهم بالنسبة للجماعات الاجتماعية الأخرى التى يستطيعون تمييزها فى المجتمع من حولهم . والاختلاف الوحيد القائم بين معايير الكلام والوحدات اللغوية ، هو أن دراسة الأولى أكثر صعوبة نسبياً من دراسة الأخيرة،

وخاصة لو أردنا دراسة معايير الكلام ، كمياً ، ولذلك فإنه من الصعب أن نقدم أدلة تجريبية لتدعيم وجهة النظر المُقَدّمة هنا .

٤ - ٢ الكلام باعتباره رمزاً للهوية الاجتماعية

:Speech as a signal of social identity

٤ - ٢ - ١ التصنيفات الاجتماعية اللاعلاقية

:Non-relational social categories

ربما كانت لكل لغة وحدات لغوية ، تعكس الخصائص الاجتماعية للمتحدث أو المُخاطَب أو العلاقة القائمة بينهما . وبالتالى ، فإن الكلام الذى يشتمل على مثل هذه الوحدات ينبىء المتلقى عن الطريقة التى يرى بها المتحدث هذه الخصائص ، وسيعد المتحدث من المخالفين لهذه المعايير الكلامية إذا استخدم وحدات لغوية تدل على خصائص مغايرة . والمعايير التى سنعرض لها فى هذا الجزء ، هى أكثر هذه المعايير شيوعاً فى الدراسات والأبحاث .

ومن أبسط الأمثلة على ذلك ، الوحدات اللغوية التى تعكس الخصائص الاجتماعية لفرد بعينه سواء أكان متحدثاً أو متلقياً . ومن أغرب الحالات المذكورة فى الأبحاث الإثنوجرافية ، هى حالة الأبيبون Abipon فى الأرجنتين الذين يقومون على حدِ قول هايمز Hymes (١٩٧٢) بإضافة اللاحقة (in) (- إن) فى نهاية كل كلمة ، إذا كان المتحدث أو المتلقى من المحاربين . وتتضمن لغة اليانا) Yana (فى كاليفورنيا ، أيضاً ، صيغة خاصة تُستخدم فى الكلام عن النساء أو فيما بينهن (سابير Sapir ١٩٢٩) . وعلى أية حال ، فإن المعايير فى معظم هذه الحالات تشير إلى المتحدث أو إلى المُخاطَب .

أما بالنسبة للمتحدث ، فإن أكثر الخصائص شيوعاً ، والتى تنعكس فى الوحدات اللغوية ، هى خاصية الجنس . وهناك أمثلة كثيرة معروفة على ذلك فى كل

من الأمريكتين وآسيا (انظر العرض الخاص بذلك فى تردجيل Trudgill ١٩٧٤ - ب: ٨٤ ، وهاس Haas ١٩٤٤) . وهناك على سبيل المثال ، أمثلة كثيرة على ذلك فى لغة الكوساتى Kossati المُستخدَمَة فى لويزينا Louisiana . فهناك اختلاف فى صيغ الأفعال التى تستخدمها الإناث وتلك ، التى يستخدمها الذكور. ويقوم الذكر بإضافة صيغة (s-) فى نهاية الصيغ المؤنثة (ومن الأمثلة على ذلك ، أن الذكور يستخدمون صيغة Lakáws ، بينما تستخدم النساء صيغة Lakáw ، وتعنى الصيغتان « يرفع » . وهناك نوع آخر من علامات الجنس فى لغة جزر الكاريب Carib فى أمريكا الوسطى ، وينبئنا تاريخ هذه الجزيرة بدقة بمصدر هذه الاختلافات الجنسية ، لأن سكان الجزيرة قد انحدروا من نسل ذكور يتحدثون اللغة الكاريبية ، ونساء يتحدثن بلغة الاراواك Arawak ، وهن النساء اللاتى قتل الكاريبيون أزواجهن (ولا تتصل الاراواك Arawak بالكاريب) ، ولذلك توجد اختلافات بين الرجال والنساء فى عددٍ من جوانب لغتهم فى جزيرة كاريب ، وأهم هذه الاختلافات الخاصة بالنوع بالنسبة للأسماء المجردة ، فبينما يتعامل النساء مع هذه الأسماء على أنها مذكر (نحوياً) ، يعاملها الرجال على أنها مؤنث (تايلور Taylor ١٩٥١ : ١٠٣) .

وبالرغم من أنه قد يكون من غير المألوف وجود وحدات لغوية خاصة باستخدام الذكور وأخرى خاصة باستخدام النساء ، أو أن تكون هناك صيغ صرفية حسب جنس المُخاطَب إلاّ أننا سنرى (فى ٥ - ٤ - ٣) أن هناك اختلافات كمية بين المتحدثين من الذكور والإناث فى اللغة الإنكليزية ، حيث تميل النساء نحو استخدام التعبيرات ذات المكانة الاجتماعية الراقية أكثر من الذكور الذين ينتمون إلى نفس الخلفية الاجتماعية . ولكن ، من الخطأ أن نتعامل مع هذه الاختلافات الكمية كأمثلة من نفس نوع ظاهرة الاختلافات النوعية القائمة فى لغة مثل لغة الكوساتى ، لأنها تقوم بوظيفتين مختلفتين . فبينما تؤدى الاختلافات القائمة على أساس الجنس فى لغة الكوساتى وظيفة الشاهد marker على الاختلافات النوعية بين المتحدثين ، مؤيدة بذلك أية اختلافات قائمة أخرى ، تقوم الاختلافات الكمية فى اللغة الإنكليزية بدور مختلف ، فهى تعد نتيجة لميل النساء إلى اتخاذ مواقف أكثر إيجابية تجاه اللهجة (أو

اللكنة) المتواضع عليها . (انظر اليان وآخرين Elyan et al ١٩٧٨ من أجل دراسة أكثر تفصيلاً) . فالاختلافات الجنسية النوعية الموجودة فى اللغة الإنكليزية ، لا تقوم بوظيفة الشاهد على النوع لأنها لا تميز بين أنثى نموذجية من طبقة بعينها ، وبين ذكرٍ نموذجى من طبقة أعلى من طبقة الأنثى .

ولو نظرنا من زاوية المتلقى ، لوجدنا أن هناك طرقاً كثيرة قد تختلف بها طريقة المتحدث فى الكلام ، ويعتمد ذلك ، فى المقام الأول ، على نوعية أو ماهية المتلقى . ويبدو أن جميع اللغات تتضمن وحدات لغوية معينة ، لا تُستخدم إلاّ عند توجيه الحديث إلى الأطفال ، مثل الوحدات الإنكليزية gee-gee للاستدلال على **الحصان** . (ومن الملاحظ أن هذه الاختلافات فى اللغة الإنكليزية لا تقتصر على المفردات ، فهناك تراكيب شائعة الاستخدام فى اللغة الإنكليزية مثل **Mummy pick up baby** وهى تختلف عن التراكيب التى يستخدمها البالغون ، سواء من ناحية التركيب لأنها فى صيغة « أمر للغائب » third person imperative ، أو من الناحية **البراجماطيقية** وذلك لأنها تتجنب استخدام الضمائر (I و you) ، وهناك أمثلة أخرى كثيرة مذكورة فى أبحاث « لغة الرُضَّع » Baby talk فى كل اللغات ، وهناك بعض الأمثلة على ذلك من اللغة الهندية الأمريكية لغة الكومانش Comanche (كاساجراند Casagrande ١٩٤٨) . ويرى تشارلز فرجسون Charles Ferguson (١٩٧١) أن بعض مظاهر لغة الرُضَّع قد تكون شمولية ، لو قورنت بالحديث العادى. ومن هذه المظاهر عدم وجود فعل الكينونة (الذى يقوم بوظيفة الوصل) (copula-be) فى التراكيب ، التى تتضمن هذا الفعل بصفة عادية مثل (Mummy tired) .

ولعل أغرب الاختلافات التى قام الدارسون بدراستها ، تلك الاختلافات الموجودة بين هنود النوتكا Notka فى جزيرة فانكوفر (سابير Sapir ١٩١٥) ، فلغة النوتكا تتضمن صيغاً معينة للكلمات التى لا تُستخدم إلاّ عند توجيه الحديث إلى ذوى العاهات والمعوقين ، (وخاصة الأطفال ، الذين يتّسمون بالبدانة الشديدة ، أو البالغين الذين يتّسمون بقصر القامة ، والذين يعانون من عيوب فى النظر أو الأحادب

والعرجان والعسران والمطهرون) فمثلاً ، فى حالة التحدث إلى مَنْ يعانى من الحوَل ، تضاف لاحقة لكل الأفعال وتتحول كل حروف (الصفير) sibilant مثل الـ ([s] والـ [c]) إلى أصوات جانبية مهموسة (مثل صوت لهجة ويلز الذى يكتب (ii)) .

٤-٢-٢ القوة والتضامن :

ويعكس الكلام غالباً العلاقات الاجتماعية بين المتحدث والمتلقى ، وخاصة علاقات القوة power والتضامن solidarity المتجلية فى هذه العلاقة . (وقد قدّم عالم النفس الاجتماعى روجر براون هذه المصطلحات والمفاهيم لمجال علم اللغة الاجتماعى - انظر براون وفورد Brown & Ford ١٩٦١ وبراون وجيلمان Brown & Gilman ١٩٦٠) ، وتعد هذه الأبحاث أهم ما كُتِبَ عن الشواهد اللغوية التى تدل على العلاقات الاجتماعية Linguistic markers of social relation ومن السهل تفسير « القوة » ، ولكن من الصعب أن نعرف ماذا نعنى « بالتضامن » . ويختص «التضامن» بالمسافة الاجتماعية بين الناس ، وبتجاربهم الاجتماعية وخصائصهم الاجتماعية المشتركة (مثل الديانة والجنس والسن ومسقط الرأس والعِرق والمهنة والاهتمامات ، إلخ) ، ومدى استعدادهم للمشاركة فى مسائلهم الشخصية إلخ .

فبالنسبة للمتحدث الإنكليزى ، مثلاً ، فإن أوضح الشواهد اللغوية والدالة على العلاقات الاجتماعية بين الناس ، استخدام الأسماء الشخصية مثل جون والسيد براون Mr. Brown ، فلكل فرد عدد من الأسماء المختلفة يمكن مخاطبته بها ، منها اسمه الأول واسم العائلة واللقب إذا وُجِدَ مثل (Professor أو Mr.) . وينبغى علينا أنتفحص صيغتين فحسب من هذه الأسماء ، هما صيغة الاسم وحده مثل John وصيغة اللقب التى يتبعها اسم الأسرة مثل Mr. Brown ، كيف إذن يقرر الفرد مخاطبة John Brown سواء بصيغة الاسم John أو بصيغة اللقب واسم الأسرة Mr. Brown ؟ ترتبط الإجابة عن هذا السؤال بكل من عاملى القوة والتضامن ، كما قال براون وفورد Brown & Ford فى دراستهما الخاصة باستخدام الطبقة المتوسطة للأسماء فى

أمريكا. ومرة أخرى ، علينا أن نعود لذكر فوائد استخدام مفهوم «النموذج الأصل»، ذلك أننا نستطيع تحديد موقفين نموذجيين تُستخدم فى كل منهما صيغة الاسم John أو صيغة اللقب واسم الأسرة Mr. Brown على حدة ، ويمكننا بعد ذلك ربط المواقف الأخرى بهذين الموقفين . ويُستخدم اسم جون عندما يكون هناك قدر كبير من التضامن بين المتحدث وجون براون ، وعندما يكون جون أقل من حيث « القوة » من المتحدث، أو بعبارة أخرى عندما يكون جون براون من **مرؤوسى المتحدث الأقربين** Close subordinate ، ومن الأمثلة الواضحة على ذلك أن يكون جون براون ابناً للمتحدث . ومن ناحية أخرى، يعد استخدام صيغة **السيد براون** مرهوناً بوجود قدر قليل من التضامن ، أى عندما يكون جون براون أكثر « قوة » من المتحدث ، أى إذا كان رئيساً أبعد كأن يكون مدير الشركة أو الناظر ، أى أن المتحدث لا يعرفه عن كثب . ويبدو أنه من المستبعد أن يكون هناك أى خلاف بين المتحدثين الإنكليز على الاستخدام المناسب للأسماء فى كل من هذين الموقفين .

ولكن يبدو أن هناك قدراً أقل من الاتفاق أو اليقين حول استخدام الأسماء المناسبة فى المواقف التى قد تقع بين هذين الموقفين . فبماذا يخاطب الفرد **رئيساً أقرب** مثلاً ؟ فعند انضمام طلاب جدد إلى جامعة بريطانية ، يبدأون بصفة عامة بمخاطبة رئيس القسم بلقب الأستاذ فلان Professor X لأنه رئيس بعيد ، ولكنهم بمرور الوقت وتدريجياً يتعرّفون عليه من خلال محاضراته ومن خلال الاتصال المباشر غير الرسمى ، ويشعرون أنهم يعرفونه جيداً . والسؤال الآن هو : متى وكيف يبدأون بمخاطبته باسمه الأول . يحسم رئيس القسم ، ذاته ، هذه المشكلة فى بعض الأحيان، إذ ينّبه على طلبته فى يومهم الأول بأن عليهم أن ينادوه ويخاطبوه باسمه الأول، ولكن يحدث فى معظم الأحيان وفى أماكن كثيرة أخرى أن يُترك الطالب ليقرر بنفسه المدى الذى وصلت إليه درجة التضامن بينه وبين الأستاذ إلى حدٍ يسمح له بمخاطبته باسمه الأول، ويختلف الطلاب فى المدى الزمنى الذى يقررون فيه ذلك ، فبعضهم يأخذ من الوقت ثلاثة أعوام أو أكثر ، وبعضهم الآخر يفعل ذلك بعد يومين أو ثلاثة ومن الواضح أن تفسير هذه الاختلافات الفردية مسألة معقدة للغاية لأنه يتطلب إلماما

بالمكونات الخاصة بشخصية الطالب والمعايير المتواضع عليها. ولكن لا ينبغي لهذه الاختلافات أن تؤثر على اتفاق الجميع، فهناك نقطة معينة على متواصل التضامن يصبح الوقت عندها مناسبا لاستخدام الإسم الأول.

ومن ميزات استخدام هذا الاسلوب لإظهار درجة القوة والتضامن أنه يمكن تجنب مثل هذه المشكلات إذا لم نستخدم أى اسم لمخاطبة شخص بعينه. ولكن هناك لغات أخرى تستخدم اساليب مختلفة شاهدا على علاقات القوة والتضامن، وهذه الأدوات أقل مقدرة على تجنب هذه المشكلات (كما سنرى فى ٤-٢-٣)، ومنها على سبيل المثال استخدام ضمائر المخاطبة فى اللغة الفرنسية مثل vous و tu ، فكلاهما يعني «انت» وكلاهما مفرد بالرغم من أن vous تستخدم للجمع. أما المعايير المتعارف عليها والمستخدمة فى تفضيل واحدة على الأخرى فى حالة استخدامها لمخاطبة «المفرد» فهى نفس المعايير المستخدمة للاختيار بين الإسم الأول وبين اللقب واسم الأسرة فى اللغة الإنجليزية فـ tu تستخدم نموذجيا عند مخاطبة « مرؤوس أقرب » وتستخدم vous عند مخاطبة رئيس أبعد، ويمكن قياس المواقف الأخرى على هذين الموقفين. ولكن من الصعب، على عكس الأمر فى اللغة الإنجليزية، تجنب مشكلات الاختيار بين الصيغتين فى اللغة الفرنسية، ولذلك لابد من عدم ذكر اسم المخاطب أو الدلالة عليه اطلاقاً إن شئنا تجنب مثل هذه المشكلات.

وقد اوضحت دراسات براون وجيلمان أن هناك تغييرات كثيرة حدثت مع مرور الزمن فى المعايير المتحكمة فى الضمائر الفرنسية المشتقة اصلا من الضمائر اللاتينية حيث كان التمييز بين هذه الضمائر يعتمد فقط على عدد من المخاطبين (« أنت » tu للمفرد و vos للجمع). ولعدد من الاسباب التاريخية بالغة التعقيد تغيرت «vos» واصبحت هى ومشتقاتها تستخدم للدلالة على شخص ذى مرتبة أو قوة أكبر من قوة المتحدث ومرتبته (وخاصة الإمبراطور) وذلك دون وضع عنصر التضامن في الاعتبار، ولكن بمرور الوقت اصبح التضامن أكثر أهمية حتى أصبح فى الوقت الراهن هو العنصر المحدد لاستخدام أى من الصيغتين. فعلى سبيل المثال كان من المعتاد حتى وقت قريب أن يخاطب الاطفال الفرنسيون أباهم بصيغة vous اعترافا بقوته ومرتبته

الاجتماعية، ولكن أصبح عاديا الآن أن يخاطبوه بصيغة tu بسبب ذلك القدر الكبير من التضامن. وقد حدثت تغييرات كثيرة مشابهة فى كثير من لغات غرب اوروبا مثل الألمانية والإيطالية (براون وجيلمان ١٩٦٠) والروسية أيضاً (فريدريخ Freidrich ١٩٧٢). (ومن الملاحظ أن استخدام صيغتين مختلفتين لضمير المفرد المُخاطَب من أجل اظهار القوة أو التضامن هو أحد الملامح الجغرافية areal feature لأوروبا ، مثل الملامح السابقة الذكر فى ٢ - ٣ - ٤ ، ذلك أنه ظاهرة غير موجودة فى اللغة اللاتينية واللغات المُستخدَمة فى دول غرب أوروبا منذ ألفى عام ، ولكنها ظاهرة موجودة فى اللغات غير « الهندو - أوروبى » ، مثل اللغة المجرية (هولوس ١٩٧٧ Hollos) ، ويمكن متابعة هذه الظاهرة شرقاً إلى الشرق الأدنى حتى اللغة الفارسية (جاهانجيرى Jahangiri فى طور الإعداد ، وبراون وليفينسون Brown & Levinson ١٩٧٨) وتعد هذه التغيرات تغيرات هامة لأنها قد تلقى ضوءاً على «النماذج الأصول» ، كاشفة أن عملية التغيير قد تؤثر على هذه «النماذج الأصول» ذاتها (بحيث يصبح التضامن تدريجياً أحد خصائصها المميزة) أو قد تتجاوزها (كما هو الحال بالنسبة للتغيرات التى طرأت على التوازن الدقيق الموجود بين القوة والتضامن ، والذى يحسم الحالات الوسيطة بينهما).

لسنا فى حاجة إلى القول ، أنه ليس من الصعب الربط بين درجة التغيرات فى الأهمية النسبية لعاملى القوة والتضامن كعاملين محددين لاختيار الضمائر وبين التغيرات الجارية والموازية لها فى البُنية الاجتماعية ، وقد قام بعض الكتّاب الذين سبق ذكرهم بتحديد ذلك . ومن الأمثلة الرائعة على ذلك استخدام الضمائر الإيطالية (وهى tu « أنت » وتُستخدم للمرؤوسين الأقربين اجتماعياً ، و Lei وتُستخدم لِمَنْ هم أرفع مقاماً أو رؤساء أبعدين) . وقد اتضح من بعض الدراسات ، استخدام الطبقات الوسطى والدُنيا فى روما (بيتسى وبنيننى ١٩٧٥ Bates & Benigin) لهذه الضمائر بهذه الطريقة ، ومن الغريب أن معظم الذين يستخدمون Lei هم من الشباب الذكور الذين ينتمون للطبقة الدُنيا ، وهم أول مَنْ نتوقع أن يكونوا أكثر استعداداً لتوسيع استخدام الضمير ذى السمة الديموقراطية tu ، وقد شملتْ تلك الدراسة أيضاً

المتحدثين الأكبر والأصغر سناً من كِلتا الطبقتين ، واتضح أن شباب الطبقة الدُنيا يميلون إلى استخدام Lei أكثر ممن يكبرونهم سناً ، على عكس شباب الطبقة المتوسطة الذين يستخدمون هذا الضمير بنسبة تقل عمنْ يكبرونهم سناً من نفس الطبقة . ويرى بيتس وبنيننى فى تأويل نتائج تلك الدراسة ، أن شباب الطبقة المتوسطة يستخدمون ما يعتقدون أنه استخدام أكثر شيوعاً وديموقراطية بين الطبقات الدُنيا ، بينما يعتقد شباب الطبقات الدُنيا أنهم يستخدمون ما يتصورون أنه استخدام شائع وراقٍ بين أفراد الطبقة المتوسطة . ولو استمرت تلك العملية ، فإننا نتوقع أن تستبدل الطبقتان الدُنيا والمتوسطة معاييرهما ، وذلك مما يثير تعجّب كثير من أهل روما . وقد دُرِسَتْ الشواهد اللغوية الخاصة بالتضامن والقوة دراسة كافية ومستفيضة ، مما يحدو إلى اقتراح ظاهرتين لغويتين يحتمل أن تكونا شموليتين . وينبغى علينا أن نتوقع أن كل اللغات لها وسائلها « للدلالة » على الاختلافات الاجتماعية ، التى تدل على أى من التضامن أو القوة أو كليهما . ويمكننا تفسير ذلك بقولنا أن التضامن والقوة من أهم العوامل المؤثرة فى عملية الاتصال الاجتماعى المباشر بين الأفراد . ويمكننا أيضاً أن نقول أنهما تعبّران عن حاجة الفرد لتحديد رؤيته لطبيعة هذه العلاقات . ويبدو أيضاً أن انعكاس هذين العنصرين الاجتماعيين فى نفس المجموعة من الصيغ اللغوية (كما هو الحال فى كل اللغات التى درسناها حتى الآن) ، يثبت لنا أن الصيغ التى تعبّر عن درجة كبيرة من التضامن ، هى التى تعبّر أيضاً عن قدرٍ أكبر من القوة من جانب المتحدث والعكس صحيح أيضاً . وقد تكون «النماذج الأصول» التى قمنا بتحديدها فى اللغة الإنكليزية نماذج شمولية . ويرى براون وفورد (١٩٦١) أن العلاقة بين القوة والتضامن علاقة شمولية ، حيث تشير كِلتاهما إلى أن ذوى المكانة الاجتماعية الأعلى هم الذين يحددون متى تصبح درجة التضامن كافية لاستخدام الصيغ المعبّرة عنها (كما رأينا فى حالة الطالب وعلاقته برئيس قسمه) ، ولذلك فَمِنَ المحتمل أن يكون الشخص ذو المكانة الاجتماعية الأعلى ، هو الذى يستخدم أولاً صيغة المخاطبة الأكثر تضامناً ، ومن هنا تنشأ علاقة أقوى من التضامن وينشأ استخدامها مع مَنْ هم أدنى درجة .

٤-٢-٣ الشواهد اللغوية على القوة والتضامن

: Lingusitc signals of power & solidarity

ويمكننا أن نعتبر أن الشواهد اللغوية الرئيسة التى تدل على التضامن والقوة فى اللغة الإنكليزية نسق جانبى فى نظام اللغة الإنكليزية ، أى أن أسماء الأعلام المستخدمة للنداء والمخاطبة (أو بعبارة أخرى لمخاطبة ما) يمكن التعامل معها فى جزء منفصل من النحو ، دون المساس بأىٍّ أجزاء أخرى من النظام النحوى للغة ، (والحقيقة كما سنرى فيما بعد أن الأمر ليس بهذه البساطة حتى فى اللغة الإنكليزية). وقد يتصوّرالقراء الإنكليز الذين يتحدثون بالإنكليزية أن الأمر كذلك بالنسبة لكل اللغات الأخرى ، ولكن ذلك ليس صحيحاً . فَمِنَ المألوف أن يكون التعارض بين القوة والتضامن هاماً للغاية ، وأن يرتبط إرتباطاً وثيقاً بالنحو فى اللغات الأخرى فى جوانب عديدة . وفيما يلى ، عرض موجز لأكثر شواهد القوة والتضامن شيوعاً (وسنستخدم مصطلح القوة والتضامن للدلالة على هذا التعارض بهدف التبسيط ، دون أن نعنى ضمنياً بذلك أن كلاً منهما يؤدى على حدة نفس الوظيفة وبنفس الدرجة فى جميع الحالات) . وسنجد دراسة وافية لذلك فى براون وليفنسون Brown & Levinson (١٩٧٨) .

وسنبدأ هذا العرض بالنوع المألوف من الشواهد فى اللغتين الإنكليزية والفرنسية ، حيث تشير الوحدات اللغوية ذات الأهمية (أى التى تتباين صيغها نتيجة لعلاقات القوة والتضامن) إلى الـمُخاطَب . وتشمل هذه الوحدات فى اللغة الإنكليزية أسماء الاعلام ، بينما تتضمن الضمير الـمُخاطَب « أنت » فى اللغة الفرنسية . أما فى اللغات الأخرى ، فتتضمن هذه الوحدات الهامة أشباه الجمل الاسمية العادية noun phrases التى تُصاغ حول الأسماء الشائعة common noun عند استخدامها فى حالة المخاطبة . ويذكر ميتشل Mitchell (١٩٧٥ : ١٥٩) على سبيل المثال ، أن هناك استخداماً شائعاً فى الجماعات الإسلامية حيث « يدلل الأكبر سناً الأصغر باستخدام نفس الصيغ التى يجب أن يستخدمها الأصغر لمخاطبة

الأكبر . ولذلك ، يمكن للأُم فى لغة البربر (المستخدمة فى شمال أفريقيا) أن تستخدم صيغة « يمّه » لمناداة ومخاطبة ابنها ، وتستخدم نفس الصيغة فى سياق آخر لتعنى «يا أُمى» . (نعتقد فى هذه الحالة أن التدليل أو المخاطبة العاطفية تعد نوعاً خاصاً من التضامن) . ولكن هناك مواقف أخرى مشابهة فى اللغات الأخرى تُستخدم فيها أشباه الجمل الاسمية ، والتى يمكن ترجمتها حرفياً بـ « خادمك يا سيدى / / إننى فى خدمتك / طوع بنانك ، إلخ » ، للدلالة على المتحدث . ومن هذه اللغات ، اللغة الفارسية (جاهانجيرى ، مازال فى طور الإعداد) ، حيث تُستخدم مجموعة من أشباه الجمل الاسمية لتبجيل المتلقى ، ولذلك يمكن تحديد علاقات القوة بين المتحدث والمتلقى عن طريق أشباه الجمل الاسمية المستخدمة بينهما ، ونستطيع أن نخمّن أن اللغات الأخرى التى لديها وسائل أخرى للدلالة على علاقات القوة والتضامن ، لابد أن يكون لديها صيغ بعينها للدلالة على المتلقى وربما على المتحدث أيضاً .

وفى لغات أخرى ، مثل اللغتين اليابانية والكورية ، هناك علاقة مباشرة بين القوة - والتضامن وبين الصيغ الفعلية verb-form المستخدمة . وحيث إننا لا نستطيع الكلام دون استخدام الأفعال ، فَمِنَ الضرورى أن يعكس الكلام هذه العلاقات. ويوجد فى اللغة الكورية ما لا يقل عن ست لواحق متباينة تعكس مختلف علاقات القوة والتضامن بين المتحدث والمتلقى ، ولابد للفعل من أن يتضمن إحدى هذه اللواحق (مارتين ١٩٦٤ Martin) . ومن الطريف أنه يمكن تقسيم هذه اللواحق الست إلى مجموعتين تعكس ثلاث منها درجات مختلفة من التضامن الإيجابى (عادى ووثيق ومألوف) ، بينما تعكس الثلاث الأخرى علاقات قوة مختلفة بين الذين يرتبطون بعلاقات تضامن غير قوية (« مهذّب » و « متسلّط » و « مهتم ») . وبعبارة أخرى ، فإن لشواهد علاقات التضامن فى اللغة الكورية ، كما هو الحال فى الإنكليزية والفرنسية ، أسبقية على علاقات القوة ، وذلك فى إطار الشواهد اللغوية الدالة على القوة والتضامن . (وليس ذلك هو الحال دائماً كما قد نكتشف من الموقف الذى يصفه لنا هيل وهيل ١٩٧٨ Hill & Hill بين الناهوتال Nahuatl فى المكسيك، حيث تتفوق علاقات القوة على أوثق علاقات التضامن بالنسبة للمخاطب

المسن). وتعد الأفعال أيضاً من شواهد القوة والتضامن فى اللغة الفارسية، ولكن لابد من تغيير شكل الفعل بإضافة الصيّغ الصرفية، ويمكن الاشارة إلى ذلك باختيار وحدات معجمية مختلفة ذات دلالة واحدة (مثل الاختيار بين attempt و try فى اللغة الإنكليزية) . ولكن هذه الاختيارات اللغوية تحددها علاقات القوة والتضامن بين المتحدث والفاعل فى التركيب اللغوى ، ولذلك فإن الفعل لن يكشف عن علاقات القوة والتضامن بين المتحدث والمتلقى ، إلاّ إذا كان المتلقى هو « فاعل » الجملة . (وعلاوة على ذلك ، فلو كان للفعل مفعول به ، فإن صيغة المفعول هى التى تعكس علاقات القوة والتضامن بين الفاعل والمفعول به ، لا بين الفاعل والمتحدث) .

والنوع الثالث من الشواهد اللغوية ، الدالة على علاقات القوة والتضامن هو **مستوى المفردات** vocabulary level . ومن الأمثلة المناسبة على ذلك ، اللغة الجافينيزية Javanese (جيرتز Geertz ١٩٦٠) ، وتقدم لنا هذه اللغة عدداً من الصيغ البديلة المدرجة فى معجم المفردات لكل منها عدد كبير من المعانى ، ولكن هذه البدائل لا تقتصر على الأفعال (وأشباه الجمل الاسمية التى تدل على المتحدث والمتلقى) ، كما هو الحال فى اللغة الفارسية ، ولكنها تؤثر على كل أجزاء الكلام Parts of Speech . ويعطينا جيرتز ، على سبيل المثال ، كل الصيغ التعبيرية البديلة للجملة الجافينزية « هل ستأكل أرزاً وكاسافا الآن ؟ » (يمكن ترجمتها بالإنكليزية كلمة بكلمة) ، ويتضح لنا من ذلك أن هناك كلمتين أو ثلاث كلمات فى اللغة الجافينزية لكل كلمة إنكليزية ما عدا كلمة **كاسافا** . ويزعم جيرتز أن هناك قواعد محددة للكلمات التى يمكن أن تتواءم معاً فى نفس الجملة ، وهو يحدد ستة مستويات أسلوبية ، يتحدد كل منها بمجموعة معيّنة من المفردات ، حتى أن أية جملة يمكن أن تنتمى لمستوى أسلوبى واحد فقط . ويبدو أن وظيفة « مستويات الأسلوب » هى تحديد علاقات القوة والتضامن بين المتحدث والمتلقى ، وخاصة لإقامة جدار من الرسمية السلوكية يحمى حياة المتلقى الداخلية الخاصة (على حد قول جيرتز). وكلما ارتقى مستوى الأسلوب، زاد عدد الجدران لحماية المتلقى من أية محاولة للتدخل فى خصوصيات حياته .

وهناك نقطة أخيرة وهامة عن الشواهد اللغوية الدالة على القوة والتضامن ، وخاصة أن هذه الشواهد لا تقتصر على تحديد علاقات القوة والتضامن ، بين المتحدث والمتلقى ولكنها أيضاً تحدد هذه العلاقة بين المتحدث وأى كيان آخر غير المتلقى . ومن الأمثلة الواضحة على ذلك فى اللغة الإنكليزية ، استخدام الأسماء الشخصية والتى سبق أن ذكرنا استخدامها كأسماء مخاطَبة (كما فى **بعد إذنك يا جون / يا سيد براون ..**) . ويمكن استخدام نفس المجموعة من الكلمات للدلالة على جون براون ، عندما لا يكون هو المتلقى ، وتتحكّم نفس المجموعة من القواعد فى اختيار صيغة المخاطَبة المناسبة . وعلى ذلك ، لو نظر المتكلّم إليه على أنه تابع أقرب close subordinate ، فسيشير إليه مستخدماً صيغة جون، (مثلاً ، **لقد رأيت جون أمس**) ، بينما سيشير إليه بصيغة السيد براون Mr. Brown إذا كان يعتبره **رئيساً أعلى** ، وسيكون الأمر مربكاً لو كان المُشار إليه شخصاً يقع فى منطقة وسط بين المنطقتين .

ومن الواضح أن مشكلة المفاضلة بين الصيغ المتاحة تكون أقل حدة إذا لم يكن الشخص المقصود حاضراً أثناء الحديث ، ومن الطريف أن الصيغ المستخدمة فى لغة الناهوتال Nahuatl للاشارة لشخص غير حاضر ، تكون أقل احتراماً من الصيغ المستخدمة للاشارة إليه إذا كان حاضراً . (هيل وهيل ١٩٧٨ Hill & Hill) . ويبدو أنه من المستحيل أن يكون العكس صحيحاً بالنسبة لأية لغة من اللغات .

وهذه نقطة هامة ، تظهر أن علاقات القوة والتضامن بين المتحدث والمتلقى يمكن اعتبارها حالة خاصة لظاهرة أكثر عموماً ، وتختص هذه الظاهرة بعلاقات القوة والتضامن بين المتحدث والعالم بأسره . ويبدو أن اللغة تدفعنا ، بل تجبرنا ، بصفة دائمة على تحديد علاقتنا مع ما نتحدث عنه . فإذا تحدّثنا عن فردٍ بعينه فعلينا أن نحدد أنفسنا بالنسبة إليه من ناحية علاقات القوة والتضامن . وإذا كنّا نتحدث عن شىء بعينه فينبغى علينا أن ننتقى كلماتنا بشكل يعكس علاقاتنا مع صاحب هذا الشىء (كما يحدث فى اللغتين الجافينزية Javanese والناهوتال Nahuatl) . ولذلك يمكننا أن ننظر إلى الشواهد اللغوية الدالة على القوة والتضامن على أنها نموذج آخر لكيفية

تحديد المتحدث لمكانته الاجتماعية فى العالم الاجتماعى (انظر ٢ - ٦) .

٤ - ٣ بُنية الكلام The structure of speech :

٤ - ٣ - ١ الدخول والخروج Entries and exits :

عندما يمكننا التعرف على أنماط متكررة بشكل منتظم فى أى نوع من أنواع السلوك وتحديدها ، نستطيع عندئذ القول بأن هذا السلوك ذو بُنية خاصة . وغالباً ما تنعكس هذه البُنية فى تلك الأنماط ، وليس من الصعب إثبات أن الكلام ذو بُنية خاصة، حيث إن الاجروميات والمعاجم ممتلئة بالأنماط المتكررة من المفردات والجمل ، وما إلى ذلك . ويبدو أن هذه الأنماط المتكررة المصغّرة فى نطاق التركيب الواحد ، ليست سوى جزء بسيط من البُنية الكاملة ، حيث إننا نستطيع التعرف على أنماط أكبر حجماً وأكثر شمولاً مثل النمط المكون من سؤال وجواب . ويمكننا أيضاً التعرف على أنماطٍ أكبر حجماً من السابقة مثل قطعة من الحديث بين فردين تبدأ بتحية متعارَف عليها وتنتهى بوداعٍ محدَد . ولكن المشكلة الحقيقية تكمن فى التعرف على البُنية التدريجية ، التى يمكن تحديدها فيما هو أكبر من الجملة (أى الخطاب) . وسنعود لهذا السؤال فى الجزء التالى بعد أن نلقى نظرة أولى على صيغ التحية والوداع ، وهى تمثّل أوضح الأمثلة على بُنية الكلام .

ومن الطبيعى أن نفترض أن كل لغة تشمل مجموعة من الصيغ تُستخدَم للتحية ومجموعة أخرى تُستخدَم للوداع ، وذلك لأهمية الدخول entries فى الاتصال والخروج exit (وقد أُستعيرتْ مصطلحات « الدخول » و « الخروج » من مصطلحات المسرح (وتعكس حقيقة ما يُقال من أن دراسة معايير الكلام العادية ، يمكن مقارنتها بأدوار الممثلين على المسرح) . ويرى إرفينج جوفمان Erving Goffman رائد أبحاث « عمل الوجه » Face-work (انظر ٤ - ١ - ٤) ، أن التحية ضرورية لتبيّن للطرفين أن العلاقة القائمة وقت انتهاء المقابلة السابقة لم تتغيّر بعد ، بالرغم من فترة

الانفصال ، وأن الوداع ضرورى كذلك لتحديد تأثير المقابلة الحالية على العلاقة، وللكشف عمّا يمكن أن يتوقعه الطرفان عند لقائهم القادم (جوفمان Goffman ١٩٥٥) . وقد نكتشف من كل ذلك أهمية العلاقة بين المشتركين participants فى أية عملية اتصالية ، ومن السهل علينا أن نرى أهمية أن يبدأ كل جزء من عملية الاتصال وينتهى كذلك بالاشارة إلى العلاقة التى تربط بينهم . فبعد أن يكون المشتركون قد حددوا علاقتهم المتبادلة عن طريق التحية ، يمكن لهم أن يبدأوا فى المهمة التى ينبغى لهم أن يقوموا بها ، والتى قد لا تتعدى خمس دقائق من الحديث عبر سور الحديقة ، دون أن يلقوا بالاً أكثر مما يريدون للمحافظة على علاقتهم . وغالباً ما يكون الوداع فى نهاية العمل أو المهمة نوعاً من إعادة التأكيد بأن علاقتهم لم تتغيّر . وعلى ذلك ، يمكننا أن ننظر بطريقة مبسّطة للغاية إلى بُنية أية قطعة من الاتصال أو التواصل على أنها تتكون من ثلاثة أجزاء هى :

التحية - المهمة أو « العمل » - الوداع

وقد تختلف التحية والوداع اللتان سبق تعريفهما وظيفياً اختلافاً شديداً من حيث تعبيرهما عن الإخلاص والإبداع . وإذا نظرنا إلى جانب الإخلاص ، فيجب علينا أن نميّز ، أولاً ، بين التحية التى تتضمن قضية propositional greeting (مثل ما أجمل أن ألقاك ؛ How nice to see you) ، والتحية التى لا تتضمن قضية (مثلا **أهلاً** Hello) . والتحية التى تتضمن قضية هى التى يمكن أن نصفها بأنها غير مخلصة ، بالرغم من أن التحية التى لا تتضمن قضية non-propositional greeting قد تصحبها مشاعر ، (ويعبّر عنها بصفة خاصة من خلال التنغيم والنبرة) لا يقصدها المتحدث بالفعل . ويمكننا تطبيق مثل هذا التمييز أيضاً على أنواع الوداع. وعلى ذلك، فإن التحية التى لا تتضمن قضية غالباً ما تكون محايدة وموجزة فهى مجرد تسليم بأن المقابلة (أى الاتصال) قد بدأت . وإذا سلمنا بوجود هذه التحية المحايدة ، فإننا قد نتعجّب ، إذن ، لماذا يستخدم الناس النوع الذى يتضمن قضية دون أن يقصدوا ما يتضمنه . ولكن تفسير ذلك ليس بالأمر العسير . فالناس يحددون سلوكهم الاجتماعى بناء على نوع من التنازل أو التوفيق بين ما يشعرون به بالفعل،

وما يعرفون أنه متوقع منهم ، حتى يحافظوا على صورتهم لدى الآخرين دون تكلف . وعلى ذلك ، فلو كان الفرد (أ) ، مثلاً ، غير مسرور عند رؤية (ب) ، فليس من المعقول أن يقول له ذلك عند تحيته . ذلك أن من مصلحة (أ) أن يجعل (ب) يحبه، وسيكون (ب) أكثر استعداداً لأن يحب (أ) لو تصور أن (أ) يحبه . ولذلك ، فَمِنَ السهل نسبياً أن نكون غير مخلصين عند التحية أو الوداع فى أية مقابلة ، لأن هذه هى المراحل التى يكون المرء فيها أقرب إلى الممثل الذى يردد دوره المحفوظ على المسرح .

وتختلف التحيات فى درجة الإبداع الشخصى التى تعكسها ، فالتحية التى لا تتضمن قضية هى أقل أنواع التحية من حيث درجة الابداع . ومن المهم أن نعرف أنه يمكن استخدام عدد كبير من الصيغ والعبارات الجديدة غير عبارات التحية والوداع المعروفة والمحفوظة ، وذلك مثل **ألستَ صديقى فلان؟ يا لها من فرصة سعيدة** Well, if it isn't my friend X ! **أو ألم نتقابل فى مكانٍ ما من قبل؟** Haven't we met somewhere before وتعد مثل هذه العبارات أنواعاً من صيغ التحية ، بالرغم من أنها بعيدة عن صيغ التحية المحددة والمعروفة. والمهم هو إدراك المخاطب للتحية على أنها كذلك، حتى يدرك أن مقابلة جديدة قد بدأت . وقد يعنى ذلك فى بعض المجتمعات التمسك بقائمة من صيغ التحية المحددة ، ومنها التحيات التى تتضمن القضية التى سبق أن ذكرنا منها مثلين ، بينما قد يعنى ذلك فى مجتمعاتٍ أخرى استخدام عبارات من نوعٍ معين، مثل السؤال عن أين كان المخاطَب ، أو السؤال عن صحة أفراد أسرته واحداً تلو الآخر .

ما الذى يحدد إذن صيغة التحية أو الوداع ؟ من الواضح أن الإجابة على هذا السؤال تختلف من مجتمعٍ لآخر ، ومن لغةٍ لأخرى ، ولكنَّ هناك أنماطاً عامة واضحة (انظر فرجسون ١٩٧٦ Ferguson) . ومن الأمثلة على تلك الأنماط ، أن حجم التحية غالباً ما يتناسب مع طول الوقت الذى مضى منذ اللقاء الأخير (فتحية صديق لقيته لأول مرة منذ عشر سنوات ستكون أطول بالطبع من تحية صديق رأيته بالأمس) ، ويتناسب حجم التحية أيضاً مع أهمية العلاقة (أعنى أنك ستحيي الصديق الحميم

بحرارة وإخلاص أكثر مما تحيي مجرد شخص تعرفه معرفة عابرة) . وقد يقودنا تفسير جوفمان لدور التحية إلى تصور أن التحية ستكون موجزة للغاية أو حتى منعدمة إذا التقينا بشخص لأول مرة ، ويبدو أن ذلك صحيح : لاحظ انعدام التحية عندما نقترب من شخص غريب بغية الحصول على معلومات معينة . ونستطيع أن نتنبأ (وغالباً ما سيكون هذا التنبؤ صحيحاً) ، أن التحية تكون طويلة عندما تكون العلاقات بين المشتركين غير أكيدة ، ولذلك فهم يحتاجون إلى قدر من إعادة تأكيد العلاقات .

ويبدو أن توقعات جوفمان تعتمد أساساً على الأسلوب الأمريكى فى السلوك الاجتماعى ، لأن هناك على أقل تقدير مجتمعاً واحداً لا تنطبق عليه ملاحظاته ، وهم هنود الأباشى الذين قام ك . هـ . باسو K.H.Basso بدراستهم (١٩٧٠) . فبدلاً من استخدام صيغ التحية لتأكيد استمرار العلاقة على ما كانت عليه قبل الانفصال الأخير ، ينتظر هنود الأباشى حتى يتأكدوا أن العلاقات لم تتغيّر قبل أن يبدأوا فى الكلام ، وخاصة فى الحالات التى قد يكون لديهم فيها ما يدفعهم على الاعتقاد بأن العلاقة قد تغيّرت ، كما يحدث عندما يعود الأطفال بعد أن يمضوا عاماً فى مدرسة داخلية . وبينما يبدأ كثير من الأمريكيين والبريطانيين فى الثرثرة مع أطفالهم فور مغادرتهم لحافلة المدرسة ، فإن هنود الأباشى ينتظرون مدة خمس عشرة دقيقة دون أن ينبسوا بكلمة ، محاولين تقييم آثار عام مدرسى كامل على سلوك أطفالهم . ومعنى ذلك أن الأباشى لا يستخدمون صيغ التحية بالطريقة التى يتوقعها جوفمان ، ولكن سلوكهم يؤيد وجهة نظره القائلة بأن الناس لابد أن يعرفوا كيف يشعرون إزاء الآخرين قبل أن يبدأوا بالكلام .

٤ - ٣ - ٢ أنواع أخرى من البُنية فى الكلام :

أُجريتْ فى الحقبة الأخيرة أبحاث كثيرة على ما يُطلق عليه بُنية النصّ أو «الخطاب» Discourse Structure فى الكلام ، أعنى بُنية الكلام فيما يزيد عن تحليل التركيب الواحد (انظر كولتهارد Coulthard ١٩٧٥ ، ١٩٧٧ الذى قدَّم

عرضين وافيين) . ومن الواضح أن هناك أنواعاً من البُنى المختلفة ، التى تربط بين التراكيب وتحولّها إلى نصوص مترابطة منطقياً coherent ، ولكن الإطار النظرى الخاص بتحليل هذه الأنماط المترابطة ترابطاً منطقياً غير متوفر فى الوقت الحالى . ولعل أهم ما يتّضح عن حقيقة بُنية « الخطابية » ، هو وجود عديد من البُنى المتنوعة فى الخطاب ، وأية محاولة لتحويل هذه الأبنية المتنوعة إلى بناء واحد محاولة محكوم عليها بالفشل .

وتعتمد إحدى هذه البُنى على حقيقة أن الناس **يتناوبون** take turns عند الكلام ، وذلك فى غالبية أنواع الاتصال لدرجة أن الخطاب يمكن تقسيمه إلى أجزاء مفصّلة من الكلام يتناوبها أو يشترك فيها كل المتحدثين . وفى دراسة هذا الجانب من «الخطاب» discourse ، علينا أن نطرح أسئلة خاصة بنوعية هذه **الأدوار** turns ، فهل يتناوب المتحدثون أدوارهم أَم أن هذه الأدوار تتشابك وتتطابق مع بعضها البعض؟ وكيف يوضّح المتحدث أنه على وشك الانتهاء من الكلام ؟ وكيف يوضّح المتلقون أنهم على وشك أن يبدأوا فى الكلام ؟ ومن يحدد مَنْ الذى سيتكلّم فى الدور التالى ؟ ومَنْ يقوم بمعظم الكلام ؟ مَنْ يتحدّث مع مَنْ ؟ .. إلخ . وقد أجرى علماء النفس الاجتماعى المهتمون أساساً « بدينامية الجماعة » group dynamics معظم دراساتهم فى مجال الأبحاث الخطابية (انظر مجموعة مختارة من الأبحاث فى أرجيل Argyle ١٩٧٣) ، وقد اتضح من هذه الأبحاث والدراسات أن التناوب فى الكلام turn-taking نوع من النشاط غاية فى المهارة . وكما سنرى ، فإن هذا النشاط يتطلب دراسة أنواع عديدة من السلوك بالإضافة للكلام (مثل حركة العينين eye-movements) ، حيث تكون هذه الأنشطة كلها متناسقة ومتزامنة من ناحية التوقيت الدقيق ، كما تكون ردود أفعال المشتركين غاية فى الدقة والانتظام .

وهناك نوع بعينه من بُنية « التناوب » فى الكلام ، يمكن أن نطلق عليه اسم **الأزواج المتوازية** Adjacency pairs ، وهو نوع من العبارات يطلقه أحد المتحدثين ويتطلّب إجابة بعبارة معيّنة من المتحدث الآخر . ومن أهم أنواع **الأزواج المتوازية** البُنية التى تتكون من سؤال يتلوه جواب ، ولكنَّ هناك أنواعاً كثيرة أخرى

مثل ، تحية + تحية ، وشكوى + اعتذار ، ونداء + رد ، ودعوة + قبول ، إلخ .
وليس من الواضح ما إذا كان هناك أى اختلاف بين الأزواج المتوازية وبين أى نوع آخر من التناوب بين المتحدثين . ولكن ، هناك بعض العبارات تتطلّب بالضرورة رد فعل من المتلقى ، وعدم القيام بالرد المتوقع فى مثل هذه الحالات يعد رد فعل ذا دلالة معينة ، فعلى سبيل المثال ، إذا ألقى (أ) التحية على (ب) ولكن الأخير لم يردها ، فإن ذلك التصرف سيفهمه (أ) على أن (ب) لديه سبب معيَّن لعدم ردّ التحية . ولكن الأنواع الأخرى من العبارات ليست بمثل هذا الوضوح . فغالباً ما يعقب **التحذير** warning نوع من الاستجابة من جانب المتلقى ، حتى ولو كانت هذه الاستجابة مجرد رفع لحاجب العين أو إيماءة من الرأس ، ولكن هذا النوع من إظهار الاستجابة ليس ضرورياً إذا وضح أن المخاطب قد سمع التحذير . وهناك فى الجانب الآخر أنواع أخرى من الكلام ، مثل المحاضرة الجامعية حيث يكون ردّ الفعل من المتلقى محدوداً للغاية . وينبغى علينا أن نذكر أن الدراسات الخاصة بالأزواج المتوازية لم تدرس بعد المشكلات النظرية الخاصة بتحديد أنواع الأزواج المتوازية ، وبدلاً من ذلك ، قامت هذه الدراسات بمناقشة استخدام أنواع من الأزواج ، مثل النداء + الردّ (شيجلوف Schegloff ١٩٦٨) .

وهناك أيضاً نوع آخر من البُنية فى بناء « الخطاب » ، وتعتمد هذه البُنية أولاً وأخيراً على **الموضوع** Topic ، أى موضوع الخطاب ومن الواضح أنه لا توجد علاقة بين « التناوب » فى الحديث والموضوع ، لأن المتحدثين كثيراً ما يغيِّرون الموضوع خلال تناوبهم الأدوار . ومن السهل أن نتصور أن البُنية القائمة على موضوع الخطاب بُنية هرمية hierarchical structure ، أى أننا نستطيع تحليل الخطاب إلى وحدات أصغر فأصغر ، وذلك اعتماداً على بُنية الموضوع فى الخطاب . ويدعم مثل هذا التصور البُنية السائدة فى النصوص المكتوبة التى اعتاد عليها معظم المثقفين (مثل قراء هذا الكتاب) . ويمكن ، على سبيل المثال ، التعرف على البُنية التدريجية التى تعتمد على الموضوع topic فى هذا الكتاب ، فبُنية هرمية واضحة للغاية ، تكون الفصول فيها أكبر الوحدات حجماً ، ثم الأقسام الرئيسة ، ثم الأقسام الثانوية (أعنى القسم

الثانوى الحالى وهو القسم ٤ - ٣ - ٢) ثم الفقرات ، وأخيراً التراكيب . ويحدد كل هذه الوحدات نوع أو آخر من العرف الطباعى والكتابى . وعند فرض هذه البُنية على كتابنا الحالى ، حاولت أن أجعل هذه البُنية تعكس الموضوعات التى يقدمها الكتاب، ولذلك تعد هذه الجملة مثالاً على نوع البُنيـة ، وهى جزء من هذه الفقرة ، التى هى بالتالى جزء من هذا القسم الثانوى الذى يتناول أنواع بُنيـة « الخطاب » ، هذا بالإضافة إلى الدخول والخروج وهما جزءان آخران من هذا القسم الذى يُعالج بُنية الخطاب ، ويعد كل هذا جزءاً من الفصل الخاص بدراسة الكلام باعتباره نوعاً من التعامل الاجتماعى .

وقد ادعى كثير من الباحثين أنهم يستطيعون اكتشاف مثل هذه البُنيـة الهرمية فى أنواع أخرى من الخطاب منها المكتوب والمنطوق . فقد قام جون سينكلير John Sinclair ومالكولم كولتهارد Malcolm Coulthard (١٩٧٥) بتحليل عدد من الأشرطة التى سجل عليها عدد من الحصص الدراسية فى المدارس الثانوية ، واستطاعوا التعرف على « بُنية هرمية الخطاب » hierarchical discourse تبدأ بأكبر «وحدة»، وهى « الحصة » lesson ثم « التعامل » transaction ثم « التبادل » exchange ثم « الحركة » move ثم تأتى فى النهاية « الفعل » act ، الذى يتطابق بالكاد مع الوحدات التركيبية « الجملة الأساسية » clause (انظر كولتهارد Coulthard ١٩٧٥ الذى يقدم عدداً من الاقتراحات الأخرى لتحليل الخطاب تحليلاً هرمياً) . وأيّاً كانت درجة اقتناعنا بهذه المقترحات ، فمن الواضح أنه لا توجد أى بُنية هرمية فى أنواع معينة من الاتصال الاجتماعى ، حيث يتغيَّر الموضوع أو يتبدل تدريجياً إلى موضوع آخر دون تحديد واضح ، فربما يبدأ الحديث مثلاً عن فيلم عن تربية الأغنام فى ويلز، وقد يقودنا ذلك إلى موضوع عن تجربة كلاب رعى الأغنام التى رآها أحدهم فى إجازته، ومن هناك إلى تفاصيل أكثر عن الاجازة ومقارنة بين تلك الاجازة فى ويلز وإجازة أخرى سبق أن أمضاها صاحبها فى يوغسلافيا ، إلخ ... وبالإضافة إلى ذلك ، لا يبدو أن المشتركين فى مثل هذه الأحاديث ، يتبعون خطة واضحة مسبقة لتحديد المسار الذى ستتخذه المحادثة فى النهاية ، الأمر الذى يبدو موجوداً بشكل ضمنى فى إطار فكرة البُنية الهرمية للكلام . ومن ناحية أخرى ، يميل المتحدثون إلى متابعة

الحديث فى نفس الموضوع ، وقد يشعرون بأنهم ملتزمون بإعطاء اشارة خاصة تبيّن أنهم سيغيّرون الموضوع (ومن هذه الإشارات ، مثلاً ، **وبالمناسبة ، أو ذلك الموضوع يذكّرنى بموضوع مختلف تماماً** ..) . ويبدو أن السبب فى ميل المتحدث إلى الكلام فى نفس الموضوع ، أو عدم الابتعاد عن الموضوع الرئيسى إلاّ بشكل تدريجى، هو أن ذلك يزيد من فرص اهتمام المشتركين بما يُقال ، لأنه يزيد من احتمالات فهم المشتركين للخطاب ، لأننا نملك حصيلة ضخمة من المعلومات عن العالم فى أى موضوع، ونستطيع أن نحسن استغلالها كمتحدثين أو متلقين . والمتحدثون الذين يحافظون على موضوع واحد ، يفترضون أن الجميع يعرفون مهاد موضوع الحديث . وعلى سبيل المثال ، إذا كنّا على علم بأننا نتحدث عن الاجازة التى قضاها أحدنا فى العام الماضى ، فإن المتحدث يستطيع أن يقول ببساطة « **لقد كان الطعام مخيباً للآمال** » ، وسنفهم جميعاً أى طعام يقصد (أى الطعام الذى تناوله فى الفندق الذى أقام فيه أثناء إجازته)، ونستطيع أيضاً أن نخمّن المعيار الذى يحكم به على هذا الطعام (أى أنه معيار مختلف عن المعيار الذى يستخدمه الفرد للحكم على الطعام المُقَدم له فى مطعم جامعى ، مثلاً) . وإذا كان موضوع كل جملة يختلف عن موضوع الجملة السابقة لها ، لما أمكننا أن نسلّم بمثل هذه المعلومات . وبإيجاز ، يمكننا القول بأن المحافظة على موضوع واحد يجعل الكلام عملية سهلة بالنسبة للمتحدث والمتلقى . (ومن أجل مناقشة ذكية لهذا النوع من « المعرفة المشتركة » Shared knowledge يمكن للقارىء أن يرجع إلى الأبحاث المتزايدة فى مجال الذكاء الاصطناعى ، وبصفة خاصة شانك وأبلسون ١٩٧٧ Schank & Abelson) .

والخلاصة التى يبدو أننا ننتهى إليها فى مسألة البُنية التى تعتمد على الموضوع ، أن بعض أنواع الخطاب قد تكون ذات بُنية هرمية ، وخاصة إذا كانت لدى المتحدث فرصة للتخطيط للخطاب بأكمله قبل أن يبدأ حديثه (كما هو الحال عند كتابة كتاب أو إلقاء محاضرة) ، ولكن غالباً ما تكون معظم أنواع الخطاب ذات بُنية فضفاضة وغير متماسكة إلى حدٍّ كبير . وهذه النصوص تتميّز بتغيّر الموضوع فيها بين آونةٍ وأخرى ، وتتكون فحسب من الموضع « **الراهن** » المطروح فى لحظةٍ بعينها .

وعلى ذلك ، يستطيع الدارس أن يتتبع كيفية تغيّر الموضوعات فى الخطاب من آنٍ لآخر سواء تم هذا التغيّر فجأة أو بشكلٍ تدريجى .

وهناك نوع ثالث من بُنية الخطاب ، يعتمد على ما نعرفه عن بُنية العالم من حولنا ، وهذا النوع من البُنية هو ما نطلق عليه البُنية المعرّفة الموسوعية encyclopedic structure . وقد يساعدنا ذلك على تحديد ما سبق أن أطلقنا عليه «الموضوع الراهن» . فلو كان الموضوع الراهن هو الإجازة ، فنحن نعلم مسبقاً أن هناك عدداً من الموضوعات الفرعية الوثيقة الصلة بموضوع الإجازات ، مثل الإقامة والجو والأنشطة المتاحة . ويمكننا إعادة تقسيم كل من هذه الموضوعات ، فالأنشطة التى يمكن مزاولتها تتضمن السياحة الداخلية والسباحة وأنواعاً أخرى من الرياضة والحياة الليلية والتسوق . ويمكن أيضاً أن تتداخل فى هذه الموضوعات الفرعية موضوعات فرعيةأخرى ، مفسدة بذلك النظام الهرمى الأنيق لبُنية النصّ ، فيمكن مثلاً أن يتداخل «الطعام» مع « الإقامة » أو « الأنشطة الأخرى » ، لأننا نستطيع تناول الطعام سواء فى الفندق أو فى المطاعم ، خارجه ، وإذا ضربنا مثالاً مختلفاً نجد أن بإمكاننا ، عند وصف « شقة » ، استخدام نوعين من « المعرفة الموسوعية » . فيمكننا أن نتخذ وجهة نظر المهندس المعمارى وأن نصفها من وجهة نظر ثابتة : « **بها أربع حجرات مكونة مربعاً** ... » ، ويمكننا أيضاً أن نتخذ وجهة نظر زائر الشقة ونحن نقوده فى جولة بها : « **تدخل أولاً إلى البهو ثم تدخل فى الممر الذى يقع إلى يسارك** ... » ومن الغريب أن غالبية الناس يتخذون وجهة النظر الثانية ، وذلك استناداً إلى نتائج ليند ولابوف Linde & Labov (١٩٧٥) فى الدراسة التى قاما بها .

وليس هناك أدنى شك فى إمكانية الكشف عن أنواع أخرى من البُنية فى الخطاب ، بالإضافة إلى أنواع البُنية التى سبق أن عرضنا لها ، والتى تعتمد على « تناوب الأدوار » و « الموضوع » و « المعرفة الموسوعية » . ولابد أن يكون قد اتضح لنا من هذا العرض ، أنه لا يمكن أن نحول كل هذه البُنى إلى بُنية من نوعٍ واحد ، لأن بُنية الخطاب خليط معقّد ومركّب من المعايير الكلامية والمعلومات العامة عن العالم من حولنا .

ومن الصعب أن نتصوّر إمكانية دراسة بُنية الخطاب دون منهج يعتمد على عدد كبير من العلوم المختلفة .

٤ - ٤ السلوك الكلامى والسلوك غير الكلامى :
Verbal and Non-Verbal Behaviour

٤ - ٤ - ١ شواهد العلاقات : Relation Markers

سنحاول فى هذا القسم أن نعرض للعلاقات الموجودة بين السلوك الكلامى والسلوك غير الكلامى فى التعامل الاجتماعى . وقد قال عالم اللغة دافيد أبروكرومبى David Abercrombie بأننا نتكلّم بأعضائنا الصوتية ، ولكننا نتحدث بكل أجزاء جسمنا (ابروكرومبى ١٩٦٨ Abercrombie) . وسنحاول أن نوضح فى هذا القسم إلى أى حد ، يعد ذلك الكلام صحيحاً . فالسلوك غير الكلامى يرتبط بجانبين من جوانب الكلام التى نبحثها فى هذا الفصل - تحديد العلاقة بين المتحدث والمتلقى ، وتحديد شواهدها (٤ - ٢) وتحديد بُنية الخطاب (٤ - ٣) ، كما يرتبط أيضاً بتوصيل « مضمون » الخطاب ، أى القضايا والمدلولات .

ومن أوضح جوانب السلوك غير الكلامى التى قد تساعدنا على فهم علاقات القوة والتضامن ، دراسة المسافة التى تفصل شخصاً ما عن الآخر ، وقد تطورت الدراسات الخاصة بذلك الموضوع ، حتى صار لها اسم خاص هو « علم التجاورات » Proximics ، وليس من الصعب أن نتصور أن المسافة المادية التى تفصل بين شخصين تتناسب مع المسافة الاجتماعية فى كل الثقافات ، وبالتالى فإن الذين يشعرون بتقاربهم الروحى سيقتربون من بعضهم بعضاً نسبياً عند التعامل ، وبذلك تقع علاقات المحبين فى جانب وتقع فى جانبٍ آخر المواقف غير الشخصية والرسمية حيث تكون المسافة الفاصلة بين المتحدث والمتلقى مسافة كبيرة كما هو الحال فى المسرح ، أو تصل إلى عدم القدرة على رؤية المتحدث ، كما هو الحال فى المذياع والتلفزيون . وتتمثّل الاختلافات بين الثقافات المختلفة بتحديد المسافة التى تتلاءم مع درجة معيّنة من

التضامن . فالمسافة التى يحددها العرب - مثلاً - غالباً ما تكون أقصر من المسافة التى يحددها الأمريكيون . وقد أُجريت لتدعيم هذا الادعاء أبحاث للمقارنة بين الطلاب العرب والطلاب الأمريكيين فى جامعة أمريكية . (واتسون وجريفز ١٩٦٦ Watson & Graves) . فى هذه الدراسة طُلِبَ من الطلاب أن يتحدثوا سوياً فى أزواج فى غرفة يمكن ملاحظتهم فيها دون علمهم ، وقد تمَّ تسجيل حركاتهم ودرجة اقترابهم من بعضهم بعضاً عند الجلوس واتجاه أجسامهم ومقدار نظرهم إلى بعضهم بعضاً ومقدار ارتفاع أصواتهم ، ومقدار تلامسهم .

وقد تمت دراسة ١٦ طالباً عربياً و ١٦ طالباً أمريكياً بهذا الأسلوب ، حيث خاطب العرب العرب والأمريكيون الأمريكيين . وعند مقارنة النتائج وُجِدَ أن العرب يواجهون بعضهم بطريقة أكثر مباشرة من الأمريكيين ... وأنهم يقتربون من بعضهم البعض فى جلوسهم أكثر من الأمريكيين وأنهم أكثر استعداداً لملامسة بعضهم بعضاً .. والنظر مباشرة فى عيون بعضهم بعضاً ... وتخاطبوا بصوت أعلى من أمثالهم من الأمريكيين .

وقد تضمنت هذه التجربة عدداً من المتغيّراتَ غير المسافة ، تشترك كلها بطريقة أو أخرى فى تحديد علاقات القوة والتضامن بين الأفراد . وقد تؤدى مثل هذه الاختلافات الثقافية بين الأمريكيين والعرب إلى سوء تفاهم شديد بين الطرفين . ويجب على القارىء المهتم بهذه المسألة أن يرجع إلى كتاب أدوارت . هال Edward T. Hall ، مؤسس علم التجاورات Proximics اللغة الصامتة The Silent Language (هال ١٩٥٩) .

٤ - ٤ - ٢ شواهد البُنية Structure Markers :

يساعدنا السلوك غير الكلامى أيضاً على تحديد بُنية الاتصال . ومن أحد الأنواع الرئيسية المذكورة سابقاً نمط السلوك المرتبط بالدخول والخروج حيث يكون السلوك غير الكلامى منمّطاً بوضوح مثله مثل السلوك الكلامى . وتعد بعض جوانب

السلوك غير الكلامى منمّطة بوضوح مثل السلام بالأيدى ، والذى يحل محله فى بعض الثقافات حك الأنف أو تكمله فى ثقافات أخرى الأحضان والقُبَل حسب العلاقة الموجودة بين المشتركين . ويبدو أن السلام بالأيدى فى بريطانيا يعد إشارة على إعطاء العلاقة بداية جديدة بدلاً من الإشارة إلى وثوق العلاقة . ولذلك، فغالباً ما يُستخدم السلام بالأيدى للتصالح بين الأصدقاء بعد القطيعة أو العراك، أو عند التعارف على غريب لأول مرة ، أو عندما يرى الفرد شخصاً لم يره منذ أمدٍ طويل.

وتختلف قواعد السلام باليد بالنسبة للثقافات الأخرى ، ولذلك نجد أن هناك قَدْراً من النسبية فى المعايير المتحكمة فى أنماط السلوك . وهناك مثال طريف على الاختلافات الموجودة بين عادات البريطانيين وعادات الولوف (السنجال) عند تحية جماعة من الناس ، فيقتصر السلوك غير الكلامى فى بريطانيا على إيماءة بين الحين والآخر لبعض أفراد الجماعة ، بينما توجه التحية الكلامية للجماعة ككل ، فى حين يوجه الولوف التحية المناسبة ، الكلامى منها وغير الكلامى ، لكل فرد من أفراد الجماعة على حدة (أرفين ١٩٧٤ Irvine) .

وبالإضافة إلى الدخول والخروج ، تعد الإشارات التلقينية غير الكلامية Non-verbal cues هامة للغاية بالنسبة لبُنية الخطاب ، وذلك من جهة « التناوب » فى الحديث turn-taking .

وكما سبق أن رأينا فى (٤ - ٣ - ٢) ، فإن أحد الأسئلة التى يجب أن نطرحها عن التناوب عند الحديث ، هو كيف يشير المتحدث إلى أنه على استعداد للتوقف عن الكلام والسماح للآخرين بالبدء فى الكلام ، ومن أهم الإشارات التلقينية فى مثل هذه الحالات « حركة العينين » eye-movement ، وقد اتضح من الدراسات أننا عادة ما ننظر فى عينى المتكلّم ، حين نستمع لفترات أطول مما نفعل عندما نتكلّم ولذلك فإننا عندما نكون على أهبة الاستعداد للانقطاع عن الكلام (ونبدأ فى الاستماع) ننظر فى عينى المتلقى توقعاً لدورنا التالى كمتلقين . وعلى العكس ، فإن المتلقى ينظر إلى أسفل عندما يكون على وشك أن يبدأ فى كلامه انتظاراً لتغيير

دوره من متلقٍ إلى مخاطب ، (أرجيل ودين ١٩٦٥ Argyle and Dean وكندون ١٩٦٧ Kendon) وليست حركة العيون هى الإشارة الوحيدة التى تدل على تغيير وشيك للدور ، ففى بعض المؤسسات (مثل المدارس والمؤتمرات والبرلمانات) توجد إشارات نمطية رسمية لتغيير الدور ، وذلك مثل رفع الأيدى عندما نرغب فى الكلام . وهناك أيضاً إشارات أقل درجة من حيث النمطية الرسمية ، وذلك مثل التحرك للأمام فى المقعد ، أو التململ فى الجلسة ، أو السعال لتمهيد الحنجرة للكلام . وهناك أيضاً وسائل لمجابهة مثل هذه الإشارات ، وذلك إذا لم يرد المتحدث التوقف عن الكلام ، مثل تعمد النظر بعيداً عمن يطلب الكلمة حتى لا يتمكن الثانى من أن يلفت نظر الأول .

٤ - ٤ - ٣ شواهد المضمون Content Markers :

ونأتى فى النهاية إلى استخدام السلوك غير الكلامى للدلالة على مضمون الخطاب ، وهناك أمثلة واضحة لهذا النوع من الإشارات فى معظم الثقافات ، وذلك مثل استخدام حركة الرأس للدلالة على إجابة « بنعم » أو « لا » ، وهناك اختلافات ثقافية فى أنواع إيماءات الرأس المُستخدَمة لكل من هذين المعنيين ، فبعض الثقافات (مثل أوروبا الغربية والولايات المتحدة) تستخدم الحركة من أعلى إلى أسفل للدلالة على « نعم » أما الثقافات الأخرى (مثل شرقى البحر الأبيض المتوسط) ، فتستخدم الحركة من أسفل إلى أعلى ، بينما تستخدِم شبه القارة الهندية حركة مائلة أو دائرية ، ولكن يبدو أن استخدام حركة الرأس للدلالة على « نعم » أو « لا » واسعة الانتشار إلى درجة أنه يمكننا افتراض أنها إشارة « شمولية » بالرغم من صعوبة معرفة السبب فى ذلك .

وهناك أيضاً حركات أخرى كثيرة تساعدنا على الاشارة إلى المضمون . فبعض الناس قد يستخدمون أصابعهم للعد والإحصاء، وتعد بعض المجتمعات العد على

الأصابع وسيلة متعارفاً عليها لإظهار العدد . وتوجد فى الواقع اختلافات بين قبائل شرق أفريقيا فى قواعد العد على الأصابع ، وهذه الاختلافات تعتمد على نقطة بداية العد وهل يبدأ العد من الإبهام أَم من الخنصر . (أومـوندى ١٩٧٦ Omondi)؛ وهناك أيضاً اختلافات أخرى بين هذه القبائل فى الحركات المستخدمة للدلالة على طول الطفل ، وذلك حسب اتجاه كف اليد ، إلى الأعلى أَم إلى الأسفل ، على رأس الطفل (فبعض هذه القبائل يعتقد أن ذلك قد يؤثر تأثيراً ضاراً على نمو الطفل نمواً طبيعياً). ولكل ثقافة مجموعة من الحركات الجسدية خاصة بها ، للتعليق على الناس والأشياء ، مثل الحركات المختلفة فى الثقافة البريطانية ، والمقصود منها مثلاً الدلالة على أن شخصاً ما قد **فَقَدَ عقله** أو أن **الطعام مناسب** . وينبغى علينا ألاّ ننسى حركات الإشارة المستخدَمة (والتى تُستخدَم فيها أصابع مختلفة فى مجتمعات مختلفة) ، والمرتبطة دائماً باستخدام أسماء الإشارة مثل **هذا** أو **ذاك** و **هنا** و **هناك** . ومن النادر أن نستخدم التعارض القائم بين هذا وذاك فى نفس الجملة (مثل إن **هذا** أكبر من **ذاك**) ، دون استخدام واحدة من الحركات الإشارية الإيضاحية المصاحبة ، حتى لو كانت هذه الإشارة مجرد إيماءة باتجاه الشىء المقصود.

وليس من الصعب أن نقارن بين المتحدث وقائد الفرقة الموسيقية الأوركسترالية الضخمة المكونة من عدد متنوع من أعضاء الكلام والأعضاء المرئية الأخرى فى جسمه والتى ينبغى عليه التحكّم فيها . فالأداء الجيد يقتضى من القائد القدرة على التنسيق بين كل هذه الأعضاء ، أيّاً كانت سرعة الأداء ، وأيّاً كان عدد الأعضاء المشتركين فى الأداء فى أية لحظة من اللحظات . ولكن مهمة المتحدث مهمة أكثر صعوبة من مهمة قائد الفرقة الموسيقية لأن عليه أن ينسّق بين أدائه وأداء قادة الفرق الأخرى فى نفس اللحظة التى يقوم كل منهم فيها بقيادة فرقته الخاصة (أى مع المشتركين الآخرين فى الكلام) . وليس من الغريب أن نتصوَّر أن الناس يفضلون القيام بأداء الأدوار المحفوظة والقطع الجاهزة التى سبق إعدادها ، وذلك بدلاً من الارتجال الفورى الذى يشبه موسيقى الجاز . وليس من الغريب إذن أن تكون دراسة الكلام ما زالت فى بدايتها .

* * *

الفصل الخامس

الدراسة الكمية للكلام

٥ - ١ مقدمة :

٥ - ١ - ١ - مدى ومجال الدراسات الكمية للكلام :

يعتبر بعض علماء علم اللغة الاجتماعى الدراسات التى سنعرض لها فى هذا الفصل ، من صميم دراسات علم اللغة الاجتماعى (انظر ، مثلاً ، تردجيل Trudgill ١٩٧٨ : ١١) ، بالرغم من أن الدراسات التى سبق أن قدّمناها فى الفصول السابقة لا تقل من حيث الأهمية أو القيمة عن الدراسات التى سنعرض لها فى الفصل الحالى . وترتبط نشأة الدراسات الكمية للكلام وتطورها بنشأة علم اللغة الاجتماعى ذاته وتطوره ، ويعتقد كثير من علماء اللغة الذين يهتمون أساساً ببُنية اللغة أن هذا الجانب من علم اللغة الاجتماعى ، وأقصد الدراسات الكمية للكلام ، يسهم إسهاماً كبيراً فى تحقيق غايات علم اللغة العام ، وتتلخص أهمية هذه الدراسات فى تقديم مادة علمية جديدة لابد من وضعها فى الاعتبار عند صياغة النظريات اللغوية المعاصرة وتقديمها . ويبدو أن الدراسات الكمية للكلام ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعلم اللغة النظرى ، لأنها تتطلّب اهتماماً خاصاً بجوانب اللغة ذاتها مثل الأصوات وصيغ المفردات وبُنية التعبيرات. وهذه الجوانب يعتبرها علماء علم اللغة النظرى مادتهم العلمية الأساسية. وقد سبق أن قمنا فى الفصل الثانى بمناقشة مفهوم « نوعية الكلام » speech variety ، والذى يشتمل على مفاهيم اللغة language واللهجة dialect وسجل السياق register ، ولكن هذه الأفكار والمفاهيم لا تمثّل أية مشكلة بالنسبة لعلماء علم اللغة النظرى ، ولذلك فهى ليست مهمة . وقد سبق أن بحثنا فى الفصل الثالث العلاقة بين اللغة والثقافة والفكر ، وهو مجال تعوّد علماء علم اللغة النظرى على تركه لعلماء الأنثروبولوجيا وعلماء النفس . أما الفصل الرابع ، فقد تناول بحث بُنية الخطاب والنصّ discourse ، وقد وضّحنا فى هذه الدراسة أن المتحدث يلائم وينسّق بمهارة شديدة بين خطابه ومتطلّبات السياق أو الموقف . ولكن جوانب الكلام التى تناولناها حتى الآن ، هى تلك الجوانب التى غالباً ما يُطلق عليها هؤلاء العلماء اسم بُنية اللغة language

structure ، وذلك مثل صيغة المنادى vocative والتحيات greeting وصيغ الضمائر البديلة alternative pronoun forms ..إلخ ، هذا فضلاً عن السلوك غير الكلامى ، الذى يعتبر بدوره غير ذى موضوع بالنسبة لعالم اللغة النظرى ، ولأسباب تاريخية عارضة ركّز علماء اللغة دراستهم على اللغتين الإنكليزية والفرنسية ، وكلتاهما لا تعطى أهمية لشواهد بُنية الخطاب Discourse markers بالمقارنة ببقية النظام اللغوى ، على النقيض من معظم اللغات الأخرى غير المألوفة والتى سبق أن رجعنا إليها . وبالرغم من ذلك ، يعتقد كثير من علماء اللغة أن مهمتهم الأساسية تتلخص فى وضع الأجروميات المناسبة للغات ، مثل الإنكليزية والفرنسية وذلك دون الالتفات إلى شواهد الخطاب والنصّ Discourse markers ، التى يعتقدون أن دراستها يجب أن تقتصر على المتخصصين فى مجال تحليل الخطاب discourse specialists دون غيرهم .

وسنتناول بالبحث فى الفصل الحالى الدراسات التى تعتمد إلى حدٍّ كبير على المادة العلمية المأخوذة من اللغة الإنكليزية (وخاصة اللغة الإنكليزية غير المتواضع عليها) ، والتى تختص بدراسة التباين variation القائم فى صيغ المفردات والعبارات. ومن الأمثلة على ذلك ، أن بعض المتحدثين لا ينطقون صوت [h] فى كلمات مثل **house** و **hit** ، وذلك على عكس متحدثين آخرين ينطقون هذا الصوت فى هذه الكلمات ، وبالتالى فهناك مجموعتان من المتحدثين تتحدثان نظامين لغويين مختلفين، يتضمن أولهما عنصراً (قد نود - أو لا نود - لأسباب نظرية أن نطلق عليه لفظة «وحدة صوتية مجردة» phoneme) ، وهو الصوت [h] بينما لا يتضمن النظام الثانى مثل هذه الوحدة الصوتية . أما بالنسبة لمعظم المتحدثين ، فإن الصوت [h] يختفى أحياناً ، ويظهر أحياناً ، فهو يظهر أحياناً فى مثل كلمة **house** بينما لا يظهر فى أحيان أخرى . ماذا نفعل إزاء هذه الأنظمة اللغوية ؟ وكيف نفسّر ظاهرة ظهور الصوت [h] أحياناً فى كلمات مثل **apple** ، فى حين أن الذين ينطقون الصوت [h] فى كلمتى **hit** و **house** دائماً لا ينطقونه فى هذه الكلمة ؟ وهناك أيضاً دراسات مماثلة عن القواعد المستخدمة فى النفى . فبعض المتحدثين يستخدمون حرف النفى بعد أشباه الجمل الاسمية النكرة ، وهى تتضمن **any** كما فى **I didn't**

مثل no حرف النفى فهى تتضمن للآخرين بالنسبة أما ، eat any apples ، بينما يستخدم معظم المتحدثين كلاً من هاتين I didn't eat no apples الصيغتين تبادلياً ، ففى بعض الأحيان يستخدمون الصيغة الأولى ، ولكنهم يستخدمون الصيغة الثانية فى أحيان أخرى . فما هى العلاقة إذن بين أجروميات هؤلاء الناس ، وما هى الاختلافات الدقيقة بينهم ، وهل يختلفون ، مثلاً ، فى استخدام الصيغ الصرفية أم فى استخدام التراكيب أم الدلالات ؟ وكيف نفسّر إذن ظاهرة تبادل النظامين عند بعض الناس ؟ ومن الواضح أن مثل هذه الأسئلة المطروحة ، من صميم موضوع علم اللغة النظرى .

وتعتمد الدراسات التى سنعرض لها فى هذا الفصل اعتماداً كلياً على دراسة اللغة المنطوقة لا اللغة المكتوبة (بالرغم من أنه قد طُلب أحياناً من المتحدثين أن يقرأوا نصوصاً مكتوبة ومنها ، على سبيل المثال ، قوائم الكلمات) . والغرض من ذلك التعرّف على اللغة اليومية للناس العاديين ، وتعد مثل هذه الدراسات ردّة فعل للاتجاه المثالى والتبسيطى idealization ، الذى تتميّز به الأجرومية التوليدية التحويلية (من أجل تقييم نقدى للأجروميات التوليدية التحويلية انظر لابوف ١٩٧٢ - أ : الفصل الثامن) . وكما سنرى فيما يلى ، فإنه من الصعب تحقيق هدف هذه الدراسات فى الممارسة الفعلية ، وقد تعد هذه الدرسات من بعض وجهات النظر مجرد امتداد للدراسات الدقيقة التى قام بها علماء اللهجات dialectologists (والتى عرضها سانكوف Sankoff فى ١٩٧٣ : أ) وعلماء الصوتيات phoneticians .

ويركّز الباحث اهتمامه - كما فعل فى دراساته السابقة - على قائمة من المتغيرات اللغوية linguistic variables ، وهى مجموعة من العناصر اللغوية التى نعلم سلفاً أن لها أشكالاً وصيغاً متباينة ، مثل المفردات التى تُنْطَق بطرق مختلفة (مثلاً house بدون [h] أو بها و either سواء بدأت بـ [i :] أو [ai] وهكذا) . ولكل متغيِّر مجموعة من البدائل variants ، أى الصيغ والأشكال البديلة المستخدَمة. وعلى الباحث أن يفحص كل النصوص التى جمعها محدداً كل البدائل المستخدَمة لكل متغيِّر فى قائمته ، مسبقة التحديد .

والهدف من دراسة هذا الفرع من علم اللغة الاجتماعى شبيه بالهدف من دراسة جغرافيا اللهجات dialect geography ، وهى دراسة مقارنة comparative أى أنها تقارن النصوص بعضها ببعض، بدلاً من القيام بتحليل شامل لكل نصّ على حدة دون الرجوع إلى النصوص الأخرى . وبهذا ، يصبح كل متغيِّر مسبق التحديد بُعداً مستقلاً نستطيع من خلاله مقارنة جميع النصوص . وقد يكون لدينا ، على سبيل المثال ، حوالى مائة تسجيل صوتى لأناس مختلفين يتكلمون فى نفس الموضوع أو الموقف ، وقد تكون لدينا قائمة مكونة من عشرة متغيِّرات لغوية نعلم جيداً أنها ستوضِّح البدائل المختلفة المستخدمة فى هذه النصوص المسجلة . وعند فحص النصوص للتعرف على البدائل المختلفة لكل متغيِّر ، يمكننا تصنيف هذه النصوص تبعاً لاستخدام هذه البدائل . ويمكننا عندئذ، التمييز بين النصوص التى تتضمن [h] فى كلمات مثل house وبين النصوص التى لا تتضمنها ، وكذلك التمييز بين النصوص التى تتضمن كلمة any بعد صيغة النفى أو النصوص التى تستبدلها بـ no ، وهكذا (وسيتضح فى القسم ٥ - ٣ أن هذه التمييزات ليست واضحة للغاية ، ولكن يمكننا أن نتجاهل هذه التعقيدات الآن على الأقل) . وتشبه هذه التجمعات فى وظيفتها خطوط توزيع اللهجات isoglosses ، التى يستخدمها دارسو اللهجات الجغرافية dialect geographers (٢ - ٣ - ١) ، فهى تشبه خطوط توزيع اللهجات من جهة أنها خطوط **لا تلتقى أبداً** . ومعنى ذلك ، أنه من غير المحتمل أن تقع كل النصوص بدقة فى نفس المجموعات التى تنتمى لمتغيرات تحتوى على نفس البدائل ، مثلما يكون من الصعب أن يتبع خطان من خطوط توزيع اللهجات نفس المسار . (ويمكننا بالطبع أن نجعل المجموعات المختلفة تتطابق باختيار نصوص من لغتين مختلفتين ، مثل الإنكليزية والفرنسية ، وبانتقاء المتغيِّرات التى تميِّز هاتين اللغتين ، ولكن المناهج التى سنعرض لها هنا لا تستخدم مثل هذه الطريقة ، وذلك لأنها لا تحتاج لمثل هذه التقسيمات الشاملة وغير الدقيقة) .

وينبغى أن يكون قد اتضح لنا أن هذه الطريقة فى دراسة المتغيِّرات اللغوية فى النصوص هى الطريقة المناسبة النابعة من المنظور الذى عرضنا له فى الفصول السابقة

من هذا الكتاب ، وهو المنظور الذى ظهر منه أن المتحدثين ينتقون الصيغ اللغوية التى يستخدمونها حتى يحددوا مواقعهم ، وذلك فى حيّز اجتماعى مركّب ومتعدد الأبعاد . وقد سبق أن عرضنا كثيراً من الأمثلة لعدد كبير ومتنوع من المتغيرات اللغوية ، التى تعكس العديد من التعارضات والتناقضات الاجتماعية . ويمكننا القول ، على سبيل المثال ، أن كل المفردات فى الجملة التالية **John'll be extremly narked** عدا الفعل المساعد **be** ، ترتبط ببُعد مختلف فى هذا الحيّز الاجتماعى . فاستخدام الاسم الأول **John** (بدلاً من استخدام Mr. Brown) يحدد مكانة المتحدث بالنسبة لـ John ، واستخدام **'ll** بدلاً من **will** يحدد الموقف على متواصل الشائع الرسمى casual form بأنه غير رسمى ، أما استخدام **extremly** فهى تحدد مكانة المتحدث (على ما أعتقد) على متواصل متعلّم - غير متعلّم ، أما كلمة **narked** (وهى صيغة إقليمية لكلمة « غاضب ») فهى تحدد المتكلّم من ناحية نشأته الإقليمية . ويمكننا فى بعض الأحيان استخدام أحكام المتحدث الذاتية للتمييز بين هذه المتغيّرات ، ولكن علينا ، فى النهاية ، أن نكون قادرين على اختبار الفرضيات المطروحة ، وذلك من خلال ما نجده فى النصوص ، وهذا هو الغرض من دراسة هذه النصوص ، إلى اختبار الفرضيات المطروحة عن علاقة المتغيّرات اللغوية بمثيلتها الاجتماعية . ويعد استخدام الباحث لهذه القائمة المعدة سلفاً من المتغيّرات اللغوية وبدائلها المتباينة ، بمثابة توقع منه لظهور هذه البدائل المتباينة فى النصوص التى جمعها . والباحث غالباً ما يبدأ بحثه بمجموعة من الفرضيات عن المتغيّرات الاجتماعية social variables التى ترتبط بالمتغيّرات اللغوية الواردة فى قائمته ، وغالباً ما تتضمن هذه المتغيّرات عناصر مثل الطبقة الاجتماعية ، أو مسقط الرأس ، أو الجنس ، إلخ . وتعتمد كل الدراسات التى سنعرض لها هنا على مثل هذه الفرضيات ، ولكن ينبغى علينا أن نكون على حذر ، إذ يشعر بعض الدارسين بخطورة توجيه الدراسة توجيهاً خاطئاً ، وذلك إذا بدأ الباحث بفرضيات خاطئة عن العلاقة بين المتغيّرات اللغوية والمتغيّرات الاجتماعية (انظر ، مثلاً ، بيلو وآخرين Pellowe et al ١٩٧٢).

ومن جهة أخرى ، تعد دراسة النصوص مسألة صعبة ومضيعة للوقت ولهذا -

ولأسباب عملية تماماً - تركّزتْ الدراسات التى أُجريت حتى الآن على دراسة المتغيّرات اللغوية التى تتكرر كثيراً ، والتى يسهل التعرف عليها نسبياً . وكان من نتيجة هذا الاعتماد على المتغيّرات المتكررة أن مالت الدراسة إلى التركيز على الكلمات المقررة دون الضمائر التى تتكرر دائماً ، وبدلاً من دراسة كيفية نطق كلمة house ، مثلاً، علينا أن نسأل كيف تُنطق الكلمات التى تبدأ بحرف h ، وعلى ذلك يمكن تصنيف المتغيّرات اللغوية فى شكل قوائم مكونة من الكلمات (بالرغم من أننا سنذكر بعض الدراسات التى قامت على كلمات مفردة وانتهت إلى نتائج ذات أهمية) . ويقتضى الاعتماد على التواتر عدم دراسة التراكيب ، لأن التراكيب التى تتسم بالتباين قد لا تتكرر سوى عدة مرات فى اليوم الواحد (أو حتى فى الأسبوع الواحد) فى كلامٍ فرد بعينه . والمعيار الثانى ، وهو سهولة التعرف على المتغيّرات ، يؤدى بنا إلى تفضيل الحالات التى تكون فيها [illegible] مجرد طريقتين مختلفتين لقول نفس الشئ، مثل وجود [illegible] نفس الكلمة . وقد يتعارض هذان المعياران ، فالمفردات فى حد ذاتها ، مثلاً تعد من أفضل المتغيّرات التى تدرس ، وذلك لأنه من السهل التعرف عليها ولكنها - من جهة التواتر - ليست المتغيّرات المثلى . وتمثل معظم الدراسات التى تعتمد على المفردات نوعاً من الحلول التوفيقية التى تتضمن مواطن ضعف من نوع أو آخر . ولكن ليس هناك شك (كما أود أن أوضح فى هذا الفصل) أن ذلك قد قدم نتائج مثيرة ذات أهمية .

ومن الضرورى الآن أن نذكر الرموز المتعارف عليها notation فى مثل هذه الدراسات ، فغالباً ما تُكتب المتغيّرات اللغوية بين قوسين : مثل (h) التى تمثل وجود المتغيِّر [h] أو عدم وجوده فى كلمات house ، وتستخدم (no/any) للدلالة على المتغيّر الموجود فى عبارة مثل **I didn't eat any/no apples** ، وسنتجاوز العرف المعمول به فى هذه الدراسات ، وذلك بكتابة البديل variant بعد المتغيِّر المقصود وسنفصل بينهما بنقطتين . وعلى ذلك ، فإننا سنكتب المتغيِّر (h) كذلك [h]: (h) وذلك فى الحالات الخاصة بالمتغيِّر (h) : عندما ينطق البديل [h] ، وذلك على عكس الحالات التى لا تنطق فيها (h) والتى سنكتبها كذلك : (h) ɸ.

ويستخدم رمز ϕ فى علم اللغة بصفة عامة ليمثّل « صفر » ، أو بعبارة أخرى يستخدم للدلالة على عدم وجود عنصر من العناصر .

٥ - ١ - ٢ لماذا ندرس الكلام كمياً ؟

لو تضمن كل نص أمثلة متعددة لبديل واحد فقط لكل متغيِّر من المتغيِّرات ، لأمكننا تحديد موقعها فى الحيِّز اللغوى متعدد الأبعاد الخاص بها ، وذلك دون استخدام المناهج الكمية . فلو أننا على سبيل المثال درسنا (h) و (no/any) فى عدد من النصوص ، فإننا قد نجد (جدلاً) أن بعض النصوص تتضمن أمثلة على [h] : (h) وليس بها أية أمثلة على ϕ :(h)، بينما تتضمن النصوص الأخرى أمثلة على (h) ϕ:(دون وجود أمثلة على [h] : (h) وكذلك حال البديلين (no/any) . فى هذه الحالة يحدد كل متغيِّر مجموعتين منفصلتين من النصوص ، ويصبح مصدر التعقيد الوحيد هو التفاعل بين هذين المتغيّرين . وعلى أساس ما نعرفه عن معظم المجتمعات المتحدثة باللغة الإنكليزية ، علينا أن نتوقع وجود [H] : (h) فى نفس النصوص التى تقع فيها any : (no/any) بينما يتكرر البديل (h) فى نفس النصوص التى يوجد فيها البديل no : (no/any) ، وبعبارة أخرى ينبغى علينا أن نتوقع وجود تراكيب مثل We didn't see no 'ouses و We didn't see any houses . ولكننا سنتحيّر كثيراً إزاء تراكيب مثل We didn't see no houses و We didn't see any ' ouses . إن دراسة عدد ضخم من النصوص قد تقودنا إلى فهم مدى حساسية هذين المتغيّرين لنفس المتغيّرات الاجتماعية ، فلو وجدنا أن [h] : (h) ترد فى نفس النصوص التى ترد فيها any : (no/any) ، وأن ϕ : (h) و no : (no/any) تردان فى نفس النصوص ، فإنه من المبرر لنا ، إذن ، أن نخلص إلى أن كلا المتغيِّرين اللغويين يتأثران بنفس المتغيِّر الاجتماعى . وبعد أن نصل إلى مثل هذه النتيجة ، علينا أن ندرس الخلفية الاجتماعية لكل هذه النصوص على قدر ما نستطيع ، ثم ينبغى علينا أن نحاول تحديد ماهية هذا المتغيِّر الاجتماعى . فلنتصوَّر أننا وجدنا أن كل النصوص التى تشتمل على البديلين [h] : (h) و any : (no/any) ، يقولها الأفراد الذين

يقبضون مرتباتهم شهرياً ، بينما يقول النصوص ذات البدائل الأخرى الأفراد الذين يقبضون أجورهم أسبوعياً . فَمِنَ المعقول فى مثل هذه الحالة أن نصل إلى أن المتغيِّر الاجتماعى هو نوعية المهنة التى يعمل بها المتحدث ، وخاصة إذا كانت هذه المهنة تدفع مرتّبات شهرية أو أجوراً أسبوعية . ويمكننا أن نصل إلى هذه النتيجة دون اللجوء إلى المناهج الكمية الحسابية .

وبالطبع ، ليس عالم علم اللغة الاجتماعى كذلك على الإطلاق . فغالباً ما تتكرر البدائل المختلفة لنفس المتغيِّر فى نفس النصّ ، ويمكننا تنظيم النصوص فى متواصل مستمر تبعاً لعدد مرات تواتر البدائل . وقد وَجَدَ ويليام لابوف فى دراسة قام بها لاستخدام صيغة النفى ، وذلك بين مجموعات متباينة من المراهقين الأمريكيين ، أن البديلين any : (no/any) و no : (no/any) يتكرران جنباً إلى جنب فى كثير من النصوص التى جمعها ، وَوَجَدَ أن صيغة no : (no/any) تمثّل نسبة تتراوح بين ٨٠٪ و ١٠٠٪ من الحالات الواردة فى النصوص (لابوف Labov ١٩٧٢ : ب : ١٨١) . وكذلك وَجَدَ بيتر ترجيل Peter Trudgill الذى دَرَسَ المتغيِّر (h) فى نورويش Norwich بانكلترا أن بديل [h] : (h) يمثّل نسبة تتراوح ما بين ٤٠٪ إلى ١٠٠٪ من حالات تواتر (h) وذلك حسب النصوص المستخدَمة (ترجيل Trudgill ١٩٧٤ - أ : ١٣١) . وعلى ذلك ، **فالعلاقات** بين المتغيرات اللغوية المختلفة كذلك مسألة درجة ، فبعضها أكثر ارتباطاً ببعضها الآخر، وينطبق ذلك أيضاً على العلاقات بين المتغيِّرات اللغوية والمتغيِّرات الاجتماعية . ومن الصعب أن نجد متغيِّراً لغوياً تتطابق بدائله **تماماً** فى نسبة وجودها مع بدائل أى متغيِّر لغوى أو اجتماعى آخر، بالرغم من أنه من السهل أن نجد متغيِّرات تماثل بعضها بعضاً إلى درجة تقنعنا بأن هناك نوعاً من العلاقات السببية بينها. وفضلاً عن ذلك ، فإن المتغيِّرات الاجتماعية ذاتها تمثّل متواصلاً دائماً لا نقاطاً منفردة ومستقلة بذاتها ، فالناس يتفاوتون فى درجة ثرائهم ورجولتهم وتعليمهم وحدتهم ، ولا يمكن وضعهم فى تصنيفات اجتماعية جامدة ومحددة بوضوح (أو فى مجموعات اجتماعية متجانسة داخلياً) .

كل هذه الحقائق تتطلب دراسة المادة العلمية ومعالجتها كمياً عن طريق استخدام المناهج الإحصائية المناسبة . ويعد عالم اللغة ويليام لابوف أول من استخدم المناهج الكمية فى دراسة النصوص ، ولذلك فإن أبحاثه ستكون هى المسيطرة على المناقشة المطروحة فى هذا الفصل . (فقد ساهم لابوف - كما سنرى - مساهمة مهمة فى إرساء منهج جمع المادة العلمية methology of data collection ، وكذلك فى التأويل النظرى لهذه النتائج) . وعلى أية حال ، فقد حفّزت دراسات لابوف باحثين آخرين أكفاء إلى دراسة النصوص دراسة كمية ، ولذلك توجد الآن مادة علمية واسعة يمكننا أن نستخرج منها أمثلة كثيرة (انظر بصفة خاصة القائمة فى لابوف ١٩٧٢ - أ : ٢٠٥ ، والمجموعات التى صدرت حديثاً بيلى وشوى Bailey & Shuy ١٩٧٣ وفاسولد وشوى Fesold& Shuy ١٩٧٥ ، ١٩٧٧ ، وسانكوف Sankoff ١٩٧٨ ، وترِدجيل Trudgill ١٩٧٨) . وسأقدم أولاً تخطيطاً أولياً للخطوط الرئيسية لما نستطيع أن نطلق عليه « منهج لابوف الكلاسيكى » فى مثل هذه الدراسات ، وبعد ذلك سأقدم بعض الوسائل التى يمكننا بها تحسين هذا المنهج .

٥ - ٢ المناهج Methodology :

٥ - ٢ - ١ المشكلات المنهجية :

أبدى معظم علماء علم اللغة الاجتماعى الذين يدرسون النصوص كمياً على عكس علماء علم اللغة النظرى اهتماماً كبيراً بالمناهج ، أعنى بكيفية جمع المادة العلمية بطريقة صحيحة ، وكذلك اهتموا بكيفية تحليل هذه المادة وبكيفية تأويل نتائجها تأويلاً صحيحاً (وتعد دراسة لابوف ١٩٧٢ - أ : وخاصة الفصل الثامن ٢٠٧ - ٢١٦ المصدر الأساس المعروف فى هذا المجال) . وتختلف المناهج المستخدَمة فى مثل هذه الدراسات عن المناهج المستخدَمة فى علم اللغة التحويلى والتوليدى ، حيث تكون المادة هى أحكام عالم اللغة الذاتية عن جمل افتراضية منعزلة منفصلة ، وحيث تصبح المشكلة الرئيسية هى كيفية وضع مثل هذه المادة فى نظام نحوى بأقل

قدر من فقدان عنصرى العمومية أو الاقتصاد generality or economy . وعادة لا يكون لمثل هذه الأسئلة إلاّ حيّز ضيّق فى الدراسات الكمية للنصوص .

وتعد مسألة المنهج فى كل مراحل الدراسات اللغوية الاجتماعية للنصوص مسألة مهمة من جانب، وإشكالية من جانبٍ آخر . ومراحل هذا النوع من الدراسات تكون على النحو التالى :

(أ) انتقاء المتحدثين والظروف والمتغيِّرات اللغوية .

(ب) جمع النصوص .

(جـ) التعرف على المتغيِّرات اللغوية وبدائلها فى النصوص .

(د) الدراسة الإحصائية .

(هـ) تأويل النتائج .

وغالباً ما تتتابع هذه المراحل طبقاً للنظام السابق الذكر ، ولكن عادة ما يكون هناك نوع من الدائرية cyclicity ، يتضمن القيام بدراسة استشكافية مصغّرة، أو دراستين pilot study وذلك قبل البدء بالدراسة الرئيسية . وفضلاً عن ذلك ، فليس من الضرورى جمع كل النصوص قبل البدء فى التحليل والتصنيف ، وليس من الضرورى أيضاً تحديد كل المتغيِّرات قبل القيام بالحصر الاحصائى لبعضها . ولا يستوى اتباع النظام المرحلى ، الذى تجرى هذه العمليات على أساسه ، مع أهمية المنهج الذى يجب تطبيقه فى كل مرحلة من مراحل الدراسة .

(أ) تتطلّب مرحلة **انتقاء selection** المتحدثين والظروف والمتغيِّرات اللغوية اتخاذ بعض القرارات المهمة للغاية ، والتى تمليها علينا إلى حدٍ ما الفرضيات الخاصة بالنتائج المتوقعة ، فقد نبدأ دراستنا ، مثلاً ، مفترضين أن الرجال والنساء فى جماعة بعينها يختلفان من ناحية استخدامهما لمتغيِّرات لغوية بعينها ، وأن الكبار والشباب فى نفس الجماعة يختلفان بالنسبة لاستخدام مجموعة أخرى من المتغيِّرات .

وحتى نستطيع أن نختبر صحة هذه المجموعة من الفرضيات ، ينبغى علينا اختيار متحدثين يمثّلون النماذج الأربعة المكونة من متغيِّرات السن والجنس ، وينبغى علينا أيضاً أن نتأكد من أن المتغيِّرات الاجتماعية الأخرى لن تتدخل لتفسد النتائج التى سنحصل عليها . فلو كان كل الرجال المنتقين للدراسة من العمال اليدويين، مثلاً، وكانت النساء من المهنيات، فإن الاختلافات اللغوية الموجودة بينهم قد تكون نتيجة لاختلاف مهنهم أو نتيجة لاختلافاتهم الجنسية ، ولن نتمكن فى مثل هذه الحالة من الوصول إلى نتائج مؤكدة . وكذلك لابد من جمع المادة العلمية المتمثّلة فى الكلام ، وذلك تحت نفس الظروف على قدر الامكان .

وتنشأ هنا مشكلة مهمة عند تعريف المتغيِّرات الاجتماعية المرتبطة بالمتحدثين والظروف والمتغيِّرات اللغوية فى حد ذاتها . فكيف يمكننا أن نعرف ماهية « العامل اليدوى » ؟ وكيف نفرّق بين كبير السن والشاب ؟ وكيف نعرف الظروف بدقة تسمح لنا بالمحافظة عليها دون تغيير ؟ وكيف نعرف المتغيِّر (h) ؟ (فإذا عرفنا هذا المتغيِّر بالرجوع إلى قواعد التهجئة أو الكتابة ، فعلينا توقع وجود [h] : (h) فى كلمات مثل hour ، ولو عرفنا هذا المتغيِّر بالرجوع إلى الكلام « المتواضع عليه » standard speech ، فإن ذلك يفترض سلفاً أننا يمكن أن نعرف الكلام المتواضع عليه ، وأننا نستطيع أن نقرر مثلاً ما إذا كانت كل من الكلمتين **horizon** و **hotel** تتضمنان [h] فى الكلام المتواضع عليه ، وهكذا ...) وكيف يمكننا فى هذه الحالة أن نعرف [h] أو ϕ ، أعنى بدائل (h) ؟ وما هو مقدار الدفقة الهوائية المطلوبة لتعريف [h] ؟ وهناك ما هو أصعب من ذلك، مثل مشكلة تعريف الجماعة التى نزمع دراستها ، ذلك لأن «الجماعات الكلامية» لا تعرف نفسها كما سبق أن رأينا فى ٢ - ١ - ٤ . وليس ثمة إجابات سهلة على أى من هذه الأسئلة ، ولكن على الباحث أن يقدم حلولاً معقولة لكل هذه المشكلات حتى يُجنّب الخطر الحقيقى الكامن فى أن تصبح نتائجه عديمة القيمة، نتيجة لفشله فى تعريف المتغيِّرات بالوضوح اللازم .

(ب) بعد اتخاذ القرارات الخاصة بماهية المتحدثين والظروف المناسبة ، فإن جمع النصوص يتطلّب وجود متحدثين مناسبين يرغبون فى المشاركة فى البحث. ويعنى ذلك

بصفة عامة إيجاد الأفراد الذين يرحبون باللقاء بهم فى منازلهم لمدة ساعة، ويرحبون بتسجيل ذلك اللقاء، غير أن هنالك بدائل كثيرة أخرى سبق إيضاحها فى أدبيات البحث . ويعنى ذلك قدرة الباحث على اكتساب ثقة مجموعة من الناس، والحصول على موافقتهم على تسجيل كلامهم تحت ظروف طبيعية (وهناك وسائل للقيام بذلك غاية فى الذكاء، وهذا ما سنعرض له فيما بعد) . ومن أهم المشكلات العملية، الحصول على تسجيلات واضحة جداً بدرجة تسمح باستخدامها للتعرف على البدائل الصوتية، ولا يصح لِمَنْ يقوم بالتسجيل أن يهيمن على اللقاء ، ويحوله إلى لقاء إذاعى، وبذلك يفقد الفرصة لتسجيل كلام المتحدث العادى وهو على سجيته. وليس ثمة حلول سهلة لهذه المشكلات ، ولكن سعة الحيلة والقدرة على التصرف الذكى المبتكر (وهى من خصائص لابوف الملفتة للنظر) ، تمكننا من إيجاد حلول توفيقية ذكية وابتكار وسائل للتغلب على هذه المشكلات.

(جـ) ويعد التعرف على بدائل variants المتغيِّرات المنتقاة ، المرحلة الأقل صعوبة لأننا نعرف مسبقاً البدائل المطلوب تمييزها . وكل ما ينبغى أن نفعله ، هو أن نميزها سمعياً فى النصوص المسجلة . وهناك على أية حال قدر لا يستهان به من الذاتية فى عملية التعرف على البدائل الصوتية (وذلك على عكس التعرف على **«بدائل من مستوى أعلى» higher level variants (no/any)** . **ومن الممكن** أن يقدم مختلف الباحثين تحليلات مختلفة للنصّ ذاته ، ولو كانوا جميعاً من علماء الصوتيات المدربين (نولز Knowles ١٩٧٨ ولى باج وآخرين Le Page et al). وقد نحتاج أيضاً لتسجيل معلومات خاصة بالبيئة اللغوية Linguistic environment، التى يستخدم فيها كل مثال من أمثلة المتغيِّر، لأن ذلك غالباً ما يؤثر على اختيار بديل بدلاً من آخر (انظر ٥ - ٤ - ١)، ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك إلاَّ فى حالة وجود فرضية واضحة حول أى من جوانب البيئة يرتبط بذلك المتغيِّر.

وغالباً ما تكون هناك مشكلات فى التعرف على البيئات اللغوية، فلو أردنا مثلاً التمييز بين الحالات التى تقع فيها (h) بعد حدود الكلمة word boundary

(مثلاً house) والحالات التى تقع فيها داخل الكلمة (مثل behind)، فقد يترتب على ذلك مشكلة فى تحديد ما إذا كانت هناك حدود كلمة word boundary قبل الـ (h) فى كلمات مثل green house و summer house ، وهنا تنشأ مشكلة أخرى وهى صعوبة تحديد الكلمات أو العبارات التى قد تعد أمثلة على هذا المتغيِّر ، وقد سبق أن ذكرنا هذه المشكلة بايجاز بالنسبة لـ (h) (هل نتعامل مع hour على أنها مثال على المتغيِّر ؟) ولكن هذه المشكلة مشكلة قائمة مع كل المتغيِّرات ، وقد تؤدى إلى مشكلات فى تأويل النتائج كما سنرى فى ٥ - ٥ - ١ .

(د) وتتطلّب **الدراسة الإحصائية** حساب عدد مرات تواتر كل بديل فى كل النصوص ، ومقارنة الأرقام بالنسبة لكل النصوص . والخطوة الأولى هى أن نحوّل جميع الأرقام إلى نسب مئوية ، لأن ذلك يجعل المقارنة أسهل . فَمِنَ الأيسر مثلاً المقارنة بين ٨٠٪ [h] : (h) و ٦٥٪ [h] : (h) بدلاً من المقارنة بين ٧٣ من ٩١ [h]:(h) و ٧٩ من ١٥٠ [h] : (h) . والخطوة الثانية هى اكتشاف الاختلافات ذات الدلالة الإحصائية بين النصوص significant ، أعنى اكتشاف أى من هذه الاختلافات تعطينا أساساً صحيحاً للتعميم على النصوص الأخرى التى تنتمى إلى نفس النوع . فلنفرض مثلاً أننا قمنا بتحليل النصين « أ » و « ب » ، ووجدنا أن هناك من أمثلة (h) حوالى ٢٠٪ من [h] : (h) فى النص أو ٤٠ ٪ من [h] : (h) فى النص ب، فهل لدينا أساس صالح لاطلاق تعميمات على نصوص مماثلة للنص (أ) بالنسبة لـ (ب)، والقول بأن النصوص أ تتضمن نسبة من البديل [h] : (h) أقل من النصوص ب؟ وتعتمد الإجابة على عدد من العناصر، مثل عدد أمثلة (h) فى النصوص (أ) و(ب)، وذلك من خلال النسب المئوية فى كل من (أ) و (ب) والنسب المئوية لهذه الأمثلة فى النصوص المشابهة لكل منهما. وأحياناً تكون الإجابة واضحة . فلو كان هناك ، على سبيل المثال ، ١٠٠٠ مثال على (h) فى كل من (أ) و (ب) ، فلن يتردد أحد فى القول بأن الاختلاف بين ٢٠٪ و ٤٠٪ اختلاف ذو دلالة احصائية . أما إذا كانت هناك خمسة أمثلة فقط على كل من هذه الحالات ، فإن الاختلاف لن يكون ذا دلالةٍ إحصائية (لأن الأمر لا يحتاج إلاّ إلى مثال زائد واحد من [h] : (h) فى

النصوص (أ)، حتى تتساوى مع عدد الأمثلة فى النصوص (ب)، غير أن الإجابة غالباً ما تكون غير واضحة ، ولذلك ينبغى على الباحث أن يستخدم الاختبارات الإحصائية حتى يحدد الدلالة الإحصائية لنتائجه . وقد يؤدى ذلك فى حد ذاته ، إلى إثارة مجموعة من المشكلات ، فهناك أنواع كثيرة من الاختبارات الإحصائية يناسب كل نوع منها نوعاً معيناً من المادة العلمية ، وعلى الباحث أن يتأكد من استخدام الاختبار المناسب للغرض الذى ينبغى تحقيقه . ومنذ بداية استخدام الدراسات الكمية فى النصوص فى أوائل الستينات زادت درجة تعقيد الوسائل الإحصائية المستخدَمة (انظر سانكوف Sankoff ١٩٧٨ الذى يقدم عرضاً حديثاً لهذا المجال)، ولكن معظم دارسى علم اللغة الاجتماعى المبتدئين ليست لديهم أدنى فكرة عن أوليات علم الاحصاء، ولذلك تبدو الدراسات الإحصائية دراسات مجهدة إلى حدٍ ما. ومن المؤكد أن الطالب سيستفيد كثيراً لو حاول أن يتعلّم بعض مبادىء علم الاحصاء ومصطلحاته ومقاييسه ، مثل مقياس الانحراف المعيارى standard deviation ومقياس الكاى تربيعى chi-squared (وهناك كتاب تمهيدى جيد ورخيص هو كتاب ميلر Miller ١٩٧٥).

ومن الضرورى أيضاً أن نفهم أن التقنيات الإحصائية تسمح لنا بتحديد احتمالات تكرار بعض أنماط النتائج التى قد تحدث اعتباطياً ، أعنى التى قد تحدث دون وجود علاقة سببية بين الأرقام المعنية ، ولكن تلك التقنيات لا تقدم أى إثبات لقبول العلاقة السببية أو لرفضها. فقد تخبرنا هذه الوسائل الإحصائية، على سبيل المثال ، بأن نمطاً معيناً من النتائج يمكن حدوثه عشوائياً مرة واحدة فى كل ألف عينة أو أكثر، ولكن حتى هذا الاحتمال البعيد للغاية لا يمكن أن نستبعده تماماً. إلاّ أن عالم اللغة الاجتماعى، سيكون محقاً حين يطرح علاقة سببية من نوع ما تفسر نمط هذه النتائج . وحتى عندما تعكس النتائج الاحصائية علاقة سببية بين عنصرين، فإن ذلك لا يدل أو يعنى بصورة قاطعة أن أحدهما سبب للآخر. فقد يكون كلاهما ناتجاً عن عامل آخر. فيمكننا، على سبيل المثال، أن نجد علاقة دالة من الناحية الإحصائية statisitically significant بين طول القامة والقدرة على حل العمليات الحسابية،

ولكن ذلك لا يعنى أن أحدهما يسبب الآخر ، ولكنه قد يعنى أن كلاً من العنصرين المعنيين جزء من عملية النمو الطبيعى بصفة عامة .

(هـ) وتعد مرحلة تأويل النتائج من أصعب المراحل ، لأنها تحتم علينا أن نضع النتائج فى إطار نظرى عام يتعامل مع بُنية اللغة وعلاقتها بالمجتمع والأفراد . ولا يعتمد النجاح فى هذه الحالة على استخدام المناهج الصحيحة فى كل المراحل السابقة فحسب، بل يعتمد أيضاً على إيجاد إطار نظرى عام مناسب لتأويل تلك النتائج. وكل ما نستطيع قوله الآن هو أن مثل هذه النظرية ما زالت فى بدايتها . وسنحاول أن نقدم الخطوط العريضة للتقدم الذى حدث بالفعل فى دراسات علم اللغة الاجتماعى فى ٥ - ٥ ، ولن نحتاج فى هذه المرحلة إلى إضافة شىء جديد عن تأويل النتائج.

ليس من الغريب أنه نتيجة لكل هذه المشكلات، أن يهتم علماء علم اللغة الاجتماعى بالمنهج كل هذا الاهتمام .

٥ - ٢ - ٢ مثال من نيويورك :

ولكى يمكننا تقديم فكرة كاملة عن المناهج المستخدَمة فى مثل هذه الدراسات، سنناقش بإيجاز ثلاث دراسات منفصلة تعتمد على مناهج مختلفة. ولا تمثّل هذه الدراسات كل أنواع الأبحاث التى أُجريتْ ، فكلها دراسات تتناول الجماعات الحضرية urban communities ، وهناك دراسات أخرى عديدة (خاصة عن الكريولية) فى المناطق الريفية (انظر على سبيل المثال لا الحصر بيكرتون Bicerton ١٩٧٥ ولى باج Le Page ١٩٧٢ ولى باج وآخرين Le Page et al ١٩٧٤)، وهى دراسات تختلف من حيث المناهج إلى حدٍ ما . وليس المثال الأول مثالاً على منهج شائع الاستخدام، ولكنه يعكس عبقرية ويليام لابوف الشخصية (ويليام لابوف ١٩٧٢ - أ ، الفصل الثانى) .

وقد أجرى لابوف دراسته الاختبارية الأولى على جزيرة صغيرة تقع بجانب ساحل نيو إنجلاند New England (ويُطلق على هذه الجزيرة اسم مارثاز فاينارد

Martha's Vieneyard) . وقد حللت هذه الدراسة ظاهرة التباين بين المتحدثين، وذلك عند استخدامهم بعض المتغيِّرات اللغوية (١٩٧٢ - أ : الفصلين ١ و ٧)، وبعد ذلك أجرى لابوف دراسة عن جماعة مختلفة تماماً فى نيويورك . ويتضمن البحث الأخير مجموعة من المقابلات الشخصية مع مجموعة مختارة من المتحدثين من النوع الذى سبق وصفه فى ٥ - ٢ - ٣ ، كانت قد سبقتها دراسة أولية جُمِعَتْ فيها المادة العلمية فى عدة ساعات ، وهو ما يعد مثالاً نموذجياً لمنهج الملاحظة الغُفْل السريعة rapid anonymous observation .

وكان لابوف قد أراد أن يختبر بعض الفرضيات التى سبق أن صاغها عن استخدام متغيِّر لغوى بعينه، وهو حرف (r) فى نيويورك . ويمثّل هذا المتغيِّر وجود الـ r : (r) أو عدم وجودها ϕ : (r) ، وصوت صامت قبضى consonantal constriction يوازى الحرف r فى كلمات مثل farm و fair ، حيث لا يكون الصوت الذى يليه فى نفس الكلمة صوتاً غير صائت (كما هو الحال فى كلمة verb). وكان لابوف قد أدرك أن سكان نيويورك يستخدمون أحياناً بديلاً معيّناً ، وفى أحيان أخرى يستخدمون بديلاً أخر ، وكان ذلك أمراً ذا أهمية خاصة لأنه يعكس تغيّراً معيّناً كان يجرى فى ذلك الوقت ، حيث كان أهل نيويورك ينتقلون فى الاستخدام اللغوى من المعيار الثابت سابقاً وهو ϕ : (r) (كما هو الحال فى اللغة الإنكليزية البريطانية المتواضع عليها British RP) ، نحو معيار جديد ثابت نسبياً هو [r] : (r) (كما هو الحال فى كثير من لكنات الولايات المتحدة) . (وكانت دراسة التغيّرات اللغوية Linguistic changes ، الجارية فى الولايات المتحدة احدى اهتمامات لابوف منذ أن أجرى دراسته على مارثاز فينيارد (انظر بينون Bynon الفصل الخامس : ١٩٧٧). وقد توقع لابوف أن تكون نسبة حدوث ϕ : (r) أعلى بين كبار السن ما دامت [r] : (r) هى الصيغة الجديدة ، وكذلك بين الطبقات الدنيا (لأن الصيغة المتواضع عليها الجديدة [r] : (r) هى من تأثير الطبقات العليا من خارج نيويورك) . وقد توقع أيضاً أن تكون نسبة ϕ : (r) أعلى بكثير عندما لا يتنبه المتحدثون إلى كلامهم، لأنهم لا يهتمون فى مثل هذه المواقف بقدرة مستمعيهم على تقييم مكانتهم

الاجتماعية ، وتوقع أخيراً بأن يؤثر السياق اللغوى (r) على اختيار البديل المستخدَم، فيستخدَم البديل ϕ : (r) غالباً عندما يكون الصوت (r) متبوعاً بصامت ، وذلك بنسبة أكبر مما إذا كان هو الصوت الأخير من الكلمة ، استناداً إلى المبادىء والأسس الصوتية المعروفة والتى تميل إلى تبسيط متتابعات الصوامت (simplify consonant clusters).

وقد كان المنهج المستخدَم فى جمع المادة العلمية منهجاً بسيطاً للغاية ، ولكنه مناسب للفرضية التى وضعها لابوف . وقد قام لابوف بالمرور على ثلاثة من أضخم محلات نيويورك ، وبدأ يسأل بائعات المحل عن نوع معيّن من البضاعة ، يعرف جيداً أنه فى الدور الرابع . وقد أجابت كل من البائعات بالإجابة المتوقعة « الدور الرابع » أو « فى الدور الرابع » "Fourth floor" "On the fourth floor" ، وتظاهر لابوف بأنه لم يسمع وانحنى للأمام حتى يجبر البائعة على تكرار إجابتها . وباختياره للكلمتين fourth و floor ، استطاع أن يختبر الفرضية الخاصة بالسياق اللغوى ، لأن الـ (r) يتبعها حرف صامت فى fourth ، وذلك على عكس الوضع فى floor . وعن طريق التظاهر بعدم السمع فى المرة الأولى وإجباره للبائعة على تكرار الإجابة ، استطاع أن يختبر الفرضية الخاصة بأهمية درجة الالتفات إلى الكلام ، لأن البائعة تكون بالطبع أكثر حذراً ووضوحاً فى المرة الثانية . واستطاع لابوف أيضاً ، أن يختبر الفرضية الخاصة بسن المتحدث ، بتخمين عمر البائعة بشكل عام ، وأخيراً تمكّن لابوف من اختبار الفرضية الخاصة بمكانة المتحدث الاجتماعية social status بمقارنة نوعيات المحال بعضها ببعض ، وذلك أن كلاً من هذه المحال يقوم بخدمة قطاعات مختلفة من الزبائن ، ويمكن تنظيم هذه المحال تدرجياً من أعلاها مكانة اجتماعية (ساكس Saks الشارع الخامس) إلى المكانة المتوسطة (مثل ماسيز Macy's) إلى محال الطبقات الدُنيا (مثل س . كلاين S. Klein) . ويمكن القيام بتحديد مثل هذا التنظيم التدرجى على أساس عدد من المعايير مثل أسعار البضائع التى تبيعها ، والصحف التى تعلن فيها هذه المحال عن نفسها . وفى داخل كل من هذه المحال يمكن التمييز الدقيق بين العاملين تبعاً لوظائفهم ، فيمكننا التمييز بين ملاحظى الأدوار والبائعين

والمسؤولين عن المخازن ، ويمكننا التمييز أيضاً بين العاملين فى نفس المتجر ، لأن البضائع ذات المكانة الاجتماعية العالية غالباً ما تُباع فى الأدوار العليا .

وكان منهج تدوين الملاحظات هو تسجيل البيانات الخاصة بكل عاملة على حدة سراً ، وذلك حتى لا تلاحظ إحداهن أنها تشارك فى بحث لغوى مما قد يؤثر على أسلوبها فى الكلام . ومن مصاعب استخدام هذا المنهج أنه يتطلّب باحثاً ليس عالِم صوتيات ممتاز فحسب ، بل ممثلاً قديراً أيضاً ، ويسمح لنا مثل هذا المنهج كما سنرى فيما يلى أن ندمج المرحلتين (ب) و (جـ) ، وهما جمع النصوص وتحديد المتغيِّرات اللغوية وبدائلها .

وعند رصد نتائج هذا البحث ، تبينت صحة الفرضيات التى انطلق منها لابوف . ويبيِّن الشكل ٥ - ١ ، مثلاً ، النسبة المئوية لتكرار الحرف (r) فى صيغة [r] : (r) وذلك لكل كلمة على حدة ، مع فصل لفظها فى المرة الأولى عن المرة الثانية فى كل محل على حدة . وقد انخفضت نسبة استخدام الصيغة [r] : (r)، كما كان متوقعاً، فى المتاجر الفاخرة عنها فى المتاجر التى ترتادها الطبقات الاجتماعية الدُنيا ، وقد نتبيّن ذلك من ملاحظة انخفاض طول الأعمدة من اليسار إلى اليمين . وتظهر آثار الانتباه إلى الكلام فى ميل العامود رقم (II) إلى أن يكون أطول من العامود رقم (I) بالنسبة لكل المتاجر ، وذلك باستثناء متجر ساكس Saks حيث لم يتضح فرق بين النطق الأول والثانى لكلمة **Floor** ، وانخفضتْ نسبة [r] : (r) بين النطق الأول والثانى لكلمة **Fourth** فى متجر ماسيز Macy's . وقبل أن نحاول إيجاد تفسير لمثل هذه الانحرافات ، علينا أن نعرف ما إذا كانت هذه النتائج ذات دلالة إحصائية . وبما أننا لم نطبق أية اختبارات إحصائية على هذه الأرقام ، فلا يمكننا الجزم بأن هذه الانحرافات ناشئة عن تغيّرات اعتباطية أو عشوائية ، أو الجزم بأن هناك سبباً فعلياً لحدوثها . ويبدو أن هناك تأييداً واضحاً لفرضيات لابوف فى هذه النتائج التى توضّح أن **Fourth** و **Floor** مختلفتان لأن الأعمدة البيضاء تبدو بصفة دائمة أقصر من الأعمدة المخططة ، وأن نسبة [r] : (r) فى **floor** أعلى بصفة دائمة عنها فى fourth كما توقع لابوف .

والفرضية التى لم تتأكد بطريقة مباشرة أو بسيطة ، هى الفرضية الخاصة بالاختلافات الناتجة عن السن . وقد نتذكّر هنا أن الفرضية الأصلية تذهب إلى أن الأكبر سناً سيفضلون استخدام البديل الأقدم ϕ : (r) بنسبة أكبر من الشباب الذين سيفضلون استخدام الصيغة الجديدة [r] : (r) . ويظهر من الأرقام الخاصة بتلك الفرضية (انظر الشكل ٥ - ٢) أن المقولة الأساسية قد تأكدتْ بالنسبة للمتجر ذى المكانة الاجتماعية العالية ، مثل ساكس Saks ، وليس من الصعب التوفيق بين تلك الفرضية وتلك الأرقام الخاصة بمتجر كلين Klein ، لأن الاختلافات البسيطة بين متوسطى العمر وكبار السن قد تكون غير ذات دلالة إحصائية . (علينا أن نذكر أنه ليس من السهل مقارنة النسب المئوية المذكورة فى الشكلين ٥ - ١ و ٥ - ٢ ، لأن النسب المذكورة فى الشكل ٥ - ٢ تبيِّن نسبة استخدام **العاملات فى المتجر** فى كل من المجموعات المشتركة فى البحث للبديل [r] : (r) فى كل من حالتى استعمال الكلمتين ، بينما تختص النسب المذكورة فى الشكل ٥ - ١ بالنسب المئوية لنطق utterances كل كلمة تضمن البديل ، ولكن هذا الاختلاف لا يهمنا فى الوقت الحالى). وتبدو المشكلة الحقيقية فى جنوح كبار السن فى ماسيز Macy's لاستخدام [r] : (r) بنسبة أعلى من الشباب ، وذلك مما يتعارض مع الفرضية الأساسية التى انطلق منها لابوف ، الأمر الذى جعله يراجع فرضيته ويعد لها بطريقة مثيرة ومبتكرة، وذلك عن طريق جعل فرضيته الأساسية تقتصر على مَنْ ينتمون إلى الجماعات ذات المكانة الاجتماعية العالية ومَنْ ينتمون إلى الجماعات ذات المكانة الاجتماعية الدُنيا . وحسب هذه الفرضية المعدّلة ، تكون هاتان الجماعتان أقل الجماعات عرضة لتغيير لكنتيهما بعد فترة المراهقة ، وذلك على عكس الجماعات ذات المكانة الاجتماعية المتوسطة التى قد تدفعها تطلعاتها الاجتماعية إلى تغيير لكنتها فى منتصف العمر، حتى تصبح أكثر شبهاً باللكنات المعاصرة ذات المكانة الاجتماعية العالية Latest prestige accent . ويعد ذلك مثلاً واضحاً على مرحلة التأويل فى البحث العلمى، حيث يتجاوز الباحث أرقامه وإحصائياته ويربط نتائجه وفرضيته بنظرية عامة، وقد اختبر لابوف هذه الفرضية المعدّلة بعد ذلك فى دراسته الرئيسية عن مدينة نيويورك

وانتهى إلى تأكيدها (لابوف Labov ١٩٧٢ - أ : الفصل الخامس) .

٥ - ٢ - ٣ مثال من نورويش :

وسنقدم الآن دراسة أخرى أجراها بيتر تردجيل Peter Trudgill من جامعة ريدينج فى إنكلترا . ويقدم لنا هذا البحث مثالاً على « منهج لابوف الكلاسيكى » Classical Labovian Method ، وذلك باستخدام طريقة «المقابلة المخطَّط لها سلفاً» Structured interview (تردجيل Trudgill ١٩٧٤ - أ). وقد اختار الباحث مدينة نورويش Norwich ، وهى مسقط رأسه وهذه مسألة وثيقة الصلة بالبحث إلى حدٍ كبير، فقد توفرت لتردجيل معلومات واسعة لم تكن معروفة إلاَّ لمواطنى نورويش عن البُنية الاجتماعية لنورويش وعن لكنات قاطنيها ، واستطاع أيضاً أن يتحدث لكنة نورويش عند إجراء مقابلته ، وبذلك استطاع أن يشجع المتحدثين على التكلم بطريقة طبيعية لم تكن لتتوفر لهم لو أنه استخدام اللكنة الإنكليزية المتواضع عليها RP . ومن المهم أن نؤكد على مثل هذه الحقائق ، وذلك لأن تأثير كلام مَنْ يجرى «المقابلة المعدة سلفاً» على مَنْ يقابلهم يعد إحدى العقبات الرئيسية، وذلك عند استخدام أسلوب المقابلات الرسمية Formal interview لجمع المادة العلمية .

وقد تمَّ اختيار المتحدثين وفقاً للخطة المعدة باحكام ، وذلك وفقاً لما كان معروفاً من قبل عن البُنية الاجتماعية لنورويش . وقد اختيرت أربع مناطق فى المرحلة الأولية تمثّل أنواعاً مختلفة من السكان ومجموعة من ذوى المكانات الاجتماعية ، ثم تمَّ اختيار الأفراد عشوائياً من السجلات الانتخابية فى هذه المناطق الأربع ، ومن ثم تمَّ الاتصال بهم فى منازلهم لمعرفة ما إذا كانوا يوافقون على الاشتراك فى المقابلة . وقد قبل معظمهم الاشتراك (إلاَّ أن حوالى ١٥ من مجموع من اتصل بهم وهم حوالى ٩٥ رفضوا الاشتراك) ، ولكن الباحث اضطر لتنحية بعض من وافقوا جانباً لأسباب عديدة منها أنهم كانوا حديثى عهد بنورويش، أى أنهم انتقلوا إليها فى السنوات العشر السابقة على اجراء البحث. واستبدل الباحث عشوائياً بالأفراد الذين رفضوا المشاركة أو

الذين نحوا جانباً أفراداً آخرين ، حتى بلغ مجموع المشتركين فى الدراسة حوالى ٥٠ بالغاً مناسباً راغباً فى الاشتراك طواعية . وأضاف تردجيل إلى هؤلاء حوالى ١٠ من تلاميذ المدارس حتى يوسّع المدى الزمنى لأعمار المشتركين ، وبذلك أصبح مجموع المقابلات التى يجب إجراؤها حوالى ٦٠ مقابلة . وقد يبدو ذلك لأول وهلة عدداً صغيراً لا يمكننا من تعميم نتائج الدراسة على الأنماط اللغوية العامة التى يستخدمها مواطنو نورويش ، الذين يبلغ تعدادهم حوالى ١٦٠,٠٠٠ نسمة . ولكن مثل هذه العينة كافية تماماً من الناحية الإحصائية لتعطينا صورة عريضة لأنماط التباين Patterns of variation وذلك ، شريطة ألا نأخذ فى الاعتبار عدداً كبيراً من العناصر الاجتماعية المسببة للتباين ، أو أن نحاول التمييز بين الاختلافات الدقيقة . (وكقاعدة عامة ينبغى ألاّ يقل عدد الأفراد الذين ندرسهم فى كل تصنيف اجتماعى Social category عن خمسة أفراد ، ولذلك يعد عشرون فرداً عدداً كافياً تماماً للقيام بمقارنة طبقتين اجتماعيتين أو جنسين ، ولكننا سنحتاج إلى ٤٠ فرداً ، وذلك إذا أردنا إضافة عامل تفاوت السن بطريقة مزدوجة مركّبة Two-way age contrast) .

وينبغى أيضاً اختيار الظروف أو المواقف التى سيؤدى فيها المشتركون مقابلاتهم، ولكن عملية الاختيار سابقة الإعداد ذاتها قد تساعد على تحديد ظروف المقابلات ، وقد كانت المقابلة الرسمية هى الطريقة الوحيدة المناسبة للحصول على المادة العلمية الشاملة التى يرغب الباحث فى الحصول عليها . ولكن تردجيل اتبع خطوات لابوف فى تحديد بُنية المقابلة وإعدادها ، فتضمنت المقابلة الواحدة عدداً من الظروف أو المواقف المختلفة . وقد جرت معظم أجزاء المقابلة وفقاً للأنماط المعهودة للمقابلة الرسمية، ولذلك كان من المتوقع أن تخرج بأسلوب كلام رسمى نسبياً . فقد طلب تردجيل من المشتركين فى الدراسة أن يقرأوا قطعة من النثر وقائمة من الكلمات على افتراض أن القراءة ستؤدى إلى أسلوب ذى طابع رسمى، يقوم القارىء فيه بالاهتمام اهتماماً كبيراً بكلامه . ولكن كلام المتحدث فى أوقات أخرى من المقابلة تحرّك نحو الكلام العادى ، ومال إلى أسلوب أقل درجة من الرسمية - وذلك - مثلاً عندما يقاطعه أحد أفراد أسرته الآخرين أو حين يطلب منه أن يروى قصة أو حادثة أضحكته كثيراً . وقد زعم

ترد جيل متبعاً بذلك لابوف أن هناك عدداً من « شواهد تغيير القناة » Channel cues فى الكلام ، وذلك مثل تغيير السرعة Tempo أو مدى طبقة الصوت Pitch range ، يمكننا من خلالها التعرف على الأسلوب الأقل قدراً من الرسمية فى الكلام حتى أنه يمكننا أن نقسِّم كل مقابلة (دون تسوية بين هذه الأقسام) إلى أربعة أنواع من أساليب الكلام هى : الأسلوب « العادى » casual الذى يمكننا التعرف عليه بواسطة شواهد تغيير القناة ، والأسلوب « الرسمى » formal (الذى يكون معظم أجزاء المقابلة) ، وأسلوب «قراءة النصّ» reading passages ، وأسلوب قراءة « قائمة المفردات » word-list ، ويمكننا أن نعتبر هذه التصنيفات وصفاً يمثّل بعض نوعيات اللكنات التى يملكها المتحدث ويستطيع استخدامها فى مواقف مختلفة وتحت ظروف متنوعة .

وقد تم اختيار المتغيّرات اللغوية مسبقاً على أساس ما نعرفه فعلاً عن التباين القائم فى نورويش . وقد تمّ اختيار ١٦متغيِّراً لغوياً للدراسة (تتكون من ثلاثة صوامت وثلاثة عشر صائتاً) ، ولذلك فَمِنَ الصعب أن نقدم صورة كاملة لنتائج هذا البحث فى الحيِّز المتاح هنا ، وبالتالى فإننا سنقتصر على دراسةمتغيِّر واحد فقط هو (ng) لنوضّح مدى ارتباط هذا المتغيِّر اللغوى بالمتغيِّرات الاجتماعية المدروسة . ويتضمن هذا المتغيِّر الصيغ البديلة لنطق اللاحقة ing- ، والتى تنطق أحياناً متضمنة n (التى نرمز لها بالحرف n كحرف صامت وذلك (كما فى ,huntin', shootin' fishin') ، وتنطق أحياناً أخرى [n] (كما فى sing) وعلى ذلك فهناك بديلان لهذا المتغيِّر هما [n] : (ng) و [n] : (ng) . من بين هاتين الصيغتين يعد البديل [n] : (ng) الصيغة التى تمثّل اللغة الإنكليزية المتواضع عليها RP ، ولذلك نتوقع أن نستخدم صيغة [N] : (ng) بنسبة أكبر بين المتحدثين ذوى المكانة العليا فى الغالبية العظمى من الحالات تزيد عنها بين المتحدثين ذوى المكانة الدُنيا ، وأن تُستخدم كذلك بنسبة أكبر فى الغالبية العظمى من الحالات التى ينتبه فيها المتحدثون إلى أسلوبهم فى الكلام .

وقد أكدت نتائج دراسة ترد جيل (انظر الشكل ٥ - ٣) هاتين الفرضيتين

بوضوح حيث تمثّل كل مجموعة من الأعمدة (مخططاً لتوزيع التواتر) histogram متوسط نتائج كل مجموعة من المتحدثين ، التى تعكس بدورها مجموعة من العناصر وهى : المهنة ، والدخل ، والتعليم ، ونوعية السكن ، ومحل الإقامة ومهنة الأب (تردجيل ١٩٧٤ - أ : ٣٦) . وتُستخدم كل هذه العناصر مجتمعة لتحديد نظام هرمى من الطبقات الاقتصادية الاجتماعية Socio-economic classes . وسنوضح كل ذلك فيما بعد (انظر ٥ - ٤ - ٢) عند حديثنا عن تصنيف المتحدثين ، أما الآن فيمكننا قبول ذلك على أنه تقسيم دَرَجى يعتمد أساساً على المكانة الاجتماعية . وتؤكد نتائج الدراسة صحة الفرضية القائلة بأن غالبية المتحدثين من ذوى المكانة الاجتماعية العالية يستخدمون البديل [n] : (ng) بنسبة أكبر من استخدام ذوى المكانة الاجتماعية الدُنيا . ويمكننا بالطبع أن نتجاوز ذلك بصياغة الفرضية بطريقة أكثر دقة فنقول : إن نسبة استخدام البديل [n] : (ng) فى الكلام العادى منخفضة للغاية (من صفر إلى ٢٠٪) بين مجموعة أفراد « الطبقات العاملة » ، وهى عالية نسبياً (من ٦٠٪ إلى ٨٠٪) بين أفراد مجموعات « الطبقات المتوسطة » .

وقد تأكدت أيضاً الفرضية الخاصة بأثر مدى اهتمام المتحدث بالكلام وذلك بالارتفاع العام فى نسبة [n] : (ng) فى أسلوب قراءة « قوائم المفردات » عنها فى أسلوب « الكلام العادى » . غير أن الاختلاف الأساسى عند متحدثى الطبقة المتوسطة يقع بين الأسلوب العادى والأسلوب الرسمى ، بينما يقع هذا الاختلاف عند متحدثى الطبقة العاملة بين الأسلوب الرسمى وأسلوب قراءة النصّ النثرى . وتثير مثل هذه النتائج مشكلات هامة بالنسبة لتأويلها ، لأن معنى ذلك (على الأقل بالنسبة لهذا المتغيِّر) أن متحدثى الطبقات المتوسطة شديدو الحساسية لمدى الاختلاف فى درجة الرسمية فى الحديث formality ، أو ما يمكن أن تُطلق عليه المحادثة الارتجالية (غير المدوَّنة) unscripted conversation ، (ونحن نستخدم هذا المصطلح للدلالة على كل من الأسلوبين العادى والرسمى) ، بينما نجد أن متحدثى الطبقة العاملة ليسوا مرهفى الحس لذلك ولكنهم شديدو الحساسية لمدى الاختلاف بين المحادثة الارتجالية والقراءة . وإذا ثبتت صحة هذه الفرضية ، ألا يمكن تعميمها لتشمل كل المتغيِّرات ولا تقتصر على المتغيِّر (ng) فقط؟ وتؤكد بعض المتغيِّرات اللغوية الأخرى خضوعها

لنفس النمط ، وبالتالى تبدو هذه الفرضية معقولة للغاية ، فهل يمكننا إعادة صياغتها بطريقة أكثر دقة ؟ ليس من المعقول أن يكون متحدثو الطبقات المتوسطة قد رفعوا من نسبة استخدامهم لـ [n] : (ng) في القراءة عنها في المحادثة الارتجالية ، وذلك لأنهم يستخدمون هذه الصيغة بالفعل طوال الوقت وبالتالى فَمِنَ المحتمَل أن يكونوا ، من حيث المبدأ ، على نفس درجة حساسية متحدثى الطبقات العاملة بالنسبة للاختلافات القائمة بين المحادثة الارتجالية والقراءة ، وأن يكون استخدامهم للبدائل المتواضع عليها مرتفعاً نسبياً في القراءة عنه في المحادثة الارتجالية ، وذلك في البدائل التى يمكن زيادة نسبتها . وقد وُجِدَ مثل هذا النمط في أحد المتغيِّرات الأخرى وهو نطق الحرف /t/ (الذى يتباين بين [t] أو [t^h] المتواضع عليهما) . فقد زادت نسبة استخدام متحدثى الطبقة الوسطى لصيغة [t] : (t) المتواضع عليها في القراءة بنفس نسبة الزيادة الحادة التى طرأت على استخدام متحدثى الطبقة العاملة (ترِدجيل Trudgill ١٩٧٤ - أ : ٩٦) . ومن ناحية أخرى ، لم تطرأ أية تغيرات على المتغيِّر (t) بين الأسلوبين العادى والرسمى حتى بين متحدثى الطبقة المتوسطة ، ويعد ذلك بمثابة تقويض للشطر الأول من هذه الفرضية . وفضلاً عن ذلك ، فهناك متغيِّرات لا يطرأ عليها أى تغيير في الأساليب التى تستخدمها أية مجموعة من مجموعات المتحدثين ، بالرغم من أن مجموعات مختلفة من المتحدثين تختلف اختلافاً بيِّناً في استخدامها لتلك المتغيِّرات .

ولذلك فإنه بالنسبة لنورويش، علينا أن نستنتج (مع ترِدجيل) أن تأثير الأسلوب يختلف حسب (١) المتغيِّر اللغوى ، ذاته ، (٢) الطبقة الاقتصادية والاجتماعية التى ينتمى إليها المتحدث ، (٣) اختلاف الأساليب المعنية التى نكون بصدد دراستها وبخاصة خلافها مع أسلوب المحادثة الارتجالية ، والذى لا يتطابق بالضرورة مع الخلاف بين المحادثة الارتجالية والقراءة . وتظل المشكلة هى كيفية وضع هذه النتائج في إطار نظرية تأويلية شاملة . ولكن ليس هناك شك في أننا لم نكن نستطيع إدراك أبعاد هذه المشكلة دون هذه الدراسة الكمية التى جمعت المادة العلمية بالدقة المطلوبة .

٥ - ٢ - ٤ مثال بلفاست :

والدراسة الأخيرة التى سنقدمها هنا هى التى قام بها كل من جيمس وليزلى ميلروى James and Lesley Milroy فى بلفاست فى إيرلندة الشمالية ، حيث قدمت هذه الدراسة فى عدد من الأبحاث المنشورة . (ج . ميلروى J. Milroy ١٩٧٨، ل. ميلروى ١٩٧٦ ، ميلروى ومارجرين ١٩٧٨ Milroy and Margrain ، ج . و ل. ميلروى ١٩٧٨ ، ل . و ج . ميلروى ١٩٧٧). ويختلف منهجهما فى الدراسة عن منهج لابوف الكلاسيكى المستخدَم فى دراسة تردجيل لنورويش ، ولكنه مشابه للمنهج الذى استخدمه لابوف نفسه فى دراسة كلام المراهقين الزنوج الأمريكيين التى أجراها فى نهاية الستينات (انظر بصورة خاصة لابوف ١٩٧٢ - ب : الفصل ٧). وإذا كنا سنتحدث عن أبحاث الزوجين ميلروى فى صيغة الماضى ، فيجب التنبيه إلى أنهما ما زالا يعيشان فى بلفاست وما زالا يطوران مناهجهما فى ١٩٧٨ .

إن الاختلاف الرئيسى بين دراسة الزوجين ميلروى ودراسة تردجيل سابقة الذكر ، هو أن ليزلى ميلروى التى قامت بمعظم الأبحاث الميدانية ، قد قبلت كصديقة من قبل معظم المجموعات التى قامت بدراستها ، مما جعل من غير الضرورى استخدام وسيلة المقابلة الرسمية . وكان من مميِّزات ذلك الوصول إلى دراسة الكلام العادى الحقيقى كما يُستخدَم بالفعل بين الأصدقاء ، وذلك لأن وجود الباحثة لم يؤثر على درجة رسمية الموقف . وأيّاً كانت درجة « العادية » التى يتقمّصها الغريب ، تظل المقابلة الرسمية هى المقابلة الرسمية ، وليس هناك ضمان لعادية الكلام الذى زعم كل من لابوف وتردجيل أنه كلام « عادى » . وهناك ميزة أخرى لمثل هذه الطريقة ، تلك أنها تفتح آفاقاً جديدة ومثيرة فى التأويل النظرى للمادة العلمية اللغوية الاجتماعية . فعندما نصبح أصدقاء للناس الذين نجرى عليهم أبحاثنا ، فإننا نصبح بالتالى جزءاً من شبكة العلاقات القائمة بينهم network ، ويمكننا عندئذ استخدام بُنية هذه الشبكة مادة علمية اجتماعية يرتبط بها الكلام . وسنعود إلى مناقشة هذا الرأى فيما يلى (انظر ٥ - ٤ - ٣) .

وقد قرر الزوجان ميلروى قبل أن يبدءا دراستهما ألا يغطيا كل الطبقات الاقتصادية الاجتماعية ، واقتصرا على دراسة الطبقة العاملة فى بلفاست . وقد تمَّ اختيار ثلاث مناطق محددة من المناطق العمالية تعد جميعاً نموذجاً للمناطق العمالية ذات المستوى المعيشى الهابط ، والتى تعانى من نسبةٍ عاليةٍ من البطالة وتعانى أنواعاً أخرى من الأمراض الاجتماعية » (ج . و ل . ميلروى J. & L. Milroy ١٩٧٨) . ورغم التشابه القائم بينها ، فقد كانت هناك اختلافات هامة بين هذه المناطق الثلاث ، حيث غَلَبَ على منطقتين من هذه المناطق المذهب البروتستانتى ، بينما غلب المذهب الكاثوليكى على المنطقة الثالثة . وفى المنطقة الأولى من هاتين المنطقتين البروتستانتيتين وهى منطقة باليماكاريت Ballymacarrett كانت الصناعة التقليدية، وهى صناعة السفن ، ما تزال هى الصناعة السائدة بين السكان المحليين ، بينما كانت الصناعة التقليدية فى المنطقتين الأخريين ، وهما المنطقة البروتستانتية الأخرى الهامر the Hammer والمنطقة الكاثوليكية هى صناعة النسيج التى تدهورَ بها الحال حتى أصبح السكان دون عمل ، وبذلك لم يجد رجال هاتين المنطقتين مفراً من السفر إلى خارج الحى السكنى بحثاً عن العمل والرزق . وسنرى فيما بعد أهمية هذا الاختلاف فى أنماط العمالة وارتباطه الوثيق باختلافات الكلام .

استطاعت ليزلى ميلروى فى كل من هذه المناطق على حدة أن تقيم مجموعة من العلاقات مع مجموعة بعينها من السكان المحليين ، وذلك عن طريق تقديم نفسها دائماً للأفراد على أنها « صديقة صديق فلان » - وهى صفة اجتماعية شائعة ومتداولة فى مثل هذه الجماعة ، وهىَ صفة تعطى الباحثة صفة فرد من أفراد الأسرة . وبالطبع ، تتطلّب إقامة مجموعة كبيرة من الصداقات والعلاقات والمحافظة عليها الكثير من البذل والعطاء والجهد من جانب الباحثة (هذا علاوة على اللباقة والشجاعة والدبلوماسية التى تحتاجها الباحثة فى مدينة يمزّقها الصراع الطائفى ، مثل بلفاست) ، ولا يناسب مثل هذا النوع من الدراسة دارسى علم اللغة الاجتماعى الذين يفضلون الدرس والتأمل وهم فى مقاعدهم الوثيرة . ونتيجة لجهودها أصبحت ليزلى ميلروى صديقة عزيزة يُسمح لها بزيارة أى منزل فى أى وقت ، ويُسمح لها بالجلوس فى المطبخ

للاستماع للحديث والاشتراك فيه ، كلما أرادت ذلك ، كما سُمح لها أيضاً باصطحاب مسجّل لتسجيل الحديث ، بعد أن شرحت لأصدقائها أنها مهتمة بكلام بلفاست . ويبدو أنه من غير المحتَمل أن يكون وجودها أو وجود المسجّل قد أثر على الطريقة التى يتحدث بها الناس فى مثل هذه الظروف .

وقد قام الزوجان ميلروى بتفريغ هذه الشرائط المسجلّة بنفس طريقة تردجيل ، محددين من البداية البدائل من خلال قائمة مسبقة الإعداد من المتغيِّرات ، وذلك بمقارنة تواترها فى النصوص . ويبدو أن من أهم النتائج التى وصلا إليها ، هى أثر بُنية الشبكات الاجتماعية social network structure على الكلام . وسنعرض لذلك فيما بعد بالنسبة لعدد من العناصر الاجتماعية المختلفة المرتبطة بالتباين فى الكلام (انظر ٥ - ٤ - ٣) .

٥ - ٣ المتغيِّرات اللغوية Linguistic variables :

٥ - ٣ - ١ أنواع من المتغيِّرات Types of variables :

المتغيِّرات اللغوية التى قام علماء علم اللغة الاجتماعى بدراستها هى المتغيِّرات التى يثبت فيها المعنى بينما تتباين الصيغ ، هذا بالرغم من أنه يمكننا من الناحية النظرية دراسة الجوانب التى تُستخدم فيها صيغ الماضى المختلفة بطرقٍ مختلفة كمتغيِّر لغوى . ولكن مثل هذا **التعريف** لماهية « المتغيِّر اللغوى » ، قد يؤدى إلى مشكلات حقيقية حيث إنه من الصعب أن نحدد بوضوح ماذا نعنى بلفظة « المعنى » أو ماذا نعنى بثباته ، إذ يمكننا ، مثلاً ، القول بأن كلمتى **cat** (قط) و **pussy** (بوسى) تدلان على نفس المعنى ، وبالتالى يمكن اعتبارهما متغيِّراً لغوياً بنفس الطريقة التى تسمح لنا باعتبار صيغتى نطق **house** دون [h] أو بها متغيِّراً لغوياً . ولكن مفهوم «المتغيِّر اللغوى» ، لحسن الحظ ، ليس جزءاً من نظرية عامة فى اللغة ، بل هو أداة من أدوات التحليل التى يستخدمها عالِم اللغة الاجتماعى ، ولذلك لا ينبغى ألاّ ينتابنا القلق إزاء مثل هذه المشكلات الخاصة بالتعريف . فعلماء علم اللغة الاجتماعى

الذين يستخدمون « المتغيرات اللغوية » لم يحاولوا تعريفها تعريفاً دقيقاً ، ولا يبدو أن هناك أية جدوى من محاولة ذلك هنا .

وباستثناء قولنا بأن « المتغيِّر اللغوى » ينبغى ألاَّ يتطلَّب أى تغيير فى المعنى، ليس لدينا ما نقوله عن الجوانب اللغوية التى يمكن أن تتضمن متغيِّرات . فهى قد تكون موجودة فى نطق كلمات بعينها ، أو فى نوع بأكمله من الكلمات (مثل كل الكلمات التى تبدأ فى لكنة بعينها بـ [h] أو تنتهى بصيغة (ing-) وفى أنماط التراكيب . وقد اقتصرت كل الدراسات التى قمنا بإيجازها على دراسة المتغيِّرات الخاصة بالنطق ، ولكن هناك عدداً كبيراً من الدراسات الخاصة بدراسة المتغيِّرات التركيبية نوضحها فى القائمة التالية :

- (no / any) فى اللغة الإنكليزية الأمريكية للمراهقين من البيض والزنوج (لابوف ١٩٧٢ - ب : الفصل الرابع) .

  مثال : e.g. I didn't eat no / any apples

- وجود أو عدم وجود is / are فى اللغة الإنكليزية الأمريكية للزنوج (لابوف ١٩٧٢ - ب : الفصل الثالث ، وهو مجرد واحد من بين دراسات عديدة) .

  مثال : e.g. John (is) tired

- وجود أو عدم وجود that كحرف وصل subordinating conjunction فى اللغة الأمريكية المتواضع عليها (كروش وسمال Kroch & Small ١٩٧٨) .

  مثال : e.g. They think (that) it's difficult.

- وجود أو عدم وجود حرف النفى ne فى فرنسية مونتريال (سانكوف وفيسنت ١٩٧٧ Sankoff & Vicent) .

مثال : e.g. Pierre (ne) dort pas. "Peter is not sleeping".

- avoir / etre كفعل مساعد مع بعض الأفعال الفرنسية فى مونتريال (سانكوف وتيبولت Sankoff and Thibault) .

مثال : e.g. Pierre a/est parti. "Peter has left".

- fu / tu كحرف يسبق الفعل (to) فى كريولية جيانا (بيكرتون Bickerton ١٩٧١).

مثال : e.g. You want fu/tu go.

المثال الأخير واحد من العديد من المتغيِّرات التراكيبية syntactic variables التى دُرِسَتْ فى اللغات الكريولية ، والتى يبدو أنها شائعة للغاية . وعلى أية حال، فإن عدداً قليلاً جداً من هذه الدراسات يعد من الدراسات باستثناء (لى باج ١٩٧٧ - أ Le Page ، لى باج وآخرين ١٩٧٤ Le Page et al) . وهناك عرضان شاملان للمتغيِّرات التراكيبية التى دُرِسَتْ ، أو التى ينبغى دراستها فى سانكوف Sankoff (١٩٧٣ ب) وتردجيل (١٩٧٨ : ١٣) .

وهناك عدد من المشكلات الهامة التى تجعل دراسة متغيِّرات النطق pronunciation variables أكثر صعوبة مما قد نعتقد لأول وهلة . ومن هذه المشكلات، حالة الفوضى أو عدم الاستقرار التى تسود نظرية علم الأصوات phonological theory فى الوقت الراهن ، حيث هناك مشكلات خاصة بتعريف الوحدة الصوتية المجردة phoneme وبطبيعة الصيغ التحتية underlying forms للكلمات ، إلخ . فهل من الصواب ، مثلاً ، معاملة الصوت [r] فى cart مثالاً على نفس الوحدة الصوتية المجردة الموجودة فى car ؟ وهل نستطيع اتخاذ الاختلافات التى وَجَدَها لابوف فى دراسته لنيويورك دليلاً على أنها وحدات صوتية مجردة مختلفة (هذا إذا افترضنا أن مصطلح «الوحدة الصوتية المجردة» مصطلح ذو معنى) ؟

وهل نكون على صواب عندما نتصور أن الوحدات الصوتية المجردة مثل /h/ موجودة فى الصيغة التحتية لكلمات مثل house ، بالرغم من أن المتحدثين لا ينطقونها فى معظم كلامهم العادى ؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فبأى حق نفترض أن أولئك المتحدثين يختارون بالفعل بين صيغتى نطق house دون [h] أو بها ، كما يفعل المتحدثون الآخرون الذين ينطقونها أحياناً ، ولكنهم فى بعض الأحيان لا ينطقونها ؟ وستبدو هذه المشكلات أقل أهمية لو أننا تعاملنا مع المتغيِّرات اللغوية باعتبارها أدوات تحليلية فقط ، ولكن يظل السؤال مطروحاً عن كيفية تأويل عناصر المتغيِّرات اللغوية التى طُبِقَتْ دون تمييز على كل الكلام الوارد فى العينّة المدروسة ، وذلك دون التفات للنظام اللغوى الخاص بكل متحدث (انظر سانكوف وتيبولت ١٩٧٨ Sankoff & Thibault اللذين يقدمان اقترحات هامة بشأن إيجاد حلول لهذه المشكلات، مع تجنب المشكلات اللغوية تماماً) .

وبالإضافة إلى المشكلات الخاصة بتعريف هذه المتغيِّرات فى حد ذاتها ، هناك مشكلات أخرى خاصة بتحديد البدائل الخاصة بكل متغيِّر على حدة ، ومنها مسألة استقلال هذه البدائل discreteness ، وليست هناك أية متغيِّرات لا تطرح مثل هذه المشكلة بشكل أو بآخر ، ولكنها تبدو مشكلة هامة فى حالة الصوائت . فقد كان الحرف الصائت (a :) أحد المتغيِّرات اللغوية التى درسها تردجيل فى نورويش ، وذلك فى كلمات مثل after, cart, path (تردجيل ١٩٧٤ - أ : ٨٧) . ويتباين هذا الحرف الصائت فى نورويش من [α:] الخلفية إلى صائت متقدم جداً ومنخفض [a:]، وقد حدد تردجيل لهذا الحرف قيمة وسطى بين هاتين النهايتين ، وقد رمز لهذا الصوت لغوياً بالرمز [α̈ : ~ ä:]، ولكن يبدو أن هذا التقسيم مجرد تقسيم مناسب ولا يعكس حقائق النطق فى نورويش . وينبغى علينا أن نفترض أن هناك متواصلاً بين [α:] و[a :]، وأن أى تقسيم لا يعدو أن يكون اعتباطياً، وقد يؤدى مثل هذا التقسيم فى أحسن الأحوال إلى خطأ فى إطلاق الأحكام وقد يؤدى فى أسوأها إلى تحريف فى النتائج . ولو اكتفينا مثلاً ، بالتحديد الثنائى فقط دون افتراض نقطة وسيطة، فإن ذلك من شأنه أن يؤدى بنا إلى اعتقاد أن المتحدثين فى نورويش لا

ينطقون إلاّ هاتين الصيغتين دون أية صيغة وسيطة ، ولا تكون هناك وسيلة لبحث إمكانية استخدامهم لتلك الصيغة الوسيطة . وقد نواجه نفس المشكلة حتى مع متغيِّر، مثل (h) ، الذى قد يبدو ، لأول وهلة ، موجوداً كمقطع صوتى أو يبدو غير موجود ، بينما هو فى حقيقة الأمر موجود بدرجات متباينة تماثل ما يحدث للحرف الصائت (a:)، الذى يمكن نطقه بدرجات خلفية backness متباينة .

وهناك مشكلة أخرى خاصة بالأبعاد dimensions(انظر بصفة خاصة نولز Knowles ١٩٧٨) . وربما تكون الفقرة الأخيرة قد أعطتنا انطباعاً بأن المتغيِّر (a:) لا يحدده سوى بعد صوتى واحد فحسب ، هو على وجه التحديد درجة الأمامية / الخلفية فى وضع اللسان frontness/backness ، ولكن الرموز الصوتية transcription ، التى استخدمها تردجيل ، تعتمد أيضاً على بعدٍ ثانٍ يعتمد على المخرج وعلى ما إذا كان الصوت فموياً أَم أنفياً nasal/oral ، فقد يكون البديل الأمامى (دون الخلفى أو الوسيط) أنفياً [a:] . وقد قام تردجيل بالجمع بين صيغتى [a:] و [ã:] كأمثلة على نفس البديل . ومن ثم لم تعد هناك وسيلة للتعرف ، من خلال تحليله ، على ما إذا كانت هاتان الصيغتان قد استخدمهما أشخاص مختلفون أم أنهما استخدمتا فى ظروف مختلفة ، ولا مفر أمامنا إلاّ أن نفترض أن تردجيل كان متأكداً منذ البداية أن الأمر ليس كذلك . وقد نعترض على ذلك بقولنا أن تردجيل لم يكن ليعرف ذلك دون قيامه بتحليل كامل ، ولكن نظام لابوف التحليلى يجبرنا على تحويل كل الأبعاد الصوتية التى تختلف البدائل وفقاً لها إلى بعدٍ واحد فحسب يتمثّل فى قائمة واحدة منظّمة من البدائل . (وسنعرف السبب فى ذلك فى ٥ - ٣ - ٢) .

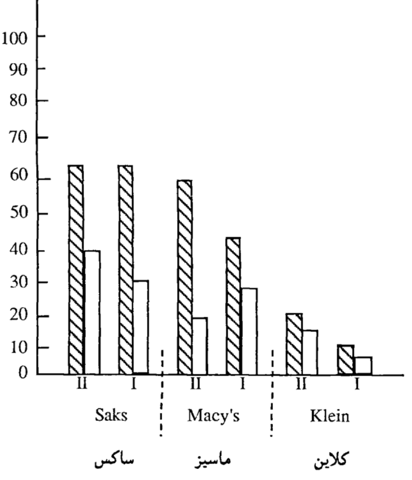
وقد تصبح المشكلات أكثر حدة ، عندما يكون هناك عدد أكبر من المتغيِّرات الصوتية ، كما هو الحال بالنسبة للمتغيِّر (a) فى بلفاست (انظر ج . وول ميلروى ١٩٧٨) ، وهو الحرف الصائت فى كلمات مثل fast, man, bag, back, cat. ولهذا الصائت بدائل تتراوح بين الصيغ التالية : [a] وهى صيغة المكانة المحلية المرتبطة بالمتحدثين الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة، ويستخدم المتحدثون من الطبقة العاملة

الصيغة [ɛ](وهى مرفوعة وأمامية نسبياً) ، وذلك قبل الصوامت الحلقية velar consonants مثل bag, back ، ويظهر الحرف [a] فى سياقات أخرى أكثر خلفية وأحياناً يكون أكثر علواً raised وذلك دون صوت انزلاقى centring off-glide فى الوسط أو به ، ويُنطق على هذا النحو[ɔ.ə] . ولا تتوقف أهمية هذا المثال على تحديد عدد من التعارضات الصوتية المتداخلة (مثل أمامية / خلفية منخفضة / مرتفعة / بدون صوت انزلاقى أو به) ، بل إنه يكشف أيضاً عن صعوبة تحديد هذه البدائل فى قائمة واحدة منتظمة تبعاً لأسس صوتية ، فليس ثمة نهايات صوتية واضحة تمثّل قطبى هذه القوائم . فهناك متطرفات بالطبع ، ولكنها كثيرة جداً بحيث لا يمكننا التعامل مع كل من [a] و [ɛ] و [ɔ.ə] كنهايات متطرفة. والمشكلة هى أن منهج لابوف يتطلّب وجود قائمة واحدة منظمة من البدائل ، بينما لا يمكن تحوّل نمط ثلاثى كالذى عرضناه فى حالة بلفاست [a] إلى قائمة لابوف . (ويصف بردان Berdan ١٩٧٨ منهجاً إحصائياً يمكن من خلاله تحديد النتائج الخاصة بعدد من المتغيِّرات المختلفة فى صورة متغيِّر واحد أكثر تحديداً ، ولكن حتى باستخدام مثل هذا المنهج ينبغى أن يكون لدينا أكثر من متغيِّر مجرد واحد) .

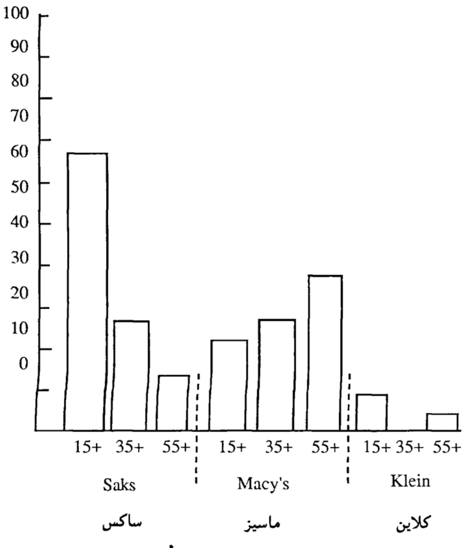
٥ - ٣ - ٢ حساب المعدلات للنصوص :

يقدم لنا منهج لابوف الكلاسيكى وسيلة سهلة لتحديد معدلات للنصوص ، وذلك حتى يمكننا أن نبيِّن أوجه الاختلاف وأوجه الشبه بين استخدامات المتحدثين للمتغيِّرات اللغوية . ولكننا سنرى أن هناك عيوباً خطيرة فى مثل هذا المنهج . إذ يحسب المعدل فى كل نصٌ على حدة ، وذلك لكل متغير على حدة ، الأمر الذى يسمح لنا بمقارنة النصوص من ناحية كل متغيِّر على حدة ، ويعد ذلك الهدف الأولى للدراسات الكمية للنصوص . وحتى نتمكن من حساب معدلات النصوص الخاصة بكل متغيِّر على حدة ، يجب تحديد معدل لكل بديل من بدائل هذا المتغيِّر على حدة ، فيصبح معدل النصّ هو متوسط كل المعدلات الفردية للبدائل فى هذا النصّ. ولو أننا أخذنا مثالاً بسيطاً على ذلك ، فلنقل ان لدينا متغيِّراً واحداً ذا بدائل ثلاثة هى أ ، و ب ، و ج ، واننا قد قمنا بحساب المعدلات الخاصة بهذه البدائل على النحو التالى : ١

لكل مثال من أ ، و ٢ لكل مثال من ب ، و ٣ لكل مثال من ج . ولنفرض أيضاً أن لدينا نصاً يتضمن ١٢ أو ٢٣ ب و ٧٥ ج . وعلى ذلك ، سنقوم بحساب معدل النصّ على أساس معدل كل أ (١٢ × ١ = ١٢) ، وكل ب (٢٣ × ٢ = ٤٦) وكل ج (٧٥ × ٣ = ٢٢٥) ، ثم نقوم بجمع كل هذه المعدلات (١٢ + ٤٦ + ٢٢٥ = ٢٨٣) ، ونقسّم الحاصل على مجموع عدد البدائل الموجودة (١٢ + ٢٣ + ٧٥ = ١١٠) فيكون المعدل هو ٢٨٣ ÷ ١١٠ = ٢,٥٧ . وهذا هو معدل هذا النصّ الخاص



الشكل ٥ - ١ نطق (r) فى نيويورك . النسبة المئوية لنطق [r] : (r) فى المرة الأولى I ، وفى المرة الثانية II لكلمتى fourth (الأعمدة البيضاء) floor (الأعمدة المخططة) للبائعات فى ثلاثة متاجر فى نيويورك ، نقلاً عن لابوف ١٩٧٢ - أ : ٥٢ .



بهذا المتغيِّر ، ويصبح من السهل علينا بالتالى أن نقارن بين هذا المعدل ومعدل هذا المتغيِّر ذاته فى كل النصوص الأخرى .

الشكل ٥ - ٢ نطق (r) فى نيويورك . نسبة توزع البائعات فى ثلاث مجموعات أعمار فى ثلاثة متاجر حسب استخدام [r] : (r) بانتظام . نقلا عن لابوف ١٩٧٢ - أ : ٥٩ .

وهناك عيبان هامان فى هذا المنهج ، يتعلّق أولهما بمسألة التنظيم الترتيبى ranking للبدائل والذى سبق أن أشرنا إليه فى ٥ - ٣ - ٢ . حيث إن تحديد معدلات

مستقلة لكل من البدائل المنفردة (١ لكل أ ، و ٢ لكل ب ، إلخ) يجب أن يتم وفقاً لأسس معينة ، وإلاَّ كانت هذه المعدلات لا معنى لها ، ذلك لأن تحديد المعدلات ليس مسألة جزافية ، حيث يمكن تغيير العلاقات الظاهرية بين النصوص تغييراً تاماً ، وذلك إذا طبقنا نظاماً حسابياً مختلفاً على هذه المعدلات . ولا يبدو أن هناك مشكلة إذا وُجِدَ بديلان فقط لكل متغيِّر ، لأنه لا يهم في هذه الحالة أيهما يعطى المعدل «الأعلى» وأيهما يعطى المعدل « الأصغر » (بشرط أن نتمسك بنفس هذه المعايير فى التحليل كله) . وتبدو المشكلة واضحة إذا كانت هناك ثلاثة بدائل أو أكثر ، لأن نظام حساب المعدلات يعكس ترتيباً معيناً ordering للبدائل ، فيتم اختيار بديلين معينين متعارضين ، ثم يتم ترتيب البدائل الأخرى بينهما كقيم وسيطة. ومعنى ذلك ، أنه إذا أمكن للقائم بالتحليل التعرف على ثلاثة بدائل أو أكثر من بدائل المتغيِّر الواحد، فعليه اختيار اثنين من هذه البدائل كنهايات عظمى، ويقوم بترتيب البدائل الأخرى على متواصل بين هاتين النهايتين . ويمكننا القيام بذلك فى معظم الحالات استناداً إلى العلاقات الصوتية القائمة بين هذه البدائل ، وذلك فى حالة المتغيِّر الصوتى phonological variable فيمكننا ترتيب البدائل على أساس بُعدٍ واحد من الأبعاد الصوتية phonetic dimensions ، مثل درجة ارتفاع الصائت vowel height . وقد سبق أن رأينا أن المسألة لا تكون دائماً هكذا ، فقد يكون هناك أكثر من بُعدٍ واحد، ولذلك فالحقائق الصوتية وحدها لا تهدى الباحث عند محاولة ترتيب البدائل . وهناك وسيلة أخرى لترتيب هذه البدائل تعتمد على المكانة الاجتماعية ، التى تتمتع بها هذه البدائل ، ويسمح لنا مثل هذا التنظيم باختيار أكثر البدائل المتواضع عليها وكذلك أقلها شيوعاً على أساس أنهما قطبان متباعدان ثم ترتب البدائل الأخرى فيما بينهما حسب درجة « المواضعة عليها » . ومشكلة هذا التنظيم أنه يفترض مقدماً أن المجتمع مرتَّب فى نظام دَرَجى واحد تعكسه المتغيِّرات اللغوية . بينما لا يثبت الواقع صحة هذا الزعم دائماً ، ولذلك قد يؤدى مثل هذا المنهج إلى نتائج غير صحيحة .

أما المشكلة الثانية فى نظام لابوف لحساب المعدلات ، فهى خاصة بتوزيع البدائل distribution of variables ، لأن الحاصل النهائى الخاص بأى نصٍّ لا يوضح

لنا الأرقام الخاصة بكل بديل على حدة . فالمعدل (٢) للنصّ الافتراضى الذى أسلفنا ذكره لا ينبئنا إلاّ باحتمال استخدام البديل (ب) بمعدل ٢ ، كلما تكرر هذا البديل ، أو باستخدام (أ) و (ج) بطريقة متساوية دون أى وجود للبديل (ب) . ولنضرب مثالاً واقعياً مستخدمين فى ذلك المادة العلمية التى استخدمتها سوزان رومين Suzanne Romaine فى دراستها لمتغيِّر الحرف (r) فى أدنبرة (١٩٧٨) . وتتميز هذه الدراسة بأنها تقدم معدلات منفصلة لكل بديل على حدة ، ولا تقتصر على إجمالى المعدلات لكل متغيِّر من المتغيِّرات . والمتغيِّر (r) فى هذه الدراسة ، كالمتغيِّر الذى درسه لابوف فى نيويورك ، خاص بالكلمات التى تتضمن r فى اللغة المكتوبة ، ولا يتلوه فى نفس الكلمة صائت . ومع ذلك ، فإن الأرقام المذكورة هنا تنطبق فقط على الحرف (r) الذى يظهر فى نهاية الكلمة . وتبيِّن هذه الأرقام أثر السياق اللغوى على البديل ، سواء كانت الكلمة التى تتضمن الصوت (r) متبوعة بوقفة pause أو متبوعة بكلمة أخرى تبدأ بصامت أو بصائت . وهذه البدائل ليست مطابقة تماماً للبدائل التى حددها لابوف ، طالما أن هناك نوعين من قبض الصوامت consonantal constriction للـ (r) فى أدنبرة وهما : الصوت المستمر غير الاحتكاكى frictionless continuant ، كما فى اللهجة البريطانية المتواضع عليها RP ومعظم اللهجات الأمريكية ويرمز له بـ [ɹ]، والصوت المستلَب flapped [r] ، ويظهر من الجدول ٥ - ١ توزيعات هذين البديلين فى السياقات الثلاثة التى سبق أن ذكرناها ، وذلك بالإضافة إلى البديل صفر ɸ، ويتضح أيضاً من هذا الجدول أثر السياق فى خلق كثير من الأنماط المعقّدة عند اختيار البديل المناسب . فقد اتضح مثلاً أن وجود صائت فى أول الكلمة التالية ، يؤدى إلى تفضيل للبديل r المستلَب على البديلين الآخرين ، بينما تفضل السياقات الأخرى البديلين الصامتين الآخرين بنفس النسبة . وإن البديل ɸ يكون أكثر استخداماً قبل وقفة منه قبل حرف صامت . ولو حاولنا تحويل النتائج الواردة فى الجدول إلى معدلات نصوص بالطريقة المعتادة ، فسيضيع معظم هذه المعلومات . فلو قلنا إننا سنحدد ١ [r] و ٢ [ɹ] و ٣ ɸ ، فإن نتيجة النصّ النموذجى ستصبح ١,٣٤ (r) قبل الصائت و ١,٧٢ قبل الصامت و ١,٩٤ قبل الوقفة ، وعلى ذلك يمكننا أن نخمّن أن الـ [r]

أكثر شيوعاً قبل الصوائت عنها قبل الوقفات ، وأن ϕ أكثر شيوعاً قبل الوقفات عنه قبل الصوائت ، ولكن ذلك كله يعد تخميناً لا غير ، وهناك طرق أخرى كثيرة لتأويل مثل هذه النتائج تشمل بالطبع التأويلات المعقّدة التى تتطلبها هذه الأرقام بالفعل .

الجدول ٥ - ١ (r) فى أدنبرة - استخدام البدائل الثلاثة فى صورة نسب مئوية لاستخدام (r) فى ثلاثة سياقات لغوية (نقلاً عن رومين Romaine ١٩٧٨ : ١٤٩) .

	قبل الصائت	قبل الصامت	قبل وقفه
[r]	٧٠	٤٠	٣٤
[ɹ]	٢٦	٤٨	٣٨
ϕ	٤	١٢	٢٨

وعلى ذلك ، فَمِنَ الأفضل عدم تحويل هذه الأرقام المنفصلة الخاصة بكل من هذه البدائل على حدة إلى معدل واحد لكل متغيِّر ، ولكن ينبغى علينا أن نترك الأرقام الخاصة بكل بديل على حدة كنسب مئوية من مجموع حالات وقوع المتغيِّر ، وبذلك يصبح من غير الضرورى أن نضع معدلات مستقلة لكل بديل على حدة ، وقد يسهل ذلك حلّ مشكلة التنظيم الترتيبى .

٥ - ٣ - ٣ حساب المعدلات الخاصة بالأفراد والمجموعات :

يحصل دارس النصوص فى علم اللغة الاجتماعى على مادته العلمية من عدد مختلف من الأفراد ، وغالباً ما يحصل على عدد من النصوص من كل فرد ، فى ظروف مختلفة (كما هو الحال فى تسجيلات تردجيل حيث حصل فى كل مقابلة على أربعة نصوص مختلفة ، كل منها خاص بأسلوب معيَّن) . وقد تتطلّب أية دراسة عادية

دراسة عشرة متغيِّرات فى حديث ٦٠ فرداً ، فى ظل أربعة أنماط من الظروف ، وهذا يؤدى إلى (١٠ × ٦٠ × ٤ = ٢,٤٠٠) ٢,٤٠٠ معدلاً مختلفاً للنصوص ، وذلك إذا استخدمنا منهج لابوف الكلاسيكى . وقد يزيد عدد المعدلات عن ذلك كثيراً إذا استخدمنا المنهج البديل الخاص برصد نتائج كل بديل على حدة . والمشكلة الآن هى كيف يعالج الباحث هذا القدر الهائل من المادة العلمية دون أن يضيع فى غياهبها . ويبدو أن أحسن الحلول فى هذه الحالة هو استخدام حاسبة آلية مبرمَجَة ببرنامج إحصائى معقّد ، ويحدث ذلك الآن بالفعل عندما يتوفر القدر اللازم من التمويل والعدد المناسب من العاملين .

وهناك حلّ آخر ، هو تخفيض عدد المعدلات عن طريق تحويلها إلى متوسطات لأفراد أو مجموعات من الأفراد . ويعد هذا المنهج منهجاً شائع الاستخدام بين دارسى علم اللغة الاجتماعى . فإذا استطعنا ، على سبيل المثال ، أن نحوّل ٦٠ متحدثاً إلى ٨ مجموعات محددة على أساس انتمائهم لجنس معيَّن أو طبقة اقتصادية اجتماعية، لاستطعنا تخفيض مجموع عدد المعدلات من ٢,٤٠٠ إلى ٣٢٠ ، أى حوالى ٣٢ نتيجة لكل متغيِّر على حدة . وفضلاً عن ذلك ، ستزداد الحالات الممثلة فى كل من هذه الأرقام ، لأن كل نتيجة خاصة بمتغيِّر ستمثّل مجموعة من المتحدثين ولا تقتصر على متحدث واحد . ويتميّز ذلك المنهج بزيادة الدلالة الإحصائية statistical significance للاختلافات القائمة بين المعدلات ، حيث إن الدلالة الإحصائية للأرقام ، لا تعتمد فقط على حجم الاختلاف ، بل تعتمد أيضاً على عدد الحالات الممثلة فى المعدل ، وبالتالى هناك ميزات هامة تجنى من تجميع هذه النتائج المنفصلة فى صورة متوسطات .

ولقد كانت كل الأرقام المذكورة هنا حتى الآن (فى الأشكال ٥ - ١ إلى ٥ - ٣ والجدول ٥ - ١) هى فى الواقع متوسطات جماعية وليست نتائج فردية . وهذا هو الأمر الشائع فى معظم الأبحاث الراهنة ، ومن النادر أن نجد نتائج منفصلة لكل من المتحدثين على حدة . (هناك بعض الاستثناءات لهذه القاعدة العامة فى دوجلاس كوى Douglas - Cowie ١٩٧٨ ، ماكولى Macaulay ١٩٧٨ ، وريد ١٩٧٨

Reid ودراسـات أخـرى مـثـل لابـوف ١٩٧٢ - أ : ١٠٠ - ١٠٦ ، و١٦٨ و٢٨٨ و٣٠٦ ولى باج وآخرين Le Page et al ١٩٧٤ الذين قدموا أرقاماً لأفراد منتقين، وإن كانوا لم يذكروا الأرقام الخاصة بكل أفراد العينة) . ومع ذلك، فالاتجاه الخاص بتحويل المعدلات الفردية إلى معدلات جماعية نتيجتان غير مرضيتين تتشابهان مع نتائج تحول معدلات البدائل إلى معدلات المتغيرات.

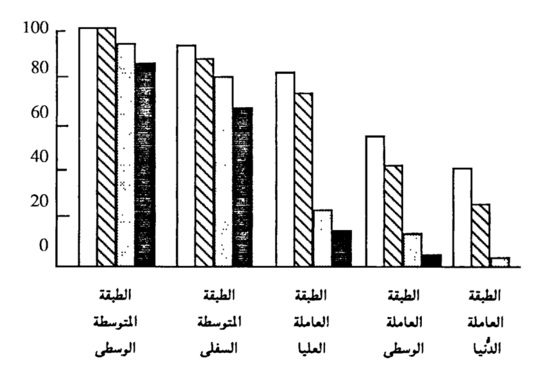
إن الاعتماد على المعدلات الجماعية يخفى حجم التباين الموجود داخل كل مجموعة . فالمعدل الجماعى (٢)، مثلاً لمتغير بعينه يتراوح ما بين (١) و (٣) ، قد يكون نتاجاً لجميع أفراد الجماعة إذا حصلوا على معدلات تقارب (٢) ، أو قد يكون ناتجاً عن أن بعضهم قد حصل على معدل (١) وحصل بعضهم الآخر على معدل (٣)، وفى الحالة الأولى يمثّل متوسط المعدل الجماعى (٢) معياراً يتجمع حوله كلام أفراد الجماعة بينما تعد هذه النتيجة غير ذات معنى ومضللة فى الحالة الثانية . وليس لدينا طريقة لمعرفة ما إذا كان أى متوسط جماعى ذا معنى ، أو غير ذى معنى ، دون الإشارة لحجم التباين بين أفراد الجماعة ، وهذا ما يمكننا الحصول عليه بواسطة الاختبار الاحصائى المعروف باسم « الانحراف المعيارى » standard deviation حيث تكون محصلته منخفضة جداً حين لا يكون هناك قدر كبير من التباين ، وتزداد محصلته بازدياد حجم التباين بين نتائج أفراد الجماعة . ويتضح نمط اللا تباين بين أفراد المجموعة من الجدول رقم ٥ - ٢ ، وقد نتبين من ذلك الجدول أن مجموعات المتحدثين المحددة سلفاً قد تكون على درجة كبيرة من التجانس من ناحية أنماطها الكلامية ، وذلك على عكس الحالة التى سنتعرض لها فى الجدول رقم ٥ - ٣ حيث إن المجموعة غير متجانسة نسبياً من الناحية اللغوية .

الجدول ٥ - ٢ ادغام الصوائت فى الفارسية الطهرانية : نسبة الصوائت المُدْغَمَة فى الكلام العادى لأربعين متحدثاً مقسّمين على شكل ثمانى * مجموعات حُددَتْ على أساس التعليم والجنس .

الجنس	ذكر				أنثى			
درجة التعليم	جامعى	ثانوى	ابتدائى	أمى	جامعى	ثانوى	ابتدائى	أمى
المعدلات	٧	٢٤	٤٦	٢١	٥	٢١	٣٣ *	٥٥ *
	١٢	٢٨	٤٨	٧٧	٥	٢٢	٣٨ *	٦٠
	١٣	٣٢	٥٣	٨١	٦	٢٣	٣٩ *	٦٧
	١٤	٣٦ *	٥٦ *	٨١	٦	٢٨	٤٣	٦٨
	١٨	٤١ *	٥٧ *	٨٢	٦	٢٩	٤٨	٧٣
المتوسط	١٣	٣٢	٥٢	٧٨	٦	٢٤	٤٠	٦٥
الانحراف المعيارى	٣	٦	٤	٤	٥	٣	٥	٦

وقد قدّم نادر جاهانجيرى Nader Jahangiri الأرقام الواردة فى الجدول رقم ٥ - ٢ من المادة العلمية التى جمعها بطريقة لابوف من المقابلات التى أجراها مع ٤٠ متحدثاً فارسياً من طهران (انظر جاهنجيرى Jahangiri ، فى طور الإعداد) . وهذا المتغيِّر خاص بادغام صائت فى صائت آخر فى المقطع التالى من كلمات مثل /bekon/ (يفعل !) والتى يتباين الصائت الأول فيها بين [e] و [o] . وتمثّل كل نتيجة نسبة الحروف الصائتة المُدْغَمَة فى كلام متحدث واحد ، وقد رتِّب المتحدثون فى ثمانية

أعمدة ، يمثّل كل منها مجموعة منفصلة . وقد تحددت المجموعات وفقاً لأسس غير لغوية حسب درجة التعليم (التعليم الجامعى والثانوى والابتدائى أو الأمية الكاملة)، وتبعاً للجنس . وهناك ظاهرتان تلفتان النظر فى أرقام الجدول ٥ - ٢ ، وهما ظاهرة التجانس الموجودة بين المجموعات وكذلك ظاهرة عدم التداخل بين مجموعة وغيرها. وتبيِّن العلامة النجمية ، على الأرقام المتداخلة ، ظاهرة التداخل بين معدلات المجموعة التعليمية والمجموعات المجاورة لها . ويتمثّل ذلك ، على سبيل المثال فى المعدلين ٣٦ و ٤١ عند نهاية العامود الخاص (بالذكور من ذوى التعليم الثانوى) واللذين يتطابقان جزئياً مع الأرقام ٣٣ و ٣٨ و ٣٩ فى قمة العامود (إناث من ذوى التعليم الابتدائى) . ويمكننا أن نرى أنه لا يوجد تطابق جزئى بين المجموعات التعليمية من نفس الجنس، وكل الأرقام التى تحمل علامة نجمية تمثّل حالات يظهر فيها تطابق جزئى



الشكل ٥ - ٣ نطق (ng) في نورويش . نسبة [g] : (ng) في كلام خمس طبقات اقتصادية اجتماعية موزّعة إلي أربعة أساليب : قراءة قوائم المفردات (الأعمدة البيضاء) ، قراءة النصوص النثرية (الأعمدة المظللة) ، الأسلوب الرسمي (الأعمدة المنقطة) ، الأسلوب غير الرسمي (الأعمدة السوداء) . نقلاً عن تردجيل ١٩٧٤ - أ ٩٢ .

بين الذكور فى إحدى الجماعات مع الإناث فى الجماعة التالية لهم . أما بالنسبة لدرجة التجانس العالية بين المجموعات ، فتتضح من نتائج اختبار « الانحراف المعيارى » التى تعكس بدورها درجة انحراف النتائج الفردية عن متوسطات نتائج المجموعة ككل. ويتبيّن لنا من الجدول أن نتائج اختبار « الانحراف المعيارى » منخفضة إلى درجة مدهشة ، فلا يزيد رقم من هذه الأرقام عن ٦ ، بينما يمثّل أحدهما ، وهو صفر ، درجة التطابق القصوى بين خريجات الجامعة . وقد تبدو هذه النتائج مدهشة للغاية خاصة إذا عرفنا أنها تمثّل النسبة المئوية لكلمات مثل /bekon/ ، حيث يُدْغَم الصائت الأول فيها بالصائت الثانى فى سياق الكلام العادى . وتقدم لنا مثل هذه النتائج تحدياً حقيقياً لكل دارس يبحث عن نموذج نفسى أو اجتماعى لتفسير ظاهرة التباين اللغوى Linguistic variation .

أما المادة العلمية المذكورة فى الجدول ٥ - ٣ ، فهى مأخوذة من دراسة لنطق ١٦ صبياً فى الحادية عشرة من عمرهم من ثلاث مدارس مختلفة فى إدنبرة . وقد علّق الأطفال ميكروفونات لاسلكية حول أعناقهم أثناء فترات اللعب فى فناء المدرسة، ولذلك فقد تصوّر الباحث أن المادة العلمية التى تمّ جمعها قريبة إلى حدٍ كبير من نوع الكلام الذى يستخدمه الأطفال وهم على سجيتهم . وقد تمّ اختيار المدارس لتمثّل كل منها مجموعة مختلفة من الخلفيات الاجتماعية . ويمكننا أن نتبيّن أن تقسيم الأولاد وفقاً للمدارس التى ينتمون إليها قد أدى إلى نتائج متنافرة تماماً بالنسبة للمتغيّر (t) ، بالإضافة إلى وجود قَدَر هائل من التطابق الجزئى بين المجموعات . وقد قدّم ريد Reid الكثير من المعلومات عن مهن آباء هؤلاء الأطفال ، ولكن حتى ذلك المقياس الذى يفترض فيه الدقة ، لم ينته إلى جماعات أكثر تجانساً . وقد صُنِفَتْ مهن آباء أطفال المدرسة الأولى على النحو التالى : ملاحظى عمال وعمال وحرفيين مَهَرة وعمال يعملون لحسابهم الخاص وليسوا مهنيين ، وذلك باستثناء الطفلين المميزين فى الجدول بعلامة النجمة ، والذين كانت مهن آبائهم عامل نصف ماهر أو غير ماهر وعامل خدمات شخصية، أما الطفلان المميزان بعلامة نجمية فى عامود المدرسة الثانية، فقد كان أبواهما من شريحة ملاحظى العمال، أو ما شاكل ذلك ، بينما كان آباء بقية الأطفال من

شريحة « المهنيين والمديرين وأصحاب الأعمال ». وسواء قسمنا المجموعات وفقاً للمدرسة أم وفقاً لمهنة الأب، أم وفقاً لكلتيهما ، فَمِنَ الواضح أن متوسط مجموعات استخدام المتغيِّر [?] : (t) ليس ذا أهمية إطلاقاً .

الجدول ٥ - ٣ متغيِّر الـ (t) فى ادنبرة : النسب المئوية لمتغيِّر الـ (t) حين ينطق [?] أو [t ?] بين ١٦ طفلاً عندما يستخدمون أسلوب كلام « اللعب فى فناء المدرسة » (نقلا عن ريد Reid ١٩٧٨ : ١٦٠) .

المدرسة ١	المدرسة ٢	المدرسة ٣
٣٠	٦٠	٦٥
٦٩ *	٨٠ *	٧١
٦٩ *	٨٥	٨٠
١٠٠	٨٥	٨٨
١٠٠	٨٩	
١٠٠	٩٠ *	

وترتبط بهذه المشكلة ارتباطاً وثيقاً مشكلة ثانية متعلقة بمعدلات هذه المجموعة، بل هى نابعة منها . وإذا كان تقسيم المتحدثين أو النصوص إلى مجموعات مسألة تسهل للباحث مهمته ، عندما يواجه قَدْراً هائلاً من المادة العلمية التى لا يسهل التعامل معها ، لا تصبح هناك مشكلة . وليس هناك أدنى شك فى أن مسألة تجميع المادة العلمية فى صورة جماعات يساعدنا على رؤية اتجاهات واضحة ومتنوعة بشكل عام فى المادة العلمية ، وقد لا ننتبه إلى هذه الاتجاهات العريضة إذا لم نفعل ذلك. ولكن هناك خطورة حقيقية فى التحرك من هذا الموقف إلى موقف مختلف تماماً، يتصور فيه الباحث أن هذه التصنيفات تصنيفات اجتماعية « حقيقية »، أعنى أنها

جزء فعلى من البُنية الموضوعية للمجتمع، وهى بالتالى جزء من الإطار النظرى العام الذى يؤول من خلال النتائج . وقد يكون ذلك التصور مبرراً فى حالات بعينها ، ولكن من المهم أن نضع فى اعتبارنا وسائل بديلة لتأويل المادة العلمية ، دون أن نفترض وجود مجموعات مستقلة فى المَجتمع . وقد سبق أن ذكرنا واحداً من هذه البدائل، وهو البديل الخاص بتصور أن المجتمع مبنى جزئياً على أساس شبكات من الناس ، وثيقة الاتصال ، وقد يتأثر هؤلاء الناس بدرجات متفاوتة بالمعايير norms التى سبق أن تواضعتْ عليها هذه الشبكات المختلفة . ومن العيوب الرئيسية للتحليل الجماعى group analysis ، أنه لا يسمح لنا بالتعامل مع الأفراد الذين ينتمون إلى هذه المجموعات بدرجات متفاوتة ومتباينة . فلو أننا جمعنا النتائج الفردية فى صورة متوسطات جماعية ، لا يبقى من الفردية أو تفاوت درجات الانتماء ما يمكن أن نضعه فى اعتبارنا . وسنعود إلى استخدام هذه الشبكات فيما بعد (٥ - ٤ - ٣).

وفى النهاية ، نوجز أهم ما قدّمناه فى هذا الجزء ، فقد نقدنا منهج لابوف الخاص بتحديد البدائل ، وبحساب المعدلات لأنه يؤدى إلى فقدان كثير من المعلومات التى قد تكون هامة للغاية . فقد نفقد المعلومات الخاصة بهذه البدائل عندما نجمع هذه النتائج المستقلة فى صورة نتائج جامعة للمتغيِّرات ، وسنفقد المعلومات الخاصة بكلام المتحدثين من الأفراد لو حاولنا تجميعها فى صورة متوسطات للمجموعات .

ويفرض مثل هذا المنهج ، فى كل مرحلة من مراحله ، نسقاً خاصاً على المادة العلمية ، وقد تكون هذه الانساق أضيق مما تسمح به طبيعة هذه المادة ، الأمر الذى يؤدى إلى تحريف فى النتائج ، فقد يُفرض على سبيل المثال ، حدوداً صارمة على معايير صوتية غير محدودة بذاتها non-discrete phonetic parametres، وقد يستخدم أنظمة ترتيبية مفتعلة لترتيب بدائل مترابطة بروابط عديدة ، وقد يقوم الباحث بتصنيف المتحدثين فى مجموعات منفصلة ، بينما هم فى الواقع مترابطون فى شكل شبكات ، ولا ينتمون إلى مجموعات . وليس من السهل دائماً التخفيف من حدة أو جمود هذا المنهج التحليلى ، ولكن علينا أن نأمل أن تقدم لنا المناهج الحديثة نتائج أكثر استنارة من تلك النتائج التى قدمها لنا المنهج الكلاسيكى للابوف .

٥ - ٤ مؤثرات على المتغيِّرات اللغوية :

٥ - ٤ - ١ السياق اللغوى :

يعرض هذا القسم لأنواع العناصر التى وُجِدَ أنها تؤثر فى اختيار البدائل فى المتغيِّرات اللغوية . وسنبدأ هذا العرض بدراسة آثار السياق اللغوى على اختيار البدائل . والحقيقة أن مثل هذه الدراسة ليست من صميم اختصاص عالم اللغة الاجتماعى ، ولكنها تقع فى مجال اختصاص الدراسات اللغوية النظرية الخالصة، الخاصة بالبُنية الداخلية للغة دون الرجوع إلى المجتمع . ولكن علماء علم اللغة النظريين المهتمين بالبُنية الداخلية للغة لم يهتموا بدراسة النصوص ، بل اهتموا بدلاً من ذلك بالمناهج الاستبطانية لدراسة اللغة introspective ، وبالتالى فإنهم قد تركوا لعلماء علم اللغة الاجتماعى أمر الدراسات الكمية للكلام الخاصة بأثر وحدة بعينها على الوحدات الأخرى المجاورة . وللمرة الثانية ، كان وليام لابوف أول مَنْ دَرَس هذه الأنماط دراسة تفصيلية فى دراسته « لحذف » deletion كلمة (is) ، أو لاختصارها contraction فى كلام المراهقين من الزنوج الأمريكيين (لابوف ١٩٧٢ - ب : الفصل الثالث).

وقد كشفت هذه الدراسة بشكل عام أن تأثير السياق اللغوى على اختيار بعض البدائل تأثير احتمالى probablistic وليس تأثيراً يقينياً بشكل مطلق categorical، كما افترضت بعض الدراسات السابقة بالفعل . وقد سبق أن ظهر من الجدول ٥-١ ، أن أثر الصوت التالى للكلمة المنتهية بالصوت /ء/ يزيد من احتمال استخدام بديل بعينه فى بعض السياقات دون استخدامه فى سياقات أخرى ، ولا يؤدى إلى حذف البديل تماماً من بعض السياقات ، أو إلى جعله إجبارياً فى سياقات أخرى . ومن المؤكد أن معظم علماء علم اللغة الوصفى descriptive وعلماء الصوتيات كانوا قد أدركوا أن بعض جوانب اللغة احتمالية ، لا يقينية ، ولكنهم لم يفسحوا مجالاً فى إطار نظرياتهم لمثل هذا التباين الاحتمالى.

وتنتمى السياقات التى سبق أن ذكرناها للأنواع المألوفة للغاية . وتعود

متغيِّرات النطق pronunciation variables إلى نوعية الصوت الذى يتبع المتغيِّر أو مع موقع الصوت فى الكلمة ، وما إلى ذلك . وهناك عدد من المتغيِّرات خاص بوجود كلمة معينة أو عدم وجودها ، وغالباً ما يكون الجانبان الصوتى والتراكيبى من السياق اللغوى مسئولين عن ذلك . ومن الأمثلة على هذا المتغيِّر، (is) الذى قام لابوف بدراسته (لابوف ١٩٧٢ - ب : الفصل الثالث) ، ولهذا المتغيِّر ثلاثة بدائل أو صيغ وهى is و s' و ϕ . وقد تبيَّن أن العوامل التى تؤثر على اختيار الصيغة المناسبة، هى النوعية النحوية للفاعل (أعنى ما إذا كان اسماً أو ضميراً) ونوعية المكمِّل complement (ما إذا كان صفة / شبه جملة اسمية NP أو ظرف مكان locative أو فعل) ، وطبيعة الصوت التالى له (ما إذا كان صائتاً أو صامتاً) . وهناك على أقل تقدير ، مثال واحد على متغيِّر تراكيبى خالص ، لا يتأثر إلاَّ بالسياق التراكيبى فحسب ، وذلك هو المتغيِّر (bbi) فى التوك بيزين Tok Pisin (سانكوف Sankoff ١٩٧٣ - ب) (وهو مشتق من صيغة 'by and by' باللغة الإنكليزية)، وهو يُستخدم للدلالة على زمن المستقبل، وغالباً ما يُستخدم قبل الفاعل أو بعده، ويعتمد ذلك على ما إذا كان الفاعل شبه جملة اسمية أو ضميراً ، فإذا كان الفاعل ضميراً فسيصبح الأكثر احتمالاً أن تسبق (باى) الفاعل بدلاً من أن تتبعه، ولكننا لا نستطيع أن نستبعد الاحتمالين تماماً فى كلتا الحالتين .

ولعل أهم جوانب دراسة السياق اللغوى ، هى مسألة اختلاف الوحدات المعجمية lexical differences فى السياقات المختلفة . فقد أصبح من الواضح أن احتمال استخدام بديل فى كلمة بعينها قد يتغيَّر وفقاً لطبيعة الكلمة ذاتها ، وليس بسبب خصائصها الصوتية أو التراكيبية . وأحد المتغيِّرات فى بلفاست ، على سبيل المثال، هو الصائت فى كلمات مثل **pull, put, took, could**, ونستطيع أن نطلق على هذا المتغيِّر الرمز (٨) ١ ، ويتباين هذا المتغيِّر بين الصيغة (٨) (كما تنطق فى كلمة cut باللغة الانكليزية المتواضع عليها RP والصيغة[ʉ] (كما فى نطق كلمة put فى اللغة الإنكليزية المتواضع عليها) . وقد كان من الجهود المبذولة فى تحليل المادة العلمية التى جمعها الزوجان ميلروى Milroys ، أن تمَّ جمع قائمة من الكلمات

التى تتضمن هذا المتغيِّر ، كما تمّ حساب معدل لكل كلمة (ماكليرين١٩٦٧ Maclarin وج . ميلروى ١٩٧٨ J. Milroy) . إن استخدام الكلمات التى تتضمن [٨] : (٨) (انظر الجدول ٥ - ٤) توضح الحقيقة الخاصة بتباين احتمالات استعمال بديل معيَّن من كلمة إلى أخرى ، دون أن نستطيع تفسير ذلك وفقاً للاختلافات الصوتية بين هذه الكلمات .

ولعل أهمية هذه النتائج ترجع إلى أنها تقدم لنا أدلة تدعم نظرية « انتشار المفردات » Lexical diffusion ، وهى النظرية القائلة بأن التغيير الصوتى الزمانى diachronic sound change قد ينتشر تدريجياً من خلال معجم اللغة ، لا من خلال التأثير فى كل الكلمات فى اللغة بنفس الدرجة فى آنٍ واحد . (انظر شين وهسييه ١٩٧١ Chen & Hsieh وشين و وانج ١٩٧٥ Chen & Wang وهسييه Hsieh ١٩٧٢ ، ١٩٧٥ ، و وانج Wang ١٩٦٩ ، وانج و شــينــج Wang & Cheng ١٩٧٠) . وهناك دلائل واضحة على أن استخدام البديل [٨] فى كلمات مثل put فى بلفاست يعد استحداثاً ، ويظهر الجدول ٥ - ٤ أن هذا الاستحداث قد أثّرَ على الوحدات المعجمية المختلفة بدرجات متفاوتة .

الجدول ٥ - ٤ (٨) بلفاست : النسب المئوية [٨] فى ثمانى كلمات (نقلاً عن ماكليرين Maclaren ١٩٧٦) .

مجموع عدد الاستخدامات	النسب المئوية [٨]
٦٩	٧٤
٣٢	٤٧
٣٠٩	٣٩
١٤٨	٣٣

٢٢٦	٣١
١٩١	٢٧
٥٤١	١٦
٥٩	٨

ويقول ج . ميلروى J. Milroy (١٩٧٨) أن مجموع الاختلافات الواردة فى الجدول ٥-٤ تبين أن بعض الكلمات تنطق [ʌ] (وتقريباً بصفة مستمرة) وبنسب متفاوتة بين السكان، فحوالى ثلاثة أرباع العينة من المتحدثين ينطقون pull [pʌl]، بينما أقل من العشر ينطقون should [ʃʌd]، وبعبارة أخرى تقع كل من هذه الكلمات فى أحد تصنيفين معجميين بالنسبة لكل متحدث . والتصنيف الأول هو تصنيف الـ [ʊ]، والتصنيف الثانى هو تصنيف [ʌ] ، والانتقال من صيغة [ʊ] إلى صيغة [ʌ] يتطلب تغيراً تدريجياً .

هل هناك علاقة إذن بين نظرية انتشار الوحدات المعجمية ونظرية الموجات التى سبق أن عرضنا لها فى ٢ - ٣ - ٢ ؟ وماهية هذه العلاقة ؟ تدعى نظرية الموجات أن التغيرات تنتشر تدريجياً بين السكان ، ويماثل ذلك تماماً ما يحدث فى نظرية انتشار الوحدات المعجمية . فالمتغيِّرات تنتشر تدريجياً من خلال المعجم ، وبالتالى ينبغى أن نتوقع وجود علاقة وثيقة بين النظريتين . ونستطيع أن نقول فرضاً (وتلك فرضية منطقية) أن مثل هذه التغيرات تنتشر بطريق التراكم فى المعجم فى نفس الوقت الذى تنتشر فيه بين السكان، وعلى ذلك فإن الكلمات التى تتأثر أولاً بالتغير ستكون بدورها من أول الكلمات التى تتخذ الصيغة الجديدة عند استخدامها.ولا نستطيع أن نبرهن على ذلك بالفعل من خلال الجدول ٥ - ٤ ، فَمِنَ المحتمل ، مثلاً ، أن الأعداد القليلة من الناس الذين يستخدمرن الصيغة الجديدة لنطق should ما زالوا ينطقون pull بصيغتها القديمة، والعكس أيضاً صحيح. والفرضية المطروحة هنا تنبىء بأن كل من يستخدم الصيغة الجديدة should ، سيستخدم الصيغة الجديدة لكل الكلمات

الأخرى المدرجة فى القائمة . وهناك دلائل قليلة لاثبات هذه الفرضية ، وهى دلائل يمكن استخلاصها من الجدول ٥ - ٥ ، وهو جدول خاص بظاهرة إدغام الصوائت فى الفارسية فى طهران (انظر الجدول ٥ - ٢) . ويقدم لنا هذا الجدول مجموعتين منفصلتين من المادة العلمية لست كلمات قابلة للإدغام . ويظهر من الأرقام ، إلى اليمين ، إلى أى مدى يمكن أن تدغم الكلمة فى الكلام العادى لاستعمال المتحدثين المشتركين فى الدراسة ، ويتضح من ذلك خلاف كامل بين كلمات مثل /bekon/ (بيكون) التى تدغم دائماً وبين كلمة مثل /bebor/ (بيبور) التى لا تدغم إلا قليلاً. وتبين علامات الزائد الواقعة على اليسار الكلمات التى أدغمها سبعة من المتحدثين - موضوع الدراسة - والتى طلب منهم أن يقرأوا قائمة من الكلمات التى يمكن إدغامها . ويمكننا أن نرى أن المتحدث (أ) أدغم كل الكلمات الواردة فى القائمة ، وذلك على عكس المتحدث (د) الذى لم يدغم أيّاً منها ، ويتضح أيضاً أن كل الكلمات التى أدغمها أحد المتحدثين قام بإدغامها أيضاً كل المتحدثين الواقعين على يساره فى التسلسل الهرمى (ويمكننا أن نطلق على هذا النوع نمط «التدرج الضمنى» implication hierarchy (وسنعرض له فى ٥ - ٥ - ٢) . أما بالنسبة للكلمات المنتقاة والمتحدثين ، فيتضح من الجدول ٥ - ٥ أن الظاهرة الحديثة الظهور والخاصة بإدغام الكلمات تنتشر بشكل تراكمى فى المعجم وبين السكان ، كما سبق أن توقعنا حسب الفرضية المطروحة . لكن ينبغى علينا أن نقول أن الكلمات والمتحدثين قد أُختيروا خصيصاً حتى يمكننا أن نقدم مثالاً واضحاً على هذه النقطة ، لأن النمط الذى اتخذته هذه الدراسة فى مجموعها والذى استخدم فيه عشرة من المتحدثين ، طُلِبَ منهم أن يقرأوا ٦٠ كلمة يشير إلى أن هناك كثيراً من الفوضى والخلط ، ويشير أيضاً إلى السلطة المتناهية للفرضية الأصلية . ومن الصعب ، مثلاً ، أن نعرف مسبقاً الأسباب التى تمنع استخدام الصيغ المستحدثة بواسطة متحدثين مغايرين لأولئك الذين استحدثوها (أو أبنائهم) ، ولكن الفرضية تستبعد مثل هذا الاحتمال .

الجدول ٥ - ٥ إدغام الصوائت فى الفارسية الطهرانية . استخدام ٧ من المتحدثين المنتقين للصيغ المُدْغَمَة فى ٦ كلمات عند القراءة من قائمة المفردات،

واستخدام جميع المتحدثين لهذه الصيغ فى الكلام العادى (نقلاً عن دراسة جاهانجيرى ، فى طور الإعداد) .

الإدغام فى الكلام العادى لجميع المتحدثين		الإدغام فى قراءة سبعة من المتحدثين من قائمة المفردات							
المجموع	النسبة المئوية للإدغام	أ	ب	ت	ج	ح	خ	د	
٣٣١	٩١	+	+	+	+	+	+		/bekon/ أفعل
٢٣	٧٨	+	+	+	+	+			/bedo/ أجرى
١٣٩	٤٠	+	+	+	+				/bexan/ اقرأ
١٣٢	٢٢	+	+	+					/begu/ قل
١٢٢	٤	+	+						/bekub/ اضرب
١٢٤	٣	+							/bebor/ اقطع

٥-٤-٢ انتماء المتحدث إلى مجموعة :

The speaker's group membership

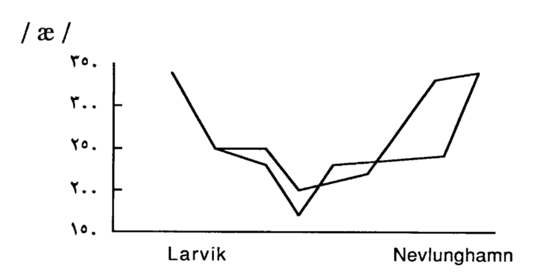
ولعل أهم المؤثرات التى تؤثر فى المتغيرات هو المتحدث نفسه ، أعنى نوعية المتحدث وماهية التجارب التى مرّ بها. (وهناك مصدر آخر واضح للتأثير ، سبق أن ذكرناه ، وهو درجة رسمية الموقف) . وقد قام علماء علم اللغة الاجتماعى بدراسة

شاملة لنوعيات التباين بين المتحدثين . وتتضمن هذه الدراسات دراسة مسقط رأس المتحدث ونشأته وحالته الاجتماعية والاقتصادية والجنس والعنصر والعمر . وتؤكد نظرية أفعال توكيد الهوية acts of identity أن كل هذه العوامل تؤثر فى كلام المتحدثين بقدر تمثيلها لمجموعات اجتماعية يمكن للمتحدث التعرف عليها . أى بعبارة أخرى ، أن المهم ليس هو مدى خبرة الفرد بنوعية معينة من الكلام ، بل مدى رغبته فى الانتماء إلى نوعية الناس الذين يتحدثون بهذه النوعية . ولكن من الجدير بالذكر أن هناك دلائل قليلة على صحة أن مجرد التعرض للنوعية المتواضع عليها من خلال التلفزيون ، يمكن أن يؤثر فى كلام الناس الذى يرغبون فى الانتماء إلى الطبقات الاجتماعية العليا (نارو Naro ١٩٧٨) . وأن تأثير وسائط الإعلام على كلام الناس يستحق دراسة دقيقة وشاملة ، لكن هذا الأمر لم يلق اهتماماً فعلياً .

لقد سبق أن ذكرنا أمثلة على الاختلافات الناشئة عن تفاوت المكانة الاقتصادية والاجتماعية والعمر والجنس ، ولاداعى للإطالة فى تقديم مثل هذه الأمثلة ، ولكن هناك عاملان لم نوضحهما بالأمثلة وينبغى أن نعرض لهما لأنهما مرتبطان بالجزء ٥ - ٤ - ٣ . هذان العاملان هما تأثير المكان والعِرق .

وقد قام بيتر ترجيل بدراسة تأثير المكان الذى يعيش فيه الإنسان (١٩٧٥ - ب) ، وذلك عندما اتخذ مادة دراسته متغيِّرا لغوياً من جنوب النرويج وهو الصائت الذى يتباين بين البديل [E] والبديل الخلفى [a] المرفوع نسبياً . والبديل الأخير صيغة مستحدثة نشأتْ فى مدينة محلية ، وهى مدينة لارفيك Larvik وانتشرتْ فى المناطق المحيطة بها . والمكان الوحيد المأهول بالسكان فى المنطقة هو نيفلنجهامن Nevlunghamn ويربطها بلارفيك طريق ، وتقع كِلتا المدينتين فى طرفى شبه الجزيرة المتباعدين (وهى فى الواقع الطرف الجنوبى للنرويج) . وقد قام ترجيل وزميله النرويجى بمقابلة الناس الذين يقطنون فى منازل سبق أن وقع اختيار الباحثين عليها والواقعة على مسافات منتظمة التباعد على خطين بين لارفيك ونيفلنجهامن، كما قاموا بمقابلة أناس آخرين يقطنون فى المدينتين ذاتهما. وتظهر الأرقام الخاصة بحرف [æ] فى كلام الناس الذين تمت مقابلتهم فى الشكل رقم ٥ - ٤، ويظهر فى هذا

الشكل المحور الأفقى وهو يمثّل المسافة بين المدينتين والمحور الرأسى وهو يمثّل نسب استخدام [a] : [æ] ، ويمثّل الخطان الطريقين اللذين يصلان فى المدينتين، ويتضح أن المنحنيات الموجودة فى الشكل ٥ - ٤ فى الأماكن المتوقعة جاءت طبقاً لنظرية الموجات (٢-٣-٢) . وقد تمّ رصد أعلى النتائج فى مدينة لارفيك وهى مصدر الصيغة المستحدثة ، ويتلوها فى الارتفاع نيفلنجهامن ذات الطريق السهل والارتباطات التجارية المنتظمة ، بينما رصدت النتائج المنخفضة فى المناطق المأهولة البعيدة عن هذين المركزين المؤثرين . ومرة أخرى ، تواجهنا صعوبة فى كيفية تأويل هذه النتائج من الناحية اللغوية - فهل الاختلافات ناتجة عن عدد المفردات التى تأثرتْ بالصيغة المستحدثة ، أم أنها ناتجة عن المعدل العام الخاص بتطبيق القاعدة التى تستبدل البديل [E] بالبديل [æ] ؟



الشكل ٥ -٤ (æ) فى جنوب النرويج : المعدلات الخاصة بالمنازل المنتقاة بين مركزى التأثير . النتائج المرتفعة : نسبة استخدام مرتفعة لبديل (æ):[a]

(نقلاً عن تردجيل ١٩٧٥ - ب)

ومع ذلك يمكننا أن نرى - فى كِلتا الحالتين - تناسب حجم التأثير اللغوى لمدينة

لارفيك مع حجم الاتصال الاجماعى مع أهلها .

وقد ظهر أيضاً من أبحاث ودراسات لابوف ومعاونيه فى نيويورك ، أن العامل الخاص بالعرق race ذو علاقة وثيقة بالمتغيِّرات اللغوية خلال دراسة لابوف للملامح المميزة لكلام المراهقين من الزنوج . وهناك عدد من الأنماط الكلامية التى تميِّز المتحدثين الزنوج عن البيض وعن غيرهم من المتحدثين فى الولايات الشمالية من الولايات المتحدة الأمريكية . من هذه الأنماط المميزة ، عدم استخدام الفعل الرابط أو zero copula أى عدم استخدام الفعل is الذى يستخدمه البيض عادة ، كما نرى فى التركيبين الأول خاص بالزنوج وهو John tired والثانى خاص بالبيض وهو John is tired . (وإذا شئنا الدقة ، فقد أوضح لابوف أن الزنوج يستخدمون البديل صفر zero variant عندما يستخدم البيض الصيغة المختصرة لفعل الربط contracted's (انظر لابوف ۱۹۷۲ - ب : الفصل الثالث)، ويبدو أن البيض فى الولايات الشمالية أيّاً كانت مكانتهم الاجتماعية والاقتصادية لا يستخدمون البديل صفر zero copula مطلقاً . ويعتمد استخدام الزنوج لهذا البديل ومدى استخدامهم له على مدى انتمائهم للثقافة الزنجية الفرعية black sub-culture . ويقدِم لابوف أدلة على ذلك من خلال دراسته لعصبة زنجية معينة (أو جماعة من الأقران Peer group) فى هارليم معروفة باسم الجيتس the Jets . وقد استطاع لابوف ، بإقامة علاقة اتصالية منتظمة مع هذه العصبة ، أن يتمكن من دراسة بُنية هذه المجموعة الداخلية وعلاقاتها مع بقية المراهقين الزنوج فى هذا الحى . وعن طريق توجيه أسئلة عن علاقات الترابط ، استطاع لابوف أن يتعرّف على أربع مجموعات منفصلة وهى :

الأعضاء الأساسيون فى عصبة الجيتس ، والأعضاء الثانويون ، والأعضاء الهامشيون، وغير الأعضاء (ويطلق المراهقون الزنوج اسم « الكسحاء » the lames على غير الأعضاء ، وهم أقل الناس اتصالاً بالثقافة الزنجية بالرغم من كونهم زنوجاً أو لهم بشرة سوداء مثل الأعضاء الأساسيين فى عصبة الجيتس). وعندما قام لابوف بحساب النتائج الخاصة بكل من المجموعات الأربع ، والخاصة باستخدامهم للبديل صفر بدلاً من is ورصد النسب المئوية الخاصة بهذه النتائج ، وَجَدَ أن هناك انخفاضاً تدريجياً

فى نسبة استخدام البديل الصفر يبدأ من الأعضاء الأساسيين وينتهى بغير الأعضاء . وقد حصل الأعضاء الأساسيون من الجيتس على نسبة ٤٥٪ من البديل صفر، وحصل الأعضاء الثانويون على ٤٢٪ وحصل الأعضاء الهامشيون على ٢٦٪ ، بينما حصل « الكسحاء » على ٢١٪ (وقد كانت المجاميع الخاصة باستخدام is مُرَتَبَة على النحو التالى :

٣٤٠ ، و ٢٢٣ ، و ٨٢ ، و ١٢٧ على التوالى . مما يعنى أن العينات كانت من الضخامة بحيث ينبغى أن نأخذ هذه الاختلافات مأخذ الجد) . ويعد ذلك مثالاً جيداً على مقدرة المتحدثين على استخدام المتغيِّرات اللغوية رمزاً لتحديد درجة انتمائهم إلى جماعةٍ ما ، وهى فى هذه الحالة جماعة عِرقية . فحتى «الكسحاء» حددوا انتماءهم إلى جماعة الزنوج باستخدام البديل صفر بدلاً من ϕ :(is) بين الحين والآخر، فى حين أن البيض لا يستخدمون هذا البديل على وجه الاطلاق ، ولكن «الكسحاء» ميّزوا بين أنفسهم وبين الأعضاء الأساسيين فى جماعة الزنوج وذلك بانخفاض نسبة استخدامهم لهذا البديل عن الأعضاء الأساسيين (ومصدر هذه المعلومات دراسة لابوف) (لابوف - ب : الفصل السابع) والأرقام مأخوذة من الأرقام الواردة فى تلك الدراسة صفحة ٢٧٥) .

سبق أن تعرضنا لبعض الأمثلة التى تبيّن تأثير **المكانة الاجتماعية والاقتصادية** socio-economic status على معدلات المتحدثين، وينبغى علينا الآن أن نطرح بعض الأسئلة الأساسية عن مفهوم المكانة الاجتماعية والاقتصادية فى حد ذاته . أولاً : هل هو مفهوم أحادى ؟ وأعنى بذلك هل هناك نسق تدريجى واحد فى كل مجتمع يتسم ببناء دَرَجى ؟ وهل نستطيع أن نحدد ملامحه المميزة، مثل الثروة والتعليم والمهنة ، أم أنه مجرد مصطلح فضفاض ، غير محدد ، يدل على سلسلة من الأنساق المتدرجة المختلفة والمستقلة عن بعضها بعضاً ، يكون أحدها خاصاً بالثروة والآخر بالتعليم إلخ ؟ جنح معظم علماء علم اللغة الاجتماعى إلى تبنى الموقف الأول ، واستخدموا نظاماً حسابياً لرصد معدلات المتحدثين يضع فى اعتباره مجموعة متباينة من العناصر. فقد أخذ ترديجل بعين الاعتبار، مثلاً، المهنة والدخل والتعليم

والإسكان ومحل الإقامة ومهنة الأب، ثم حوّل كل هذه العناصر إلى متواصل واحد. وينبغى علينا أن نطرح من الناحية التجريبية سؤالاً خاصاً بمدى صحة هذا الإجراء، ويشعر معظم علماء علم اللغة الاجتماعى أن لديهم من المادة العلمية ما يكفى للاجابة على هذا السؤال، حيث إنه لا يتطلّب أكثر من إجابة إحصائية . وإذا كانت هناك مجموعة من المعدلات الخاصة بالمتحدثين وتعتمد على عدد من النصوص، بالإضافة إلى معلومات خاصة بالخلفيات الاجتماعية لأولئك المتحدثين ، مثل دخلهم ومهنهم إلخ، فأى هذه العوامل الاجتماعية - وحده أو بالإضافة لغيره - يقدم لنا الأساس الأفضل الذى يمكننا من التنبؤ بالمعدلات ؟

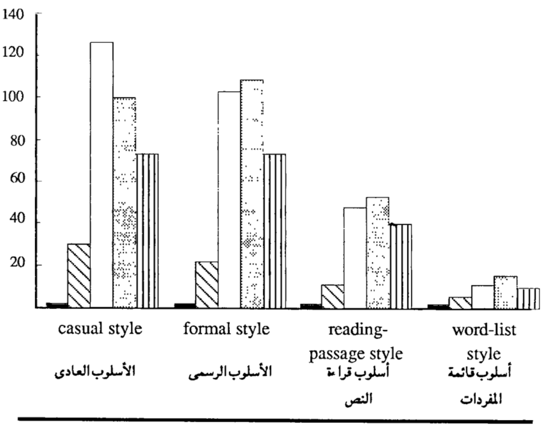
قدّم لابوف مؤشراً للاجابة على هذا السؤال حيث قال أن مختلف العوامل ترتبط بمتغيِّرات متباينة ، وربما تكون هذه هى الإجابة المتوقعة إذا نظرنا إلى المجتمع على أنه نسغ معقّد ومتعدد الأبعاد ، يحدد الفرد فيه موقعه بالنسبة لهذه الأبعاد . ومن خلال دراسة لابوف لنيويورك ، التى يعتمد فيها على المقابلات ، وَجَدَ أن الأساس الأفضل للتنبؤ بالمعدلات الخاصة ببعض المتغيِّرات ، ومنها المتغيِّر (r) ، مثلاً، يتكون من مجموعة من العوامل الاجتماعية ، وهى المهنة والدخل والتعليم ، فى حين كان الأساس الأفضل للتنبؤ ببعض المتغيِّرات الأخرى عاملين فقط من هذه العوامل هما المهنة والتعليم (لابوف ١٩٧٢ - أ : ١١٥) . ومن الأمثلة على هذا النوع من المتغيِّرات، المتغيِّر (th) والذى ينطق [t^h] أو [e] فى كلمات مثل **thing** . وقد قام بعض علماء علم اللغة الاجتماعى الآخرون بتحديد مستويات اجتماعية متدرجة **social hierarchies** ترتبط ارتباطاً وثيقاً correlate من الناحية الاحصائية بمعدلات المتغيِّرات اللغوية ، وذلك وفقاً لعامل اجتماعى واحد فقط ، مثل التعليم (انظر الجدول ٥ - ٢) . ويبدو من ذلك أن المادة العلمية لعلم اللغة الاجتماعى لا تتطلّب رصداً منفصلاً للعوامل الاجتماعية الأخرى ، مثل المهنة والتعليم ، فحسب بل يجب النظر لهذه العوامل فى تفاعلها مع بعضها بعضاً ، والنظر إليها كذلك فى تفاعلها مع العوامل الأخرى ، مثل ، العمر والجنس . وبعبارة أخرى ، إن المادة العلمية لا تؤيد النظرة الأحادية المنفصلة لمفهوم المكانة الاجتماعية .

أما السؤال الثانى ، الذى سنطرحه هنا ، فهو خاص بامكانية تصنيف المجتمع تصنيفاً دقيقاً فى مجموعات منفصلة وفقاً للمكانة الاجتماعية ، يمكن أن نطلق عليها «طبقات اجتماعية اقتصادية» socio-economic classes وإذا وضعنا فى اعتبارنا الاجابة على السؤال الأول ، وَجَدَنا أنه ليس من الممكن أن تكون تلك الطريقة هى طريقة تنظيم المجتمعات ، ذلك أنه من المحتمل أن تتعارض الأسس المختلفة التى تصنّف الطبقات وفقاً لها ، ونعنى بذلك أن كلاً من هذه المعايير يعرّف مجموعة متباينة من الطبقات . وفضلاً عن ذلك ، فهناك أدلة كثيرة تتعارض مع مفهوم الجماعات المستقلة فى المجتمع ، وتحبذ الرأى القائل بأن المجتمع ينظم أفراده حول مجموعة من مراكز الثقل الرئيسة distinct focal points التى تُحدد لهم معايير سلوكية مختلفة، وتجذب ولاءهم وانتماءهم بطرق متفاوتة ودرجات مختلفة ، وليس هناك ما يبرر استثناء مفهوم الطبقات الاجتماعية والاقتصادية من الخضوع لهذا المبدأ . ولذلك، ينبغى علينا أن نعيد تعريف مفهوم هذه الطبقات من منظور مراكز الثقل الرئيسة ، ونتخلى عن منظور الكيانات المستقلة . (سنفعل ذلك بنفس الطريقة الى تحدد بها معنى أحمر ، على أساس أنه نقطة على متواصل طيفى لا على أساس أنه مجرد مساحة أو حيز منفصل - انظر ٣ - ٢ - ٢) .

ويمكننا أن نطرح مجموعة من الأسئلة الهامة النابعة من المادة العلمية لعلم اللغة الاجتماعى، خاصة ذلك التساؤل المتعلّق بتأثر المتغيِّر اللغوى بالعوامل التى تمثّل «المكانة الاجتماعية» ، مثل التعليم والمهنة حيث تدل المعدلات على أن واضعى المعايير norm setters يقعون دائماً فى قطبى المتواصل ، أى التركيز على متحدثى اللغة من ذوى المكانة العليا والسفلى فقط ، وذلك هو الحال ، مثلاً ، بالنسبة لمسألة إدغام الصوائت فى اللغة الفارسية فى طهران ، حيث تحدث أعلى نسب الإدغام وأقلها بين متحدثى اللغة من ذوى المكانة العليا والسفلى (انظر الجدول ٥ - ٢) . وكذلك الأمر فى المتغيِّر (ng) فى نورويش، حيث ينقسم المتحدثون إلى من ينطقها بالصيغة المعيارية للطبقة المتوسطة (ng):[h] ، وإلى مَنْ ينطقها بالصيغة المعيارية للطبقات العاملة (ng):[n] (انظر الشكل ٥ - ٣) . ويبدو من الشكلين ٥ - ١ و ٥ - ٢

أن هناك تفسيراً مماثلاً لاستخدام المتغيِّر فى نيويورك .

وهناك من ناحية أخرى فى الدراسات التى بين أيدينا أمثلة لا يمكن فيها تحديد المعيار norm إلا من خلال الجماعة التى تقع فى وسط النسق الهَرَمى . ويؤيد ذلك الرأى القائل أن الكلام فى المجتمع لا ينقسم بالضرورة بين « القمة » و «القاع»، ومن الأمثلة على ذلك المتغيِّر (e) الذى دَرَسَهُ ترِدجيل (١٩٧٤ - أ : ١٠٤)، وهو يتكرر فى مجموعة ضئيلة من الكلمات مثل better و tell ، حيث يكون المتغيِّر /E/ متبوعاً بالصوت /i/ أو مسبوقاً بصامت شفوى bilabial consonant ومتبوعاً بالصوت /ε/ الذى يتسم بصفة إضافية، هى اللهوية glottalised فى المقطع المنبور قبل الأخير ، ويعد ذلك مثالاً نموذجياً على درجة تعقيد بعض هذه المتغيِّرات اللغوية . ويتباين المتغيِّر (e) بين [e] المضيقة close و [ɐ] المفتوحة .

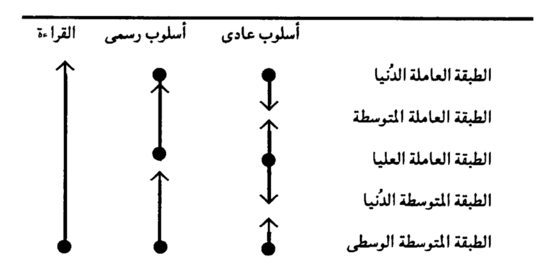


الشكل ٥-٥ (e) فى نورويش: أعلى المعدلات لخمس طبقات اقتصادية واجتماعية ⇐

وأربعة أساليب. المعدلات العليا = نسبة تواتر عليا [ɐ]:(e) الطبقات : المتوسطة الوسطى (أسود) المتوسطة السفلى (مظللة) الطبقات العاملة العليا (أبيض) الطبقة العاملة الوسطى (منقطة) الطبقة العملة الدنيا (خطوط طولية) (نقلاً عن تردجيل ١٩٧٤ - أ : ١٠٥).

وتحدث أعلى نسبة لوقوع البديل المفتوح (وهى صيغة مستحدَثة فى نورويش) بين المتحدثين من الطبقة العاملة العليا (انظر الشكل ٥ - ٥) . ويبدو أن المتحدثين من الطبقة المتوسطة لم يتأثروا نسبياً بهذا البديل ، ولكن الطبقتين العاملتين الوسطى والدُنيا تتطلعان لاستخدامه . ومن الغريب أن متحدثى الطبقة العاملة الوسطى قد أكثروا البديل المفتوح فى أسلوب المقابلة الرسمى ، مقارناً بالأسلوب العادى ، بالرغم من أن ذلك يعنى ابتعاداً عن المعيار الذى وضعته الطبقة المتوسطة، بينما ابتعد متحدثو الطبقة العاملة العليا فى الأسلوب الرسمى عن المعايير الخاصة بهم، وتحركوا باتجاه معايير الطبقة المتوسطة. ومما زاد فى تعقيد الموقف أن كل المتحدثين من جميع الطبقات قد تحركوا باتجاه معيار الطبقة المتوسطة فى قراءة النصوص النثرية، متخلين عن كل المعايير الأخرى.

وحتى نتمكّن من فهم هذه الأنماط ، ينبغى علينا أن نحدد ثلاثة معايير على الأقل وهى : معيار الطبقة المتوسطة وهو [e]:(e)، ومعيار الطبقة العاملة الدُنيا وهو مماثل من الناحية الصوتية لمعيار الطبقة المتوسطة ، ومعيار الطبقة العاملة العليا وهو [ɐ]:(e) وهى معايير متباينة تُستخدَم فى ظروف مختلفة (الشكل ٥ - ٦). ويظهر فى هذا الشكل استخدام هذه المعايير الثلاثة فى الأسلوب العادى، ويتضح أثرها من اتجاهات الأسهم. وقد تغيَّر مدى تأثير المعايير فى الأسلوب الرسمى ، حيث أثرتْ معايير الطبقة المتوسطة فى متحدثى الطبقة العاملة العليا . بينما لم يؤثر معيار الطبقة العاملة الدُنيا على أى من الطبقات الأخرى . أما فى أسلوب القراءة ، فيبدو أن معايير الطبقة المتوسطة هى وحدها التى سادت .



الشكل ٥ - ٦ (e) فى نورويش : مدى تأثير المعايير الثلاثة فى ثلاثة أساليب.

وختاماً ، ينبغى أن نقول أننا قد عرضنا لعدد من العوامل الاجتماعية التى تربط ما بين الناس ، وهى مسقط الرأس أو محل الإقامة الأصلى والعمر والجنس والعِرق والعوامل الأخرى المتعددة ، التى تحدد المكانة الاجتماعية والاقتصادية للفرد مثل التعليم والمهنة . وقد تؤثر كل هذه العوامل سواء بطريقة مباشرة أو بالتعاون مع العوامل الأخرى على استخدام المتغيِّرات اللغوية . ولا يعنى ذلك أن أيّاً من هذه العوامل ينبغى أن يرتبط بالكلام فى كل مجتمع ، فلا يبدو مثلاً أن هناك تبايناً لغوياً فى جميع أنحاء استراليا ناشئاً عن عاملى مسقط الرأس أو محل الإقامة (انظر مثلاً ميتشل و دلبريدج Mitchell & Delbridge ١٩٦٥) . ولا تمثّل هذه العوامل جميع العوامل المؤثرة على الكلام ، بل هى مجموع العوامل التى قام بدراستها معظم علماء علم اللغة الاجتماعى ، فهناك عوامل أخرى كثيرة مثل السياسة والدين يمكن أن تكون من مصادر التأثير . وبالفعل فقد يكون من الغباء أن نستبعد أيّاً من هذه العوامل الاجتماعية كمصدر من مصادر التأثير المحتَمَلة . فَمِنَ المحتمَل أن تكون مجموعة معينة من العوامل ذات أهمية خاصة فى مجتمع بعينه، بينما تكون

مجموعة مختلفة هى المجموعة المؤثرة فى مجتمع آخر . ونستطيع أن نقول أن العوامل المؤثرة بالنسبة لكل مجتمع هى العوامل الهامة من الناحية الاجتماعية فى هذا المجتمع بعينه ، ولكن من الصعب أن نجد دعماً كافياً لهذا الرأى فى الأدلة القائمة فعلاً . ويمكننا أن نتوقع ، مثلاً ، أن الدين من العوامل المؤثرة فى إيرلندة الشمالية ، وذلك لو سلّمنا بأهمية الانقسامات الطائفية فى هذا المجتمع . ولكن المادة العلمية التى جمعها الزوجان ميلروى لا توضّح أيّة اختلافات هامة بين المناطق الكاثوليكية والمناطق البروتستانتية ، أعنى أيّة اختلافات لا تفسّرها العوامل الأخرى . ومن المهم أن نحاول إيجاد تفسير لتلك الحقائق ولكثير من الحقائق الأخرى التى قدّمتها لنا الدراسات الكمية للنصوص .

٥ - ٤ - ٣ درجة انتماء المتحدث إلى المجموعة :

سنعرض فى هذا الجزء للرأى القائل بأن استخدام المتحدث لمتغيّر لغوى بعينه ، يعتمد على درجة تأثره بالمعايير السائدة فى مجتمعه . ولقد سبق أن عرضنا لبعض الدراسات التى تؤيد هذا الرأى مثل المادة العلمية التى جمعها تردجيل والخاصة بالانتشار التدريجى للبديل [a] : (æ) فى النرويج ، والمادة العلمية التى جمعها لابوف والخاصة باستخدام المراهقين من الزنوج الأمريكيين فى هارلم للبديل صفر ، بالإضافة للأمثلة الكثيرة التى قدّمناها ، والخاصة بتأثير الاختلافات فى المكانة الاجتماعية على الكلام . وقد دَرَسَ الزوجان ميلروى هذا الجانب من ظاهرة التباين ، وسنقدّم ملخصاً للتأويل النظرى الخاص بنتائج دراستهما ، ويتناسب هذا التأويل مع النموذج العام للغة الذى حاولنا تقديمه فى الفصول السابقة (انظر أيضاً جال Gall ١٩٧٨ ، الذى يقدِّم مادة علمية مماثلة من الجماعات الريفية فى النمسا) .

وقد اختار الزوجان ميلروى متحدثيهما من خلال التعارف الشخصى عن طريق شبكة من المعارف ، ولذلك استطاعا أن يمضيا وقتاً طويلاً فى منازل المتحدثين الذين تمّ اختيارهم ، وبالتالى تمكّنا من معرفة بُنية العلاقات الاجتماعية (انظر ٥-٢-٤).

أما الجماعات الثلاث التى قاما بدراستها فقد كانت جماعات من الطبقة العمالية الفقيرة، وكانت معظم العائلات المشتركة من العائلات العمالية العادية التى غالباً ما تشكّل « شبكة مغلقة » closed network ، وأعنى بذلك أنهم شبكة من الناس لهم عدد كبير من الاتصالات مع أفراد من نفس الشبكة ، لا مع أفراد من خارجها . وقد يؤثر ذلك على نوعية علاقاتهم إذ غالباً ما يرتبط السكان فى المناطق العمالية التقليدية بعلاقات الصداقة والعمل وحُسْنِ الجوار والقرابة ! ، وتؤثر كل منها على العلاقات الأخرى فتقويها . وواحد من أهم آثار الانتماء إلى مثل هذه الشبكات المغلَقة، هو أن الأفراد يتقيدون إلى درجةٍ كبيرة بمعايير سلوكية جامدة لا تسمح بوجود قَدْر من التباين فى سلوكهم (أو حتى فى طبيعة المعايير التى يقبلونها) . وإذا كان الأمر كذلك ، فعلينا أن نتوقع درجة عالية نسبياً من الالتزام بالمعايير الكلامية والسلوكية السائدة . وعلى عكس ذلك ، لا نتوقع من المتحدثين الذين لا ينتمون إلى شبكة مغلَقة ، أو الذين ينتمون إلى شبكات لا تربطها إلا علاقات واهية سوى قَدْر ضئيل من الاتفاق بينهم على المعايير الكلامية الخاصة بالشبكات المغلَقة. وقد اختبر الزوجان ميلروى هذه الفرضية فى مادتهم العلمية ، وقد جرى عرض النتائج فى ميلروى ومارجارين ١٩٧٨ Milroy & Margrain .

ونستطيع أن نقرر بإيجاز أنه قد ثبتت صحة فرضيتهما . فقد كان بعض المتحدثين الذين دَرَسَهم الزوجان ميلروى ينتمون إلى شبكات مغلَقة جداً ، بينما كان البعض الآخر من ذوى العلاقات غير المتماسكة بالجماعات التى ينتمون إليها . ولذلك ، فقد رصدا لكل متحدث معدلاً يعبّر عن مدى « قوة » العلاقة التى تربط بينه وبين الشبكة التى ينتمى إليها ، وأطلقا على هذا الرقم المصطلح التالى : « المعدل الخاص بقوة العلاقة داخل الشبكة » 'Network strength score' (NSS) ، وقاما بحساب هذا المعدل وفقاً لخمسة عوامل أساسية منها ، على سبيل المثال ، ما إذا كان للفرد علاقات قرابة وثيقة فى الحىّ ، وما إذا كان يعمل فى نفس المكان الذى يعمل فيه على الأقل فردان آخران من نفس المنطقة . وساعدهما ذلك على القيام بعمل اختبارات إحصائية على المعدلات الخاصة بالمتغيِّرات اللغوية، حتى يتعرفا على مدى ارتباط

معدل المتغيِّرات اللغوية مع « المعدل الخاص بقوة العلاقة داخل الشبكة » بالنسبة لكل من المتحدثين. وقد أيدت النتائج الخاصة بالمتغيرات كل توقعاتهم وفرضيتهم، بل لقد جاوزت نتائجهم ذلك. فقد اتضح أن هناك على أقل تقدير خمسة متغيرات لغوية من الثمانية، التى درست، ترتبط ارتباطا وثيقا بالمعدل الخاص بقوة العلاقة داخل الشبكة [NSS] وأعنى بذلك أن هذه المتغيرات اللغوية قد تأثرت « بالمعدل الخاص بقوة العلاقة داخل الشبكة » فى كل القطاعات الفرعية للجماعة، التى قاما بدراستها، بينما تأثرت المتغيرات الثلاثة الأخرى « بمعدل قوة العلاقة داخل الشبكة » فى بعض القطاعات الفرعية لا فيها جميعا. وتعد هذه النتيجة نتيجة هامة للغاية، وخاصة إذا عرفنا أن المتغيرات التى تم اختيارها للدراسة لم يتم اختيارها مسبقاً بناء على قوة ارتباطها بقوة العلاقة داخل الشبكة.

ثانياً : وهذه النقطة نابعة من النقطة الأولى تعرفت قطاعات مختلفة من الجماعة على مجموعات متنوعة من المتغيرات اللغوية على أساس أنها نوع من «شارات الإنتماء» إلى الشبكة الأساسية. فالمتغير (ai) على سبيل المثال، يستخدمه بعض الناس بهده الطريقة فى باليمكاريت Ballymcarrett والمتغير (I) يستخدم فى الهامر the Hammer وهناك أيضا متغير ثالث ويرمز له بـ (Λ^1) ولا يستخدمه سوى كبار السن رمزا لقوة انتمائهم للجماعة. وليس معنى ذلك أن القطاعات الأخرى من الجماعة تتجنب استخدام البدائل وثيقة الصلة بالعضوية الأساسية فى الجماعة، بل معناه أنهم لا يستخدمون المتغير شارة على عضويتهم فى الجماعة. وحتى نوضح ذلك نقدم نموذجا من الاختلافات القائمة بين الرجال والنساء فى استخدام متغيرين هما (a) و (th) ، فقد استخدم الرجال نسبة من البدائل « الدالة على العضوية الأساسية core variance » بنسبة أكبر من التى استخدمتها النساء. ولكن نتائج الرجال الخاصة بهذين المتغيرين كانت أقل ارتباطا « بمعدل قوة انتمائهم للشبكة » من نتائج النساء. ولذلك يميل الرجال (دون النساء) إلى استخدام البدائل العضوية الأساسية بصرف النظر عن مدى اقترابهم من العضوية الأساسية فى الجماعة. أما بالنسبة للنساء فأن الاكثار من استخدام بدائل العضوية الأساسية يعد اشارة يعوّل عملها فى دلالتها على

مدى اقترابهن من العضوية الأساسية فى الجماعة وذلك عند قياسها « بالمعدل الخاص بقوة العلاقة داخل الشبكة » .(NSS).

ثالثا : يمكن استخدام « المعدل الخاص بقوة العلاقة داخل الشبكة » للربط بين نتائج بعض المتغيرات اللغوية وبين بعض الحقائق المعروفة عن البنية الاجتماعية. فهناك،على سبيل المثال، اختلافات واضحة بين الذكور و الإناث بالنسبة لمعظم المتغيرات فى بلفاست. (كما هو الحال فى كثير من المجتمعات الأخرى - قارن ذلك، مثلا، بالنتائج الخاصة بطهران فى الجدول ٥-٢) ، وهناك أيضاً اختلافات فى المعدل الخاص بقوة العلاقة داخل الشبكة ، حيث يحصل الرجال على نتائج أعلى من النتائج التى تحصل عليها النساء . وحيث إن الاختلافات الجنسية فى المتغيِّرات اللغوية تبيِّن أن الرجال يستخدمون عدداً من بدائل العضوية الأساسية يزيد عمّا تستخدمه النساء، (باستثناء واحد منها سنعود إليه فيما بعد) ، يمكننا إذن أن نفسّر الاختلافات الجنسية فى المتغيِّرات اللغوية على أساس أنها نتيجة تلقائية للاختلافات القائمة بين الرجال والنساء بالنسبة « لمعدل قوة العلاقة داخل الشبكة » (NSS) ، وبالتالى فليس مجدياً أن نحدد الجنس باعتباره عاملاً اجتماعياً مستقلاً ومؤثراً على المتغيِّرات اللغوية. والسؤال ، إذن ، هو : لماذا يحصل الرجال على نتائج أعلى من النساء بالنسبة لمعدل قوة العلاقة داخل الشبكة ؟ تقدِّم لنا نظرية الشبكات Network Theory إجابة سهلة على هذا السؤال ، فحواها أن الرجال يخرجون للعمل بنسبة أعلى من النساء ، وأنهم يعملون مع رجال آخرين من نفس أحيائهم ، وعلى ذلك ، يقيم الرجال عدداً أكبر من روابط العمل ولديهم نفس العدد من الروابط الأخرى ، وبالتالى فإن « معدل قوة العلاقة داخل الشبكة » لديهم سيكون أعلى من النساء . وبناء على ذلك ، يمكننا تفسير الاختلافات الكلامية بين النساء والرجال بطريقة مباشرة ، وذلك على أساس الاختلافات القائمة بينهم فى أنماط العمالة.

ولكن لو تغيَّرت أنماط العمالة ، وتوقف الرجال مثل النساء عن الخروج للعمل مع زملائهم من نفس الأحياء السكنية ، فستختفى الاختلافات القائمة بين الرجال والنساء، ونستطيع أن نؤيد هذا الرأى بالنظر إلى المادة العلمية الخاصة ببلفاست. فَمِنْ

بين المناطق الثلاث التى تمت دراستها فى بلفاست ، نجد أن حىّ كلونارد Clonard فَقَدَ مصدره التقليدى لتوظيف الذكور ، وهو صناعة المنسوجات ، ولكنه استمر دون تغيير نسبى بالنسبة لحركات انتقال السكان واسعة المدى التى أثرتْ على المنطقة الأخرى مثل منطقة الهامر the Hammer ، والتى تأثرتْ هى الأخرى بانهيار صناعة النسيج . أما المنطقة الثالثة وهى باليمكاريت Ballymacarrett ، فمازالت تحتفظ بمصنع بناء السفن الذى ما زال يشغل الذكور . وبالتالى ، فنحن نتوقع أن نجد الاختلافات التقليدية بين الرجال والنساء فى منطقة باليمكاريت دون غيرها بينما نتوقع ، من ناحية أخرى ، أن تكون هذه الاختلافات قد اختفت تماماً بفقد الرجال لأعمالهم التقليدية المحلية فى المناطق الأخرى . ولذلك ، فقد أكد « المعدل الخاص بقوة العلاقة داخل الشبكة » (NSS) هذا التوقع بالنسبة لمنطقة كلونارد . وقد حصلت النساء بصورة عامة على نتيجة أعلى من الرجال بالنسبة « لمعدل قوة العلاقة داخل الشبكة » فى هذه المنطقة ، وبذلك انعكس النمط التقليدى (وليس من الواضح لماذ! عكستْ النساء هذا النمط التقليدى بدلاً من أن يكتفينَ بازالة الفوارق بينهنّ وبين الرجال) . وقد أظهرتْ بعض المعدلات الخاصة بالمتغيِّرات اللغوية فى منطقة كلونارد ، أن النساء يستخدمنَ بدائل العضوية الأساسية بنسبة تعادل نسبة استخدام الرجال لها . (قارن بذلك مثلاً الأرقام الخاصة بالمتغيِّر(٨) فى ج . ل . ميلروى J.L. Milroy ١٩٧٨ : ٢٦) . وما زالت هناك كثير من الحقائق المتعلقة بالأنماط الخاصة ببلفاست تنتظر تفسيراً ، ولكن يبدو أن استخدام معدل قوة العلاقة داخل الشبكة كمتغيِّر اجتماعى قد ساعدنا على الاقتراب من فهم هذه الأنماط .

أما الجماعات الثلاث التى دَرَسَها الزوجان ميلروى فى بلفاست ، فقد كانت كلها ذات « مكانة اجتماعية » دُنيا low prestige ، وتتميّز بارتباطها بعلاقات داخلية وثيقة ولكن كل فرد بالطبع لا ينتمى إلى مثل هذه الجماعات ، وخاصة فى المجتمعات الحضرية الحديثة . فما هى إذن المعايير التى تتحكّم فى كلام هؤلاء الآخرين ؟ من المحتمل أن يكون هؤلاء الأفراد على دراية بلهجة متواضع عليها يستخدمونها كمعيار، وهم – على أي حال – يستخدمونها بسبب المكانة التى تتمتع بها . والشىء

الوحيد الذى قد يمنعهم من استخدام هذا المعيار ، هو معرفتهم بوجود لهجات أخرى محلية ذات مكانة اجتماعية أقل ، ومعرفتهم أن استخدامهم اللهجة المتواضع عليها يعنى رفضهم لغيرها ، والتى قد تكون ذات أهمية ، وذلك لأسباب عديدة . وكل من تأثروا تأثراً تاماً باللهجة المتواضع عليها (وهم فى بريطانيا مَنْ يتحدثون باللهجة الإنكليزية المتواضع عليها RP) قد يكون كلامهم متشابهاً مثل كلام الجماعات وثيقة الارتباط فى بلفاست ، ولكن أسباب هذا التشابه مختلفة تماماً ، فهم لا يتحدثون بطريقة متماثلة نتيجة لوجود شبكات من الاتصال الاجتماعى المكثَّف ، بل نتيجة لتمسكهم بمعيار متواضع عليه بكل ما يعنيه ذلك من تقنين فى كتب النحو والمعاجم والتعليم المدرسى والاستخدام فى وسائل الإعلام ، وما إلى ذلك من أسباب (انظر ٢ - ٢ - ٢) .

والفرد الذى لم يتخذ معاييره من الجماعة ذات الروابط الوثيقة ، ولم يتخذها أيضاً من اللهجة المتواضع عليها ، يختار لكلامه نمطاً من بين مجموعة كبيرة ومتنوعة من النماذج اللغوية ، وسيقوم هو نفسه بإضافة نموذج جديد فريد من نوعه للعالم من حوله ، وبالتالى فإن المجتمع الذى يعيش فيه ستكون فيه نسبة عالية نسبياً من التباين والتنوع أو ما نطلق عليه الانتشار diffusion فى الأنماط اللغوية ، وذلك على عكس النوعين الأخيرين من المجتمعات اللذين تكون معاييرهما اللغوية محددة، ونطلق على مثل هذه المجتمعات مجتمعات التضام focussed (انظر لى باج ١٩٦٨ - أ) . وقد جنح علماء علم اللغة لدراسة المجتمعات المتضامة نسبياً relatively focussed وبالتالى ، أرسوا نظريات لغوية وقواعد نحوية تعطى اهتماماً كافياً لظاهرة التباين اللغوى variability ، وحتى المجتمعات الصغيرة شديدة الترابط التى دَرَسَها الزوجان ميلروى كان بها قَدْرٌ لا يستهان به من التباين فى التفاصيل ، وبالتالى فعلينا أن نتوقع قدراً أكبر من التباين فى المجتمعات التى لا تتميَّز بالانتشار diffuse . وقد تأكد مثل هذا التوقع فى دراسة الرطانات ، وتزيد أهمية هذه اللغات بقدر درجة انتشارها diffuseness (انظر ٢ - ٥ - ٣) ، ولكن ما زال هناك نقص شديد فى المادة العلمية الخاصة باللغات العادية التى تتسم بالانتشار . وقد يكون من المهم أن

نعرف، مثلاً، مقدار التباين فى دراسة تردجيل للطبقة العمالية العليا فى نورويش، والتى استطاعت أن تستحدث معياراً جديداً للنطق (انظر الشكلين ٥ - ٥ و ٥ - ٦). ما هى القوة الاجتماعية التى تحافظ على مثل هذا المعيار وتساعد على نشره بين الطبقة العاملة المتوسطة والدُنيا ؟ ينبغى أن نتوقع فهماً أفضل لكل هذه العمليات بعد مرور عدة أحقاب من الدراسات والأبحاث فى مجال علم اللغة الاجتماعى .

٥ - ٥ تأويل النتائج

٥ - ٥ - ١ القواعد المتغيِّرة Variable rules :

كنا قد سلّمنا حتى الآن ، إلى حدٍ ما ، تسليماً تاماً بالتفسير اللغوى للتباين اعتماداً فى ذلك على فكرة « المتغيِّر اللغوى » ، ومتجاهلين المشكلات الخاصة بربط ظاهرة التباين بعناصر اللغة الأخرى بطريقة يمكن تبريرها على أساس نظرى (انظر المناقشة الواردة فى ٥ - ٣ - ١ من أجل التعرف على بعض هذه المشكلات). فكيف نستطيع تأويل نتائج الدراسات الكمية للنصوص فى إطار نظرية علم اللغة ؟ حاولَ كل من ويليام لابوف وديريك بيكرتون الاجابة على هذا السؤال ، وسنحاول دراسة إجابتى كل منهما واحدة تلو الأخرى، وسنحاول أيضاً تحديد مواطن الضعف فى كل من هاتين الاجابتين. يتفق كلاهما (ومن الصعب ألا نتفق معهما) على أنه من غير الممكن تفسير ظاهرة التباين فى الكلام بردها لبعض « عوامل الأداء » performance factors ، مثل عامل الكسل أو عامل ضعف الذاكرة أو حتى عامل « الخلط بين اللهجات » dialect mixture ، حين تختلط لهجتان متجانستان بنسب متفاوتة فى كلام الفرد . ولكن هذه الفرضيات ، كلها ، تفشل فى تفسير كيف يمكن أن تتأثر المتغيِّرات اللغوية المختلفة بطرق مختلفة بعناصر الأداء ذاتها ، أو بالخلط بين اللهجات كما يحدث بالفعل .

إن إجابة لابوف على هذا السؤال (انظر لابوف ١٩٧٢ - أ : ٢١٦) واضحة وصريحة من ناحية المبدأ ، فهو يقبل نظرية النحو التوليدى والتحويلى على أنها صحيحة (كما عُرِضَتْ فى الستينات) ، ويعتقد أيضاً أن كل متغيِّر لغوى يرتبط

بقاعدة نحوية . وكل متغيِّراته اللغوية ترتبط إما بإحدى القواعد الصوتية phonological rules أو بإحدى التحويلات التراكيبية syntactic transformations، وهما نوعان من القواعد تشير إلى السياق اللغوى . ولو سلّمنا جدلاً بكل هذه الفرضيات المطروحة فليس أمامنا لكى نوفق بين القواعد النحوية وظاهرة التباين إلا أن نطرح مفهوم «القاعدة المتغيِّرة» variable rule ، جنباً إلى جنب مع القواعد المعمول بها فعلاً، وهى « القواعد الجبرية » obligatory rule، و«القواعد الاختيارية » optional rule ، وإذا كان من المحتّم تطبيق « القاعدة الجبرية » عند توافر الشروط المطلوبة،فـ«القاعدة الاختيارية» يجوز تطبيقها أو عدم تطبيقها مع توافر الشروط المطلوبة، أما « القاعدة المتغيِّرة » فلها درجة محددة من احتمال التطبيق عندما تتوافر الشروط المطلوبة، وتتفاوت هذه الشروط بين حتمية التطبيق (حينما تكون شروط تطبيق هذه القاعدة مطابقة تماماً لشروط تطبيق القاعدة الإجبارية) وبين حتمية عدم التطبيق . وحتى يمكنه « تدوين » notation هذه القاعدة حدَّدَ لابوف العرف التالى، وهو العرف الخاص بكتابة هذه القاعدة بين علامتين هما، العلامة > ومعناها « أكثر من » والعلامة < ومعناها « أقل من » ، وذلك على يمين القاعدة المتغيِّرة حتى يبيّن أن هذه القواعد يمكن تطبيقها أو عدم تطبيقها . ولذلك يمكننا كتابة القاعدة الخاصة بالمتغيِّر (h) على سبيل المثال عند حذفه deletion - [h] كالتالى :

$$h \rightarrow < o >$$

ويجب أن يصاحب كل قاعدة متغيِّرة بيان عن احتمالات استخدامها والشروط التى تؤثر على هذه الاحتمالات ، وعلينا أن نقدم المعلومات الخاصة بهذه القواعد بإحدى طريقتين هما : إذا كانت العوامل الهامة هى العوامل اللغوية فحسب، ينبغى أن نحدد السياقات اللغوية التى تسمح باستخدام المتغيِّر ونرصدها، ويمكننا عندئذ توصيفها فى صورة قواعد سياقية محددين بذلك درجات تأثير هذه العوامل المتباينة على احتمالات تطبيق القاعدة من خلال نظام رصدها التدَرجى بإشارات خاصة. أما الطريقة الثانية، فتُستخدَم عندما تكون المؤثرات اجتماعية لا لغوية، وذلك بتحديد

صيغة تحدد بدورها احتمالات تطبيق القاعدة عند ذكر المعطيات المعيارية الخاصة بالمتغيِّرات الاجتماعية الواردة . (ولن نطيل فى وصف تفاصيل هذين المنهجين، فعلى القارىء المهتم بهذه التفاصيل أن يرجع إلى سيدرجيرين Cedergren ١٩٧٢ (وكتابه يعد مقدمة طيبة) وسيدرجيرين وسانكوف Cedergren & Sankoff ١٩٧٤ ولابوف ١٩٧٢ - ب : الفصل الثالث، و د. سانكوف D. Sankoff ١٩٧٨).

وهناك عدد من مواطن الضعف الخطيرة فى إجابة لابوف . ولابد من رفض فرضيته الأساسية الخاصة بأن كل متغيِّر لغوى يرتبط **بقاعدة** من قواعد النحو التحويلى . فلو أننا أخذنا المتغيِّر (h) ، على سبيل المثال ، ممثلاً لوجود أو عدم وجود الـ [h] فى كلمة مثل **house** فى العديد من اللهجات الإنكليزية، ولو أننا حوّلنا المتغيِّرات اللغوية مباشرة إلى قواعد متغيِّرة، فإننا سنصل حتماً إلى قاعدة مثل القاعدة المذكورة فيما سبق ، والتى تفترض أن كلمات مثل house يجب أن تتضمن [h] كامنة فى وصفها المعجمى التحتى lexical representation بالنسبة لكل من أفراد الجماعة التى تستخدم هذا النحو ، بمعنى أن جميع أفراد الجماعة يعرفون أن كلمة **house** تتضمن [h] كامنة ، بينما لا تتضمن كلمة **owl** ، مثلاً ، مثل هذا الصوت . ولكن المشكلة تتمثّل فى أن معظم الجماعات وخاصة غير المتعلّمة فيها لا تستخدم الصوت [h] عادة فى كلمة مثل **house** ، ولذلك يجد الطفل صعوبة فى تعلّم أية كلمة تتضمن الحرف [h]، ولن يعرف كثير من المتحدثين أى الكلمات تتضمن الحرف [h]، ولذلك سينطقون الحرف [h] عند نطق كلمات مثل **owl** أو **office** ، بينما لا يفعل معظم المتحدثين باللغة المتواضع عليها ذلك . وبعبارة أخرى ، ينبغى أن يكون لدى هؤلاء المتحدثين قاعدة خاصة بإضافة الصوت [h] [h]-insertion ، لاستخدامها فى المناسبات الرسمية ، وتُستخدم هذه القاعدة بالنسبة لكل كلمة تبدأ بصامت على أمل أن يكون استخدام الصوت [h] صحيحاً ومناسباً فى بعض الأحيان ، وبالتالى فسيترك ذلك لدى المخاطب انطباعاً بارتفاع درجة تعليم المتحدث . أما بالنسبة للمتحدثين الآخرين ، فإنه من الواضح أن الصوت [h] جزء من الوصف المعجمى بكلمة **house** ، وليس الأمر كذلك بالنسبة لكلمتى **owl** و **office** ، وبالتالى فإنهم إذا

نطقوا كلمة مثل **house** بدون [h] فقد يكون ذلك نتيجة لقاعدة خاصة بحذف الصوت [h], [h]-deletion ، ونتبيَّن من ذلك أن المتغيِّر (h) يرتبط بقاعدتين مختلفتين بدلاً من قاعدة واحدة ، وكل من هاتين القاعدتين خاصة ومناسبة لقطاع مختلف من قطاعات الجماعة . (ومن الممكن أن نتصوَّر أن بعض أفراد الجماعة يعرفون القاعدتين ، إذا كانت لديهم بعض الكلمات التى تتضمن الصوت [h] فى معجمهم ، ويعرفون أيضاً أن هناك كلمات كثيرة أخرى مماثلة فى اللغة المتواضع عليها دون أن يعرفوا هذه الكلمات). ويمكننا أن نقول نفس الشىء عن المتغيِّر (r) فى نيويورك وبعض أجزاء بريطانيا ، حيث يعد استخدام الحرف /r/ متغيِّراً كما يستخدم فى إدنبرة (الجدول ٥ - ١) .

وقد يعترض البعض على ذلك قائلاً أنه ليست هناك مشكلة من ناحية المبدأ فى أن تكون للمتغيِّر قاعدتان مختلفتان . وعلينا فى هذه الحالة أن نعيد حساب الاحتمالات (وذلك حتى نتجنَّب أو نستبعد الاحتمال الخاص باستخدام أفراد الطبقة المتوسطة لقاعدة إضافة الصوت [h] ، وفيما عدا ذلك لا يتطلَّب الأمر أكثر من إضافة القواعد المتغيِّرة اللازمة إلى النحو . ولكن الأمر ليس كذلك ، لأننا سنحتاج بالضرورة إلى معجمَين Lexicon مختلفَين ومستقلين ، يتضمن أحدهما مواصفات معجمية خاصة بالكلمات التى تتضمن الحرف [h] ، سواء أكان واضحاً أو ضمنياً ، بينما لا يتضمن المعجم الآخر مثل هذا الوصف . وبالتالى ستكون هناك حاجة للمفاضلة بين معجمَين منفصلين قائمة على درجة من الترجيح مرتبطة بعملية الاختيار ، وذلك ما لا يستطيع ميكانيزم mechanism القواعد المتغيِّرة أن يقوم به .

ومن العيوب الخطيرة لهذه القواعد المتغيِّرة أن المقصود بها أن تُستخدَم فى نظام نحوى يصلح لمجتمعات بأكملها ، لا لأفراد بعينهم (وغالباً ما توضع النظم النحوية التوليدية التحويلية للأفراد) ، وذلك لأن المقصود من الاحتمالات أن تعكس الاختلافات بين المتحدثين بحيث تعنى بالعوامل الكثيرة الأخرى مثل المكانة الاجتماعية والاقتصادية ، وذلك من شأنه أن يسبب صعوبات جسيمة، لأن مختلف الأفراد يتطلَّبون ، كما رأينا سابقاً، أجروميات مختلفة وبخاصة عندما تكون هناك

اختلافات فى المعجم (من أجل الحصول على دراسة أكثر تفصيلاً وتمثيلاً لهذه المشكلة أنظر كاى ١٩٧٨ Kay وميلروى ومارجرين Milroy & Margrain ١٩٧٨، وماتيوز Matthews ١٩٧٩ : ٤٥) . وفضلاً عن ذلك ، فإنه من الصعب تحديد الجماعات الكلامية بطريقة مُرضية (انظر ٢ - ١ - ٤) ، ودون مثل هذا التعريف الدقيق للمتحدثين ، الذين تنطبق عليهم مثل هذه الأجرومية ، يصعب بل يستحيل اختبار هذه الأجرومية اختباراً مُرضياً.

ومن المهم أن نعرف أن نظرية لابوف الخاصة بالقواعد المتغيِّرة لم يكن لها تأثير يُذكر فى إرساء قواعد النحو ، وذلك منذ نُشِرَتْ لأول مرة فى نهاية الستينات ، وذلك بالرغم من دراسة المتغيِّرات اللغوية على مستوى واسع . أما لابوف نفسه فقد توقفَ عن المضى فى هذا الاتجاه بعد محاولاته الأولى لكتابة أجروميات تتضمن مثل هذه القواعد (١٩٧٢ أ و ب) .

٥ - ٥ - ٢ العلاقات الضمنية بين الأجروميات
Implicational relations among grammers :

واعتماداً على دراسة تشارلز جيمس بيلى Charles-James Bailey (١٩٧٢، ١٩٧٣) وديفيد ديكامب (١٩٧١ - ب : ١٩٧٢) David DeCamp ، حاول ديريك بيكرتون Derek Bickerton أن يضع التباين فى إطار نظرية علم اللغة (بيكرتون ١٩٧١ ، ١٩٧٢ أوب ، ١٩٧٣ ، ١٩٧٥) وترجع هذه المحاولة بوضوح إلى نظرية الموجات التى تطورتْ كجزء من علم اللغة المقارن Comparative linguistics وعلم الجغرافيا اللغوية Linguistic geography (انظر ٢ - ٣ - ٢) . وتمتاز هذه النظرية بالبساطة ، ولعل ذلك من أهم خصائصها . ويزعم بيكرتون أن التباين اللغوى إما أن يكون عشوائياً ، أو يكون ناشئاً عن استخدام عدد مختلف من الأجروميات فى مواقف مختلفة (وغالباً ما يكون ذلك بواسطة عدد من المتحدثين المختلفين) . وحيث يكون التباين عشوائياً يمكننا التعامل معه بواسطة القواعد

الاختيارية القائمة، ولا حاجة بنا لإدخال الاختلافات الناشئة عن الاحتمالات فى الأجرومية ، كما يفعل لابوف ، وعندما يكون التباين منتظماً، يمكننا التعامل معه عن طريق إرساء مجموعة من الأجروميات المختلفة ذات الطابع التقليدى (ويعتقد بيكرتون ، مثل لابوف ، أن هذه الأجروميات نوع من النحو التحويلى).

وباستطاعتنا أن نقول نفس الشيء عن أية نوعية من الأجروميات التحويلية العادية التى لا تضع فى اعتبارها الجانب الاجتماعى ، ولكن بيكرتون يتجاوز ذلك الموقف فهو يضع فى اعتباره كمية هائلة من المادة العلمية الاجتماعية ، التى جمعها أثناء عمله فى جيانا Guyana (فى أمريكا الجنوبية) ، وهى المادة الخاصة بدراسته «لمتواصل الكريولية » Creole continuum (وأعنى بذلك متواصل النوعيات المستخدمة فى مجتمعات مثل جيانا ، بين الكريولية المعروفة بـ « اللهجة الأساسية » Basilect و « اللهجة العليا » Acrolect المتواضع عليها انظر (٢ - ٥ - ٤). ومن أجل القيام بدراسة قدر أكبر من التباين القائم فى أى متواصل كريولى، قدّم بيكرتون اقتراحين أساسيين :

أولهما ، القيام بالتمييز بين « لهجة الفرد » Idiolect ، ويعنى بها مجموع صيغ الكلام التى يستخدمها فرد بعينه وبين « اللهجة » lect أو «اللهجة التوفيقية» isolect ، وهى نظام نحوى يتكون من مجموعة من القواعد التى تتوافق مع بعضها بعضاً ، ولكنها تستبعد البدائل (فيما عدا ما يؤدى منها إلى التباين العشوائى) . إن التمييز بين « النظام النحوى » و « قدرة المتحدث الفردية » individual speaker's competence يعنى أنه يمكن السماح للفرد بأن تكون لديه أكثر من «لهجة» lect فى قدرته الكلامية competence ، وبالتالى فإن أداءه performance ذاته ، قد يكون متبايناً بالمثل . وبذلك ، يمكننا التعامل مع كم التباين القائم فى مجتمع بعينه فى ثلاث خطوات ، وهى :

(١) التمييز بين التباين العشوائى والتباين الحقيقى،

(٢) إرساء قواعد لكتابة نظام نحوى لكل لهجة فردية تغطى كل الصيغ

الكامنة .

(٣) تحديد المتحدثين الذين يستخدمون لهجة أو لهجات معيّنة ، لو أننا سلّمنا بأنهم جميعاً يستخدمون أكثر من لهجة واحدة . إن مثل هذا المنهج يجعل مهمة الدارس أكثر صعوبة ، مما لو اتبع منهج لابوف ، لأننا لا نستطيع التسليم بنظام نحوى موحّد للمجتمع ككل أو بنظام نحوى واحد للمتحدث الفرد . وعلى أية حال ، فإن وجود مثل هذا النظام النحوى الأساسى المشترك للمجتمع ككل ، أمر مشكوك فيه ، وقد سبق أن أكدنا أهمية السماح بمعاملة كل فرد على حدة فى التحليل ، ولذلك يبدو أن مدخل بيكرتون أكثر واقعية من مدخل لابوف من هذا الجانب على الأقل .

أما اقتراح بيكرتون الثانى فهو خاص بانتظام العلاقات بين اللهجات المختلفة فى المجتمع الذى قام بدراسته ، حيث كانت منتظمة ومقيدة تقييداً يسمح بكتابة مجموعة منتظمة من القواعد التحويلية لتحويل لهجة إلى أخرى (ويماثل ذلك قواعد النحو التحويلى ، وإن كان تدوين تفاصيل هذه المعادلات الرمزية لا يعنينا بشىء). وحيث إن هذه القواعد كانت مرتَّبة بشكل تدريجى ، فقد أمكن ترتيب هذه اللهجات فى شكل « **تدرجى تضمينى** » implicational hierarchy بنفس الطريقة التى سبق أن رتبّنا ranked بها المتحدثين بالنسبة لانتشار المفردات المعجمية lexical diffusion (الجدول ٥ - ٥).

ويمثّل « **التدرج التضمينى** » علاقات بين الخصائص والأفراد ، ويعنى أن امتلاك إحدى خصائص التدرج يعنى ضمنياً امتلاك كل الخصائص الأخرى الواقعة أسفله . وقد تكون هذه الخصائص قواعد نحوية مختلفة ، أو قاعدة واحدة مطبّقة على مختلف البيئات أو السياقات ، كما نرى فى المثال التالى (نقلاً عن بيكرتون ١٩٧١)، حيث توجد فى جيانا صيغتان تُستَخْدَمان للدلالة على المصدر (وهو حرف to فى اللغة الإنكليزية المتواضع عليها)، الصيغة الأولى هى صيغة اللهجة الأساسية (fi أو

Basilectal (fu أما الصيغة الثانية فهى صيغة اللهجة العليا Acrolectal tu ، والقاعدة الخاصة بالاختيار بين هاتين الصيغتين تفضّل استخدام tu فى سياقات بعينها ، وهى مرتبة فى التدرج التضمينى كالتالى :

السياق الأول : بعد أفعال البداية (أو الشروع أو الاستهلال) inceptive verbs مثل يبدأ staat .

السياق الثانى : بعد أفعال التمنّى desiderative verbs والأفعال النفسية الأخرى psychological verbs ، مثل يريد want ويقرر disaid ويحاول trai ويسمح alau وينسى fuget .

السياق الثالث : بعد أفعال أخرى مثل يجرى ron وجاء com ويستعير bara ، أى عندما يعبّر المصدر عن الغرض .

وهناك بعض اللهجات lects تُستخدم فيها tu فى السياق الأول ولا تُستخدَم فى السياقات الأخرى ، وهناك لهجات أخرى تُستخدَم فيها tu فى السياقين الأول والثانى ولا تُستخدَم فى الثالث ، بينما توجد لهجات تُستخدَم فيها tu فى السياقات الثلاثة ، ولكن لا توجد هناك حالات تُستخدَم فيها tu فى السياق الثانى دون أن تُستخدَم فى الأول ، أو فى الثالث دون الثانى ، أو الأول ، وذلك مما يبرر استخدام كل شكل دَرَجى يكون استخدام المتغيِّر فى السياق الأول شرطاً لاستخدامه فى السياق الثانى ، ويصبح استخدامه فى الثانى شرطاً لاستخدامه فى الثالث .

وبنقل مركز التباين من أجرومية الفرد إلى العلاقات بين الأجروميات ينتقل مجال الدراسة من علم اللغة الوصفى Descriptive linguistics إلى علم اللغة المقارن Comparative linguistics ، وبخاصة علم اللغة المقارن التاريخى ، إذن نكون بذلك قد طرحنا سؤالاً هو : كيف تعكس العلاقات بين هذه النوعيات المعاصرة (أى اللهجات lects) التغيّرات والمراحل التاريخية التى مرت بها هذه النوعيات حتى أصبحتْ كما هى الآن ؟ ويزعم بيكرتون أن العلاقات الآنية Synchronic القائمة

داخل متواصل الكريولية تعكس التغيّرات الزمانية diachronic بدقة متناهية ، وذلك أنه يعتقد أن « التدرج التضمينى » الخاص بالقواعد والسياقات يصبح السُلّم الوحيد الذى يستطيع المتحدثون تسلّقه فى انتقالهم من اللهجة الأساسية Basilect إلى اللهجة العليا Acrolectal ، وبالتالى تصبح القواعد التى تحوّل لهجة إلى أخرى مجرد بقايا آنية لتغيّرات تاريخية وقعَتْ فى الماضى ، عندما حوّل المتحدثون ذوو المكانة الدُنيا حديثهم نحو النوعية العليا ، وبذلك أرسوا مثالاً أو قواعد يمكن أن يحتذيها متحدثون آخرون. وإذا كان لنا أن نعتبر أن هذا التحوّل الذى استحدث صيغة من النوعية العليا Acrolectal (أو من الصيغ التى ليست من النوعية الأساسية) فى النوعية الأساسية تجديد فى هذه النوعية، فهذه النظرة تعد محاولة لادخال نظرية الموجات (٢ - ٣ - ٢) فى إطار علم اللغة الآنى Synchronic linguistics .

ويمكننا أن نحدد موازاة أخرى واضحة بين نظرية بيكرتون ونظرية الانتشار المعجمى Lexical diffusion (وقد سبق أن عرضنا لذلك فى ٥ - ٤ - ١) ، فعلى عكس ما فعل لابوف ، اهتم بيكرتون بالتراكيب والدلالة أكثر من اهتمامه بالنطق ، ولكنه يماثل لابوف فى مناقشته واهتمامه بالعلاقات القائمة بين القواعد ، بدلاً من العلاقات بين الوحدات المعجمية Lexical items . وعلى أية حال ، فَمِنَ السهل أن نستخدم نظرية بيكرتون فى التباين لتوصيف التباين القائم فى الوحدات المعجمية، حيث إن اللهجات lects يمكن أن تتباين فى المفردات كما تتباين فى القواعد . وكل ما يلزمنا فى كِلتا الحالتين هو وجود قاعدة لتحويل conversion rule الوحدة القائمة فى نوعية بعينها إلى وحدة أخرى قائمة فى نوعية أخرى . وبالتالى ، يمكننا أن نتعامل مع نظرية انتشار المفردات باعتبارها وجهاً خاصاً من نظرية بيكرتون عن العلاقات بين اللهجات .

ولعل من المهم أن نميّز فى هذه النظرية بين أهم ملامحها العامة وإمكانياتها وبين تطبيقاتها الخاصة على المادة العلمية المأخوذة من جيانا Guyana ، لأن هذه التطبيقات قد تمثّل فى بعض جوانبها وقفة فريدة فى نوعها من وجهة نظر علم اللغة الاجتماعى، حيث يوجد تدرج واضح بين اللهجة الأساسية واللهجة العليا . وينفى بيكرتون نفسه

فكرة وجود « هرمية تضمينية مفردة » لكل جوانب النظام النحوى ، (وقد طرح ديكامب هذا الرأى بطريقة أكثر وضوحاً ، انظر ديكامب ١٩٧٢) فيمكن أن تتباين، مثلاً ، بعض الجوانب الصوتية phonology بصفة مستقلة عن التباين بين الصيغتين، وعن الجوانب التراكيبية الأخرى ، ومن المؤكد أن الأمر كذلك . وبالتالى، لا ينبغى أن نصنّف العلاقات القائمة بين عدد من اللهجات من خلال « تدريج تضمينى واحد » بل بواسطة عدد أكبر من المتدرجات التضمنية الصغيرة، يتضمن كل منها عددا ضئيلاً من القواعد والسياقات. ومما يزيد من مرونة النموذج الحالى أن نقارنه بالموقف فى النموذج الساذج حيث يكون هناك تدريج واحد، ويسمح بذلك لنا باستخدام هذا النموذج فى المواقف ذات الأبعاد المتعددة multi-dimensional ، وهو الوضع السائد في معظم المجتمعات. ونستطيع بذلك أن نرى فى كل « تدريج تضمينى » بعدا مستقلاً من العالم الاجتماعى، ويمكننا أيضاً تصور تلك التدريجات التضمينبة، وهى تعمل فى اتجاهات متضادة على نفس البعد الاجتماعى، حيث يمكن أن يمتد التغيّر من المدينة إلى الريف ومن الريف إلى المدينة.

وبالرغم من كل إيجابيات نظرية بيكرتون فإن بها عيبين أساسيين ، أولهما أنه لم يسمح فيها بالاختلافات الاحتمالية probabilistic بين النوعيات ، وهى الاختلافات التى تبيّنا أنها حقيقية وذلك من خلال المادة العلمية التى عرضنا لها فى هذا الفصل . فكيف نصف العلاقات بين عددٍ مختلف من اللهجات فى الفارسية الطهرانية (انظر الجدول ٥ - ٢) ؟ (من الجدير بالذكر أن الاختلافات فى المادة العلمية الفارسية ليست خاصة بمسألة الانتشار المعجمى ، لأن الاختلافات المعجمية قد سُمِحَ بوجودها بصراحة فى المادة العلمية، وذلك باستبعاد الوحدات المعجمية المتكررة) . ويسمح بيكرتون بالنسبة لأية قاعدة بثلاث علاقات احتمالية للنوعية س ، وهى كالتالى : ينبغى أن تكون إجبارية أو اختيارية أو غير موجودة فى س ، وقد رأينا أن كل اللهجات فى ٥ - ٢ تتميّز بإدغام الصائت كقاعدة اختيارية ، ومعنى ذلك أن نظرية بيكرتون تفشل فى التمييز بين هذه العلاقات .

أما العيب الثانى فهو خاص هو الآخر بالاحتمالات ، وخاصة أن القواعد التى

قدمها بيكرتون للربط بين اللهجات ليست سوى أوصاف احتمالية عن العلاقات الأكثر احتمالاً بين هذه النوعيات . ويقدِّم لنا بيكرتون من مادته العلمية كثيراً من الأمثلة الدالة على اللهجات الفردية التى تتعارض مع « هرميته التضمينية » ، ولكن هذه اللهجات المخالفة أو الخارقة للنمط ضئيلة للغاية ، إذا قارناها باللهجات المنتظمة ، وبالتالى يمكننا أن نتخذ قواعد بيكرتون التى تربط بين اللهجات ، على أنها بيانات احتمالية تدل على أكثر الطرق المحتمَلة التى يتخذها الفرد فى التحول من اللهجة الأساسية Basilect إلى اللهجة العليا Acrolect ، ولكن هذه القواعد لا تشمل جميع أنماط التباين القائمة فى مجتمع بعينه وذلك بسبب استبعاد اللهجات الخارقة أو المخالفة. ولذلك ، من الواضح أننا يجب ألا نكتفى عند وصف كلام مجتمع بعينه بوصف النظام النحوى أو عدد من الأنظمة النحوية الأساسية ووصف مجموعة من القواعد التى تربط بين عددٍ من اللهجات lect فى صورة (هرميات تضمينية) ، بل نحتاج بدلاً من ذلك إلى وصفٍ كامل لكل اللهجات القائمة فى المجتمع ، ومن بينها اللهجات الخارقة للعادة ، كما نحتاج أيضاً إلى وصفٍ مقارن للعلاقة بين هذه اللهجات، أو بعبارة أخرى نعود للتمييز بين علم اللغة الوصفى وعلم اللغة المقارن مرة أخرى، وتعود مشكلات عالم اللغة الوصفى كما كانت من قبل ، وهى كيفية التعرف على الشيء الذى نريد وصفه (وهو ما يطلق بيكرتون عليه اللهجة lect وسيكون تعريف ذلك يمثل صعوبة تعريف ما أطلقنا عليه اللهجة الفردية idiolect ، مع التسليم بأنها ترتبط بأكثر من هرمية تضمينية وكيفية التعرف على أنماط الكلام وعلاقاتها.

٥ - ٥ - ٣ نظرية نموذجية :

ولعله من الأيسر الآن التعرف على الخصائص التى ينبغى أن تتوافر فى نظرية علم اللغة ، حتى يكون فى هذه النظرية مميزات النظريتين السابقتين مع تجنّب مواطن ضعفهما . وليست هناك أية نظرية فى الوقت الحالى تتوفر فيها كل هذه الخصائص، ولكن ليس من العسير أن نتخيَّل أنه يمكن تطوير هذه النظرية فى الحقبة التالية، أو بعد ذلك .

أولاً : يجب أن تتضمن هذه النظرية كلاً من علم اللغة الوصفى وعلم اللغة المقارن . وينبغى أن يعتمد أى وصف للنظام النحوى عند المتحدث الفرد على المبادىء النظرية لعلم اللغة الوصفى ، بينما ينبغى وصف لهجات الكلام القائمة فى مجتمعٍ بعينه فى إطار نظرية علم اللغة المقارن. وبذلك، نستطيع التحرك بين الموقف الأول الذى يفترض أن جميع أفراد المجتمع لديهم نفس النظام النحوى، وبين الموقف الثانى الذى يسمح بوجود تباين بين نُظُم النحو الفردية غير المقيدة عند المتحدثين الأفراد، وسيتضمن الجزء الوصفى من علم اللغة محاولة للاجابة على مجموعة من الأسئلة خاصة ببنُية نظام نحوى بعينه أو النُظُم النحوية بصفة عامة ، أما الجزء المقارن فسيحاول الاجابة على عددٍ من الأسئلة الهامة ، ومنها الأسئلة التى طرحناها فى هذاالفصل . ويمكن تلخيص هذه الأسئلة بإيجاز شديد ، فى السؤال التالى : كيف ولماذا تختلف نُظُم النحو الفردية ؟ أو السؤال البديل وهو « كيف ولماذا تتفق نُظُم النحو الفردية بعضها مع بعض » ؟

ثانياً : يجب أن تتوافق تلك النظرية مع نظرية تتصل بعلم اللغة ، حتى تتكون أوجه الشبه المُفْتَرَضَة بين نُظُم النحو الفردية ناتجة إما عن الصدفة أو ناتجة عمّا تعلّمه الفرد مما يسمعه . (ونحن نسلِّم هنا جدلاً أن هناك كثيراً من أوجه الشبه تتماثل مع الشموليات اللغوية) ومعنى ذلك أن النظرية يجب أن تكون قادرة على احتواء نُظُم النحو الفردية المتباينة فى إطار مجتمع واحد ، سواء فيما يرتبط بالمفردات الخاصة بهم أو القواعد التراكيبية الأساسية ، وبالتالى فليس من الضرورى أن نفترض أن كل أفراد المجتمع لديهم نفس « الصيغ الصوتية الكامنة لكلمة مثل house ، حتى يمكننا أن نحدد التباين فى النطق فى القواعد الصوتية . ولكن هذا الشرط يثير مشكلات خطيرة بالنسبة لعالِم اللغة الوصفى ، حيث إن المادة العلمية ، التى جمعها لن تمكّنه من أن يقوم بالتحليل المناسب أو الكافى بالنسبة لأى فرد بحد ذاته ، ولذلك ينبغى أن يلجأفى هذه الحالة للاختبارات اللغوية النفسية psycholinguistic explanation

حتى يمكنه أن يحدد ما إذا كان ذلك الفرد لديه [h] فى « صيغة النطق التحتية الكامنة » لكلمة **house** أم لا . (وقد قام ج . ماكولى James McCawley ١٩٧٧ بوصف هذه المشكلة فى سياق مختلف) .

ثالثاً : ينبغى أن تعتمد تلك النظرية على نموذج لبُنية اللغة يحتوى قَدْراً أقل من الاختلاف بين الوحدات المعجمية lexical items والبُنيات التراكيبية syntactic structures مما هو قائم فى معظم النظريات الحالية . ولو أننا تابعنا استخدام المصطلح المذكور فى ٢ - ١ - ٢ ، لأمكننا أن نستخدم مصطلح « الوحدات اللغوية » للدلالة ليس فقط على الوحدات المعجمية ، بل للدلالة أيضاً على جميع أنواع التراكيب والصيغ الصرفية والصوتية . وبعبارة أخرى ، تصبح الوحدة اللغوية مجرد نمط يمكن التعرف عليه فى أى مستوى من المستويات المجردة فى بُنية التركيب . أما السبب الذى يدفعنا إلى تقليل الاختلافات عند التعامل مع الأنواع المختلفة من الوحدات اللغوية، فهو الحقائق الخاصة بالتوزيع الاجتماعى social distribution حيث إن هذه الحقائق ثابتة ، سواء أكانت الوحدة المعينة وحدة معجمية (مثل **pussy** التى تقابل **cat**) أو وحدة تراكيبية بأكملها (مثل **Let Teddy fall down.** التى تقابل **Teddy fall down** أو وحدة صوتية (مثلاً [t] بدلاً من [st]) أو وحدة صَرفية **morphological** (مثل **goed** بدلاً من **went**) . وكلما زادت الاختلافات الخاصة بالتعامل مع هذه الأنماط فى النحو ، زادت صعوبة ابتكار منهج موحَّد لربطها بالمضمون الاجتماعى وزادت أيضاً صعوبة تفسير ارتباطها جميعاً بالسياق الاجتماعى بنفس الطرق . ومن هذا المنظور لا يبشّر النحو التوليدى التحويلى بكثير من الأمل فى حلِّ هذه المشكلة ، وذلك لأنه يميِّز تمييزاً أساسياً بين الأنماط المختزنة فى النظام النحوى ، مثل الوحدات المعجمية ، وبين الأنماط التى تُعرف بطريقة غير مباشرة عن طريق القواعد التحويلية وقواعد البُنى التحتية الأساسية phras-structure rules (وهناك أسباب أخرى كثيرة لرفض نُظُم النحو التوليدية التحويلية كنظرية لبُنية اللغة ، أنظر على سبيل المثال هدسون Hudson ١٩٧٦) .

وأخيراً، ينبغى أن تتوافق تلك النظرية مع البيانات الاحتمالية من نوع أو آخر.

ولا ينبغى أن تدل هذه البيانات الاحتمالية على الوحدات فى سياقها الاجتماعى فحسب (الوحدة س محتَمَلة بنسبة كذا ٪ فى السياق الاجتماعى ص) ، بل ينبغى أن تدل أيضاً على هذه الوحدات فى سياق لغوى معيَّن ، وبخاصة إذا سلّمنا بأهمية السياق اللغوى وتأثيره على المتغيِّرات اللغوية (انظر ٥ - ٤ - ١) . وفضلاً عن ذلك ، فَمِنَ الأفضل أن تتوافق هذه النظرية مع مفهوم النماذج الأصول . والعلاقة واضحة بين الاحتمالات والنماذج الأصول ، فكلاهما يستخدم التصنيفات غير المستقلة non-discrete categories كما فى حالة أن الوحدة « س » أكثر احتمالاً من الوحدة « ز » فى السياق « ى » ، وبالتالى تكون الوحدة « س » أكثر أو أقل تشابهاً مع الوحدة « ز » أو نموذج أصل معيَّن . ومن الطبيعى أن يسمح الميكانيزم الذى يتسع لتوصيف النماذج الأصول بوجود الاختلافات الاحتمالية بين الوحدات ، ولكننا بذلك نكون قد تجاوزنا فى توقعاتنا حدود المستقبل القريب .

ولعل أهم النقاط التى تضمنها هذا الفصل هو العلاقة الوثيقة بين المادة العلمية والنظرية . فلم يكن ضرورياً أن نعير الوصف الكمى فى إطار علم اللغة نظرة جدية ، حتى قدّم لنا لابوف من خلال دراسته المادة العلمية الخاصة بالتباين الكمى فى المتغيِّرات اللغوية ، وعلى العكس فإن عدم وجود مكان لمثل هذا الوصف الكمى فى إطار نظرية علم اللغة منع معظم علماء اللغة من السعى بحثاً وراء المادة العلمية اللازمة.

* * *

الفصل السادس

اللامساواة اللغوية والاجتماعية

Linguistic and Social Inequality

٦ - ١ اللامساواة اللغوية Linguistic inequality :

٦ - ١ - ١ مقدمة :

لعل أهم منجزات علم اللغة فى القرن العشرين تجاوز الرأى القائل (على الأقل بين المشتغلين فى علم اللغة) ، أن بعض اللغات أو اللهجات « أفضل » من بعضها. ويعترف معظم علماء اللغة أن رجل الشارع يعتقد أن بعض نوعيات اللغة أفضل من غيرها ، ولكنهم فى الوقت نفسه يؤكدون أن كل نوعية تتضمن فى حد ذاتها خصائص تشترك فيها كل اللغات البشرية ، ومن هذه الخصائص أن كل اللغات « محكومة بمجموعة من القواعد role-governed » ، وأنه حتى أقل النوعيات مكانة من الناحية الاجتماعية تتضمن أنماطاً بُنيوية غاية فى التعقيد . ويزعم علماء اللغة أنهم لو دَرَسوا نُظُم النحو الخاصة بنوعيتين مختلفتين ، إحداهما ذات مكانة اجتماعية عُليا والأخرى ذات مكانة اجتماعية دُنيا ، فإنهم لن يستطيعوا التمييز بينهما من ناحية المكانة ولن يستطيعوا أيضاً التنبؤ بلون بشرة المتحدثين بإحدى هاتين النوعيتين .

وفضلاً عن ذلك ، فقد يقول معظم علماء اللغة نفس الشىء عن الاختلافات اللغوية بين المتحدثين **الأفراد**، فإذا كانت هناك اختلافات بين أجروميتى فردين فليست هناك وسيلة لمعرفة أى النوعيتين تحظى بمكانة عُليا فى مجتمع من مجرد دراسة الأجرومية . وعلينا أن نعترف بأن هناك أفراداً لديهم أجروميات غير كاملة ، مثل الأطفال والأجانب والمتخلفين عقلياً ، ولكن هذه الاستثناءات من السهل تفسيرها والتنبؤ بها ، ولا تنفى أن كل الناس العاديين يتساوون من ناحية أجرومياتهم . ولا توجد بالطبع نهاية للاختلافات بين الأجروميات سواء أكانت هذه الأجروميات لأفراد أو لجماعات بأسرها ، وليست هناك أُسس لغوية تسمح بتفضيل أجرومية على أخرى فى متدرج الأجروميات .

ويمكننا أن نلخّص هذا الموقف ببساطة فى الشعار المرفوع دائماً ، « وهو أن علم اللغة يجب أن يكون وصفياً وليس توجيهياً » . ولا يعرف كثيرون أن هذا الشعار

يُثير بعض المشكلات ، فَمِنَ الصعب أن نتجنّب النزعة التوجيهية لعلم اللغة ، حيث إن التطور التاريخى لنظرية علم اللغة كان قد ارتبط بتوصيف النوعيات ذات المكانة الاجتماعية العُليا ، مثل اللغات المتواضع عليها . ولقد سبق أن أشار لابوف إلى أن الطريقة الطبيعية للحصول على معلومات عن لغة فرد ما ، هى أن نطلب منه أن يطلق أحكاماً على عدد من التراكيب ، ويعد هذا المنهج عديم الجدوى إذا كان المتحدث يتحدث نوعية غير متواضع عليها ، ولكنه يألف نوعية متواضعاً عليها ، ذلك أن أحكامه سترتبط حتماً بالأخيرة لا بنوعيته الأصلية (لابوف ١٩٧٢ - أ : ٢١٤). وفضلاً عن ذلك ، فالقول بأن اللغة مجموعة من التراكيب المحددة تحديداً دقيقاً ، والذى يعد أساساً لنظرية النحو التوليدى، يعد أثراً من آثار الجذور التوجيهية لعلم اللغة ، وتلك الآثار التى تتجلى فى النحو والمعاجم التى تهدف أصلاً إلى التمييز بين «الصواب» و «الخطأ»، ومن المستحيل - كما هو معروف - عملياً تحديد الحدود اللغوية لأية لغة من اللغات . ويبدو أن النزعة التوجيهية مسألة مبدأ بالنسبة لبعض علماء اللغة ، كما يتضح فى الفقرة التالية التى طالما ألحَ عليها تشومسكى (١٩٦٥ : ٣) : « تهتم نظرية علم اللغة أولاً وأخيراً بالمتحدث والمخاطب المثاليين فى جماعة كلامية متجانسة تماماً ، **تعرف لغتها تماماً** » . ومن الصعب ألا نفسّر هذا القول بأنه تسليم بأن بعض المتحدثين - وربما كل غير المثاليين منهم - لا يعرفون لغتهم بنفس درجة الكمال المفتَرَضة فى هذه الفقرة ، مما يعنى ضمنياً أن هناك معياراً مطلقاً نستطيع أن نحكم به على معرفة الفرد للغته . وينبغى أن نؤكد أن هذا المعيار لا وجود له إلا إذا اختلقنا معياراً بغرض توجيهى أو تعليمى . فَمِنَ السهل على علماء اللغة كتابة أجروميات يعتقدون أنها وصفية ، ولكنها فى حقيقة الأمر توجيهية وإرشادية ، والحقيقة هى أن العامة لا يرون سوى نزعتها التوجيهية .

وإحدى المشكلات الأخرى الناشئة عن مبدأ المساواة اللغوية ، هى أنه يحول اهتمامنا عن اللغة كمصدر من مصادر اللا مساواة الاجتماعية social inequality، ولو كانت اللغة شيئاً يتطوّر بنفس السرعة والدرجة لدى جميع الناس العاديين ، فلابد أن يصل الذين بلغوا سناً معيّناً ودرجة من النضج إلى نفس المستوى اللغوى ، ولن

يكون هناك ما يدعو إلى القلق ، حيث يتقدَّم بعض الناس بسرعة أكبر من غيرهم، مادام ذلك لا يحدث للمتحدثين العاديين . ويثير هذا الرأى غير المسؤول مشكلتين : إحداهما خاصة بالمتحدثين غير الطبيعين (مثل الأجانب والمتخلفين عقلياً) ، والأخرى خاصة بآثار التحيّز اللغوى . وبالطبع ، فإن التحيّز اللغوى Linguistic prejudice موجود (انظر ٦-٢) . ولكن مبدأ المساواة اللغوية يؤدى إلى نتيجة فحواها أن استبعاد التحيّز اللغوى (لو أمكن ذلك) يترك لنا المتحدثين العاديين باعتبارهم القطاع الوحيد من المتحدثين الذين يعانون من مشكلات لغوية . ولكن الأدلة المقدّمة فى ٥-٣ و ٥ - ٤ تثبت أن الأمر ليس كذلك ، فهناك اختلافات معروفة ومحدَّدَة بين الأفراد من نفس العمر فى بعض جوانب اللغة كالمفردات ، وبعض جوانب التراكيب والمهارات الخاصة باستخدام الكلام للقيام بمهام معيَّنة ، وفى فنون القراءة والكتابة. ويمكننا أن نتخذ هذه الاختلافات دليلاً على اللا مساواة أو التفاوت بين الأفراد ، وهذه هى نفس المهارات اللغوية التى تدرس فى المدارس . فلو أخذنا مبدأ المساواة اللغوية حَرْفياً ، لما كان هناك داعٍ لتدريس أى من جوانب اللغة الأم فى المناهج المدرسية ، ولَتَركنا اللغة الأُم وشأنها.

وسبب الخلاف القائم بين ما يزعمه علماء اللغة عن اللغة وبين ما يعرفه العامة عن الحاجة الملحة لتدريس اللغة الأُم mother tongue ، هو أن لكل مجموعة من هاتين المجموعتين مفهوماً مختلفاً عن « اللغة » . وعندما يطلق علماء اللغة مزاعمهم عن المساواة اللغوية ، فإنهم يقصدون بذلك النواة الأساسية فى بُنية اللغة basic core of language structure ، وهو المجال الذى تهتم به نظرية علم اللغة . ولا يهتم العوام غالباً بهذه النواة الأساسية ، وإن كانوا يعتبرونها أمراً مُسَلَّماً به ، وحين يقولون أن الأفراد غير متساوين من الناحية اللغوية ، فيقصدون بذلك أنهم غير متساوين لغوياً فيما يختص بالجوانب « الإضافية » للغة peripheral ، أى حصيلة المفردات والتعبيرات الخاصة بسجل سياقى معيَّن . وغالباً ما يبدى العوام رأياً متطرفاً ، مثل قولهم بأن بعض الأطفال ليست لديهم لغة على وجه الاطلاق ، وفى هذه الحالة من واجب عالم اللغة أن يشير إلى خطأ هذا المفهوم ، ولكن ينبغى على عالم اللغة بدوره أن

يحذّر التطرف فى صياغة مزاعمه ، عندما يقول ضمنياً بأن المساواة اللغوية « خاصة باللغة بأكملها وباستخداماتها » .

٦ - ١ - ٢ ثلاثة أنواع من اللامساواة اللغوية :

وينقسم بقية هذا الفصل إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، يتناول كل منها نوعاً مختلفاً من اللامساواة اللغوية وعلاقتها باللامساواة الاجتماعية . وفى كل من هذه الحالات ، يمكننا أن ننظر إلى اللامساواة اللغوية على أنها أحد أسباب اللامساواة الاجتماعية (بالإضافة طبعاً إلى أسباب أخرى كثيرة) ، بل يمكننا أن نرى اللامساواة اللغوية باعتبارها نتيجة للامساواة الاجتماعية ، ذلك أن اللغة من أهم العوامل التى تساعد على استمرار التفاوت الإجتماعى من جيلٍ إلى آخر .

ويعرض الجزء الحالى بالدرس لهذه الأنواع الثلاثة من اللامساواة اللغوية . يمكننا أن نطلق على النوع الأول اسم اللامساواة الذاتية subjective inequality ، لأنه يختص بدراسة **رأى** الناس فى كلام الآخرين (أعنى مجال « التحيّز اللغوى » الذى سبق أن ذكرناه) . يُصَنَّف الناس فى بعض المجتمعات (وليس بأى حال من الأحوال فى كل المجتمعات) من حيث درجة ذكائهم وفطنتهم وطرافتهم ومن حيث صفات كثيرة أخرى وفقاً للطريقة التى يتحدثون بها ، بالرغم من أن مثل هذه الأحكام التى تعتمد على طريقتهم فى الكلام قد تكون خاطئة للغاية . ونتيجة لذلك ، يعتقد أن بعض المتحدثين يتمتعون بقدر من الصفات الحميدة تفوق ما لديهم فعلاً ، وذلك لأنهم يتكلمون بالطريقة «الصحيحة» ، أما الآخرون فَيُعْتَقَد أنهم يفتقدون هذه الصفات حيث إن كلامهم يعطى انطباعاً خاطئاً . وعلى ذلك ، تضاف اللغة فى تنوع اختلافاتها إلى معايير التفاوت الاجتماعى ، لأنها تستخدم كمعيار لتقييم الناس رغم كونها معياراً لا يعتد به .

ويمكننا أن نطلق على النوع الثانى من اللامساواة اسم « اللامساواة اللغوية البحتة » strictly linguistic inequality ، وذلك تمييزاً له عن المفهوم العام

للامساواة اللغوية الذى نقوم بدراسته فى هذا الفصل . وترتبط « اللامساواة اللغوية البحتة » بالوحدات اللغوية التى يعرفها الفرد، (ونحن نستخدم مصطلح « الوحدات اللغوية » بالشكل العام الذى استخدم به فى ٢-١- ٢) . ومن المعروف أن الوحدات اللغوية التى يعرفها الفرد تعكس نوعية التجارب التى مرَّ بها ، وأن الأفراد ذوى التجارب أو الخبرات المختلفة ، يعرفون نوعيات مختلفة من الوحدات . ويتضح ذلك فى معرفة حصيلة معينة من المفردات ، حيث يكون لدى البعض حصيلة ضخمة من المصطلحات أو الصيغ العلمية فى مجال بعينه، مثل مجال صيد السمك أو الثقافة «الشعبية» أو علم اللغة، فى حين لا يعرف البعض الآخر مثل هذه المصطلحات. وهناك، على أية حال، أنواع مماثلة من الاختلافات فى مجالات أخرى من اللغة، كأن تتحدد المفردات اللغوية بنوعية المتخاطبين كما فى حالة حديث الأبوين لأطفالهم، أو أن تتحدد التراكيب المُستخدَمة لتقتصر على تراكيب بعينها كما نرى فى المزادات أو التعليق الرياضى الإذاعى الخاص بسباق الخيل . وفى كل من هذه الحالات يعرف بعض الناس الوحدات اللغوية المُستخدَمة بينما لا يعرفها آخرون ، ويكون أداء الذين يعرفون هذه الوحدات أداء أفضل، خاصة فى تلك المواقف الاجتماعية التى تستلزم دراية باستخدام هذه المفردات . ويعنى ذلك ظهور التفاوت الاجتماعى فى مثل هذه المواقف ، غير أن بعض هذه المواقف يعد أكثر أهمية من بعضها الآخر ، وذلك من حيث أثره فى مستقبل حياة الفرد المهنية ، كحُسْنِ الأداء فى الامتحانات الشفاهية والمقابلات الاختبارية الخاصة بالحصول على عمل أو وظيفة معيّنة ، فحُسْن الأداء فى مثل هذه المواقف أهم بكثير من إظهار مهارة معرفية وكلامية فى مناقشة خاصة بصيد الأسماك . وعلى ذلك ، تركز اهتمام علماء علم اللغة الاجتماعى على الاختلافات المرتبطة بالمواقف الهامة فى الحياة ، وبخاصة المواقف المتعلقة بأداء الأطفال فى المدارس.

وقد بولغ بشدة فى الماضى فى أهمية اللامساواة اللغوية البحتة (انظر ٥-٣). ولكن هناك نوعاً ثالثاً من اللامساواة اللغوية لا نستطيع أن نبالغ فى أهميته الاجتماعية . وسنطلق على هذا النوع من التفاوت اللغوى اسم «اللامساواة الاتصالية» communcative inequality ، لأنه خاص بمعرفة كيفية استخدام الوحدات اللغوية

لاتمام عملية الاتصال بنجاح ،وذلك دون الاقتصار على معرفتها . وتدل اللامساواة الاتصالية على نوعية المعرفة أو المهارة التى نحتاجها عند استخدام الكلام للتعامل interact مع الآخرين (انظر الفصل الرابع) . ويشمل هذا النوع من اللامساواة تباين المتحدثين فى اختيار بدائل المتغيِّرات اللغوية ، وذلك بهدف ترك انطباع حَسَن لدى المتلقى (انظر الفصل الخامس) . ويعنى ذلك أن اللامساواة الاتصالية تشتمل على اللامساواة الذاتية . وتشمل اللامساواة الاتصالية الموضوعات التى ناقشناها فى الفصل الثالث عن العلاقة بين اللغة وبين الثقافة والفكر ، حيث عرضنا للاختلافات القائمة فى مستوى تكوين المفاهيم conceptualisation والثقافة . وبتعبير آخر، تجمع اللامساواة الاتصالية شمل كل الموضوعات الرئيسة فى هذا الكتاب ، وتربطها بالقضايا الاجتماعية الهامة ، مثل تكافؤ الفرص والسياسة التعليمية .

٦ - ٢ التحيّز اللغوى Linguistic prejudice :

٦ - ٢ - ١ طبيعة التحيّز اللغوى :

هناك أدلة كثيرة على أن الناس يستخدمون اللغة كى يحددوا موقعهم فى حيّز اجتماعى متعدد الأبعاد nulti-dimensional social space .

وتعد هذه الطريقة من وجهة نظر المتحدث ، هى الطريقة الملائمة للحديث عن نفسه وعن نوعية شخصيته (أو الشخصية التى يود أن يكونها) وعن موقعه فى المجتمع . وينبغى على المتلقى ، أن يستنتج من المتحدث خصائصه وصفاته وموقعه فى المجتمع من حوله . ولو لم يلتفت أحد إلى الإشارات الاجتماعية social signals التى يرسلها المتحدثون ، لكان إرسالها عبثاً ، ولكننا نعلم ويعلم الجميع أن الناس يعيرون مثل هذه الإشارات كثيراً من انتباههم واهتمامهم . وسنطلق على هذا العُرف الخاص باستخدام الإشارات الاجتماعية مصدراً للمعلومات مصطلح «التحيّز اللغوى» linguistic prejudice ، وقد يبدو مصطلح « التحيّز » غريباً حين تكون المسألة حيادية خاصة بنشأة المتحدث ، ولكن مثل هذه الأحكام المبنية على الكلام غالباً ما

تكون أحكاماً تقييمية ، وبالتالى فَمِنَ المبرر أن نعد هذه الأحكام أمثلة على التحيّز اللغوى، وهى فى ذلك تماثل الأحكام التقييمية الأخرى المُرضى منها وغير المُرضى، والتى يقوم الناس بإطلاقها على العناصر المرئية مثل الهيئة والملابس إلخ . وسنعود فيما بعد إلى مسألة إطلاق الأحكام التقييمية على أساس الكلام ، ولكننا سنفترض الآن أن هذه الأحكام أحكام مبنية على حقائق .

وليس من الصعب أن نفهم لماذا يستخدم الناس الكلام كمصدر للمعلومات عن خصائص المتحدث الاجتماعية . فالحاجة إلى مثل هذه المعلومات تظهر عند مقابلة فرد غريب، وعندما ينبغى أن نتعامل معه أو نتأكد من صدق ما يقول (كما يحدث فى مواقف الـخُطَب التى يلقيها الساسة على العامة) . ومن المهم فى كل هذه الحالات أن نعرف شيئاً عن الشخص الآخر ، حتى نستطيع أن نحدد سلوكنا الشخصى تجاهه ونخطط له . فما هى المعلومات التى نستطيع أن نسلّم بها عند محادثته ؟ ما هى قيمه ؟ وكيف تؤثر هذه القيَم على أقواله وردود أفعاله لِما يقوله الآخرون ؟ وغير ذلك من الأسئلة . وهذه الحاجة إلى معلومات عن الفرد الآخر، يمكن أن نطلق عليها مصطلح «الحيرة المعرفية» cognitive uncertainty ، وقد قامت مجموعة من علماء النفس الاجتماعيين social psychology بتطوير نظرية خاصة بهذا الموضوع (بيرجير وكالابريز Berger & Calabrese ١٩٧٥ ، بيرجير Berger ١٩٧٩ ، انظر أيضاً التفسيرات البسيطة فى جيلز وسميث وويليامز Giles, Smith & Williams ١٩٧٧، وسميث وجيلز ١٩٧٨) .

ونستطيع أن نضع هذه النظرية فى إطار نظرية أكثر شمولية ، وهى النظرية الخاصة بالنماذج الأصول (انظر ٣ - ٢ - ٢) . ومن أهم الأسباب التى تدفع الأفراد إلى استخدام النماذج الأصول ، أنهم يحتاجون إلى معلومات سريعة لا يستطيعون الحصول عليها بأية وسيلة أخرى ، وذلك حتى يتمكنوا من استخدام هذه المعلومات فى تخطيط سلوكهم تجاه الآخرين وتحديده . فلو قُدِمَ إلى أحد الناس مثلاً طبق من الطعام، فَمِنَ السهل أن يصل إلى عدد كبير من الاستنتاجات عن خصائص الأشياء المتنوعة المقدَمة له فى هذا الطبق ، وذلك دون حاجة إلى أدلة غير التى اكتسبها من تجاربه،

واستناداً إلى أن الأشياء ذات الخصائص الملحوظة والعلاقات الخاصة بالبيئة يمكن أن تكون لها خصائص أخرى مختلفة . فالأشياء التى تبدو على أنها حبات بطاطس عادة ما يكون مذاقها مشابهاً لِما نتوقعه من مذاق حبة بطاطس ، إلخ . وعلى ذلك ، إذا كان ما هو مُقَدَم لنا على الطبق يشبه حبة البطاطس ، وساعدتْ الظروف الأخرى على تأكيد كونه بطاطس (أن يكون جزءاً من الوجبة لا من الحلوى) ، فيمكننا عندئذ أن نخمن ما يمكن أن نفعله بها (أعنى أن نقطعها إلى شرائح بالسكين أو نهرسها بالشوكة، إلخ) ، وأن نخمّن مذاقها . وقد يكون ذلك التخمين تخميناً خاطئاً ، فقد يكون الطاهى قد قام بتغيير شكل البيضة لتبدو على أنها حبة بطاطس ، وقد يكون من غير المناسب أن نثق فى مثل هذه المعلومات ، ولكننا غالباً ما نخاطر بذلك فى لحظة من لحظات حياتنا اليومية . والبديل هو أن نختبر كل الفرضيات المطروحة قبل أن نقتنع بصحتها ، هذا على الرغم من أنه من الصعب أن نعرف كيف يساعدنا ذلك، حيث إن اختبار ما يُطرح علينا فى حد ذاته يعد نوعاً من المخاطرة (كيف نستطيع على سبيل المثال أن نكتشف أن لمثل هذه الحبة المذاق المتوقع لحبة البطاطس ؟) ويمكن تفسير الحاجة الملحة للتقليل من كم « الحيرة المعرفية » فى التعامل الاجتماعى على نفس الأساس ، فهناك تماثل بين أسلوب جمع المعلومات عن البطاطس النموذجية المقدَمة للأكل ، وبين أسلوبهم فى تجميع صورة للخصائص التى يستخدمها المتحدث النموذجى لصيغة لغوية بعينها .

وقد تؤدى مثل هذه المناقشة إلى نتائج عملية هامة ، فقد يتبيَّن للقارىء أنه لا ينبغى للناس أن يتسرعوا فى الوصول إلى أحكام عن الخصائص غير اللغوية للآخرين استناداً إلى أسلوبهم فى الكلام ، وأنه ينبغى على علماء علم اللغة الاجتماعى التعاون مع المسؤولين عن النظام المدرسى فى تدريب الأفراد على عدم القيام بذلك ، ولكن ذلك غير ممكن . فَمِنَ المهم أن يستخدم الناس الكلام بهذه الطريقة (كمصدر متاح للمعلومات)، لأنه من غير الممكن، أن يتم التعامل الاجتماعى بين الناس دون أن يعرفوا بعضهم معرفة جيدة. وينبغى علينا بالتأكيد أن نقوم بعمل شىء ضد التحيّز اللغوى وخاصة حين يؤدى إلى مشكلات خطيرة، وإن كنا لا نستطيع أن نزيله تماماً

لأنه عنصر هام من عناصر التعامل الاجتماعى .

وينبغى الآن أن نناقش قضية القيم values . ولماذا يقيّم الناس بعضهم بعضاً، سواء كان هذا التقييم مُرضياً أَم غير مُرض استناداً إلى الكلام ؟ ربما يكون جانب من الاجابة على هذا السؤال أن القيم مرتبطة بالخصائص غير اللغوية موضع الاهتمام، وعلى ذلك يكون الفرد الذى تنعكس فى كلامه خصائص ذات قيمة عالية ذا قيمة عالية بالطبع، والعكس صحيح بالنسبة للقيّم التى لا تتمتع بهذه المكانة . وقد تختلف القيم التى تتمتع بهذه المكانة من مجتمع إلى آخر ، فقد تكون صفة (الجدعنة) قيمة تتمتع بمكانة إيجابية عليا فى أحد المجتمعات ، ولكنها تعد قيمة سلبية فى مجتمع آخر . ومن ثم ، فإذا كانت صفة (الجدعنة) مرتبطة بأسلوب بعينه من الكلام (مثل لهجة بعينها) ، فإن مَن يستخدم هذا الأسلوب سيتمتع بمكانة عالية حيث تحترم هذه الصفة ، ويكون على عكس ذلك فى مجتمع يعد هذه الصفة من صفاته السلبية. و(الجدعنة) إحدى الصفات الشائعة التى ترتبط بأسلوب الطبقة العاملة فى الكلام ، وذلك فى بلاد مثل بريطانيا والولايات المتحدة ولذلك ، فمثال (الجدعنة) مثال واقعى.

وعلى أية حال ، لابد أن نأخذ فى اعتبارنا ، حين نناقش مسألة ارتباط القيم بالكلام ، أن اللغة تُستخدم **رمزاً للانتماء إلى جماعة بعينها symbol of group-membership** ، فالناس يستخدمون الكلام حتى يحددوا الجماعة الاجتماعية التى ينتمون إليها (أو التى يرغبون فى الانتماء إليها) ، وبالتالى يقوم الآخرون بتقييم المتحدثين حسب تقييمهم لهذه الجماعات . وقد تعد تلك الطريقة طريقة مختلفة إلى حدٍ ما لوصف العلاقة التى سبق أن ناقشناها فى الفقرة السابقة. لأن الصفات التى نخلعها على شخصٍ ما هى مجرد جوانب من صفات العضو النموذج prototype-member فى الجماعة ، التى نعتقد أنه ينتمى إليها . وتعتمد طريقتنا فى تقييم خصائص هذه الجماعة فى المقام الأول على قيَم الجماعة التى ننتمى إليها أيضاً. ويرى علماء علم النفس الاجتماعى أن الناس يميلون إلى الاعتقاد بأن الجماعة التى ينتمون إليها أفضل من مثيلاتها من الجماعات، على الأقل ، فى بعض الجوانب

(تاجفيل Tajfel ١٩٧٤ انظر التفسيرات المقدَمة فى جيلز، وبورهيس وتايلور ١٩٧٧ ، Gile, Bourhis & Taylor) وبعبارة أخرى ، فالجزء الأساسى من نظرة الفرد إلى ذاته مشتقة من نظرته إلى الجماعة أو الجماعات الاجتماعية التى ينتمى إليها ، واحترامه لذاته يعتمد أساساً على احترامه للجماعة ككل . وبالرغم مما يبدو من أن هذه النظرية تقرر ما هو واضح ولا يحتاج إلى تفسير ، فإن لها نتائج هامة جديرة بالذكر .

وقد يساعدنا ذلك على فهم ظاهرة اعتبار الأنماط الكلامية الفردية جانباً ثابتاً من سلوك الأفراد ، ولماذا تقدم لنا مثل هذه الأنماط إشارة صحيحة وواقعية إلى هوية الأفراد الاجتماعية . وحين يقوم الفرد « بفعل توكيد هويته » act of identity أو انتسابه إلى جماعةٍ ما ، ويتبنّى أنماطها الكلامية تتحول نظرة العضو إلى هذه الجماعة لتشكل نظرته لذاته ، ويصبح من الصعب عليه أن يحول ولاءه إلى جماعات أخرى . ولحسن الحظ ، تسمح الطبيعة متعددة الأبعاد لظاهرة التباين اللغوى للفرد، أن ينتمى إلى عدد مختلف من الجماعات فى آنٍ واحد ، فيمكن للفرد، مثلاً، أن يحتفظ بلكنة الطبقات العاملة فى نفس الوقت الذى يتبنّى فيه تراكيب ومفردات الطبقة المتوسطة . غير أن هناك حدوداً لدرجة المرونة المسموح بها ، فغالباً ما تكون الروابط النفسية التى تربط الفرد بالجماعة التى ينتمى إليها فى فترة معيّنة من القوة، بحيث تضمن ولاء الفرد لأنماطها الكلامية حتى يحين الوقت لانتقاله إلى جماعة أخرى (ويتضمن جيلز وبورهيس وتايلور١٩٧٧ Giles, Bourhis & Taylor مناقشة جيدة للعناصر التى تدفع الأفراد لتحويل ولائهم من جماعة إلى أخرى) .

والقول بأن الأفراد يودون أن يعتقدوا أنهم ينتمون إلى جماعة ذات مكانة عالية أو قيمة عليا ، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بقضية التحيّز اللغوى . ومن الوسائل التى يلجأ إليها الناس لاقناع أنفسهم بأن جماعتهم أفضل من الجماعات الأخرى ، هى البحث عن خصائص تميّز جماعتهم فتبدو أفضل من الجماعات الأخرى عند المقارنة . وقد تكون إحدى الجماعات مثلاً أفضل من الجماعات الأخرى فى رياضةٍ ما ، وفى هذه الحالة، يؤكد أعضاء هذه الجماعة هذه الحقيقة على أنها من الخصائص الهامة لجماعتهم، وبذلك

يضيفون جديداً إلى رصيدهم من احترام الذات . وأحياناً ، يصعب إيجاد مثل هذه الخصيصة الإيجابية ، ولذلك تلجأ الجماعة إلى البحث عن خصائص موروثة ومحايدة دليلاً على تفوقها على الجماعات الأخرى . ولنضرب مثلاً على ذلك ، فإذا كانت الجماعة « أ » تشرب الجعة بصفة دائمة ، وهى تعرف جيداً أن الجماعة « ب » تعتاد شرب النبيذ ، فستقوم الجماعة « أ » باقناع نفسها بأن عادة شرب الجعة أفضل من عادة شرب النبيذ ، ثم تقوم باستخدام هذه الحجة دليلاً على تفوقها على الجماعة «ب» (وبالطبع تستطيع الجماعة «ب» أن تستخدم نفس التكنيك لتثبت نقائص الجماعة «أ») . وليس من الصعب أن نتصور أمثلة على هذا النمط من السلوك خارج إطار اللغة ، غير أن هذا النمط من السلوك واضح للغاية فى اللغة ، حيث توجد أمثلة كثيرة على الخلاف بين الجماعات . فإذا أخبر الأبوان أبناءهم أن طريقتهم فى الكلام هى الطريقة « الصحيحة » أو المُثلى ، تكون النتيجة المباشرة أن يتصور الأبناء أن الجماعات الأخرى تتحدث بطريقة أقل فى « الصحة » أو « الجودة » أو «المكانة» . ويبدو أن ذلك عرف واسع الانتشار . فقد قررت جيليان سانكوف Gillian Sankoff (١٩٧٦) أن كل القرى المتحدثة بالبوانج Buang فى غينيا الجديدة تعتقد أن لهجتها أفضل لهجات البوانج على وجه الاطلاق . ولا تعتقد كل الجماعات فى العالم - يقيناً - أن طريقتها فى الكلام هى الأفضل ، غير أن هذه هى إحدى الطرق المستخدَمة لرفع احترام الجماعة لذاتها ، وهذا من شأنه ، أن يفسّر لنا بعض الجوانب الأخرى للتحيّز اللغوى .

ويتحتم علينا أن ندرس إمكانية تعميم هذا التفسير على ظاهرة التحيّز . وإذا أمكن لنا أن نفهم السبب وراء استنتاج خصائص الآخرين غير اللغوية استناداً إلى طريقتهم فى الكلام ، يمكننا أيضاً أن نتبيَّن أن الأحكام المترتبَة على استنتاج هذه الخصائص غير اللغوية تكون أحكاماً تقييمية ، ما دامت الخصائص نفسها خصائص تقييمية ، ويمكن اعتبارها ، من ثم ، تحيّزاً لغوياً فبعض الجماعات قد تقوم بتحديد أساليب كلامها بطريقة جزافية على أنها أفضل من أساليب الجماعات الأخرى ، وبخاصة تلك الجماعات التى يتصلون بها اتصالاً وثيقاً ، وبالتالى تصبح اللغة فى حد ذاتها

قابلة للأحكام التقييمية، لا مجرد مصدر لتلك الأحكام. وقد نفهم من ذلك لماذا تتكون المجتمعات من جماعات تعتقد كل منها أن طريقتها فى الكلام هى الطريقة الأفضل.

وهناك بالتأكيد وسائل عديدة لترشيد هذا التقييم الجزافى أو الاعتباطى لصيغة لغوية بعينها ، فنستطيع مثلاً أن نكشف عن أن الذين يستخدمون صيغة لغوية بعينها يتمتعون بصفة ذات مكانة عالية مثل (الجدعنة) ، وهم يستخدمون تلك الصفة حجة لإثبات تفوق صيغهم اللغوية . والذى يحدث فى مثل هذا النوع من الجدل، ليس إلا محاولة لرفع روح الجماعة المعنوية وتثبيتها ، وذلك حتى لا تتنبّه إلى حقيقة التناقضات المنطقية الكامنة فى أن هذه الصفات قد اختيرتْ أصلاً لرفع مكانة الجماعة بين الجماعات الأخرى المحيطة بها .

ولا يزال تفسير هذه الظاهرة تفسيراً غير كامل ، إذ ينبغى علينا أن نواجه التحدى الذى فرضته علينا جيليان سانكوف (١٩٧٦) ، حيث تقول « لعل أهم المهام التى يجب أن يتصدى لها علم اللغة الاجتماعى هى التوفيق بين الطبيعة المحايدة أو الاعتباطية للتباين اللغوى والتغيّر اللغوى linguistic change من جهة ، وبين التدرج الاجتماعى للغة social stratification ومستويات الكلام المتباينة القائمة فى أية جماعة كلامية مركّبة ، من جهة أخرى » . والمشكلة الحقيقية تكمن فى أننا لا نستطيع تفسير واحدة من أهم وأوسع الظواهر اللغوية انتشاراً فى الدراسات اللغوية الاجتماعية ، وخاصة فى دول مثل بريطانيا والولايات المتحدة ، تلك هى ظاهرة اعتقاد بعض الجماعات أنها لا تتحدث بطريقة أفضل من الجماعات الأخرى ، بل على العكس فهم يتصورون أنهم يتكلمون بطريقة سيئة أو أسوأ من الآخرين . وتُعرف هذه الظاهرة باسم « اللا أمان اللغوى » linguistic insecurity ، وهوالاسم الذى قدّمه لابوف (١٩٧٢ - أ : ١٣٣) . وقد يؤخذ وجود مثل هذه الجماعات دليلاً مناقضاً للزعم القائل بأن بعض الجماعات تميل نحو استخدام اللغة وسيلة لرفع مكانتها الاجتماعية ولتدعيم احترامها لذاتها ، رغم أنه من الواضح أن مثل هذه الجماعات لا تتمتع بهذه المكانة ، غير أنه يمكن الدفاع عن هذا الرأى بالطريقة التالية :

ينتمى الأفراد، أعضاء المجتمعات المركّبة ، إلى مجموعات ذات مستويات مختلفة نكتفى منها بالأسرة ومجموعة الأقران peer group والمجموعة الاقليمية أو المحلية أو الحضرية والطبقة الاجتماعية الاقتصادية والأمة ، إلخ . (وقد تتداخل هذه المجموعات وتتشابك ، كما أنها قد تكون منظمة فى علاقات الجزء - الكل) . وإذا كان هناك تعارض بين قيم مجموعتين (لو تعارضت ، مثلاً ، قيَم الأمة مع قيم المجموعات الاقليمية أو الاجتماعية) ، فقد تنتصر قيَم الأمة على حساب قيَم الجماعة الأقل قوة . وعلى ذلك ، قال ويليام لابوف أن سكان مدينة نيويورك يقبلون بصفة عامة قيَم المجتمع الأمريكى الواسع، مما يؤدى بهم إلى التقليل من قيمة كثير من الصيغ اللغوية المميزة لنيويورك . وهو يبالغ كثيراً حين يصف الجماعة الكلامية فى نيويورك بأنها « وعاء للمكانة الاجتماعية السلبية » sink of negative prestige (١٩٧٢ - أ : ١٣٦) ، وقد صرح كثيرون آخرون بمثل هذا الفقدان للثقة فى الذات بالنسبة لمجتمعات أخرى كثيرة ، مثل مدينة جلاسجو (ماكولى ١٩٧٥ Macaulay). ففى هذه المجتمعات يعتقد معظم الناس أنهم يجب أن يستخدموا صيغاً لغوية غير التى يستخدمونها بالفعل ، لأن الصيغ اللغوية الأخرى ذات مكانة أعلى من تلك التى يستخدمونها فعلاً ، والتى يرفضها بقية المجتمع الواسع .

قد نكون بذلك قد فسّرنا ظاهرة « اللا أمن اللغوى » ، ولكننا نكون قد طرحنا بذلك سؤالاً آخر هو : لماذا لا يتكلم كل الناس بالطريقة التى يعتقدون أنه ينبغى أن يتكلموا بها ؟ (لابوف ١٩٧٢ - أ : ٢٤٩) . فلو استطاع كل سكان نيويورك أو جلاسجو أن يمتنعوا عن الكلام بطريقتهم ويتحدثوا مثل بقية سكان أمريكا أو بريطانيا ككل ، فإنهم يستطيعون عندئذ أن يهنئوا أنفسهم على « التحدث » بطريقة « صحيحة » . ويمكننا أن نجيب على هذا السؤال رغم أن الاجابة قد تكون ناقصة ، وقد تترك كثيراً من المعضلات دون حلّ . وحتى يمكننا الاجابة على مثل هذا السؤال ينبغى أولاً أن نتأمل الميكانيزم الذى يؤسس هذه القيَم ويثبتها ، وينبغى علينا أيضاً أن نعترف بأن القيَم التى يقبلها المجتمع ككل هى القيَم الخاصة بأقوى المجموعات فيه، لأن هذه المجموعة تكون هى التى تتحكم فى قنوات التأثير داخل المجتمع، مثل

المدارس وأجهزة الإعلام . فلو قام عدد كافٍ من مدرسى المدارس بإعلام عدد كافٍ من تلاميذ « نيويورك » أو جلاسجو بأن طريقتهم فى الكلام «بطيئة» و«شاذة» و«قبيحة» أو حتى « خاطئة » ثم أخبروهم بما يجب أن يقولوه، فسيصدق الأطفال ما يقوله المدرسون وخاصة إذا لم يسمعوا ما يناقض ذلك من أهلهم .

ثانياً : علينا أن نفكر ملياً فى المشكلات الخاصة بالتنفيذ الفعلى لِما يوصى به المدرسون . لأن أكثر الصيغ الكلامية مكانة فى المجتمع ، هى الصيغ التى تستخدمها مجموعة بعينها (أكثر هذه المجموعات قوة) ، وعلى الرغم من أن هذه الصيغ هى أكثر الصيغ شيوعاً إلى جانب أنها تلقى أكبر قَدْر من القبول فى المجتمع ككل ، نتيجة لتأثير المدارس إلخ ، فإن الطفل الذى يستغنى عن الصيغ اللغوية الخاصة بمجموعته المحلية ، ويتبنّى الصيغ اللغوية الشائعة فى الأمة بأسرها ، يكون بالفعل قد تبنّى الصيغ التى ترمز إلى مجموعة أخرى ، وهى « الطبقة العليا » ، (إذا افترضنا أنه يمكن استخدام هذا المصطلح للدلالة على المجموعة التى نبعت منها هذه القيَم ومن أجل مصلحتها استحدثت) ولا يعد ذلك خياراً حقيقياً . وقد يلاحظ الطفل - من جهة - أنه سيفقد أكثر مما يكسب فى هذه العملية ، ومن المؤكد أنه سيفقد احترام أصدقائه وحبهم ، وربما فقدَ احترام أسرته أيضاً، وقد لا ينجح فى تبنّى الصيغ الكلامية ذات المكانة العالية بشكل ناجح يكفى لإقناع الطبقات العليا بأنه واحد منها ، هذا إذا تغاضينا عن كل المشكلات الأخرى الخاصة بتوافق كل الجوانب الأخرى لسلوكه وخلفيته مع عضويته فى هذه الطبقة الجديدة . وقد تكون لديه - من ناحية أخرى - صورة سلبية لبعض جوانب شخصية العضو النموذجى فى الطبقة العليا ، وتكون لديه بالمِثْل صورة إيجابية للمجموعة التى ينتمى إليها بالفعل . فغالباً ما ينظر مثلاً إلى المنتمين إلى الطبقة العليا على أنهم مترفّعون وغير مخلصين ومن غير أهل الثقة (جيلز وبوزلاند ١٩٧٥ Giles & Powesland الفصلان الرابع والخامس) ، وقد يود من ينتمى إلى طبقة أخرى أن يبقى على حاله مؤكداً بذلك إيجابيات المجموعة التى ينتمى إليها ، بينما يعترف فى الوقت نفسه بأن الصيغ اللغوية الخاصة بالطبقة العليا « صحيحة » بصورة مطلقة . وغالباً ما يُطلق على هذا النوع من التناقض مصطلح

«المكانة المكشوفة» overt prestige (ونعنى به مكانة المجموعة ذات المكانة العليا التى تمثّل بشكل رمزى المجتمع كله) و « المكانة المغطاة » covert prestige(ونعنى بها المكانة المحلية الخاصة بالمجموعة التى لا تتمتع بالمكانة العليا) (تردجيل ١٩٧٤ - ب : ٩٦).

وقد يكون من المفيد أن نلخّص النقاش السابق بالمقارنة بين طرق ثلاثة يمكن أن يُستخدَم فيها الكلام مصدراً لجمع معلومات عن المتحدث ، وذلك بمنأى عن مضمون الخطاب الذى يصدر عنه . أولاً ، يمكن أن يُستخدم الكلام مصدراً للمعلومات غير اللغوية عن المتحدث إذا أمكن الاستفادة من العلاقات القائمة بين المتغيِّرات اللغوية والمتغيِّرات غير اللغوية . (فلو استخدم المتحدث الصيغة اللغوية س ، فَمِنَ المحتمل أن تكون لديه الخصيصة الاجتماعية ص) . ذلك أن السمات غير اللغوية فى حد ذاتها قد تكون عرضة للأحكام التقييمية ، وفى هذه الحالة يعد الكلام مصدراً لِمثل هذه الأحكام عن المتحدث .

ثانيا ، قد تعتقد مجموعة بعينها أن طريقتها فى الكلام أفضل من طرق المجموعات الأخرى ، وفى هذه الحالة قد يعد كلام الفرد مصدراً للأحكام اللغوية التقييمية (لو استخدم المتحدث الصيغة س ، فلابد أن يكون متحدثاً جيداً أو رديئاً). ولا تشترك المجموعات الأخرى فى الاقتناع بهذا الاعتقاد ، ولذلك يشعر كل فرد منها بتفوق مجموعته لأنها تتحدث بطريقة أفضل . وهذا هو بعينه الموقف الذى سبق أن وصفناه فى حالة البوانج ، حيث تحدد القرى الصيغ التى يستخدمها الناس والقيَم المرتبطة بها . أما النوع الثالث من استخدام الكلام مصدراً للمعلومات عن المتحدث ، فهو موجود فى بريطانيا والولايات المتحدة ، حيث تكون الجماعات (باستثناء الطبقة العليا) المحددة لاختيار الناس للصيغ اللغوية مختلفة عن الجماعات التى تحدد القيَم المرتبطة بهذه الصيغ . ومن الملحوظ فى هذه الحالة أن الكلام يُستخدم مرة أخرى مصدراً لكل من الأحكام اللغوية وغير اللغوية ، ولكن المجموعات التى لا تنتمى إلى الطبقات العليا فى المجتمع قد تحكم على كلامها بأنه أقل مكانة . وبذلك يكون من الصعب تكوين صورة مُرضية عن المجموعة التى ينتمون إليها .

٦-٢-٢ « النماذج المقولبة » Stereotypes وكيفية دراستها :

يستخدم الناس إذن كلام الآخرين مصدراً للمعلومات غير اللغوية عنهم، وتشمل هذه المعلومات خلفياتهم الاجتماعية وخصائصهم وطباعهم الشخصية مثل (الجدعنة) والذكاء. وسنورد فيما يلي نموذجاً للطريقة التى يستخدم بها الناس المعلومات المختزنة على صورة نماذج أصول prototypes : فلو كانت الخاصيتان «أ» و«ب» مرتبطتين بصفة دائمة بعضهما ببعض فى صورة نموذج أصل ، فإننا نفترض وجود «ب» كلما لاحظنا وجود «أ» والعكس صحيح ، فلو كانت «أ» إحدى خصائص الكلام، و«ب» إحدى خصائص الشخصية، فإننا سنستخدم الكلام مفتاحاً للشخصية، وتلك غالباً أصعب فى ملاحظتها ملاحظة مباشرة عن خصائص الكلام. وأيضاً، لو كانت إحدى خصائص الكلام ترتبط بنموذج أصل ما بإحدى الخصائص الاجتماعية، مثل نوع من التعليم، فإن الخصيصة السابقة قد تُستخدم كمفتاح للأخيرة . وغالباً ما يُطلق على هذا النوع من النماذج مصطلح «النموذج المقولب» Stereotype فى دراسات علم اللغة الاجتماعى ، ولذلك قد يكون من المفيد أن نغيِّر استخدامنا للمصطلحات تبعاً لذلك . ولكن علينا أن نحذّر القارىء أن لابوف (١٩٧٢ - أ : ٢٤٨) قد استخدم مصطلح «نموذج مقولب» بمعنى أكثر تقييداً، وذلك للدلالة على العلاقة الواعية فحسب بين الخصائص اللغوية والخصائص غير اللغوية ، وذلك على خلاف ما عليه معظم هذه العلاقات.

كيف نستطيع إذن أن ندرس مثل هذه العلاقات الذاتية بشكل موضوعى، وكيف نقوم بتحليل «النماذج المقولبة» التى يستخدمها الناس؟ ويرى الاتجاه السائد فى الدراسة أن الموضوعية الحقيقية تتطلب منا أن نتفادى ما هو موجود فى رؤوس الناس، وأن ندرس العلاقات بين المتغيِّرات اللغوية والمتغيِّرات غير اللغوية بطريقة مباشرة، كما سبق أن قلنا فى الفصل الخامس وذلك حتى نكتشف مدى وثوق العلاقة بين هذه المتغيِّرات . ولكن مثل هذه الدراسة لا أهمية لها أيّاً كانت دقة مثل هذه المعلومات وموضوعيتها . ما دمنا نركزّ اهتمامنا بالدرجة الأولى على دراسة «النماذج المقولبة» لدى العوام، كما هو الحال فى هذا الجزء، لأننا سنظل جاهلين بمدى قربها من الحقيقة

الموضوعية . والطريقة الوحيدة لدراسة النماذج المقولبة لدى العوام، هى دراسة العوام ذاتهم وإيجاد وسيلة تجعل من الممكن دراسة نماذجهم المقولبة . وكما سبق أن لاحظنا فى استخدام لابوف لمصطلح «نموذج مقولب»، فإنّ معظم الناس لا يدركون بطريقة واعية العلاقات بين متغيِّرات لغوية بعينها وبين المتغيِّرات غير اللغوية ، وبالتالى فليس هناك فائدة تجنى من سؤال الناس مباشرة عن هذه العلاقات . ولكن هناك وسائل لتفادى هذه العقبة ، وذلك بسؤال الناس عن معرفتهم بطريقة غير مباشرة.

ويُعرف أكثر المناهج المباشرة انتشاراً باسم «اختبار الاستجابة الذاتية» subjective reaction test، وقد ابتكر هذا الاختبار بعض علماء علم النفس الاجتماعى خاصة ولاس لامبرت Wallace Lambert من جامعة ماكجيل MacGill فى مونتريال، وقد استخدمتْ هذا الاختبار وطبّقَتهُ مجموعة أخرى من علماء علم النفس الاجتماعى، ومن بينهم مجموعة نشطة من العلماء البريطانيين يرأسهم هوارد جيلز Howard Giles من جامعة بريستول . وقد استخدم لابوف هذا الاختبار أيضاً ، وهو أحد مناهجه لدراسة التباين اللغوى . (ويوجد أفضل عرض لهذا المنهج ومناهج أخرى فى دراسة جيلز وباوز لاند ١٩٧٥ Giles & Powesland). ولاجراء مثل هذا الاختبار ، يقوم الباحث بإعداد عدد من التسجيلات الصوتية لعدد من الناس وهم يتكلمون، وغالباً ما يحاول الباحث المحافظة على تثبيت مضمون ما يقولون عن طريق جعلهم يقرءون فقرة من النثر أو العد من واحد إلى عشرين ، مثلاً ، وغالباً ما يتضمن الشريط المسجل اثنى عشر صوتاً يتكلم كل منهم لمدة دقيقة أو نحو ذلك . ويُطلب من المشتركين فى التجربة، أى الأفراد المطلوب دراسة نماذجهم المقولبة، أن يستمعوا إلى هذه الأصوات كل منها على حدة . ويُطلب منهم ، أيضاً ، الاجابة على مجموعة من الأسئلة على كل منها . وقد يُطلب من كل مشترك أن يقوم باطلاق عشرة أحكام أو عشرين حكماً على صاحب كل صوت ، ويمكن مقارنة الأحكام الخاصة بأصحاب الأصوات بعضها ببعض ، وقد تكون بعض هذه الأسئلة أسئلة موضوعية (مثل ، من أين تعتقد أن هذا المتحدث قد جاء ؟ أو من أى المناطق التالية ، ... تعتقد أن المتحدث قد جاء ... ؟) . غير أن كثيراً من هذه الأسئلة يمكن أن يكون تقييمياً،

ويُطلب من المشتركين أن يحددوا موقع المتحدث على متواصل من نوع خاص مثل متواصلات « الجدعنة » و « الذكاء » و « الصداقة » . أما الطريقة المتواضع عليها للحصول على مثل هذه الأحكام التقييمية ، فتتمثل فى تحديد كل نهايتى متواصل بصفتين متعارضتين مثل « ذكى » و « غبى » ، « ودود » و « فظ » « جدع » و «رقيع» ، ثم تحديد سبع نقاط على المتواصل تتراوح بين « جدع جداً » ، و « جدع إلى حدٍ ما » و « محايد » و « رقيع » و « رقيع إلى حدٍ ما » و « رقيع جداً ». وعلى المشترك أن يختار إحدى هذه النقاط لكل صوت يسمعه ، ويسمح هذا العدد الكبير من التصنيفات للمشترك بالقيام بالتمييز الدقيق (وغالباً ما يفعل المشتركون ذلك) . ويمكن من ناحية أخرى استخدام المناهج الكمية فى مقارنة الأحكام ، سواء من جهة الأصوات أَم من جهة المشتركين ، مادام اختيار المشترك محكوماً بتصنيفات يمكن ترقيمها من ١ - ٧ . ولا حاجة بنا لذكر الأنواع المختلفة من الأسئلة التى ابتكرها الباحثون واستخدموها . ويكفى أن نضرب مثلاً واحداً ابتكره لابوف حين قام بتوجيه السؤال التالى للمشتركين فى الاستبيان « أى من الأعمال تظن أن المتحدث يقوم بمزاولتها ... ؟ » (لابوف ١٩٧٢ - أ : ١٢٨) .

ويظهر من نتائج اختبارات الاستجابة الذاتية اختلافات واضحة بين المتكلمين وبين المشتركين فى التجربة . أعنى أن أصوات المتكلمين المختلفة تثير مختلف «النماذج المقولبة» لدى المشتركين فى الاستبيان ، بينما يثير نفس الصوت عدداً متبايناً من النماذج المقولبة لدى مختلف الناس . ففى دراسة لاتجاهات attitude طلاب مدرسة ثانوية فى نيوهام لندن ، وجد جريج سميث (١٩٧٩) Greg Smith اختلافات واضحة ومنتظمة بين تقييمهم للأصوات ذات اللكنة اللندنية cockney وتقييمهم للأصوات ذات اللكنة المتواضع عليها . فبينما قيَّم الطلاب المتكلمين من ذوى اللكنة اللندنية تقييمات سلبية على كل المتواصلات ، قيموا المتكلمين من ذوى اللكنة المتواضع عليها تقييماً ايجابياً على كل المتواصلات وقد تثير هذه النتائج دهشة القارىء الذى يعرف أن معظم الناس فى أحياء لندن مثل نيوهام يتكلمون لكنة تقترب من اللهجة اللندنية cockney بشكل أو بآخر (باستثناء المهاجرين الجدد)، وبذلك

يكون المشتركون فى الاستبيان قد قاموا بتقييم « النموذج المقولب » الذى تثيره لهجتهم تقييماً سلبياً. ومن الغريب أن نكتشف أن هذه القائمة من التقييمات السلبية تتضمن صفات ، مثل المودة والذكاء والطيبة والقدرة على العمل الشاق وحُسْنِ المظهر والنظافة والأمانة . ويتضح من هذه النتائج أن قيَم القطاع الأقوى من المجتمع قد امتدت إلى المجتمع بأكمله ، حتى أن القطاعات الأخرى من المجتمع لم تكتفِ بالتقليل من شأن أسلوبها فى الكلام (كما فعل المشتركون فى استبيان نيوهام بالنسبة لمتواصل « حُسْن الحديث ») ، بل امتد تقليلهم أيضاً إلى معظم الجوانب الأخرى لصورتهم الذاتية . وتدعم هذه النتائج الزعم القائل بأن القطاعات الثانوية فى المجتمع قد تنظر إلى أسلوبها فى الكلام هذه النظرة السلبية نتيجة لتأثرها بأقوى قطاعات المجتمع (٦-٢-١) وقد ظهر من هذا البحث كثير من الاختلافات الأخرى بين الأصوات المستخدمة والمشتركين ، منها على سبيل المثال أن الأصوات التى عرفت على أنها أصوات ذكور من المهاجرين من جزر الهند الغربية تلقت تقييماً من جانب البنات البيض أكثر إيجابية من ذلك الذى تلقته من الذكور البيض ، وذلك على معظم المتواصلات ، ومعنى ذلك أن البنات البيض فى نيوهام ينجذبن إلى ذكور جزر الهند الغربية ، ويدرك الذكور البيض هذه الحقيقة ويرفضونها . ونستطيع أن نجعل اختبار الاستجابة الذاتية هذا أكثر رهافة بطريقتين .

وقد حاول رائد هذا النوع من الدراسات والاس لامبرت أن يستخدم « أسلوب المظهر المتجانس » MATCHED GUISE TECHNIQUE ، حتى يقلل من آثار الاختلافات القائمة فى نوعية الأصوات voice quality بين المتحدثين . والمشكلة واضحة : فلو حاولنا مقارنة اتجاهات بعض الناس إزاء بعض المتحدثين مزدوجى اللغة الذين يتحدثون باللغتين الإنكليزية والولشية مثلاً وكذلك مقارنة اتجاهاتهم إزاء اللغتين ، لكان من البلاهة أن نختار متحدث الولشية من ذوى الصوت الجهورى العميق ونختار متحدث الإنكليزية من ذوى الصوت الرقيق الحاد squeaky ، لأن هذه الاختلافات فى « نوعية الصوتين » قد تؤثر بل قد تكون العامل الرئيسى المؤثر بدلاً من الاختلاف بين اللغتين فى حد ذاتهما . ويهدف « أسلوب المظهر المتجانس » إلى

تجنّب هذه المشكلة عن طريق تسجيل المتحدث نفسه مستخدماً أكثر من صوت . وفى هذا النوع من التجارب ، قد يكون هناك ثلاثة متحدثين يتحدث كل منهم لغتين أو لهجتين، ثم ترتب الأصوات الستة اعتباطياً حتى لا يلاحظ المستمعون التشابه فى نوعية الأصوات ، وكذلك فإن المستمعين لا يدركون ، أيضاً ، أن هذه الأصوات المختلفة صادرة من نفس المتحدث ، ومن ثم يقدمون إجابات مختلفة عن الأسئلة الموجهة إليهم عن مكانة المتحدث الاجتماعية وشخصيته ، هذا بالرغم من أن الصوتين صادران عن نفس الشخص (لامبرت ١٩٦٧ Lambert) . وفى بعض الأحيان يستطيع المتحدث القدير أن يصدر أكثر من ثلاثة عشر صوتاً مختلفاً (جيلز وباوزلاند Giles & Powesland ١٩٧٥ : ٢٨) ولكن الاحتمال قائم دائماً فى أن يبالغ المتحدث فى نوعية اللكنات أو اللهجات التى يحاول محاكاتها . ولكن لا يبدو أن هناك خلافاً يذكر بين نتائج « أسلوب المظهر المتجانس » ونتائج المناهج الأخرى ، حيث سجّلت أصوات متحدثين مختلفين .

وهناك وسيلة أخرى يمكننا أن نجعل بها « اختبار الاستجابة الذاتية » أكثر حساسية ، وذلك بالتحكم فى الكلام المُسْتَخدَم بطريقة تجعل من الممكن التعرف على الخصائص اللغوية التى يستجيب لها المشتركون . وقد ابتكر لابوف هذا المنهج وطوره (١٩٧٢ - أ : ١٢٨ ، ١٤٦) ، فقام بجمع قائمة مكونة من ٢٢ جملة مسجّلة على شريط بأصوات خمس إناث مختلفات لأغراض مختلفة ، وقد اختار لابوف هذه الجُمَل بحيث تظهر كل جملة متغيِّراً صوتياً sensitive phonological variable واحداً. وطلب من المستمعين أن يخمنوا مهنة المتحدث فى كل جملة فى القائمة . وبذلك أصبح من الممكن مقارنة أحكام المهن job rating بالنسبة لكل متحدث على حدة فى التراكيب المختلفة ، وبذلك أمكن أن نفترض أن أية اختلافات نلاحظها فى هذه الأحكام تنشأ عن الاختلافات بين هذه المتغيِّرات ، فقد حكم على إحدى المتحدثات، مثلاً، بأن مهنتها موظفة استقبال فى عبارة، بينما حكم عليها بأن مهنتها عاملة «بدالة هاتف» فى عبارة أخرى، بالرغم من أن العبارتين كانتا مجرد نطقين مختلفين للعبارة التالية :

He darted out four feet before a car and he got hit hard

وذلك مع اختلاف واحد فى النطق : ففى العبارة المنطوقة الثانية لم تُنطق أحد الحروف الخمسة الواقعة بعد صوائت post-vocalic على أنها صامتة ، بينما نُطِقَتْ «r's» كلها فى العبارة الأولى حروفاً صامتة . وقد سبق أن ذكرنا فى الجزء ٥ - ٢ - ٢ أن متغيِّر الصوت «r» متغيِّر لغوى اجتماعى هام فى مدينة نيويورك (حيث أُجريت هذه التجربة)، وتظهر من هذه النتائج درجة حساسية المستمعين لاستخدام ملامح لغوية بعينها غير متواضع عليها فى كلام الآخرين .

ولكن مثل هذا الاختبار، اختبار الاستجابة الذاتية، له عيوب كثيرة عند استخدامه كوسيلة للكشف عن اتجاهات الناس attitude إزاء الصيغ الكلامية speech forms، ولعل أهم هذه العيوب أنه يتطلَّب من الناس أن يلجأوا إلى «نماذجهم المقولبة»، لأنه ليست لديهم طريقة للاجابة على الأسئلة المطلوبة غير ذلك. ومن المحتمل أن ينخفض استخدام هذه النماذج المقولبة فى مواقف الحياة الواقعية عنه فى المواقف التجريبية . وحتى يمكننا اختبار هذه الفرضية ، من الضرورى إيجاد اختبار بديل للاتجاهات test of attitudes يتحول فيه الاهتمام من المهمة التجريبية بحد ذاتها إلى مواقف أكثر قرباً من الواقعية . وقد ابتكرت بعض هذه البدائل ، وبعضها غاية فى الذكاء . وسنقوم بوصف مثل هذه التجربة هنا (نقلاً عن جيلز وباوزلاند ١٩٧٥ : ١٠٢) وسنقوم بوصف تجربة أخرى فى ٦-٢-٤ .

قام أحد الباحثين - وكان يستطيع استخدام اللكنتين ، الإنكليزية المتواضع عليها RP ، ولكنة برمنجهام بكفاءة - بإعداد حديث موجه إلى مجموعتين من الطلاب فى السابعة عشرة فى مدرسة معيَّنة، وذلك بعد أن تأكد أن الأولاد فى هذه المدرسة يعطون اللكنة المتواضع عليها مكانة أعلى من المكانة التى يعطونها للكنة برمنجهام . وقام بإلقاء محاضرة قصيرة عن علم النفس ، شرح فيها أنه محاضر جامعى فى علم النفس ، وأن قسمه الجامعى يود أن يعرف ماذا يعرف طلاب المدارس عن هذا الموضوع قبل أن يدخلوا الجامعة . وطَلِبَ منهم أن يكتبوا كل ما يعرفونه عن علم النفس، ثم

خرج من الفصل تاركاً مساعدته وراءه مع المجموعة . وقد قامت المساعدة بجمع كتابات الطلاب ثم شَرحتْ لهم أن هناك جزءاً ثانياً من البحث ، فحواه أن مجموعة البحث تود أن تعرف ما إذا كان المحاضر الذى حاضر عليهم منذ قليل يصلح لإلقاء محاضرات فى علم النفس فى المدارس . وطَلَبتْ المساعدة من الطلاب أن يكتبوا رأيهم فى المحاضر ، وأن يقيموا ذكاء المحاضر على متواصل . وقد تمّ استخدام نفس النمط الاختبارى لكل من المجموعتين من الطلاب المشتركين فى التجربة باستثناء اختلاف واحد ، هو أن المحاضر قد استخدم اللكنة المتواضع عليها RP فى إحدى المحاضرات واستخدم لكنة برمنجهام المحلية فى محاضرته الثانية مع المجموعة الأخرى. وكان الاختلاف فى استجابات كل من المجموعتين ذا دلالة إحصائية ، وقد تبيَّن من السؤال المباشر عن ذكاء المحاضر ، أن المحاضر قد حصل عند استخدامه للكنة المحاكية للهجة المتواضع عليها RP على تقييم لنسبة ذكائه أعلى من التقييم الذى حصل عليه عندما استخدم لكنة برمنجهام، هذا بالرغم من أنه قد أعطى نفس المحاضرة بحذافيرها وسلك نفس السلوك مع كل من المجموعتين . وفضلاً عن ذلك، فقد كتب الطلاب اليه وعنه عندما استخدم اللكنة الإنكليزية المتواضع عليها أكثر مما كتبوا عندما استخدم لكنة برمنجهام (وقد تبيَّن أن نسبة الزيادة حوالى ٢٤٪ إليه و ٨٢٪ عنه ، عندما استخدم اللكنة المتواضع عليها) . وإذا افترضنا أن كِلتا المجموعتين المشتركتين كانتا متماثلتين فى تكوينهما (وليس هناك ما يدفع إلى الاعتقاد بغير ذلك) ، فلابد أن يكون تفسير هذه النتائج المختلفة فى سلوك المجموعتين مرتبطاً باتجاهاتهما نحو اللكنتين المستخدمتين . ومن التفسيرات المحتملة لتلك النتائج ، أن الطلاب قد أعجبوا أكثر بالمحاضر عندما استخدم اللكنة المتواضع عليها ، حيث ثبت بشكل قاطع، وبكثير من الأدلة أن الناس يكتبون إلى الذين يعجبون بهم وعنهم أكثر مما يكتبون عن وإلى مَنْ لا يحبونهم . ويمكننا أن نستنتج من ذلك أن سلوك الناس الفعلى يمكن أن يتأثر فعلاً بتحيزاتهم اللغوية ، وليست هذه التحيّزات مقصورة على ما يقوله الناس عن بعضهم بعضاً .

وقبل أن نترك القضية الخاصة بالدراسة التجريبية لدور الكلام كمفتاح «للنماذج

المقولبة»، من الجدير أن نذكر تجربة أخرى تبيّن أن الكلام ليس هو المفتاح الوحيد «للنماذج المقولبة» فيمكننا أن نعكس النظام المنطقى الاستنباطى فى الاتجاه المضاد، ونبدأ من ظواهر سلوكية ملحوظة أخرى إلى « النماذج المقولبة » المرتبطة بها، ومنها إلى نوع الكلام ، وذلك حتى فى الحالات التى يكون من السهل فيها ملاحظة الكلام نفسه . وقد قام فردريك ويليامز (١٩٧٣) Frederck Williams بابتكار تجربة عبقرية التصميم ، قام فيها باعداد شرائط فيديو لثلاثة من الأطفال ظهروا فيها من الخلف ، بحيث يتبيّن المشاهد أن الأطفال الثلاثة مختلفون عنصرياً وعرقياً (طفل أبيض وطفل زنجى وطفل مكسيكى أميركى ، وقد ظهروا بهذا الترتيب) ، ويتبيّن المشاهد أنهم يتكلمون بالرغم من أن أفواههم ووجهوههم لم تظهر للمشاهد . وأمكنه ذلك من دبلجة الكلام فنياً على الأفلام دون أن يدرك المشاهد أن الكلام لا يتطابق مع حركة الشفتين لكل من الأطفال الثلاثة . وقد قام الطلاب المعلمون بدور الحكّام ، حيث طُلِبَ من ثلاث مجموعات متشابهة three matched groups أن تقيِّم كلام أحد الأطفال على متواصلين خاصين بدرجة «المواضعة» standardness ودرجة الطلاقة fluency ، وعند مقارنة التقييمات المختلطة وُجِدَ أن هناك اختلافات واضحة بين الأطفال الثلاثة ، بالرغم من أن المشاهد سمع نفس الصوت والكلام بالضبط فى كل الحالات . فقد حصل الطفلان الزنجى الأمريكى والمكسيكى الأمريكى على نتيجة تقل عن الطفل الأبيض على متواصل « المواضعة »، بينمّا قيّم كلام الطفل المكسيكى الأميركى من حيث الثقة بدرجة تقل عن كلام الطفلين الآخرين . وتتفق هذه الاختلافات تماماً مع « النماذج المقولبة » التى ظهرت وثبتت وفقاً للتجارب الأخرى عن هذه النوعيات العنصرية الثلاثة ، ويمكننا تأويل هذه النتائج على أساس أنها تبيِّن كيفية استخدام الطلاب من المعلمين « الاشارات المرئية » visual clues للتعرف على «نموذج مقولب»، ثم افتراضهم أن الكلام الذى سمعوه متطابق تماماً مع ما تنبئوا به وتوقعوه من ذلك « النموذج المقولب » . ولسنا بحاجة إلى القول أن هذه الاستراتيجية فى سلوك الطلاب المعلمين ، لو كانت هى الاستراتيجية المُثلى التى يستخدمها المعلمون فى تقييم كلام طلابهم ، لأصبحت محاولة تحسين طريقة الطلاب فى الكلام عديمة الجدوى ومضيعة للوقت ، حتى لو أراد الطلاب ذلك .

٦ - ٢ - ٣ تحيّز المعلمين :

يعالج الجزءان الحالى والتالى المشكلات الاجتماعية العملية المرتبطة بالتعليم، وقد انطلق كثير من أبحاث علم اللغة الاجتماعى من هذا المنطلق ، وهو منطلق هام للغاية ، لا لأن نظام التعليم هو المسؤول الأول عن نشر تحيّزات الطبقات العليا فى المجتمع بأكمله فحسب ، (انظر ٦-٢-١) ، بل لِما يجب أن يدركه رجال التعليم إدراكاً واضحاً جداً عن الدور الذى يمكن أن تلعبه تلك التحيّزات ، ذلك أن هناك «نماذج مقولبة» ثابتة عند المعلمين وعند طلابهم ترتبط بطريقتهم فى الكلام . وتعد هذه «النماذج المقولبة» عند الفريقين مصدراً لمشكلات جسيمة . ومن الجدير بالذكر ، من ناحية أخرى ، أن كثيراً من المعلمين ، وليس جميعهم ، يتأثرون بطريقة تلاميذهم فى الكلام بقدرٍ معيّن ، كما سيتّضح بعد ذلك (انظر تايلور ١٩٧٣) . وفضلاً عن ذلك ، فإن الأبحاث المذكورة فى هذا الجزء تركز بصفة خاصة على العالم المتحدث باللغة الإنكليزية، ولا ينبغى أن نفترض أنه يمكن تعميم نتائج هذه الأبحاث على جميع المجتمعات وجميع الأنظمة التعليمية . (قارن بذلك ، مثلاً ، مناقشة نزعة «النقاء اللغوى» purism فى سيلان فى دى سيلفا De Silva ١٩٧٦ ، ما زال فى طور الاعداد) . إذا وضعنا فى اعتبارنا كل هذه المحاذير ، لأمكننا بعد ذلك أن نتعرّف علِى عدد من الطرق التى قد تؤدى فيها تحيّزات المعلمين اللغوية إلى مشكلات بالنسبة لطلابهم .

هناك دلائل على أن المعلمين يستندون فى تكوين انطباعاتهم الأولى عن الطلاب على صيغهم الكلامية ، وهم يفضّلون ذلك على مصادر المعلومات الأخرى عن طلابهم ، والتى قد تبدو أكثر ارتباطاً بتلك الأحكام . ولكن ، ينبغى أن نذكّر أنفسنا أن معظم هذه الأدلة مأخوذة من استجابات الطلاب المعلمين ، لا من المعلمين من ذوى الخبرة الذين قد يقيِّمون الطلاب بطريقة مختلفة تماماً . فقد طلبَ من بعض الطلاب المعلمين ، على سبيل المثال ، أن يقيِّموا ثمانية تلاميذ فرضيين على المتواصلات التالية : درجة الذكاء ، كونه تلميذاً مجتهداً ، الميزات التى يتمتع بها ، درجة حماسه للتعلّم ، والثقة بالنفس والرقة (جيلز وباوزلاند ١٩٧٥ : ٣ Giles & Powesland)

وقد تمَّ التعرف على الطلاب الثمانية الفرضيين عن طريق ثلاثة مصادر مختلفة ، وهى على النحو التالى :

صورة فوتوغرافية ، وعيّنة من الكلام المسجل على شريط تسجيل ، وعيّنة من أعمال التلميذ المدرسية (مكوّنة من مقال واحد وصورة مرسومة واحدة) . وقد أُخِذَتْ العيّنة الأخيرة من أعمال طلاب فعليين ، ولكن أُعيد توزيعها حتى يكون هناك عدد مساوٍ من الأمثلة لكل نوع من المعلومات ، يمكن عندئذ الحكم عليه بالسلب أو الايجاب . وكان السؤال الذى حاولت تلك التجربة الاجابة عليه هو : ماذا يحدث لو كوِّنت المعلومات المأخوذة من مصدر واحد انطباعاً مُرضياً ، بينما كوِّنتْ معلومات المصدر الآخر انطباعاً غير مُرضٍ ؟ وكانت الاجابة الواضحة أن المعلومات المأخوذة من عيّنة الكلام ، قد تفوقت على معلومات الصورة الفوتوغرافية ، وحتى على معلومات الأعمال المدرسية . وإذا كان الانطباع الناتج عن عيّنة الكلام انطباعاً مُرضياً ، لتفوّق على الانطباعات غير المُرضية المأخوذة من المصادر الأخرى مجتمعة ، والعكس صحيح .

ومن المعروف أيضاً أن معظم اختبارات الذكاء التى يستخدمها رجال التعليم تعتمد اعتماداً كبيراً على المهارة اللغوية ، وأنه غالباً ما تكون نتيجة التلاميذ من الطبقات الدُنيا من حيث الأداء فى مثل هذه الاختبارات أسوأ من أدائهم فى اختبارات الذكاء غير الكلامية ، التى لا تعتمد على المهارة اللغوية (برنستاين ١٩٧١ : ٥٢ Bernstein وديتمار ١٩٧٦ : ٣٢ ، Dittmar) . وقد لا يكون السبب الحقيقى وراء النتائج السيئة التى يحصل عليها أطفال الطبقات الدُنيا فى اختبارات الذكاء الكلامية الاختلافات العامة التى نبحثها فى ٦-٢ (وهى قضايا خاصة بصفة عامة باللهجات الاجتماعية وأساليب النطق على وجه الخصوص) ، ولكن ينبغى أن نضع فى اعتبارنا أنه حتى اختبارات القدرات الرسمية التى يستخدمها رجال التعليم ، تعتمد اعتماداً أساسياً على اللغة .

وقد يكون من الخطأ أن نعطى انطباعاً بأن جميع المعلمين يقيِّمون التلاميذ على أساس مدى قرب كلامهم من اللغة المتواضع عليها ، دون أن نشير إلى احتمال تجنّب بعض المعلمين إطلاق أحكام على تلاميذهم ، أو تقييمهم استناداً إلى أسلوبهم فى الكلام . وقد اتضح من دراسة (جيلز ويوزلاند ١٩٧٥ : ٤٢) أن المدرسين ينقسمون إلى نوعين على الأقل : المعلمين الذين يقيِّمون طلابهم استناداً إلى درجة القرب من اللغة المتواضع عليها وأولئك الذين يهتمون أكثر بالطلاقة اللغوية التى تؤدى إلى الحكم على الطالب بالثقة فى النفس والشغف بالتعليم . وقد يبدو أن المعلمين الذين يميلون إلى تقييم الطلاب على أساس طلاقتهم فى اللغة ، أكثر استعداداً لتقييم طلابهم على أساس الاحتياجات المدرسية من الذين يقيِّمون طلابهم على أساس مدى قربهم من اللغة المتواضع عليها ، ولكن من السهل أن نرى كيف يمكن للمعلّم أن يكوّن انطباعاً خاطئاً عن طفل بعينه ، وأن يستمر فى مقاومة كل الأدلة المعاكسة لهذا الانطباع الخاطىء ، كما سبق أن وصفنا بخصوص النماذج المقولبة بصفة عامة .

وإذا فرضنا أن المعلمين يكوّنون انطباعات أولية عن طلابهم استناداً إلى أسلوبهم فى الكلام (وعناصر أخرى) ، فَمِنَ المنطقى أن يؤدى ذلك إلى وجود مشكلات للطفل الذى يعطى كلامه انطباعاً أولياً سيئاً . وإذا كانت الانطباعات الأولى من الصعب تغييرها كما يُقال ، فإن على مثل هذا الطفل الذى يخلق انطباعاً أولياً سيئاً أن يعمل أضعاف الطفل الذى يستطيع أن يعطى انطباعاً أولياً مُرضياً منذ البداية . وهناك أيضاً مشكلة التنبؤ أو التوقع الذى يحقق ذاته : فلو تنبأتْ معلمة بأن الطفل لن يؤدى واجبه الدراسى على خير وجه ، فإن سلوكها نحوه قد يشجعه على ألا يقوم بعمله على الوجه الأكمل . وهناك أدلة مأخوذة من عديد من الدراسات والأبحاث بأن العكس أيضاً صحيح (روزنثال وياكوبسين ١٩٦٨ Rosenthal & Jacobson) ، (فلو كانت توقعات المعلمة عالية بالنسبة لطفل معيَّن ، فإنها ستسلك نحوه سلوكاً قد يشجعه على القيام بعمله على أفضل وجه ممكن حتى يحقق توقعاتها) ، ويبدو أنه من المنطقى أيضاً أن تؤدى التوقعات السلبية إلى أداء سلبى من جانب الطلاب .

وهناك طريقة إضافية يمكن لتحيّزات المعلمين من خلالها أن تؤثر على مصالح طلابهم ، وذلك بتأكيد التحيّزات السلبية التى قد تكون لدى الطلاب فعلاً نحو طريقتهم فى الكلام ، وهذا النوع من التحيّزات هو نفس النوع من التحيّزات الذى سبق أن ناقشناه فى البحث الخاص بشرقى لندن . ومن الخطأ أن نتصوَّر أن كل المعلمين يقعون فى هذا النوع من الخطأ ، ولكن من الخطأ أيضاً أن نتجاهل تلك الأعداد الكبيرة من المعلمين الذين يعتقدون أن دورهم الرئيسى هو لفت نظر الطلاب إلى أنهم يتكلمون بلهجات أو لكنات غير متواضع عليها ، وأن طريقتهم فى الكلام غير سليمة آملين بذلك إصلاح شأن طلابهم لغوياً . والواقع أن التأثير الوحيد لهذا النوع من النقد، هو تأكيد رؤية الطلاب السلبية لذاتهم ، الأمر الذى يؤدى إلى زيادة تصميمهم على ألا يلتزموا بالصيغ الكلامية المتعارَف عليها . وحقيقة ، قد يكون من العسير للغاية فى بعض الأحيان ، على الطفل أن يتعلّم الحديث بالنوعية المتواضع عليها ، وتلك التى تؤخذ منطلقاً لأحكام الآخرين على أسلوبه فى الكلام ، خاصة إذا كان المعلمون أنفسهم لا يتحدثون بها ، ومن ثم لا يجد الطالب نموذجاً يصلح لمحاكاته . وقد تبيَّن أن هذا هو الموقف بالفعل فى العديد من المدارس الابتدائية فى جزر الهند الغربية ، حيث يكون النموذج المستخدَم للحكم على كلام الأطفال هو اللكنة الإنكليزية البريطانية المتواضع عليها ، ولكن النوعية التى يستخدمها المعلمون ذاتهم متأثرة تأثراً شديداً باللغة الكريولية المحلية (لى باج ١٩٦٨ - ب Le Page) ، وعلى أية حال فإن لغة الطفل ترتبط ارتباطاً عميقاً بادراكه لهويته (انظر ٦-٢-١) ، ولذلك فليس متوقعاً أن يغير طريقته فى الكلام بسبب رأى معلمه .

٦ - ٢ - ٤ تحيّزات الطلاب :

أود أولاً أن أوكد على وجود التحيّز اللغوى لدى أطفال المدارس . وقد نتصوَّر أن مثل هذا التحيّز غير موجود عند الأطفال صغار السن ، وأعنى أطفال المدارس الابتدائية . وقد نتصوَّر أن الأطفال فى هذه السن لا يتجاوزون الاستنتاجات الواقعية غير التقييمية عن الكلام ، وذلك على أساس أنهم لا يدركون البُنية الدرجية للمجتمع

إلاّ بعد أن يصلوا إلى مرحلة المراهقة . وهناك كثير من الأبحاث والدراسات التى تؤكد وجهة النظر المطمئنة هذه . فعلى سبيل المثال ، وَجَدَ والاس لامبرت ١٩٦٧ Wallace Lambert أن مجموعة من الأطفال المتحدثين باللغة الفرنسية فى سن العاشرة فى مدينة مونتريال ، لم يكونوا مدركين للنظرة السلبية إزاء الفرنسية بين البالغين فى كندا الفرنسية ، بينما كانت مجموعة مماثلة من الأطفال فى سن الثانية عشرة تدرك ذلك . وفضلاً عن ذلك ، اتضح من الدراسة التى أجراها هوارد جيلز على الأطفال البريطانيين (جيلز وبوزلاند ١٩٧٥ : ٣١) فى الثانية عشرة من عمرهم ، أن لديهم تقييماً واقعياً للمكانة الاجتماعية النسبية لمختلف اللكنات ، ولم يكن لديهم غالباً تصور أو رؤية واقعية لطبيعة لكنتهم الثانية (فقد تصوَّر كثير منهم أنهم يتكلمون باللغة الإنكليزية المتواضع عليها ، بينما كانوا يتحدثون فى الحقيقة لكنة إقليمية واضحة) . وعلى العكس ، اتضح أن مَنْ بلغوا السابعة عشرة من عمرهم لديهم تقييم واقعى للمكانات الاجتماعية المختلفة ، وكذلك تقييم واقعى للكنتهم الذاتية . وإذا عممنا نتائج هاتين الدراستين ، يمكننا أن نتوقع أن يكون الأطفال الأقل من سن المدرسة الثانوية غير مدركين أو واعين للمكانة الاجتماعية للهجتهم أو لكنَتهم المحلية أو للهجة التى يستخدمها معلمهم ، وأنهم لن يدركوا ذلك قبل أن يقطعوا شوطاً فى دراستهم الثانوية ، أعنى قبل أن يدركوا الاختلافات فى المكانة الاجتماعية للهجة معلمهم ومكانة لهجتهم الاجتماعية .

ولكن يبدو أن هناك براهين على أن هذه النتائج مغرقة فى التفاؤل دون مبرر ، وأن الأطفال بالفعل يدركون الاختلافات القائمة بين اللهجات من حيث المكانة الاجتماعية فى الثالثة من عمرهم . وهذه الأدلة مأخوذة من تجربة أجرتها مارلين روزينثال ١٩٧٤ Marilyn Rosenthal ، وهى تجربة ابتكرت منهجاً للتحقق من مواقف أو اتجاهات الأطفال attitudes تجاه أنواع الكلام speech types (قارن بذلك لوكال Local ١٩٧٨ الذى وَصَلَ إلى نتائج مماثلة عن الأطفال فى منطقة تاينسايد فى انكلترا Tyneside) . وقد كان الغرض من إجراء تجربة روزينثال ، هو مقارنة استجابات ١٣٦ طفلاً أمريكياً ما بين الثالثة والسادسة من عمرهم لنوعين من

الأصوات، أحدهما يستخدم اللغة المتواضع عليها ، بينما يستخدم الآخر صيغ النطق والمفردات والتراكيب الخاصة بلهجة الزنوج غير المتواضع عليها . وكان حوالى ٩٠ من المشتركين من الأطفال البيض من أبناء الطبقات العليا ، و ٤٦ من أطفال الزنوج من الطبقات الدُنيا ، وبالتالى أصبح من الممكن مقارنة استجابات كل من هاتين المجموعتين للصوتين. وقد تركَّزتْ التجربة على علبتين من الورق المقوى رُسِمَ عليهما وجهان ملونان بالأزرق والأحمر ، واحتوت كل من العلبتين على مسجل كاسيت وهدية لا يتمكن الطفل من رؤيتهما . واستمع الأطفال إلى الصوتين المسجلين اللذين يفترض أنهما ينتميان إلى كل من الوجهين المرسومين على العلبة . وقام كل صوت على حدة بوصف الهدية الموجودة داخل العلبة وبترديد نفس العدد من المزاعم عن ميزات الهدية ، ولكن الصوتين استخدما صيغتين مختلفتين من الكلام (الصيغة المتواضع عليها والصيغة الزنجية غير المتواضع عليها) . وطُلِبَ من الأطفال أن يختاروا إحدى العلب ، وأن يستخرج كل منهم هديته (وكانت الهدايا متماثلة فى العلبتين) ، ثم قام الباحث بتوجيه عدد من الأسئلة عن استجابات الأطفال للوجهين المرسومين على العلبة .

وإذا وضعنا فى اعتبارنا صغر سن الأطفال المشتركين فى هذه التجربة ، لوَجَدْنا أن النتائج تعكس تحيِّزات البالغين بدقة متناهية ، فقد قال ٧٩٪ من الأطفال أن الوجه الناطق باللغة المتواضع عليها تحدث بطريقة أفضل ، وقال حوالى ٧٣٪ أنهم توقعوا هدية أفضل فى هذه العلبة . وقد قال ٩٢٪ من الأطفال البيض أن الصوت الصادر من العلبة الناطقة باللغة غير المتواضع عليها صوت زنجى، بينما قال ٧٢٪ منهم أن الصوت الناطق بالنوعية المتواضع عليها صوت رجل أبيض. أما النتائج المقابلة والخاصة بالأطفال الزنوج فقد كانت ٧٣٪ و ٥٩٪ ، وبذلك أكدوا تجاهاً (سبق أن تعرف عليه وأشار إليه آخرون مثل شوى Shuy ١٩٧٠) بأن المتحدثين بالنوعيات ذات المكانة العليا أكثر دقة فى أحكامهم من المتحدثين بالنوعيات من المكانة الدُنيا . وعلى العكس ، فإن الأطفال الزنوج أعجبوا بالرأس الناطقة باللغة غير المتواضع عليها أكثر وأخذ نصفهم تقريباً (٤٦٪) الهدية من تلك العلبة ، بالرغم من أن معظمهم قد تصور أن العلبة الأخرى كانت بها هدية أفضل . ويبدو أن الموقف الذى اتخذه الأطفال

يتبع النمط الشائع بين البالغين المتحدثين باللغة غير المتواضع عليها ، والذين ينظرون إلى المتحدثين باللغة المتواضع عليها نظرتهم إلى الأغنياء والناجحين الذين لا يستحقون الصداقة أو الثقة (انظر مثلاً جيلز وباوزلاند ١٩٧٥ : ٦٧) . وأخيراً، فإن الأطفال البيض مثلهم مثل أهلهم بدوا وكأنهم قد كونوا اتجاهاً ازدرائياً نحو الزنوج المتحدثين باللغة غير المتواضع عليها ، وهو الرأى الذى تحمسوا فى إبدائه للباحث .

أما التجربة الثانية ، فقد أجريت فى كندا على أطفال يتحدثون بالفرنسية واتضح منها أن الأطفال فى الخامسة من عمرهم كان لديهم بالفعل اتجاهات محددة إزاء اللغة الفرنسية على عكس اللغة الإنكليزية - انظر شنيدرمان ١٩٧٦ (Schneiderman).

من الواضح ، إذن ، أن علينا أن نفترض أن بعض الأطفال لديهم تحيزات لغوية ثابتة وكاملة النمو فى الوقت الذى يبدأون فيه الذهاب إلى المدرسة الابتدائية ، وهذه المواقف والتحيزات تكاد تقارب بل تماثل تحيزات البالغين عندما يصلون إلى المدرسة الثانوية . هل تؤدى مثل هذه التحيزات إلى خلق مشكلات للطلاب أثناء حياتهم المدرسية ؟ ليس من الثابت أن هذه التحيزات تؤدى إلى ذلك ، ولا ينبغى أن نفترض أن ما قد يكون ثابتاً عند بعض الأطفال ، يمكن تعميمه بالضرورة على كل الأطفال . فهناك دراستان تدلان على أن لكنة المعلم (لو أننا تجاهلنا كل الجوانب الأخرى لأسلوب المعلم فى الكلام) ، قد تؤثر على قابلية الأطفال للتأثر بمضمون قوله ، وقد تؤثر أيضاً على قدرتهم على استرجاع ما يقوله .

وقد قام كل من أدوارد كيرنز وباربارة ديوريز Edward Cairns & Barbara Duries (١٩٧٦) فى كوليرين ، فى مقاطعة إيرلندة الشمالية بالمقارنة بين ٣٠ طفلاً كاثوليكياً من أطفال المدارس و ٣٠ طفلاً بروتستنتياً من نفس العمر (من حوالى ١٠ إلى ١١ سنة) ، من ناحية قدرتهم على استرجاع مضمون قصة (يقرؤها المتحدث)، مستخدماً إحدى ثلاث لكنات وهى كالتالى :

اللكنة المتواضع عليها (RP) ، ولكنة الطبقة المتوسطة فى بلفاست (أيرلندة

الشمالية)، ولكنَة الطبقة المتوسطة فى دبلين (الجمهورية الايرلندية) . وقد تمّ اختيار هذه اللكنات الثلاث على أساس العلاقة بين الكاثوليكية وجمهورية إيرلندة ، والعلاقة بين البروتستانتية وبريطانيا (متمثّلة فى اللغة البريطانية المتواضع عليها RP) ، بينما تعد لكنَة بلفاست محايدة إلى حدٍ كبير بالنسبة للديانة . وقد استمع كل طفل إلى القصة وهى تُقرأ بلكنة واحدة فقط ، ولكن الأطفال قُسِموا إلى مجموعات استمعت كل منها إلى كل التركيبات الستة التى تمثّل الديانتين بالأصوات الثلاثة . واتضح من النتائج أن الأطفال الكاثوليك الذين استمعوا إلى القصة باللهجة البريطانية المتواضع عليها ، كانت درجة استرجاعهم للقصة أقل من الأطفال البروتستانت الذين استمعوا إليها ، وذلك لأن الأطفال البروتستانت كانوا أكثر تعلقاً وقرباً « للنموذج المقولب » الذى تثيره اللهجة البريطانية المتواضع عليها ، واسترجع الأطفال الكاثوليك الذين استمعوا إلى النسخة المتواضع عليها RP من القصة قدراً أكبر بكثير من ذلك الذى استرجعوه عندما استمعوا إليها فى لكنة بلفاست (المحايدة نسبياً) . وكما استرجع الأطفال الكاثوليك من القصة قدراً أكبر من الأطفال البروتستانت الذين استمعوا إلى لكنة دبلين بإيحاءاتها الكاثوليكية . وحتى يؤكد الدارسون أن لكل من الأطفال الكاثوليك والبروتستانت اتجاهات مختلفة نحو بريطانيا والجمهورية الايرلندية، فقد سألوا عدداً من الأسئلة مثل : ما هى عاصمة بلدك ؟ وقد أجاب ٣٠٪ من البروتستانت و ٧٠٪ من الكاثوليك بأنها دبلين . أو بعبارة أخرى ، اتفق كل الأطفال على أن اللكنة المتواضع عليها RP جزء من النموذج البريطانى المقولب ، أما اللهجة الدبلنية فهى تعكس « النموذج المقولب » « الايرلندى الجمهورى » ، ولكنهم اختلفوا بحدة فى تقييمهم لهذه النماذج المقولبة حسب ولائهم الشخصى لأحدهما . والاستنتاج العام الذى قد نصل إليه بناء على نتائج هذه الدراسة ، هو أن الأطفال يعيرون الأشياء التى تقال باللكنة التى تثير ولاءهم لمجموعة بعينها اهتماماً أكبر من الأشياء التى تُقال باللكنة التى لا تثير ذلك ، ولهذا فهم يسترجعون الأولى أكثر من الثانية . ومغزى هذا البحث واضح بالنسبة للمدارس .

وقد قام هوارد جيلز Howard Giles بإجراء البحث الثانى فى جنوب ويلز وسومرسيت South Wales and Somerset (انظر جيلز وبوزلاند ١٩٧٥ : ٩٣ - ٩٨ من أجل هذا البحث وأبحاث أخرى متعلقة به) ، بغرض دراسة أثر اللكنات المختلفة على مدى تباين آراء الأطفال حول مضمون رسالة بعينها . وقد اختير لهذه الدراسة طلاب فى السابعة عشرة من عمرهم ، وقد انتقاهم الباحث من عيّنة أولية من ٥٠٠ طالب ، حتى حصل على خمس مجموعات متماثلة five matched groups . وتمّ سؤالهم جميعاً عن رأيهم فى عقوبة الاعدام ، وذلك من خلال استبيان . وبعد ذلك بأسبوع زار الباحث كل مجموعة على حدة ، متنكراً فى شخصية عالم من علماء الجريمة يهتم بآراء طلاب المدارس فى عقوبة الاعدام . وطلب من كل المجموعات المشتركة تأمل الرأى المعارض لفكرة عقوبة الاعدام ، وادعى أنه رأى لأحد أصدقائه . وقد تمّ عرض هذا الرأى على كل المجموعات بنفس الكلمات ولكن فى صورٍ مختلفة . فقد تلقت المجموعة الأولى نسخة مطبوعة من هذا الرأى بينما استمعت إليه المجموعات الأخرى مقروءاً بلهجات مختلفة هى : اللكنة البريطانية المتواضع عليها RP ، ولكنة جنوب ويلز، ولكنة سومرسيت ، ولكنة برمنجهام على التوالى . وبعد قراءة الرأى والاستماع إليه طلب من الطلاب أن يقيموا هذا الرأى، وبعد ذلك طلب منهم أن يُبدوا آراءهم الشخصية المؤيدة أو المعارضة لعقوبة الاعدام. وبما أنهم كانوا قد أعطوا أراءهم الخاصة حول هذا الموضوع فى الأسبوع السابق أصبح من الممكن أن نقارن إجابتهم فى كل من الموقفين وأن نقيِّم التغيُّر فى آرائهم والذى يمكن أن يكون نتيجة للرأى الذى قُدِّم لهم . وقد تطابقت rating تقويمات الطلاب للرأى للمكانة الاجتماعية للكنة المستخدَمة ، فقد حصلت اللكنة المتواضع عليها RP على أفضل تقييم . إلا أنه كان للكنات الإقليمية ، بالرغم من افتقادها للمكانة الاجتماعية ، أكبر الأثر على الطلاب . ويمكننا أن نؤول هذه النتائج بعدد من التأويلات . فربما التفت الطلاب أكثر إلى الرسالة عندما قرنت بلكنتهم المحلية (كما حدث فى تجربة إيرلندة الشمالية التى سبق عرضها) ، أو ربما كانوا أكثر استعداداً للثقة فى رأى شخص يتكلم بنفس الطريقة أو اللكنة التى يتكلمون بها . وقد يكون عدد من العوامل المختلفة قد أثر على هذه النتائج فى آنٍ

واحد، ولكن أيّـاً كان تفسير هذه النتائج، فهناك الكثير من الدلالات بالنسبة للمعلمين، إذا افترضنا أن واحداً من أهم أهدافهم هو التأثير على آراء طلابهم . (انظر كووبر وآخرين ١٩٧٧ Cooper et al الذى يقدّم نتائج مماثلة خاصة بالبالغين من ذوى الازدواج اللغوى ، الذين استمعوا إلى رسائل بعدد من اللغات المختلفة) .

ويبدو أن التحيّزات اللغوية لدى المعلمين والطلاب مصدر من أهم مصادر المشكلات الجسيمة، التى قد تؤثر على العملية التعليمية . وليس من الواضح ما ينبغى علينا أن نفعله حتى نقلل من أثر هذه المشكلات ، ولكن من الصعب أن نحقق أى شىء دون أن يدرك المعلمون إدراكاً واضحاًطبيعة تحيّزاتهم اللغوية ، ودون أن يفهموها فهماً عميقاً سواء من جانبهم أو من جانب طلابهم .

٦ - ٣ نقص «القدرة اللغوية» Linguistic incompetence

٦ - ٣ - ١ نظرية النقص : Deficit theory

يشير عنوان هذا الجزء عن قصد إلى مفهوم تشومسكى عن « القدرة » اللغوية أو الطاقة الكامنة linguistic competence ، ويعنى تشومسكى به معرفة الفرد اللغوية specifically linguistic knowledge . وقد سبق أن حاولنا فى عدد من النقاط التى طرحناها للبحث خلال هذا الكتاب ، أن نشكك فى مشروعية الفصل بين المعرفة بصفة عامة وبين المعرفة اللغوية ، ولكننا سنفترض هنا جدلاً من أجل مزيد من الفهم أن مثل هذا الفصل ممكن . ويرتبط مفهوم نقص القدرة اللغوية بفقدان أو نقص هذا النوع من المعرفة أو « القدرة » كما سمّاها تشومسكى . والحقيقة أن مثل هذا النقص يعد حقيقة واقعة بالنسبة للأطفال الرُضّع وبالنسبة للآخرين الذين لسببٍ أو لآخر لا يتحدثون بلغة بعينها : أعنى أنهم ناقصو القدرة اللغوية بالنسبة للغة بعينها. وفضلاً عن ذلك ، فإن أى فرد قد قطع شوطاً فى تعلّم لغة ثانية غير لغته الأصلية (أو فى نسيان لغته الأولى) ، يعد ناقص القدرة بالنسبة للغة بعينها .

وهناك قدر كبير من الخلاف حول الزعم بأن بعض تلاميذ المدارس (أو حتى البالغين) ناقصو القدرة من ناحية لغتهم الأُم ، إذا قورنوا بآخرين من نفس السن . وقد كثر تداول هذا الزعم بصفة خاصة عن أطفال الطبقات الدُنيا ، وهو ما يُعرف بنظرية النقص DEFICIT THEORY . ويعتقد البعض أن مثل هذه النظرية تفسّر تفسيراً جزئياً ظاهرة سوء الأداء عند هؤلاء التلاميذ فى المدارس ، فالطفل يحتاج بالضرورة إلى بعض الأدوات ، من أهمها اللغة حتى يستفيد استفادة كاملة من التعليم، ولكن الأدوات اللغوية لبعض أطفال الطبقات الدُنيا ليست على مستوى متطلبات المدرسة . ويدّعى بعض الكتّاب ادعاء يتسم بالمبالغة ، أن بعض الأطفال يأتون إلى المدارس دون لغة على وجه الاطلاق ، ودون أن تكون لديهم القدرة على طرح أسئلة أو تكوين أى نوع من الجُمَل (بيرايتر وآخرين ١٩٦٦ Bereiter et al اقتبسه لابوف ١٩٧٢ – ب : ٢٠٥) . وقد رفض كثير من علماء علم اللغة وعلماء علم اللغة الاجتماعى الذين درسوا هذه القضايا بجدية مثل هذه الآراء ، ووصفوها بأنها عبث خطير ، لأنها ليست حقيقة ، ولأنه لا يوجد أى طفل طبيعى قاصر فى قدرته اللغوية إلى هذا الحد، وهى آراء خطيرة لأنها تؤدى إلى تحويل الاهتمام عن النقائص الحقيقية فى النُظُم التعليمية وذلك بوضع اللوم فى الفشل فى العملية التعليمية على نقص قدرة الأطفال اللغوية . ويجد المهتمون بهذا الموضوع ما يحتاجونه من الدراسات لهذه القضايا فى ديتمار ، مثلاً ، (١٩٧٦ الفصل الأول والثانى والثالث) وادواردز (١٩٧٦ ، الفصل الرابع) ولابوف (١٩٧٢ – ب : الفصل الخامس) وتردجيل (١٩٧٥ – أ : الفصل الخامس).

ويمكننا أن نفسر هذه النظرة المتطرفة «لنظرية النقص» بأن كثيرا من الأطفال لايستخدمون سوى قدر ضئيل من الكلام فى فصولهم المدرسية (على عكس الموقف عندما يلعبون أو يلهون أو يعبثون) ، وأن ذلك ينطبق بصفة خاصة على أطفال الطبقات الدُنيا. فبعض الأطفال نادرا ما يستخدمون أكثر من كلمة واحدة عند الإجابة على أسئلة المعلم ، ويستنتج بعض المعلمين أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن الأطفال لايعرفون القواعد التى تمكنهم من أن يركبوا الكلمات لتصبح جملا أطول، وأن

حصيلتهم من المفردات محدودة على أية حال. والنتيجة المنطقية الوحيدة التى نصل إليها ، هى أن العيب أو النقص ينتج عن الموقف التعليمى نفسه ، وليس عن قصور معرفة الطفل اللغوية ونقص قدرته . فقد لايكون الطفل على استعداد للتعاون مع معلمه أو غير متأكد مما يتوقعه من المعلم ، ولذلك فهو يصمت عندما يطالبه معلمه بالكلام بينما هو فى الواقع يستخدم قدرا كبيرا من اللغة فى المواقف الأخرى المألوفة له، مثلا ، عندما يتعامل مع أصدقائه أو أفراد أسرته . وهناك عامل آخر قد يؤدى بالمعلم إلى المبالغة فى تجاهل قدرة الأطفال اللغوية ، وذلك بسبب ميله لتجاهل الأجزاء اللغوية غير المتواضع عليها ، والتى يستخدمها الأطفال. وعلى ذلك يكون نقص قدرة الطفل اللغوية نقصا ظاهريا لا حقيقيا ، وليس معنى ذلك أن الأطفال الذين يقلل المعلم من شأن مقدرتهم اللغوية فى الفصل لايعانون من مشكلة . فإذا كان الطفل يود أو لايستطيع التعامل الكلامى مع المعلم ، فإنه لن يستفيد من المدرسة، وإذا كانت لكنته أو لهجته غير متواضع عليها ، فإن المعلم قد ينتقص من مقدرته الأكاديمية. وعلى أية حال، ينبغى أن نشخّص مثل هذه المشكلات التشخيص السليم بعمق ودراسة كافيين قبل أن نشرع فى محاولة حلّها.

٦-٣-٢ الشفرة المحدودة والشفرة المسهبة [1] Restricted and elaborated codes :

تعتمد المناقشات الخاصة بنظرية النقص غالباً على دراسات بازيل برنستاين Bernstein من جامعة لندن ، وهذا أمر مبرر تماما رغم أن هذه الدراسات يمكن أن تقدم لنا فرضيات أكثر منطقية سنناقشها فى ٦-٤ باختصار ، قام بازيل برنستاين فى أوائل الستينات بدراسة زعم فيها أن بامكاننا أن نميز بين أسلوبين فى استخدام اللغة يُطلق على أحدهما الشفرة المسهبة، وعلى الآخر الشفرة المحدودة .

(واللذين أطلق عليهما قبل ذلك بطريقة مبهمة غامضة «اللغة الرسمية» و «لغة العوام»، أنظر على سبيل المثال برنستاين ١٩٧١ : ٦٣). و «الشفرة المسهبة»

نوع من الكلام يتميَّز بالوضوح والصراحة التامة ، ولا يفترض أية معرفة مسبقة لدى المتلقى، وغالباً ما يُقال أنه نوعية الكلام المطلوبة فى المدرسة . وعلى عكس ذلك، فإن الشفرة المحدودة غير واضحة أو صريحة تماماً، فهى تفترض قدراً هائلاً من المعرفة المشتركة بين المتحدث والمتلقى ، ويُقال أن مثل هذه الشفرة تستخدم بين الذين يعرفون بعضهم بعضا معرفة جيدة ، ويزعم البعض أن معظم أفراد الطبقات الدُنيا (وهذه الطبقات تكوِّن ٣٠٪ من السكان على حد قول برنستاين) يستخدمون هذا النوع من الشفرة دون غيرها ، بينما يستخدم معظم أفراد الطبقات العليا شفرتهم المسهبة أو المحدودة حسب الظروف والموقف . (أنظر مجموعة الدراسات الموجودة فى برنستاين ١٩٧٣) .

إلى هذا الحد ، تبدو نظرية برنستاين متفقة مع المدخل الذى سنقدِّمه فى ٦-٤ فيما بعد ، حيث سنرى أنه من المنطقى أن نميِّز بين طرق مختلفة لاستخدام اللغة ، ولكن ليس من الضرورى أن يكون مثل هذا التقسيم ثنائيا على هذا النحو الساذج . فقد يختلف أطفال الطبقات الدُنيا عن الآخرين فى تنوع قدراتهم على استخدام أشكال اللغة المختلفة بنجاح وفضلا عن ذلك أكّد برنستاين أن نظريته لاتعنى باللهجات الاجتماعية مادام المتحدث باللغة غير المتواضع عليها قد يستخدم شفرة مسهبة، بينما يستخدم المتحدث باللغة المتواضع عليها شفرة محدودة، وهذا التأكيد من جانبه هام، لأنه يزعم أن استخدام الشفرة المسهبة فى المدارس أمر لازم وضرورى ، لأنه من المهم للغاية بالنسبة للمعلم والطالب أن يكونا فى غاية الوضوح بالنسبة لمضمون الدرس هذا ، ويتفق الجميع أن العلاقة بين اللهجة المتواضع عليها والمدرسة علاقة اعتباطية بشكل أو بآخر ، فلو أن لهجة أخرى قد تمَّ التواضع عليها فى بريطانيا فإنها كانت ستقوم بدورها كوسيلة للتعليم خير قيام . ولا شك أن المتحدثين باللهجة غير المتواضع عليها يقابلون صعابا أكثر من الآخرين فى المدارس ، ولكن ذلك ناتج عن تحيِّزات المعلم اللغوية (٦-٢-٣) ، ولأن الأطفال يحتاجون لتعلم الصيغ المناسبة المتواضع عليها عندما يبدأون فى تعلم القراءة والكتابة (والكلام أيضا) فى المدرسة . ولو كان هناك جانب من الحقيقة فى نظرية النقص لأصبحتْ المشكلة مشكلة مختلفة، بل أصبحتْ

مشكلة أكثر خطورة، ذلك أن الطفل العادى من الطبقة العاملة الدُنيا لايعرف الصيغ اللغوية غير السليمة فحسب ، بل إنه لايعرف أية صيغة لغوية تماثل الصيغ المتواضع عليها ، وينبغى عليه من ثم ، أن يتعلّم المفاهيم قبل أن يحاول التعامل مع الطرق المتواضع عليها للتعبير عنها .

ويمكن أن تعد دراسات برنستاين المبكّرة نموذجاً لنظرية النقص ، وذلك لأن نظريته الخاصة بنوعى الكلام تقوده إلى الزعم بأن كلاً من التراكيب والمفردات تعد أكثر سهولة من حيث التنبؤ بها ، وذلك بسبب إمكانية تحديدها فى الشفرة المحدودة بطريقة أسهل منها فى الشفرة المسهبة (برنستاين ١٩٧١ : ١٧١) . وإذا كانت التراكيب والمفردات أكثر تحديداً فى الشفرة المحدودة عنها فى الشفرة المسهبة ، وإذا كانت معظم الطبقات العاملة الدُنيا لا تستخدم سوى الشفرة المحدودة (كما يزعم برنستاين) ، يصبح من الطبيعى، بل من المنطقى، أن تتضمن القدرة اللغوية الفعّالة للطبقات الدُنيا active competence عدداً من المفردات والتراكيب أقل مما هو متاح للطبقات العليا ، وذلك هو بالضبط ما تدعيه نظرية النقص . (ومن الضرورى الاشارة إلى أن برنستاين لم يتحدث إلاّ عن الكلام الذى يستخدمه الناس ، ولم يزعم أبداً أن أولئك الذين يستخدمون الشفرة المحدودة غيرٌ قادرين بالضرورة على فهم الشفرة المسهبة عند سماعها . وعلى ذلك ، لا نستطيع الخروج من ذلك بنتائج خاصة عن القدرة اللغوية الكامنة passive competence ، على عكس النظرة المتطرفة لنظرية النقص ، التى تزعم أن أطفال الطبقات الدُنيا لا يعرفون معانى كثير من المفردات والتعبيرات) .

وتتضمن الأدلة الاختبارية التى يقدمها برنستاين لدعم رأيه ، مجموعة هائلة من كلام الأطفال من مختلف الأعمار و (أمهاتهم) فى مواقف رسمية نسبياً . وقد يكون عدم ألفة الأطفال لمثل هذه المواقف، وكذلك اتجاهاتهم إزاء مَنْ يقوم باجراء المقابلة معهم السبب فى الاختلافات التى تمّ تسجيلها. فعندما طلب، مثلاً، من أطفال الطبقة العليا والدُنيا أن يصفوا مجموعة الحوادث الواردة فى مجموعة من الصور، قام أطفال الطبقات العليا باستخدام عدد أكبر من الصفات النعتية modifying adjective

والأسماء، بدلاً من الضمائر (هوكينز ١٩٧٣ Howkins). ولكن، عندما طلب من أطفال الطبقة العاملة الدُنيا (فى اطار دراسة مختلفة) أن يكونوا أكثر وضوحاً بعد أن شجعهم الباحث على ذلك، زادت نسبة تعقد التراكيب complexity of syntax وظهر من ذلك أن باستطاعتهم استخدام جُمَل وتراكيب أكثر تعقيداً مما يستخدمون فى المواقف العادية (لوتون ١٩٦٨ Lawton) .

ومن الصعب تأويل الأدلة الخاصة بالتراكيب syntax ، والتى قُدِمَتْ حتى هذه اللحظة ، ولكن يبدو أن هناك تبايناً كبيراً بين الأطفال فى قدرتهم النشطة active use فى معدلات استخدامهم لكل أنواع التراكيب ، ولا توجد هذه الاختلافات فقط فى المواقف الرسمية كتلك التى استخدمها برنستاين فى أبحاثه ، ولكنها تظهر أيضاً فى بعض المواقف المنزلية الأقل رسمية . وقد قام جوردون ويلز Gorden Wells من جامعة بريستول بجمع مادة علمية من خلال النوع الثانى من المواقف ، وقد استخدم فى ذلك الميكروفونات اللاسلكية التى ارتداها الأطفال فى المنزل خلال يوم بأكمله ، وهى ميكروفونات أُعدت لاستقبال كلام الآخرين لا كلام من يرتدونها فقط (ويلز ١٩٧٩ أ - ب) . وتسمح مثل هذه الوسيلة المستخدَمة فى جمع المادة العلمية للباحث بتحليل الكلام الموجّه للطفل ، وقد وجدَ ويلز أن هذا الكلام له تأثير فعّال على معدل نمو كلام الطفل وتطوره ، وبخاصة إذا كان كلام الأُم لطفلها ذا طابع اتصالى ، مثل إجابات الأُمهات على أسئلة الأطفال ، فكلما زاد كلام الأُم زاد معدل اكتساب الطفل للكلام ، وذلك إذا قسناه بعدد من المعايير القياسية parameters ، ومن بينها معدل التعقيد التراكيبى syntaxic complexity (وقد قام ويلز بترتيب ranking كلام الأُم ترتيباً دَرَجياً حسب أهميته على النحو التالى :

أسئلة تبدأ بحرف Wh ، أى أسئلة تتطلب البيان والتفسير . أسئلة إجابتها نعم أو لا ، والنوع الثالث أسئلة اجابتها نعم أو لا مع التصحيح ، أو بيان عدم وجود صلة).

وقد تكون نتائج مثل هذه الدراسة هامة ، ولكنها يجب ألاّ تؤخذ دليلاً على

صحة نظرية النقص ، وذلك للأسباب الثلاثة التالية : أولاً ، أن العنصر المحدد ليس الانتماء إلى طبقة اجتماعية بعينها ، وإنما هو نوع من التعامل المنزلى ، هذا بالرغم من أنه قد تكون هناك علاقة بين هذا النمط من التعامل وبين الطبقة الاجتماعية .

ثانيا ، أن النظرة المتطرفة « لنظرية النقص » تزعم بأن الأطفال « المحرومين لغوياً » Linguistically deprived ليست لديهم لغة ، بينما يظهر من تحليل ويلز أن ذلك غير صحيح، وتوجد فقط اختلافات بين الأطفال فى معدلات نمو واكتساب المعانى المختلفة للأفعال المساعدة auxiliary verbs المستخدَمة فى الحديث. ثالثاً، لا توجد إلى يومنا هذا دراسات حول نمو « القدرة اللغوية الكامنة » passive competence عند الأطفال (وأعنى مقدرتهم على فهم الكلام) ، وعلينا أن نفترض دائماً أن هذه المقدرة اللغوية الكامنة تسبق بكثير القدرة اللغوية الفعّالة active competence . ولو كان الأمر كذلك ، فنحن نستطيع أن نستخلص شيئاً من حقيقة أن الطفل لا يستخدم الأفعال المساعدة auxiliary verbs فى بعض معانيها ، ولا يمكننا أن نقول أنه لا يعرف هذا الجزء من التراكيب الإنكليزية . وأقصى ما نستطيع أن نقوله عندئذ ، أنه لم يتعلّم بعد كيف يستخدمه بنفسه . وفى النهاية ، يمكننا القول أن هناك أدلة على وجود اختلافات كمية فى التحكم الفعّال فى التراكيب بين الأطفال ، ولكن ذلك لا يصل أو حتى يدنو من مزاعم نظرية النقص .

وهكذا لا يتبقى أمامنا سوى حصيلة المفردات vocabulary مصدراً وحيداً للنقص اللغوى عند أطفال الطبقات الدُنيا ، حيث يحرز أطفال الطبقات الدُنيا نتائج سيئة فى اختبارات المفردات ، ولكن يمكننا أن نفسّر تلك الظاهرة فى إطار الموقف الذى تتم فيه هذه الاختبارات . وعلى أية حال ، فإن هذه الاختبارات لا تتعامل إلاّ مع مجال المفردات المتواضع عليها ، والمفردات الخاصة بالمجالات الفكرية كثيرة التداول فى المدارس . ومثل هذه الاختبارات لا تخبرنا باجمالى المفردات التى يعرفها الطفل ، وإنما تحاول دون نجاح كامل أن تعطينا فكرة عن مدى ما يعرفه فى مجال معيَّن ، خاصة إذا سلّمنا بالآثار السيئة لموقف الاختبارات . وفى الموقف الراهن للمعرفة فى مجال المفردات، يجب أن نأخذ جانب الحذر ، ولا نزعم أن هناك اختلافات ذات دلالة احصائية

بين معرفة أطفال الطبقة العليا وبين معرفة أطفال الطبقة الدُنيا .

ومن الممكن - فى الواقع - إذا نظرنا إلى التراكيب والمفردات من الناحية **الكمية** فقط ، أن نجد أن هذه الاختلافات فى صالح أطفال الطبقة الدُنيا الذين لا يؤدون أداءً جيداً فى المدارس لدرجة اعتبارهم مزدوجى اللغة . وفى بلاد مثل بريطانيا والولايات المتحدة لا يلقى المواطنون مزدوجو اللغة تقديراً لقدرتهم فى لغتهم (لغة الأقلية التى ينتمون إليها) ولغة البلد المضيف ، هذا على الرغم من التقدير الكبير الذى يحظى به كثير من المواطنين الذين يستطيعون تعلّم لغة أجنبية غير لغتهم الأُم، فغالباً ما يُنظر إلى لغة الأقلية التى يعرفها مزدوجو اللغة على أنها مصدر للمشاكل، وليست رصيداً يُضاف إلى معرفة هذا المواطن للغة البلد المضيّف . ويمكننا أن نقول نفس الشىء بخصوص أطفال الطبقة الدُنيا من ذوى «اللغة الواحدة» monolingual، الذين يمكنهم تحويل الشفرة من النوعية المدرسية إلى النوعية المستخدَمة فى المنزل (كما هو حال الكثير من الأطفال القادمين من الهند الغربية فى بريطانيا ، كما يمكننا أن نتوقع تحويل الشفرة code-switching من كل الأطفال الذين يستخدمون أية لهجة غير متواضع عليها) . وحيث إننا لا نتوقع حدوث مثل هذا التحويل فى اللهجة بين أطفال الطبقة العليا ، وحيث إنه لا توجد لأطفال الطبقة العليا أية دوافع لتعلّم لهجة غير متواضع عليها ، بالإضافة للهجتهم ، فيتبع ذلك منطقياً أن الطفل المتوسط المتحدث بلهجة غير متواضع عليها ، من المحتَمل أن يعرف وحدات لغوية أكثر من مثيله الذى يتحدث باللهجة المتواضع عليها . ويبدو أن نتائج هذه الأبحاث التى سبقت مناقشتها تتعارض مع الرأى الحالى ، ولكن ذلك التعارض قد يكون ناشئاً عن الموقف التجريبى فى حد ذاته، حيث يشعر طفل الطبقة العليا أنه يلعب فى منزله بينماطفل الطبقة الدُنيا بدا وكأنه ابتعد عن البيئة التى يستخدم فيها الجزئيات اللغوية التى يألَفها ويألف استخدامها.

وخلاصة القول ، أن كل طفل طبيعى يأتى إلى المدرسة ولديه كمية ضخمة من اللغة، أعنى كمية ضخمة من المعرفة اللغوية. أما مفهوم الطفل « المحروم لغوياً » والمتصل بنظرية النقص، فهو مفهوم من المفاهيم المرتبطة بالنموذج المقولب عند العوام،

وهو يستند إلى تأويل خاطىء لظاهرة وجود بعض الأطفال الذين لا يتميَّزون بالطلاقة فى المدرسة . ويمكننا تلخيص المشاكل التى تواجهها المدرسة كالتالى :

(١) كيف نعلِّم المعلمين أن يأخذوا لغة أولئك الأطفال بجدية أكثر من ناحية الكم والنوعية (وهنا نأتى إلى مشكلة التحيّز اللغوى) .

(٢) إذا كان من الضرورى حقاً أن نعلِّم اللغة المتواضع عليها (أو ربما نصرُّ على استخدامها) فى المدارس ، فكيف يمكننا أن نستغل لغة الطفل الفعلية كأساس نبنى عليه دون أن نبدو وكأننا نرفضها ونرفض ثقافته المنزلية فى آنٍ واحد .

٦-٤ ضعف القدرة الاتصالية Communicative incompetence :

٦-٤-١ القدرة الاتصالية Communicative competence :

يتعارض مصطلح « ضعف القدرة الاتصالية » مع مصطلح « القدرة الاتصالية » الذى وضعه ديل هايمز Dell Hymes (١٩٧١ - ب وقارن ذلك كامبل وويلز ١٩٧٠ Campbell & Wales اللذين يستخدمان المصطلح بنفس المعنى) . والمقدرة الاتصالية هى المعرفة التى يحتاجها المتحدث أو المتلقى ، ولكنها أوسع بكثير فى نطاقها وأشمل فى معناها من « القدرة اللغوية » فى علم اللغة التشومسكية Chomskyan linguistics ، فهى تتضمن ما هو أشمل من المعرفة بالصيغ اللغوية فحسب ، وهى معرفتنا أو ربما «قدرتنا» على استخدام الصيغ اللغوية بطريقة مناسبة أو ملائمة للموقف الاتصالى . وبالتالى ، فإن غاية دارسى علم اللغة فيما يقول هايمز يجب أن تكون كالآتى :

> تفسير حقيقة أن الطفل الطبيعى يكتسب المعرفة بالتراكيب، وهى ليست المعرفة بأجرومية هذه التراكيب، بل بالاستخدام المناسب لهذه التراكيب أيضاً. فالطفل أو الطفلة يكتسب مقدرته

الاتصالية الخاصة بالجوانب الآتية ، وهى : متى يتكلّم ، ومتى لا يتكلّم ، وما الذى يتكلّم عنه ، ومَنْ الذى يتكلّم عنه ، وأين ، وكيف يتكلّم عنه . أى بايجاز شديد يصبح الطفل قادراً على تملّك قائمة هائلة من « الأفعال الكلامية » speech acts ، التى يمكن أن يضعها موضع التنفيذ ، ويمكنه أيضاً الاشتراك فى كل « الأحداث الكلامية » speech events ، وأن يقيّم ما يحققه الآخرون كلامياً . وفضلاً عن ذلك ، بعد هذا النوع من «المقدرة» جزءاً مكمّلاً من اتجاهاته وقيَمه ودوافعه نحو اللغة ، بما فيها من ملامح وخصائص واستخدامات ، وهو جزء لا يتجزأ من « المقدرة » وجزء من موقفه تجاه التداخل ما بين اللغة والقواعد الأخرى للسلوك الاتصالى (هايمز ١٩٧١ - ب) .

وإذا كان مصطلح « القدرة الاتصالية » يشمل كل هذه الأنواع من القدرات التى تمثّل الكلام الناجح ، فإنه يجب أن يتضمن كل ما فى « المقدرة اللغوية » بالاضافة إلى مجموعة الحقائق التى تقع فى إطار علم « البراغماطيقا » pragmatics (وهى القواعد الخاصة باستخدام الوحدات اللغوية فى سياق معين) ، وينبغى أن يرتبط أيضاً بالاتجاهات والقيم والدوافع التى تجاهلها علم اللغة إلى حد بعيد حتى فى دراسته للبراغماطيقا .

أما بالنسبة لعلم اللغة الأكاديمى ، فإن السؤال الرئيسى عن نوعى « القدرة » يكون ما إذا كان هناك شيء اسمه «القدرة اللغوية » linguistic competence ، يمكن فصله عن «المقدرة الاتصالية » communicative competence ودراسته بمنأى عنه . ويشعر بعض علماء علم اللغة أن ذلك ممكن ، ويشيرون إلى منجزات التراث البُنيوى structuralist tradition فى علم اللغة ، بما فيه النحو التوليدى والتحويلى باعتبارهما دلائل على أن مثل هذا الفصل ليس ممكناً فقط ، بل مفيداً أيضاً . ويشعر آخرون كثيرون أن مفهوم « القدرة اللغوية » مفهوم غير واقعى . وأن التقدم الحقيقى

فى علم اللغة لن يصبح ممكناً دون إعادة الربط بين دراسة الصيغ اللغوية وبين طرق استخدامها. ويشير هؤلاء العلماء مثلاً، إلى الصعوبات التى تظهر دائماً والتى تواجهها عندما نود أن نحدد ما إذا كانت جملة بعينها محكمة التكوين well-formed أم غير محكمة التكوين ، أعنى ما إذا كان هذا التركيب جزءاً من اللغة التى نريد وصفها . ويبدو أن الاتجاه المعاصر فى علم اللغة يرمى إلى كسر الحواجز بين بُنية اللغة واستخداماتها ، ولذلك يبدو أن وجهة النظر الثانية ستسود علم اللغة فى الحقبة التالية، نعنى الرأى القائل بأنه ليس هناك تمييز حقيقى بين المعرفة بالصيغ وبين استخداماتها.

وأيّاً كانت نتيجة هذا الخلاف الخاص ، فليس هناك شك فى حقيقة المعرفة التى يُطلق عليها القدرة الاتصالية أو فى أهميتها كعنصر محدد للسلوك الكلامى . وتعد المجموعة الهائلة من « الخطط » schemata أو « البُنيات المجردة » abstract structures من أهم مكونات قدرة الفرد الاتصالية ، وهى تشمل التعامل مع أنواع معينة من المواقف ، مثل كيفية إلقاء نكتة أو تقديم الناس لبعضهم البعض أو شراء تذكرة فى المركبات العامة ، أو وصف الطريق من (أ) إلى (ب) ، أو الاجابة على أسئلة اختبار فى علم اللغة الاجتماعى ، أو كيفية إخبار الناس بأخبار سيئة ، أو إلقاء محاضرة فى علم التراكيب النظرى ، وما إلى ذلك . (انظر شانك وابلسون Schank & Abelson ١٩٧٧ ، اللذين يقدمان مناقشة شيقة ودراسة رائعة لمثل هذه القضايا ، ولكنهما يستخدمان كلمة « نصّ » script بدلاً ، من كلمة خطة schemata) أى أن أية خطة للتعامل مع نوعٍ معيَّن من المواقف تعتمد أساساً على استخدام كل من خبرات الفرد الشخصية (مثل لقد استعملت ذلك فى المرة الأخيرة ، وقد قام بوظيفته على الوجه الأكمل فلأستخدمه مرة أخرى) ، وسلوك الآخرين (يمكن للآخرين أن يفعلوا ذلك أو غالباً ما يوصى الآخرون بفعل ذلك بهذه الطريقة، ومن ثَمَّ سأقوم بذلك بنفس الطريقة أيضاً) . وفى أية حالة من الأحوال ، ينبغى أن نتوقع اختلافات كبيرة بين الناس فى الخطط التى يستخدمونها للتعامل مع مواقف بعينها وفى نوعية المواقف والخطط القائمة لديهم للتعامل معها . فلو كان لدى شخص ما خطة معيَّنة للتعامل مع

مشكلة بعينها ، فإن حلّ هذه المشكلة سيكون بالنسبة له أسهل من شخص آخر يحاول أن يبدأ من المبادىء الأولى ، وينبغى علينا أن نتوقع بين الناس تفاوتاً فى مقدرتهم على حلِّ مشاكل بعينها ، وهذا التفاوت يعكس مقدار تجاربهم السابقة ، ولا يعكس تباين قدراتهم الذكائية . فالشخص حديث العهد غير الماهر فى أعمال الديكور ، سيحتاج إلى قدرٍ كبيرٍ جداً من الذكاء حتى يقوم بمهمته بنفس درجة أداء عامل الديكور ذى الخبرة فى التعامل مع ورق الحائط ، وليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن السلوك اللغوى يختلف عن أى نوع من الأنشطة الأخرى من هذه الناحية .

أما بالنسبة لأطفال المدارس ، فليس من الصعب تصور أن بعضهم يحمل معه إلى المدرسة مجموعة من الخطط الأكثر نضجاً عن خطط الآخرين كما سنرى فى (٦-٤-٢) ، وأن ذلك بالفعل هو القضية . وهنا يظهر سؤال هام وهو : إذا كانت هذه الخطط تعكس خبرات ، أفليس من الممكن أن تقوم المدارس بتوفير الخبرات المناسبة لكل طفل ، والتى قد تساعده على تكوين جميع أنواع الخطط اللازمة للنجاح فى المدرسة ؟ وبذلك تسهم المدرسة فى المساعدة على التخفيف من حدة الاختلافات بين الأطفال من بيئات مختلفة ، بقيامها بفرض مؤثرات أكثر قوة عليهم . ويعتقد معظم رجال التعليم أن المدرسة تؤدى إلى زيادة التفاوت بين الأطفال بدلاً من تقليله . وقبل أن نحاول تفسير مثل هذه الظاهرة ، ينبغى أن نذكر أولاً بعض الدراسات التى توضح التأثير العميق للمدرسة على تكوين الخطط لدى الأطفال.

وهناك مجموعة كبيرة من الدراسات أُجريت للمقارنة بين أُناس من مختلف الثقافات من ناحية « أسلوبهم فى التفكير » ، ويبدو أن النتائج تشير إلى أن أفراد المجتمعات البدائية نسبياً يميلون إلى التفكير بأسلوب مختلف عن أولئك الذين يعيشون فى المجتمعات الأكثر تقدماً. وقد عرضت سيلفيا سكريبنر (١٩٧٧) Sylvia Scribner عدداً كبيراً من نتائج الأبحاث الخاصة بالقدرة فى المجتمعات البدائية النائية على التفكير العقلانى ، والتى تمتْ بواسطة مناهج القياس المنطقى التقليدية syllogism ، وقد قررت سيلفيا أن نتائج هذه الأبحاث تبدو لأول وهلة داعمة لهذا الرأى . وقد قامت سيلفيا بتقديم المعضلة التالية إلى عدد من أفراد القبائل

الريفية فى ليبريا (غرب أفريقيا) :

كل مَنْ يملك مسكناً يدفع ضريبة عقار
بويما لا يدفع ضريبة عقار
فهل يملك بويما مسكنا ؟

ولم يستطع كثيرون منهم ، بما فيهم البالغون ، حلّ المعضلة ، وحتى عندما تمكنوا من حلّها ، لم يستطيعوا تفسير كيفية الوصول إلى النتائج التى وصلوا إليها . فعلى سبيل المثال ، فسَّر بعض الناس الأمر على أن بويما لم يكن لديه نقود ليدفع ضريبة العقار ، ولذلك فهو لا يملك النقود التى تمكّنه من أن يملك مسكناً أيضاً .

وقد قدمت مثل هذه المعضلات إلى أفراد فى وسط آسيا وفى المكسيك ، وأدت إلى نفس النتائج . وكانت سكريبنر قد فسَّرت ذلك استناداً إلى التباين القائم بين الذين ذهبوا إلى المدارس وبين الذين لم يذهبوا ، إذ يبدو أن التفكير « غير المنطقى » من الصفات الخاصة بمَنْ لم يتعلّموا فى المدارس ، بينما يصبح أداء من تعلّم منهم فى المدارس مماثلاً لأداء الأفراد فى المجتمعات المتقدمة تكنولوجياً . وعندما طلبت الباحثة من الناس فى إطار دراستها أن يبرروا النتائج التى وصلوا إليها وَجَدَتْ أن هناك نوعين من التبريرات : تبريراً من النوع « النظرى » يستند إلى الحقائق الواردة فى معضلة القياس المنطقى ، وتبريراً من النوع « التجريبى » ، الذى يستند إلى معرفة الفرد بالعالم من حوله . وعندما توفرت لديها نتائج يمكن مقارنتها ، اتضح أن هناك ميلاً واضحاً من جانب مَنْ لم يتعلّموا فى المدارس إلى أن يقدموا تبريرات أقل « نظرية » من التبريرات التى قدمها من تعلموا فى المدارس. وهذه نتيجة ذات أهمية خاصة، وبخاصة إذا وضعنا فى اعتبارنا أن التعليم المدرسى فى كل الدراسات التى عرضنا لها والحالات التى أشرنا إليها كان تعليماً جامداً يستند إلى الاستظهار إلى جانب أنه لم يكن تعليماً مستمراً . ولم تحظَ الحالات التى دُرِسَتْ بأكثر من عامين دراسيين .

وتحاول سكريبنر من خلال تفسيرها لهذه الاختلافات الواسعة بين مَنْ تعلّموا ومَن لم يتعلّموا ، القول بأن المدرسة تعلّم الطفل خطة معيّنة schema « للخطاب

المنطقى » logical discourse ، حيث أنها تعلّم الطفل ألاّ يلجأ إلى استخدام معرفته القائمة أو « نماذجه الأصول » . وهذا هو نوع الخطط الذى نحتاجه لحل معضلات مثل « لو كان لدى جونى تفاحة حمراء واحدة ولدى مارى تفاحة حمراء واحدة، فكم تفاحة حمراء لدى جونى ومارى معاً ؟ » وإذا كانت المدارس قادرة على تعليم الأطفال هذا النوع من الخطط، فلماذا يصبح من الصعب عليها أن تعلّم خططاً أخرى للأطفال الذين لا يمتلكون مثل هذه الخطط ؟ قبل أن نحاول الاجابة على هذا السؤال ، من المهم أن نشير إلى أن سكريبنر لا تزعم أن كل من تعلّموا فى المدارس لديهم كل الخطط الضرورية ، ولكنها تقول أن هذه الخطط كانت أكثر شيوعاً بين مَنْ ذهبوا إلى المدارس ، وعلى ذلك فشرط التعليم ليس إلاّ عاملاً واحداً فقط من مجموع العوامل التى تساعد على نمو هذه الخطط . ولا نزال نحتاج إلى تفسيرٍ لظاهرة أن بعض الأطفال يتعلّمون الخطط من المدارس ، فى حين أن بعض الأطفال لا يتعلّمونها .

ومن المحتمل أن بعض أولئك الأطفال لا يرغبون فى تعلّم هذه الخطط من المدرسة ، لنفس الأسباب التى تدفعهم لعدم تعلّم الكلام بنفس أسلوب معلميهم . فلو أحسّ أحد أفراد المجموعات التابعة subordinate group أنه لن يستطيع تبنّى لغة المجموعة المسيطرة dominant group فى المجتمع إلاّ على حساب شعوره بالولاء لمجموعته ، فإنه بكل تأكيد سيتجنّب فعل ذلك . (انظر الأدلة المقدمة على ذلك فى جيلز وبورهيس وتايلور ١٩٧٧ Giles, Bourhis & Tylor) . وقد استخدم مصطلح « الازدواجية اللغوية الانتقاصية » subtractive bilingualism ، للدلالة على الموقف الذى يتجنّب فيه مثل هؤلاء الأفراد تبنّى لغة المجموعة السائدة ، لأن اللغة الجديدة قد « تُنْقِص » من لغتهم الحالية (لامبرت ١٩٧٤ Lambert) . فقد ينظر الناس إلى اللغة الثانية كنوع من التهديد للغة الأولى ، عندما تعد الثانية أكثر تفوقاً على الأولى بشكل عام وبالتالى ، فإن مجرد استخدام اللغة الثانية يعد نوعاً من الاعتراف الضمنى بتفوقها . ومن المحتمل أن ما ينطبق على اللغات ينطبق أيضاً على خطط السلوك schemata for behaviour ، ومن بينها السلوك اللغوى . فلو أن الطفل شعر بأن الخطط المدرسية تهدد الخطط التى يقرنها بمجموعته ، فإنه قد يقوم

بمقاومة حقيقية لأية محاولة لتعليمه هذه الخطط . وينبغى علينا أن نؤكد أن هذه مجرد فرضية لم تختبر بعد ، ولكنها قد تبدو فرضية معقولة للغاية لو أننا أخذنا فى الاعتبار الصعوبات التى تواجهها المدارس فى إقناع بعض الأطفال بقبول بعض الخطط الخاصة بالمدرسة مثل الخطط الخاصة بالتحدث أثناء الدرس أو فى الفصل .

وسنركّز فيما تبقى من ٦-٤ على « القدرة الاتصالية » بالنسبة للمدارس وتلاميذ المدارس ، ولكن أهمية هذا المفهوم لا تنتهى بالطبع بترك المدرسة . فالخبرات اليومية تؤكد الرأى القائل بأن « القدرة الاتصالية » تعد أحد العوامل الرئيسة فى تحديد مقدار نجاح الفرد فى المجتمع . كما يقول جون وجمبرز John & Gumperz فى النصّ التالى (١٩٧٧) :

> « الاتصال قوة فى مجتمعات ما بعد الصناعة المعاصرة. فالقدرة على التحكّم فى حياتنا الشخصية فى كل مجالات الحياة، تعتمد على القدرة على الاتصال المؤثر، فالحياة الخاصة ... تتطلّب التعامل مع الوكالات والهيئات العامة والمقدرة المؤثرة على إدارة الأعمال. فالعمل والإدارة العامة نتيجتان للمقدرة على تبرير الآراء وتسوية الخلافات ».

٦ - ٤ - ٢ الشفرة المحدودة والشفرة المسهبة :[٢]

لقد سبق أن رفضنا الزعم الضمنى فى آراء بازيل برنستاين ، القائل بأن الناس الذين يستخدمون الشفرة المحدودة بصفة دائمة ينبغى أن يعرفوا قدراً من المفردات والتعبيرات أقل من هؤلاء الذين يمكنهم استخدام كل من الشفرتين المحدودة والمسهبة . ولكننا سبق أن قبلنا أيضاً ، من ناحية المبدأ على الأقل ، الرأى القائل بأن هناك طرقاً مختلفة لاستخدام اللغة ، تتوقف على درجة تأكيدنا لمدى الوضوح explicitness الذى نبتغيه فى الكلام (٦-٣) . ويمكننا أن ننظر إلى الرأى السابق على أنه جزء من القدرة الاتصالية ، أعنى أن بعض الناس لديهم القدرة على الاسهاب نسبياً عندما يكون ذلك ضرورياً ، ولكنهم يستطيعون أيضاً استخدام الشفرة المحدودة فى ظروف أخرى . ويبدو أن ذلك جزء هام من القدرة الاتصالية ، وهو هذا النوع من المعرفة الذى يمكننا أن نتركه للقارىء أو المتلقى كى يستخلصه بنفسه ، بالرغم من أن هناك كثيراً من أنواع المعرفة الأخرى تجعلنا نتحدث بطرق مختلفة فى سياقات مختلفة . وبالتالى ، يمكننا أن ننظر إلى نظرية الشفرة المسهبة والمحدودة على أنها جزء صغير من النظرية الكاملة للمقدرة الاتصالية .

وليست أهمية هذه النظرية من منظور اللامساواة الاجتماعى فى أن الناس يستخدمون درجات متباينة من الوضوح تحت مختلف الظروف ، بل فى أن مختلف الناس قد يختلفون فى درجة وضوح كلامهم تحت نفس الظروف أو فى نفس المواقف . فقد زعم برنستاين بصفة خاصة ، أن أطفال الطبقات الدُنيا غالباً ما يكونون أقل قَدراً من الوضوح من أطفال الطبقات العليا تحت نفس الظروف . وتتشابه هذه الظروف إلى حدٍ كبير مع ظروف المواقف الدراسية ، حيث يكون الكلام الواضح مطلوباً داخل المدرسة . وقد تُفَسِّر هذه الفرضية جزئياً بعض المشكلات التى قد يقابلها أطفال الطبقة الدُنيا فى المدارس .

ويبدو أن أدلة وجود مثل هذه الاختلافات بين الأطفال من طبقات اجتماعية مختلفة كثيرة ومقنعة للغاية . فقد عرض بعض الدارسين فى إحدى التجارب فى

الولايات المتحدة صوراً لعددٍ كبيرٍ من الحيوانات على مجموعة من أطفال الطبقات المتوسطة والدُنيا فى العاشرة من عمرهم . وقد اختلفت صورة كل حيوان عن الحيوانات الأخرى فى أربع صفات (وهى على النحو التالى : اسم الحيوان ، عدد النقط المنقط بها ، إذا ما كان الحيوان واقفاً أو راقداً ، وموضع رأسه) . وطُلِبَ من كل طفل أن يصف حيواناً بعينه من هذه الصور بطريقة تميِّزه عن كل الحيوانات الأخرى لشخصٍ لا يعرف الحيوان الذى وقع اختيار الطفل عليه للوصف . وعند الضرورة ، طُلِبَ من الطفل أن يعطى معلومات أكثر من التى سبق أن قدمها ، ويبدو أن أطفال الطبقات الدُنيا قد احتاجوا فى المتوسط إلى ضعف عدد الأسئلة التى احتاجها أطفال الطبقات المتوسطة ، ويظهر من ذلك أن أطفال الطبقة المتوسطة وَجَدُوا أنه من الأيسر ومن الأكثر طبيعية أن يكونوا فى وصفهم أكثر وضوحاً من أطفال الطبقات الدُنيا (هيدر وكازدين وبراون ١٩٦٨ Heider & Cazden & Brown وقد أُقتُبِسَتْ هذه التجربة فى كازدين ١٩٧٠ : ٩٢) .

ويتضمن الخلاف بين الشفرة المحدودة والشفرة المسهبة كمية المعلومات التى يقدِّمها المتحدث ، أعنى أن الشفرة المسهبة لا تتجنَّب إعطاء قَدْر قليل من المعلومات فحسب ، بل تتجنَّب أيضاً إعطاء معلومات أكثر من اللازم ، وهى من الصفات المرغوب فيها من المنظور المدرسى (وسنعود لتفسير ذلك فيما بعد) . والاستدلال على هذه الآراء موجود فى دراسة أجراها برنستاين ، حيث طَلَب من الأطفال القيام بوصف سلسلة من الأحداث فى مجموعة من الصور . وعند إحدى الصور طَلَبَ من الأطفال أن يقولوا رأيهم فيما يقوله الرجل المرسوم فى الصورة (وكان الرجل قد ظهر وهو يعنِّف بعض الأطفال الذين كسروا زجاج نافذة) . وكان الخلاف بين أطفال الطبقة المتوسطة والدُنيا فى هذه الحالة معاكساً للخلاف الذى ظهر فى التجربة السابقة ، حيث إن أطفال الطبقة المتوسطة رفضوا الإجابة على هذا السؤال أو قالوا « لا ندرى » ، بينما حاول أطفال الطبقة الدُنيا تخمين ما يقوله الرجل . ويبدو من هذا السلوك أن أطفال الطبقة المتوسطة قد تأثروا إلى حدٍ كبير بمبدأ جرايس (١٩٧٥) Grice's principle ، وهو المبدأ القائل بأننا لا يجب أن نقول شيئاً لا نملك دليلاً على صحته

(ترنر وبيكفانس ١٩٧٣ Turner & Pickvance) ، وقد يكون التفسير البديل لذلك بالطبع ، أن أطفال الطبقة الدُنيا أكثر ألفة بمواقف يعنِّفهم فيها رجال غاضبون .

وربما تكون أهم الجوانب فى دراسات برنستاين ، أنه يقدِّم تفسيراً لمثل هذا التباين من وحى خبرات الطفل باللغة فى بيته . فهو يزعم أن الشفرة المسهبة تُستخدم فى منازل الطبقات الدُنيا بدرجة أقل من استخدامها فى منازل الطبقات المتوسطة ، ويمكن القول على الأقل أن أُمهات أطفال الطبقة الدُنيا نادراً ما يستخدمن الشفرة المسهبة عند التحدث لأطفالهن . ويعد ذلك جزءاً صغيراً من رأى أوسع وأشمل ، وهو أن اللغة تُستخدم كأداة لاكتساب السلوك الاجتماعى instrument of socialisation من قبل الأُسر من مختلف الطبقات الاجتماعية ، ويؤكد ذلك ويوضّحه ما قالته الأُمهات للباحثين الذين أجروا معهن مقابلات عن استجاباتهم المحتَمَلة لبعض المواقف الفرضية . وعلينا الآن أن نقدِّم بعض الأدلة المباشرة (هيس وشيبمان ١٩٦٥ Hess & Shipman منصوص عليها فى روبينسون ١٩٧٢ : ١٨٣) ، وهى أدلة مأخوذة من دراسة طُلبَ فيها من الأُمهات أن يؤدين مهام معيَّنة مع أطفالهن ، وتتطلب كل هذه المهام استخدام اللغة . ومن أهم هذه المهام ، مهمة طُلبَ فيها من الأُم أن ترسم نمطاً معيَّناً على لعبة تُعرف باسم Etch-a-sketch ، وهى تتكوَّن من قلم معيَّن يتحكَّم فى كل بُعد من أبعاده مفتاح معيَّن ، وطُلبَ من الأُم أن تجعل طفلها يتحكَّم بأحد المفاتيح بينما تتحكَّم هى بالمفتاح الآخر ، وكان على الأُم والطفل ، أن ينسخا معاً مجموعة من الأنماط البسيطة . واتضح أن هناك اختلافاً واضحاً بين أُمهات الطبقة المتوسطة وأُمهات الطبقة الدُنيا فى طريقة كلامهنّ فى إرشاد أطفالهنّ وكمِّه . فلم تقم أُمهات الطبقة المتوسطة بإعطاء أطفالهن إرشادات أكثر وضوحاً من أُمهات الطبقة الدُنيا فحسب ، بل قمن أيضاً بتوضيح قدر أكبر من الأنماط النموذجية التى طُلبَ منهن أن ينسخنها مع أطفالهن ، بينما كانت أكثر إرشادات أُمهات الطبقات الدُنيا وضوحاً هى « أدر المفتاح » فحسب . ولعل أهم نتائج هذه الدراسة تتضح فى أن الاختلافات بين أُمهات الطبقة الدُنيا والطبقة المتوسطة قد تجاوزتْ الاختلافات اللغوية ، الأمر الذى من شأنه أن يوضِّح لنا أنه من المضلل أن نلتفت إلى القدرة الاتصالية التى

تتجاوز « القدرة اللغوية » البحتة .

والسؤال الآن هو، لماذا توجد مثل هذه الاختلافات بين أُمهات الطبقة المتوسطة وأُمهات الطبقة الدُنيا فى أنماطهن الاتصالية ؟ ويرجع برنستاين ذلك إلى الاختلاف فى أسلوب حياتهن ، ومن بين هذه الاختلافات ، مثلاً ، أن الناس من الطبقات الدُنيا وخاصة من بين الطبقات العمالية التقليدية يقابلون عدداً أقل من الغرباء ، ولذلك فإنهم يستطيعون التسليم بقدر كبير من المعرفة المشتركة مع مَنْ يقابلونهم . ويمكن أيضاً تفسير بعض هذه الاختلافات ، على حد قوله ، بالرجوع إلى البُنية العامة للمجتمع ، ولكن ذلك يتجاوز بنا حدود هذا الكتاب (انظر مثلاً برنستاين ١٩٧٠ : ٣٦ وادواردز Edwards ١٩٧٦ : ١٠٧) .

وترتكز القيمة الحقيقية لنظرية برنستاين فى اهتمامه بالمقدرات **الاتصالية** للأطفال (ولكن أهمية آرائه قد تأثرتْ لسوء حظه بمزاعمه عن القصور فى استخدام التعبيرات والمفردات - انظر ٦-٣-٢) ، وأنه قد حاول أيضاً أن يفسِّر هذه الاختلافات فى إطار نظرية متكاملة للبُنية الاجتماعية . وعلى أية حال ، هناك عيوب ومواطن ضعف جسيمة فى نظرية الشفرة المسهبة والشفرة المحدودة وعلاقتهما بالبُنية الاجتماعية ، الأمر الذى يجعلها نظرية تفتقر إلى أدلة الاثبات .

إن المفاهيم التى تمثّلها مصطلحات « المسهب » و « المحدود » ، مفاهيم مبهمة للغاية حتى أنه يصعب تحديد أمثلة تمثّل كُلاً من هذين المفهومين (ادواردز ١٩٧٦ : ٩٢ Edwards) . فهذه المفاهيم تفترض مسبقاً وجود اختلاف واضح بين الكلام الواضح والكلام الغامض ، فى حين أن كل كلام يترك للمتلقى دائماً فرصة لإضافة بعض المعلومات . ولنضرب مثلاً بسيطاً على ذلك ، فكلما استخدمنا أداة تعريف تركنا للقارىء أو المتلقى الفرصة ليكتشف بنفسه أية كينونة تشير إليها هذه الأداة كما هو الحال بالنسبة لأداة التعريف فى كلمة « المتلقى » فى التركيب السابق . وفضلاً عن ذلك ، فإن الخبرات الشائعة بالنسبة للمحاضرين الجامعيين هى أن الطلبة وخاصة طلبة السنوات الأولى ، غالباً ما يكونون غير واضحين فى طرحهم لبعض خطوات الجدل

الذين هم بصدد طرحه . ولا نستطيع أن نعتبر ذلك مثالاً ودليلاً على أنهم يستخدمون شفرة محدودة . فقد يدل ذلك على أنهم لم يتعلّموا بعد الوضوح فى ذكر خطوات الجدل كما يَنبغى أن يفعلوا . ويبدو من ذلك إذن ، أن الاختلاف بين الشفرتين مسألة درجة، وأن القدرة على استخدام الشفرة المسهَبة فى سياق بعينه لا تضمن حُسْن استخدام تلك الشفرة فى أى سياق آخر ، أعنى بذلك أن الشفرة المسهَبَة ليست معياراً عاماً أو اتجاهاً عاماً فى الاتصال كما يلمّح برنستاين أحياناً ، ولكنها مهارة خاصة بمجموعة محددة من المواقف .

وهناك أيضاً نوع من التبسيط المخلّ فى النظرية الأساسية (بالرغم من أن تفسيرات هذه الظاهرة غاية فى التعقيد) ، ذلك أنها تعطى انطباعاً أن المشاكل الاتصالية الخاصة بأطفال الطبقة الدُنيا يمكن فهمها وتشخيصها فى إطار ثنائية ساذجة، سواء أكانت مقيَّدة بالشفرة المحدودة أو غير مقيَّدة . ويبدو أن الاحتمال الأقرب هو أن أطفال الطبقة الدُنيا يعانون فى المدارس من مجموعة معقَّدة ومركّبة من المشكلات المتداخلة ترتبط كل منها بالأخرى ، وربما تكون كل من هذه المشكلات محددة للغاية. ومن أمثلة المشكلات الاتصالية المحددة ، وهى مشكلة قد يعانى منها معظم القراء، هى مشكلة التحدث فى موقف لا يتحقق فيه أى نوع من التغذية المرتدة feedback من جانب المتلقين ، مثلما يحدث عندما نملى خطاباً على جهاز تسجيل أو عند تسجيل رسائل موجهة للأصدقاء على نفس الجهاز أو ربما عند تسجيل رسالة صوتية لمتلقين مجهولين على هاتف مزوَّد بجهاز أوتوماتيكى للرد على المشتركين . ومن المنطقى أن نتصوَّر أن طفل الطبقات الدُنيا يواجه مجموعة من هذه المشكلات عندما يذهب إلى المدرسة (وليس أقلها شأناً مشكلة الدوافع المركّبة complex motivation التى سبق ذكرها) ، ولا يواجه مشكلة واحدة شاملة وهى مشكلة تعلّم كيف يتوخى الوضوح بصفة دائمة .

وهناك موطن ضعف آخر فى مدخل برنستاين الاجتماعى . فهو يقوم بوصف كل من الطبقتين الدُنيا والمتوسطة فى المجتمعات فى إطار نماذج مقولَبة ، وأحياناً بصورة مبالَغ فيها دون الالتفات إلى العديد من الاختلافات القائمة فيما يسمى تجاوزاً

بـ « الطبقات الدُنيا » (روزين ١٩٧٢ Rosen) . وفضلاً عن ذلك ، فإن مفهوم الطبقة الاجتماعية فى حد ذاته مفهوم إشكالى ، وبالتالى ينبغى علينا أن نتوخى الحذر بالنسبة للتعميمات التى تُطلق على طبقة اجتماعية بعينها ، وخاصة عندما تدل هذه التعميمات على جماعات مختلفة فى أُمم مختلفة (مثل بريطانيا والولايات المتحدة) . ويمكننا أن نوجه نفس النوع من النقد للابوف الذى كان من النقاد الرئيسيين للدراسات التى قام بها برنستاين . (لابوف ١٩٧٢ - ب : ٢٠١ - ٢٤٠).

٦ - ٤ - ٣ القدرة الاتصالية لدى أطفال الطبقات الدُنيا :

يبدو أنه من المعقول أن نقول أن لدى بعض الناس « نقصاً معيَّناً » فى قدراتهم التواصلية وخاصة بالنسبة لأنواع معيَّنة من المواقف ، ولكننا قد لا نرى فى ذلك شيئاً غير طبيعى وخاصة أن مثل هذا النقص يمكن أن يكون منتشراً فى كل قطاعات المجتمع ، ذلك أن كلاً منا يعانى نوعاً معيَّناً من النقص . ولو أننى أفضل استخدام كلمة « فجوات » gaps على كلمة نقائص ، فهى مصطلح أفضل (كازدين ١٩٧٠ Cazden) . فبعض الناس لديهم « فجوات » عند التعامل مع المواقف الرسمية أو التجريبية أو المدرسية والتى ينبغى أن يكونوا واضحين فيها ، أما الآخرون فقد يكون لديهم فجوات بالنسبة للمواقف التى يجابههم فيها عميل غاضب ، وهكذا دواليك . وبما أننا قد سبق أن ناقشنا بعض الأشياء التى لا يستطيع أطفال الطبقات الدُنيا القيام بها خير قيام ، فَمِنَ العدل أن ننظر الآن إلى الأشياء التى يجيدون القيام بها .

ولعل أفضل تسجيل وتوثيق لكلام الطبقات الدُنيا ، مأخوذ عن الدراسات التى أُجريتْ عن الزنوج الأمريكيين . وقد اتضح من هذه الدراسات ، أن أطفال الطبقات الدُنيا من الزنوج (والبالغين أيضاً) لديهم مجموعة متكاملة وكافية من النشاط الكلامى المحدَّد لثقافةٍ بعينها ، والكثير من هذه الأنشطة الكلامية تعبِّر عن «التنفس» بينهم وهى تقوم بوظيفة تحديد مكانة المتحدث بين أقرانه peers . ويُستخدم المصطلح rapping (وهو شبيه بمصطلح القافية بالعامية) للدلالة على نوع معيَّن من الكلام

يتميّز بالطلاقة والانطلاق والحيوية ، وهو أسلوب شخصى للغاية . ويعد ذلك النوع من الكلام وسيلة لخلق انطباع حسن عند المتلقى عندما تقابله لأول مرة ، رغم أنه قد يتحولّ إلى « قافية » تنافسية فعلية حيّة (برلينج ١٩٧٠ : ١٥٦) . وواحد من أنجح القائمين بهذا اللون من فنون الكلام rapping هو راب براون Rap Brown، الزعيم الزنجى الذى كتب التالى فى سيرته الذاتية :

> يلتفّ فى بعض الأحيان ٤٠ إلى ٥٠ فرداً حول المتنافسين ويحدد الفائز باستجاباتهم لِما يُقال ، فلو استغرقوا فى الضحك نتيجة لِما قلته ، فعليك أن تعرف أنك قد سجلّت نقطة على منافسك . وهى مسألة صعبة للغاية على مَنْ يتلقى السخرية . ونادراً ما يحدث ذلك لى ، لذلك اطلقوا علىّ اسم « راب » براون لأننى أستطيع أن أقوم بهذا الفن من فنون الكلام خير قيام. (منصوص عليها فى ابراهمز ١٩٧٤ : ٢٤٤ Abrahams) .

ومن الواضح أن المقدرة على الكلام تأخذ نفس القدر من الأهمية فى مثل هذا المجتمع ، مثلما تلقى فى المجتمعات الأكاديمية فى الطبقة المتوسطة ، والاختلاف الوحيد يكمن فى قواعد اللعبة وفى معايير النجاح فيها .

ويتضح من بعض الأدلة المأخوذة عن بعض الدراسات ، أنه بالنسبة لأداء بعض المهام فإن أداء أطفال الطبقة الدُنيا أفضل من أداء الطبقة المتوسطة . ففى إحدى الدراسات التى طالبتْ الأطفال برواية قصة قبل النوم ، وُجِدَ أن البنات من أطفال الطبقات الدُنيا أكثر طلاقة ، بينما وُجِدَ أن الأولاد من نفس الطبقات أقل المشتركين طلاقة ، فى حين جاء أطفال الطبقة المتوسطة فى الوسط . وليس من الصعب أن نجد تفسيراً للاختلافات بين الأولاد والبنات فى عيّنة أطفال الطبقة الدُنيا ، فالبنات خبيرات فى رواية الحكايات للدُمى والأخوة الصغار قبل النوم ، ولذلك وَجَبَتْ علينا الاشارة إلى أن أداءهنّ أفضل من أداء أطفال الطبقة المتوسطة (ادواردز ١٩٧٦ : ١٠٠) .

٦ - ٤ - ٤ المتطلّبات اللغوية للمدارس :

والسؤال الأخير الذى نود الاجابة عليه هو : هل المتطلّبات اللغوية للمدارس هى حقاً كما وَصَفَهَا برنستاين وآخرون ؟ وهل تهتم المدارس إلى هذا الحد بالوضوح والقدرة على التفكير المستقل ؟ إن تعميم مثل هذه الفرضية أو النموذج المقولب على جميع المدارس يعد شيئاً خطيراً للغاية ، فقد تكون هذه الفرضية غير دقيقة وغير صالحة بالنسبة لمعظم المدارس التى يذهب إليها أطفال الطبقات الدُنيا . ويرى البعض أن الوصف اللغوى الاجتماعى لهذه المدارس يتناسب مع الوصف النموذجى لمنزل الطبقة الدُنيا والذى لا يتطلّب سوى « الشفرة المحدودة » :

> وتوجد الشفرة التحتية المحدودة عندما يتم التواصل بواسطة صيغ الكلام التى تكون فيها المعانى ضمنية ، والمبادىء التى يستند إليها الكلام مركّزة وغير مبررة أو واضحة ، حيث لا ترتبط بخبرات الطفل أو حتى بمستلزمات السياق ، وحيث لا تكون هناك بدائل مطروحة وحيث لا توجد أسئلة مشجعة .
>
> (جاهاجان وجاهاجان ١٩٧٠ Gahagan & Gahagan نص على هذه الفقرة فى ادواردز ١٩٧٦ : ١٤٦) .

ولعل واحداً من أهم الخصائص التى كثر النقاش حولها فيما يتصل بالمدارس ، هو ميلها نحو تشجيع ما يمكن أن نطلق عليه عملية « الاستعراض الكلامى » verbal display ، والتى تحث على إعطاء معلومات أكثر مما ينبغى . (ولو أنه يفضل ألاّ تكون هذه المعلومات غير صحيحة ، كما أسلفنا الذكر فى ٦-٤-٢) . ففى المقابلات الرسمية ، غالباً ما يقوم أطفال الطبقات الدُنيا بالرد بإجابات مقتضبة على الأسئلة المطروحة عليهم ، والإجابة بنعم / لا على الأسئلة التى تتطلّب الاجابة بنعم أو لا yes/no questions دون زيادة أو محاولة لتوسيع الاجابة . وعلى عكس ذلك ، فإن طفل الطبقات المتوسطة ينظر إلى سؤال نعم / لا، مثل، هل تواظب على

مشاهدة التليفزيون ؟ على أنه دعوة لوصف عاداته فى مشاهدة التليفزيون بإسهاب . وربما تكون هذه الاجابات المسهَبَة لا الاجابة المقتضبة هى التى تحتاج تفسيراً . ولكن الدراسات والأبحاث قد اعتبرت الاجابات المقتضبة هى المشكلة بالنسبة للأطفال (ويليامز ١٩٧٠ : ٣٩٣ Williams)، أما بالنسبة لاعتبار الاجابات المسهَبَة أكثر صلاحية بالنسبة للمدارس ، فإن ذلك يبدو صحيحاً تماماً . ولكن إذا كان المدرس يريد وصفاً فعلياً فلماذا لا يطلب ذلك بوضوح مثل « صِفْ لى ذلك ... » ، وقد يبيِّن لنا هذا المثال البسيط ما يشعر البعض أنه مصدر من مصادر مشاكل أطفال الطبقات الدُنيا فى المدارس ، وهو على سبيل التعيين نوع من الصدام الثقافى culture clash بين ثقافة الطبقات المتوسطة التى تتحكّم فى سلوك المعلِّم وثقافة الطبقات الدُنيا التى اعتادها الطفل . ويعتقد الكثيرون أنه من الممكن تحقيق أهداف النظام التعليمى فى إطار ثقافة الطفل ، مستخدمين فى ذلك القدرة الاتصالية التى يجلبها الطفل إلى المدرسة ، حتى لو كان توسيع وتجاوز تلك القدرة الاتصالية واحداً من أهم الأهداف التعليمية .

وعلى ذلك ، فهناك العديد من الأسئلة التى لا نستطيع تقديم إجابة مُرضية عليها ، وكل ما أمكننا تقديمه فى هذا الجزء عرض موجز لبعض الآراء وبعض الدراسات المؤيدة لهذه الآراء فى مجال اللامساواة اللغوية والاجتماعية . والكثير من هذه الدراسات ما زال فى طور النمو ، ومعظمها من الصعب أن يركّز بشكل مباشر على أفكار مترابطة فى إطار نظرية متكاملة حتى يمكننا تقدير صلاحيتها . وقد قدَّم واحد من أهم الباحثين فى هذا المجال ، وهو ويليامز صاحب **كتاب اللغة والفقر** ١٩٧٠ النداء التالى ، وهو نداء يستحق أن نكرره هنا فى ختام هذا الفصل :

> إننى أعرف جيداً أن كل هذه الأفكار تدعونا للبحث والدراسة . ولكنها لا تدعو إلى مجرد مزيد من الدراسة ، بل تدعو إلى دراسات أفضل وقدر أكبر من التنسيق بين الدراسات الجارية . ومن زاوية أكبر ، تدعونا إلى ضرورة المطالبة بتطبيق نفس مستويات البحث والدراسات فى العلوم الأخرى، على العلوم

الاجتماعية . ذلك أننا كمجتمع متقدم من الناحية التكنولوجية قد دفعنا الثمن فى صورة مدن مزدحمة ومجتمعات ريفية محرومة وفى صورة تلك العلاقة العكسية بين الفرص الاقتصادية المتاحة والانتماء إلى جماعات الأقليات . علينا أن نستغل هذه التكنولوجيا فى حلٍّ مشكلات العنصر الإنسانى فى مجتمعنا . (ويليامز ١٩٧٠ : ٧) .

* * *

الفصل السابع

الخاتمة

لقد حاولت أن أقدم نظرة متسقة للغة، تأخذ فى اعتبارها نتائج دراسات علم اللغة الاجتماعى . وكان كل من الفصول السابقة قد ركَّز على أحد جوانب اللغة المختلفة ، ولذلك قد يكون من الأفضل أن نجمع سوياً بعض هذه الخيوط المفكَّكة ونرى كيف يرتبط كل منها بالآخر . ويبدو أن مفاهيم اللغة التى وصلنا إليها تختلف كثيراً عن النظريات اللغوية البُنيوية القائمة ، ويمكننا أن نقول أن هذه المفاهيم تتسم بالمرونة والجزئية ، أى أنها غير كاملة . فهى مرنة لأن التصنيفات التحليلية التى استخدمناها تعد من قبيل « النماذج الأصول » ، ولا تعد تصنيفات ذات حدود واضحة وشروط تعريفية خاصة . وهى **جزئية** ، أو غير كاملة ، لأنها لم تحاول الاستفادة من التصنيفات الشاملة أو الواسعة لتجميع الوحدات اللغوية أو الناس (مثل « اللغات » و « اللهجات » و « سجلات السياق » و « الجماعات الكلامية ») كأسس للتعميم.

ومن البديهى أن الكلام يحدث فى سياق اجتماعى ، وبالتالى فإنه لا غنى عن المنظور الاجتماعى لعلم اللغة الاجتماعى فى دراسة اللغة والكلام . ويشمل السياق الاجتماعى للكلام عدداً كبيراً من العوامل ، من بينها المجموعة أو المجموعات الاجتماعية التى ينتمى إليها المتحدث والعلاقات الاجتماعية بين المتحدث المتلقى وبنية التعامل الاجتماعى (فى صورة دخول وخروج وتناوب الأدوار ، إلخ) ونوعية هذا التعامل (التعامل التجارى ، ومحادثة ودية ، وحلّ المعضلات ، إلخ) والمعرفة المشتركة بين المشتركين فى الحديث ، وقد تكون معرفة عامة (ثقافية) أو معرفة خاصة (أى مرتبطة بالتعامل نفسه) . وكل هذه الجوانب من السياق الاجتماعى معروفة عندما نسمع (أو نقرأ) أية وحدة لغوية ، هذا بالرغم من أنه من الممكن أن يختلف الناس حول بعض جوانب السياق الاجتماعى لأى من الوحدات اللغوية . وبالتالى ، فإنه من الصعب أن نتصوَّر أننا لا نختزن مثل هذه المعلومات فى ذاكرتنا بالاضافة إلى الوحدات اللغوية ذاتها ، وكل الأدلة تشير إلى أننا نقوم بذلك فعلاً . وبالمثل ، فإننا نتذكَّر السياقات اللغوية التى ترد فيها الوحدات اللغوية ، وليس هناك ما يدعو للفصل بين هذين النوعين من المعلومات ، وذلك عن طريق التعامل مع السياقات اللغوية باعتبارها جزءاً من « البُنية اللغوية » أو « القدرة اللغوية » ،

والتعامل مع السياقات الاجتماعية على أنها جزء من استخدامات اللغة التى يمكن فصلها عن « القدرة اللغوية البحتة » .

وقد يعترض البعض بقولهم أن الناس لا يمكنهم اختزان كل المعلومات الخاصة بالسياقات الاجتماعية لكل الوحدات اللغوية بمفردها ، حيث أن الوحدات اللغوية تشمل الوحدات المعجمية lexical items والعبارات constructions والأنماط اللغوية العامة . وحيث أن المتحدث بلغة واحدة فقط monoglot ، ينبغى أن يختزن عشرات الآلاف من الوحدات اللغوية ، فإن ذاكرته لا تحتمل تخزين كل هذه المعلومات المطلوب تخزينها . ولكن الأدلة التى سبق أن عرضنا لها تدل على أننا نختزن بالفعل كميات هائلة من المعلومات ترتبط بوحدات معجمية بعينها وترتبط كذلك بأنواع الوحدات الأخرى ، الأمر الذى يمكننا أن **نربط بين الوحدات اللغوية المفردة والسياق الاجتماعى** . فالناس فى بلفاست يعرفون على سبيل المثال أن هناك نطقين لكل من pull و would ، أحدهما [ʊ] والأخرى الـ [ʌ] ولكن نطق [ʌ] فى pull أقل درجة من العامية من نطق would (انظر ما سبق) .

وإذا كنا قد سلّمنا بوجود هذه القدرة اللا محدودة على اختزان المعلومات الخاصة بالوحدات اللغوية ، فلا داعى ، إذن ، أن نفترض مسبقاً أنه ينبغى استخدام المفاهيم التصنيفية الشاملة large scale constructs مثل « اللغة » أو « اللهجة » حتى يمكننا الربط بين الوحدات اللغوية وسياقاتها الاجتماعية ، وتذهب الأدلة التى عرضنا لها إلى عدم وجود أساس صحيح أو حقيقة موضوعية لمثل هذه المفاهيم ، ولذلك ينبغى على علماء اللغة أن يتجنّبوا اطلاق التعميمات بناء على مثل هذه المفاهيم الشاملة أو الواسعة . وقد تكون أول آثار مثل هذا التقييد أن يتوقف علماء اللغة عن محاولات كتابة الاجروميات ، إلاّ إذا كانوا على استعداد لرؤية هذه الاجروميات على أنها وصف للقدرة اللغوية لفرد بعينه competence of an individual ، سواء أكان المتحدث أحادى اللغة أَم متعدد اللغات . أما آثار مثل هذا التقييد بالنسبة لنظرية علم اللغة linguistic theory ، فتتمثل فى أنه ينبغى علينا أن نبحث عن نظرية تقلل عدد الاختلافات بين النوعيات المختلفة من الوحدات اللغوية ، طالما أن كل هذه

النوعيات المتباينة من الوحدات اللغوية ترتبط بالسياق الاجتماعى بنفس الطريقة . ومن ناحية أخرى ، لعل من الأفضل أن ندرس الاختلافات فى النطق والصيغ الصرفية والتراكيب والوحدات المعجمية فى إطار سياقها الاجتماعى .

إننى أتفق مع العديد من علماء اللغة فى إيمانى بأن المعيار الأول والأخير فى دراسة اللغة ، هو الحقيقة النفسية psychological reality فى وصف بُنية اللغة language structure . وإنى أعتقد أن هذا معيار هام بالنسبة لعلم اللغة الاجتماعى وعلم اللغة الوصفى على حد سواء (وليس ذلك غريباً فى شىء ، فقد سبق أن أكدت ودافعتُ عن وجهة النظر القائلة بأنه لا توجد اختلافات حقيقية بين هذين العلمين) . وعلينا أن نسلّم جدلاً بأن عقول الناس قادرة على اختزان عدد هائل من شبكات المفاهيم networks of concepts ، وهى شبكات تمثّل ما يعرفونه من الوحدات اللغوية وسياقها الاجتماعى . ولابد أن يكون هدفنا الرئيسى هو محاولة كشف المزيد عن هذه المفاهيم وعلاقاتها وارتباطاتها الداخلية . وليس هناك ما يدفعنا للاعتقاد بأن جميع الناس يختزنون المفاهيم نفسها ، سواء بالنسبة للوحدات اللغوية أو بالنسبة للسياقات الاجتماعية ، مما يجعل من الصعب أن ندرس هذه المفاهيم . عندئذ تصبح منهجية البحث methodology هى القضية الرئيسية . وقد يكون علينا أن نقتصر على مجرد ملاحظة سلوك الناس لفترة من الوقت ، بالاضافة إلى تحليل هذا السلوك الكلامى كمياً وإحصائياً ، حيث يكون ذلك ضرورياً ، والقيام بطرح فرضيات عن الميكانيزمات النفسية psychological mechanisms الدافعة لهذا السلوك . وفى نفس الوقت ، ينبغى أن نحاول الإجابة على مجموعة من الأسئلة المحيّرة وهى : لماذا يتكلّم الناس فى نفس الجماعة بنفس الطريقة حتى بالنسبة لأدق تفاصيل النطق ؟ وكيف يحققون مثل هذا التطابق الدقيق ؟ ولماذا يتباينون بالنسبة لبعض المتغيِّرات ؟ وقد سبق أن حاولنا الإجابة على بعض هذه الأسئلة ، ولكننا لم نقدم إجابة كاملة أو وافية على أى منها .

ولعل أهم الملامح المميِّزة للكلام والسياق الاجتماعى ، أنهما يتكونان من عديد من المتغيِّرات اللغوية المستقلة ، أعنى أنهما متعددا الأبعاد multi-dimensional،

وقد سبق أن ذكرنا بعض المتغيِّرات المستقلة المرتبطة بالسياق الاجتماعى ، ولكن يمكننا أن نعيد تصنيف كل من هذه المتغيِّرات فى شكل عدد كبير من المتغيِّرات المنفصلة . فيمكننا ، على سبيل المثال ، أن نعرف انتماء المتحدث إلى مجموعة بعينها بالرجوع إلى الإقليم والمكانة الاجتماعية والسن والجنس والكثير من العوامل الأخرى ويمكننا أيضاً أن نعيد تصنيف المتغيرات الكلامية حسب المضمون والشكل، ويمكننا أيضاً إعادة تصنيفها فى شكل عدد ضخم من العوامل مثل (الكلمات words تصنيفات الكلمات word classes ، العبارات constructions ، الوحدات الصوتية المجردة ، والخصائص الدلالية semantic features and phonemes ، إلخ . وكما قد نتوقع ، فإن العلاقات بين المتغيِّرات الكلامية ومتغيِّرات السياق الاجتماعى **مركَّبة ومعقدة** وغاية فى **التحديد** ، حيث إن الوحدات اللغوية المفردة ترتبط بمتغيِّرات سياقية مفردة. مما قد يسمح للمتحدثين باستخدام الكلام بطريقة فائقة الحساسية لتحديد موقعهم وموقع حديثهم فى حيِّز متعدد الأبعاد multi-dimensional space ، بحيث يسمح ذلك لهم فى نفس الوقت بتوصيل الرسائل الدلالية التى تتضمنها التراكيب التى يستخدمونها . (وبالتأكيد لا يوجد اختلاف واضح من ناحية المبدأ بين هاتين الوظيفتين للكلام) . أو بعبارة أخرى يمكننا أن ننظر إلى كل عبارة على أنها فعل من « أفعال توكيد الهوية » act of identity من جانب المتحدث .

وفى النهاية ، ينبغى أن ندرس طبيعة المفاهيم المستخدَمة فى تحليل الوحدات اللغوية والسياقات الاجتماعية ، ويبدو أن هذه المفاهيم جميعاً هى من قبيل « النماذج الأصول » prototypes - أعنى أنها مجموعات من الملامح والخصائص المميزة clusters of characteristics التى تحدد الحالات الواضحة ، ولكنها لا تفصل بين الملامح المميزة الضرورية والملامح غير الضرورية . وقد سبق أن درسنا بوضوح العلاقة بين « النماذج الأصول » وبعض جوانب السياق الاجتماعى منها ، مثلاً ، انتماءات المتحدث لمجموعة بعينها (حيث أطلقنا على « النماذج الأصول » اسم النماذج المقولبة) ومن بينها علاقات القوة والتضامن بين المتحدث speaker والمخاطب addressee

ونوعية التعامل الاجتماعى interaction (حيث أسميناه « مجالات » domains)، وقد يتضح أن هناك جوانب أخرى كثيرة مماثلة فى هذا الصدد. ولقد سبق أن ذكرنا أننا نحتاج بالضرورة إلى « النماذج الأصول » فى تعريف معانى الكلمات ، ويبدو أيضاً أن الدراسات المعاصرة فيما يسمّى بـ « الأجرومية غير المستقلة » non-discrete grammar تلح فى تطبيق نفس المبدأ على التصنيفات النحوية ، مثل « الاسم » noun و « شبه الجملة » clause (انظر لاكوف ١٩٧٧ Lakoff وروس ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ Ross) . وقد نتوقع وجود مثل هذه الحاجة فيما يختص بعلم الأصوات ، وخاصة بالنسبة للتصنيفات الصوتية categories مثل « الصائت » و « المقطع » syllable . وإذا سلّمنا بالنتيجة القائلة ، أن كل هذه المفاهيم لابد أن تكون نماذج أصول ، فيترتّب على ذلك بالطبع أن يعطى علماء اللغة أولوية لتطوير نظريات تتفق مع « النماذج الأصول » بوصفها تصنيفات تحليلية ، وليس ذلك هو الحال فى أى من النظريات القائمة . وحتى نتمكّن من القيام بذلك ، سنستمر فى تسوّية اللغة عند أية محاولة لتوصيفها .

* * *

ثبت المصطلحات الأجنبية
ومرادفاتها العربية

A

Abipon	الأبيون = قبيلة فى الأرجنتين
Accent	اللكنة
Acceptance	مرحلة المواضعة على
Acceptability	درجة القبول (حكم نحوى)
	مقبولية = مدى قبول الجماعة اللغوية لاستعمال لغوى معيَّن (الخولى ٢١ : ١٩٨٢)
Act of Identity	أفعال توكيد الهوية
Act of communication	عملية الاتصال
Acrolect	اللهجة العليا (انظر ٢-٥-٤ ، ٥-٥-٢)
Addressee	المخاطَب (المتلقى)
Addresser	المخاطِب (المتحدث)
Terms of address	مصطلحات التخاطب (٤-٢-٢)
Adequacy	الكفاية
Adjacency pairs	الأزواج المتوازية (٤-٣-٢)
Agreement	الاتفاق والتطابق
apriori	قَبْلىّ
aposteriori	بَعْدِىّ (المسدى ١٨٢ : ١٩٧٧)

Age grading	النتاج العُمْرِىّ
Agent	فاعل = القائم بالفعل أى مَنْ يقوم بالفعل (الخولى ٩ : ١٩٨٢)
Agentless passive	صيغة المبنى للمجهول بحذف الفاعل
Ambiguity	غموض فى المعنى ، إبهام ، لبْس
Anthropology	الإنثروبولوجيا
Antigua	أنتيجوا = جزيرة من جزر الهند الغربية (انظر ٤-١-٤)
Arawak	الأراواك = لغة مستخدَمة فى جزر الكاريب
Areal Linguistics	علم اللغة الجغرافى
Areal features	الملامح الجغرافية
Areal diffusion	ظاهرة انتشار الملامح الجغرافية
Arbitrary	اعتباطى ، جزافى
Artificial intelligence	علم الذكاء الاصطناعى = هو علم يدرس الذكاء الإنسانى من خلال محاكاته على الحاسب الآلى (انظر ٤-١-١)
Attitudes	اتجاهات (انظر ٦-٢-٢)
Assimilation	إدغام ، استيعاب
Alveolar	لثوى = صوت يلامس أو يقارب فى رأس اللسان (أى الذلق) اللثة الخلفية للأسنان العليا

B

Baby talk	لغة الطفل الرضيع
Basic level concepts	مفاهيم المستوى الأساس

Basilect	اللهجة الأساس (انظر ٢-٥-٤ و ٥-٥-٢)
Bantu languages	لغات البانتو
Non-Bantu	لغات غير بنتوهية
	صائت خلفى = صائت يكون اللسان فيه فى الجزء الخلفى
Back vowel	من التجويف الفموى
Backness	درجة الخلفية / الأمامية فى وضع اللسان (انظر ٥-٣-١)
see : frontness	درجة الأمامية فى وضع اللسان
Behaviourism	السلوكية
Bilabial consonant	صامت شفاهى
Bilingualism	الازدواج اللغوى = استعمال فرد أو مجموعة أو شعب لغتين
	بمستوى واحد من الإتقان
Bilingual	مزودج اللغة
Borrowing	الاستعارة (انظر ٢-٥-٢)
Bokmal	البوك مال = النروجية المتواضع عليها أى النوعية العليا
	(انظر ٢-٥-١)
Buang	البوانج لغة مستخدَمة فى كينيا الجديدة (٢-٥-١)

C

Casual	شائع (انظر ٥-١-١)
see : formal	رسمى
Categorical	بصورة مطلقة

see : Probabilistic	احتمالى
Channel	القناة
Channel cues	شواهد تغيير القناة
Child language	لغة الأطفال
Cockney	الكوكنى = لهجة لندنية دارجة
Code	شفرة
Codification	مرحلة تقنين اللغات المتواضع عليها
see : Decode	تفكيك الشفرة
Code-switching	تحويل الشفرة
Metaphorical Code-switching	التحويل المجازى للشفرة (انظر ٢-٥-١)
Conversational code-switching	تحويل الشفرة فى المحادثة
Situational code-switching	تحويل الشفرة فى المواقف
Cognition	المعرفة
Cognitive Psychology	علم النفس العرفى
Cognitive uncertainty	الحيرة المعرفية
Chi-squaredtest	مقياس كاى التربيعى (انظر ٥-٢-١)
Comanche	الكومانش = لغة هندية أمريكية
Community	جماعة
See : Society	مجتمع
Group	مجموعة

Community grammer	أجرومية الجماعة
Communication	الاتصال
Communicative event	الحدث الاتصالى (انظر ٢-٤-١)
Competence	القدرة
see : Performance	الأداء
incompetence	نقص القدرة
Deficit theory	نظرية النقص
Active competence	القدرة اللغوية الفعّالة
Passive competence	القدرة اللغوية الكامنة
Linguistic competence	القدرة اللغوية
Communicative competence	القدرة الاتصالية
Complement	مكمل
Complementiser	مكملات
Componential analysis	تحليل المكونات الدلالية (انظر ٣-٢-٢)
see : semantic features	الخصائص الدلالية
Distinctive features	الخصائص المميزة
Concepts	مفاهيم
Concept formation	تكوين المفاهيم
Conceptualisation	تكوين المفاهيم
High level concepts	مفاهيم المستوى الأعلى

Low level concepts	مفاهيم المستوى الأدنى
basic level concepts	مفاهيم المستوى الأساس
see : Inference	الاستدلال
Propositions	القضايا
Concord	العلاقات الوفاقية (انظر ٢-٥-٢)
Conformity	الالتزام
see : Individualism	الفردية
Consonant	الصوامت
Consonant clusters	متتابعات الصوامت
Consonantal constrication	تقلّص الصوامت (انظر ٥-٢-٢)
Constraints	القيود المفروضة على القواعد
Construction	التعبيرات
Convention	العرف
Convergence	التطابق / التواشج
Copula-be	فعل الكينونة القائم بوظيفة الوصل
Cooperative principle	مبدأ التعاون (انظر ٤-١-٣)
see : Grice's Maxims of conversation	قواعد جريس للمحادثة (انظر ٤-١-٣)
Continuum	متواصل
Remembership	عضوية أساسية فى الجماعة (انظر ٥-٤-٢)
see : Group membership	العضوية فى الجماعة

Correlation	علاقة ارتباط بين متغيرين إحصائيين
Creative	خلاّق ، مبدع
Creativity	إبداع
see : Chomsky	تشومسكى
Creole	الكريولية (انظر ٢-٥-٤)
Creolisation	الكريلة
Decreolisation	إزالة صفة الكريولية
Creole continuum	مُتَّصِل الكريولية
see : Pidgin	الرطانة (انظر ٢-٥-٣)
Criterial features	الخصائص المعيارية
Cultural clash	صدام ثقافى
Cultural relativity	النسبية الثقافية
see:Sapir-Whorfhypothesis	فرضية سابير وهورف (انظر ٣-٣-٥)
Determinism	الحتمية
Cushitic Languages	اللغات الكوشيتية = فرع من أسرة اللغات السامية الحامية وهى تتكون من عدد كبير من اللغات الدارجة أهمها الصومالية

D

Declarative Construction	عبارة إخبارية
Decode	تفكيك الشفرة

see : Encode	تشفير
Code	شفرة
Deletion	حذف
see : insertion	إدراج
Contraction	اختصار
Delimitation of languages	تحديد ماهية اللغات
Deficit Theory	نظرية النقص (انظر ٦-٣-١)
see : Incompetence	نقص القدرة
Descriptive Linguistics	علم اللغة الوصفى
see : Theoretical Linguistics	علم اللغة النظرى
Historical Linguistics	علم اللغة التاريخى
Derivation rules	قواعد الاشتقاق (انظر ٣-٢-٢)
see : Inflectional morphology	انظر الصيغ النحوية الصرفية
Determinism	الحتمية (انظر ٣-٢-١)
see : Linguistic determinism	الحتمية اللغوية
Cultural determinism	الحتمية الثقافية
Linguistic relativity	النسبية اللغوية
Cultural relativity	النسبية الثقافية
Sapir-Whorf hypothesis	فرضية سابير وهورف
Diffusion	الانتشار

see : Focussing	التضام
Wave Theory	نظرية الموجات
Diachronic	زمانى (انظر ٥-٤-١)
see : Synchronic	آنى
Dialect	اللهجة
Dialectology	علم دراسة اللهجات
Dialect continuum	متواصل اللهجات
Dialect Geography	علم جغرافيا اللهجات
see : Language	انظر لغة
Creole	كريوليه
Pidgin	رطانة
Dimension	البُعد
Diglossia	ازدواج اللهجات (ديجلوسيا) (انظر ٢-٤-٣)
Direct elicitation	الاستخراج المباشر
Discourse	الخطاب (انظر ٤-٣-٢) وجابر عصفور (البُنيوية)
Discourse structure	بُنية الخطاب
see : text	نصّ
Discrete	مستقل
Discretness	استقلال
Diversity	التنوع

Domains	المجالات (انظر ٣-١-٢)
Double negative	النفى المكرَر

E

Elaboration of function	توسيع وإحكام الوظائف
Empiricism	اختبارى ، إمبيريقى
Empirical	إمبيريقى
Entry	دخول (انظر ٤-٣-١)
see : Exit	خروج (انظر ٤-٣-١)
Encode	تشفير
see : Code	شفرة
Decode	تفكيك الشفرة
Ethnography of communication	إثنوجرافيا الاتصال (انظر ٤-١-١)
Ethnography of speaking	إثنوجرافيا الحديث (انظر ٤-١-١)
Ethology	الإيثولوجيا = دراسة السلوك فى الحيوان (انظر ٤-١-١)
Equality	المساواة (انظر الفصل السّادس)
Linguistic equality	المساواة اللغوية (انظر الفصل السادس)
Social equality	المساواة الاجتماعية (انظر الفصل السادس)
see : Linguistic inequality	اللامساواة اللغوية (انظر الفصل السادس)
Social inequality	اللامساواة الاجتماعية (انظر الفصل السادس)
Exit	خروج (انظر ٤-٣-١)

Explicitness — درجة الوضوح والصراحة

Eye-movements — حركة العينين فى الحديث (انظر ٤-٣-٢)

F

Face-to-face interaction — الاتصال المباشر القائم على الاتصال وجهاً لوجه (انظر ٤-١ و ٤-١-١)

Face-work — عمل الوجه (انظر ٤-١-٣)

Family Tree Model — نموذج الشجرة الأُسرية (انظر ٢-٢-٤)

Feedback — التغذية المرتدة

Field — المجال (انظر ٢-٤-١)

see : Tenor — العلاقة (انظر ٢-٤-١)

Mode — المنحى (انظر ٢-٤-١)

Flapped — صوت مستَلَب = صوت انفجارى يُنطق بسرعة مثل الأمريكية حين تقع بين صائتين

Fluency — درجة الطلاقة

Focussing — التضام (انظر ٢-٣-٢)

see : Deffusion — انظر الانتشار (انظر ٢-٣-٢)

Wave Theory — نظرية الموجات (انظر ٢-٣-٢)

Formal — رسمى

see : Casual — شائع أو عادى (انظر ٢-٤-١)

Formality — محور الرسمية (انظر ٢-٤-١)

خصائص	Features
خصائص دلالية	see : Semantic features
خصائص مميزة	Distinctive features
خصائص معيارية	Criterial features
تحليل المكونات الدلالية	Componential analysis

صوت احتكاكى ينشأ عن احتكاك تيار النفس بجدران الممرات الصوتية نتيجة لإعاقة التيار جزئياً — Fricatives

أو صوت مستمر غير احتكاكى أى الصوت الذى يستمر ولا يتوقف فيه تيار النفس ويقابله الصوت الانفجارى — Frictionless continuant

درجة أمامية الصوائت	Frontness vowels
درجة خلفية الصوائت	see : Backness vowles
وظائف اللغة	The Functions of Language
وظائف الكلام (انظر ٤-١-٢)	The Funtions of Speech
مبهمة وغير محددة	Fuzzy

G

النحو التوليدى	Generative Grammer
النحو التحويلى والتوليدى	see: Transformational Generative Grammar
بؤرات جغرافية	Geographical Foci
الملامح الجغرافية	see : Areal Features
نظرية الموجات (انظر ٢-٣-٢)	Wave Theory

Deffusion	الانتشار (انظر ٢-٣-٢)
Focussing	التضام (انظر ٢-٣-٢)
Glottis	اللهاة
Glottalised	صوت لهوى يصدر عن توتر حنجرى فى صوت الهمزة
Gonja	الجونجا = قبيلة تقطن غرب أفريقيا
Grammar	النحو ، الأجرومية
Grammaticality	أحكام ترتبط بدرجة نحوية اللغة
see : Well-formedness	انظر الأحكام الخاصة بدرجة أحكام التكوين
Greetings	التحية (انظر ٤-٣-١)
see : Propositional Greeting	تحية تتضمن قضية (انظر ٤-٣-١)
non-propositional greeting	تحية لا تتضمن قضية (انظر ٤-٣-١)
Group	مجموعة
see : Society	مجتمع
Community	جماعة
Networks	شبكات
Group dynamics	ديناميات الجماعة (انظر ٤-٣-٢)
Group membership	درجة الانتماء إلى مجموعة (انظر ٥-٤-٢)
Guarani	الجورانية = لغة هندية تُستخدم فى أمريكا الوسطى وهى لا تنتمى إلى الأسبانية مطلقاً

H

Hierarchical relations	علاقات دَرَجية ، هَرمية
Hierarchical structure	بنية دَرَجية ، هَرمية
Hierarchical discourse structure	بُنية دَرجية للخطاب
High leve concepts	مفاهيم المستوى الأعلى
see : Low level concepts	مفاهيم المستوى الأدنى
Basic level concepts	مفاهيم المستوى الأساس
Higher nodes	العُقد العليا (انظر ٢-٣-٤)
see : nodes	عُقد (انظر ٢-٢-٤)
Historical Linguistics	علم اللغة التاريخى
Historical change	التغير التاريخى
Histogram	مخطَّط لتوزيع التواتر (انظر الشكل ٥-١ و ٥-٢ و ٥-٣)
Hypothesis	فرضية

I

Idealization	تبسيط هائل ومثالى للعلاقات القائمة (انظر ٥-١-١-)
Ideolect	لهجة الفرد الواحد (انظر٥-٥-٢ و٢-٥-٤)
see : Acrolect	اللهجة العليا
Mesolect	اللهجة الأساس
Basilect	
Illocutionary force	القوة البلاغية للفعل الكلامى (انظر ٤-١-٢)

see : Speech Acts	الأفعال الكلامية (انظر ٤-١-٢)
Perlocutionary force	القوة التأثيرية للفعل الكلامى (انظر ٤-١-٢)
Locutionary force	
Implicational hierechy	متدرج تضمنى
Implicational relations between the grammars	علاقات ضمنية بين الأجرومية
Individualism	الفردية (انظر ١-٣-١)
see : Conformity	أنظر الالتزام (انظر ١-٣-١)
Individual Variation	التباين الفردى
Indo-European	هندو أوروبى
Inflectional Morphology	الصيغ الصرفية النحوية
see : Derivational rules	أنظر قواعد الاشتقاق
Inference	الاستدلال
see : Concepts	مفاهيم
Propositions	قضايا
Inequality	اللامساواة
Linguistic inequality	اللامساواة اللغوية (انظر الفصل السادس)
see : Subjective inequality	اللامساواة الذاتية (انظر ٦-١-٢)
Strictly Linguistic inequality	اللامساواة اللغوية البحتة (انظر٦-١-٢)
Communicative inequality	اللامساواة الاتصالية (انظر ٦-١-٢)
Informants	رواة ، مصادر معرفة

English	العربية
Information Theory	ظرية المعلومات
Informativeness	لقيمة الإبلاغية للكلام
see : Grice's Maxims of conversation	نظر مبادىء جريس للمحادثة (انظر٤-١-٤)
Infinitive	لمصدر
Interaction	لتعامل الاتصالى العادى
Intransitive	علاقة لازمة
see : Transitive	علاقة متعدية
Isogloss	خطوط توزيع اللهجات (انظر ٢-٣-١)
see : Wave Theory	نظر نظرية الموجات (انظر ٢-٣-٢)
Diffusion	لانتشار (انظر ٢-٣-٢)
Focussing	لتضام (انظر ٢-٣-٢)
Isolect	
see : Acrolect	للهجة العليا
Basilect	للهجة الأساس
Mesolect	للهجة الوسطى
Item-based model	موذج الوحدة اللغوية
see : Variety-based model	موذج النوعية اللغوية
Javanese	لجافيزينية = لغة جزيرة جافا فى أندونيسيا

K

Kannada	كنادا = لغة غير هندو أوروبية يتحدث بها ثلث أهل كابور
Kinshipterminology	مصطلحات القرابة (انظر ٣-٢-٣ والجدول رقم ٣-١)
Kupwar	كابور = قرية صغيرة فى الهند

L

Language	اللغة
Language change	التغير اللغوى
Lexical gaps	الفجوات المعجمية
Lexicon	معجم وحصيلة الفرد من المفردات
Lexical representation	صيغة تحتية لوحدة معجمية
Lexical item	وحدة معجمية
Lingua Franca	لغة مخاطبة الأجانب (انظر ١-٢-٢ و٢-٥-٣)
Linguistics	علم اللغة
Liguistic change	التغير اللغوى
Linguistic exogamy	الأبعاد اللغوية
Liguistic items	الوحدات اللغوية (انظر ٢-١-٢ و٢-٣-٤)
see : language	انظر اللغات
dialect	اللهجات (انظر ٢-٤-١)
register	سجلات السياق (انظر ٢-٤-١)
Linguistic insecurtiy	اللا أمان اللغوى

Linguistic markers of social relations	الشواهد اللغوية على العلاقات الاجتماعية
Linguistic prejudice	التحيز اللغوى
Linguistic Taboos	المحظورات اللغوية
Linguistic Relativity	النسبة اللغوية (انظر فرضية هورف وسابير)
see : Cultural Relativity	النسبة الثقافية
Linguistic Variables	متغيرات لغوية
Locative	ظرف مكان

M

Macro-sociology of Language	علم اجتماع اللغة الشامل
see : Micro-sociolinguistics	علم اللغة الاجتماعى المصغَّر
Marker	شاهد
Relation marker	شواهد العلاقات (انظر ٤-٤-١)
Structure marker	شواهد البُنية (انظر ٤-٤-٢)
Content marker	شواهد المضمون (انظر٤-٤-٣)
Discourse marker	شواهد الخطاب (انظر ٥-١-١)
Marathi	ماراطى = لغة هندو أوروبية يتحدث بها بعض سكان كابور وهى قرية صغيرة فى الهند
Mbugu	المويوجو = لغة تنزانية
Meaning	المعنى

Mesolect	اللهجة الوسطى
Message	رسالة
Metaphorical extension	التجاوز المجازى
Micro-sociolinguistics	علم اللغة الاجتماعى المصغّر
Mode	المنحى (انظر ٢-٤-١)
see : Tenor	العلاقة (انظر ٢-٤-١)
Field	المجال
Monolingual	أحادى اللغة
Monoglot	فرد أحادى اللغة
Motivation	الدافع
Morphology	علم الصرف
Mutual Intelligebilit	الفهم المتبادَل
Multi-dimensional Space	حيِّز متعدد الأبعاد
Multilingualism	تعدد اللغات
see : Monolingual	أحادى اللغة
Bilingualism	ازدواج اللغات

N

Nahutal	الناهوتال = قبيلة فى المكسيك
Nasal	أنفى
see : Oral	فموى

Native speakers	متحدثين أصليين
see : Mother Tougue	لغة أُم
Njamal	النجامال = قبيلة من السكان الأصليين باستراليا
Node	العقدة وهى تساوى نقطة التقاء فرعى الشجرة
see : Family Tree model	انظر نموذج الشجرة الأسرية (انظر٢-٢-٤)
Network	شبكة (انظر ٥-٤-٢)
Network Score Stregnth (NSS)	المعدل الخاص بقوة العلاقة داخل الشبكة (انظر٥-٤-٢)
Closed Network	شبكة مغلقة
Network Theory	نظرية الشبكات
see : Social Network Sturcture	انظر بُنية الشبكات الاجتماعية
Non-standard varieties	نوعيات غير متواضع عليها
see : Standard Varieties	انظر نوعيات متواضع عليها
Standardisation	عملية المواضعة
Notation	العرف اللغوى الرمزى = نظام ترميزى لكتابة أصوات الكلام (انظر ٥-١-١)
Norma	المعايير (انظر ٤-١-٤ و٤-١-٥)
Non-Verbal interaction	التعامل الاتصالى غير الكلامى (انظر ٤-٤)
see : Verbal interaction	انظر التعامل الاتصالى الكلامى
Neo-Melanisian Pidgin	الرطانة المالينيزية الحديثة

Noun Phrase	أشباه الجُمَل الاسمية
Notka	النوتكا = هنود يقطنون جزيرة فان كوفر بكندا

O

Object	المفعول به
Obligatory Rules	قواعد نحوية جبرية (انظر ٥-٥-١)
see : Optional Rules	قواعد اختيارية
Variable Rules	قواعد متغيِّرة
Optlional Rules	قواعد اختيارية (انظر ٥-٥-١)
see : Obligatory Rules	انظر قواعد نحوية جبرية
Variable Rules	قواعد متغيِّرة

P

Paraguay	براجواى
Parameters	المعايير القياسية
Parts of Speech	أجزاء الكلام مثل الاسم والفعل .. إلخ
Patois	لهجة اقليمية غير مكتوبة (انظر ٢-٢-١)
Patrilingual Marriage	الزواج بلغة الزوج
Paulung	الباولنج (انظر ٣-٢-١) لغة تتحدث بها قبيلة صغيرة فى بورما
Peers	الأقران
Peer Group	جماعة الأقران
Peer-oriented stage	مرحلة احتذاء الأقران

Perception	إدراك
Performance	الأداء
see : Competence	القدرة اللغوية
Langue	اللغة
Parole	الكلام
Performative Utterance	عبارات ذات قوة أدائية
see : Austin	انظر أوستين
The Functions of Speech	وظائف الكلام
Speech Acts	الفعل الكلامى
Illocutionary Force	القوة غير المحلية
Perlocutionary Force	القوة التأثيرية للفعل الكلامى (انظر٤-١-٢)
see : Illocutionary Force	القوة البلاغية
Speech Acts	الأفعال الكلامية
Peurto-Rican English	اللغة الإنكليزية المستخدَمة فى بورتوريكو
Phatic Communion	التواصل الودى (انظر ٤-١-٢)
see : Malowniski	انظر مالونسكى
Functions of Language	وظائف الكلام
Phonetics	علم الأصوات العام
Phoneticians	علماء الصوتيات
Phonemes	وحدات صوتية مجردة

Phonology	علم الأصوات
Phonological Theory	نظرية علم الأصوات
Phrase Structure Rules	قواعد البُنية التحتية الأساسية (انظر ٥-٥-٣)
Pidgins	الرطانة (انظر ٢-٥-٣)
Pidginisation	عملية الترطين
Tok Pisin	الرطانة
Trade Language	لغة التجارة
Creole	الكريوليه
Pilot Study	دراسة استكشافية مصغَّرة
Pitch Range	مدى طبقة الصوت
Power and Solidarity Relation	علاقات القوة والتضامن (انظر ٤-٢-٢)
Post-vocalic	الأصوات الواقعة بعد الصوائت
Psychology of Language	علم النفس اللغوى
Psycholinguistic	علم اللغة النفسى
Psychological Reality	الحقيقة النفسية
Pragmatics	البرغماطيقا
Predicate	المسند
Prestige	المكانة
Overt Prestige	المكانة المكشوفة (انظر ٦-٢-١)
Covert Prestige	المكانة المغطاة (انظر ٦-٢-١)

Prejudice — تحيّز (انظر ٦-١-١)

Linguistic Prejudice — تحيّز لغوى

Soical Prejudice — تحيّز اجتماعى

Racial Prejudice — تحيّز عِرقى

Attitudes — اتجاهات

Prescriptivism — المعيارية

see : descriptive — انظر : الوصفى

Prescriptive Grammars — النحو التعليمى والارشادى

Prebabilistic — علاقة احتمالية (انظر ٥-٤-١)

see : Categorical — انظر : بصورة مطلقة

Precedure — إجراء (انظر ٣-١-٣)

Preposition — القضايا

see : Concepts — المفاهيم

Proto-Germanic — اللغة الألمانية الأصلية

see : Proto-Indo-Europern — انظر : اللغة الهندو أوروبية الأصل

Prototypes — النموذج الأصل (انظر ٣-١-٣ و٣-٢-٢ و٤-٢-٢)

see : Stereotypes — انظر النموذج المقولَب

Proxemics — علم التجاوزت (انظر ٤-٤-١)

Puliya — البوليا = قبيلة فى جنوب الهند (انظر ٤-١-٤)

Purism — نزعة النقاء اللغوى

Q

Qualitative	كيفى
Quantitative	كمّى

R

Ranamal	الرنمال = النروجية المحلية الدارجة (انظر ٢-٥-١)
see : Bokmal	انظر : البوك مال
Ranking	الترتيب الاحصائى
Rapid Anonymous Observation	ملاحظة الغفل السريع (انظر ٥-٢-٢)
Rapping	القافية = المبارزة الكلامية (انظر ٦-٤-٣)
Referents	مدلولات
Regional Dialects	اللهجات الاقليمية (انظر ٢-٣-١)
Register	سجل سياق (انظر ٢-٤)
Relativity	النسبية
see : Linguistic Relativity	انظر : النسبية اللغوية (انظر ٣-٢)
Cultural relativity	النسبية الثقافية (انظر ٣-٢)
Sapir-Whorf Hypothesis	فرضية سابير وهورف (انظر ٣-٢)
Relative Clauses	أشباه التراكيب الموصولة
Restricted Code	الشفرة المحدودة (انظر ٦-٣-٢)
see : Elabourated Code	انظر : الشفرة المسهبة
Romance Dialects	اللهجاتالرومانس

Romanian اللغة الرومانية

Romany رومانى = لغة الغجر

Received Pronuncition (RP) النطق المتواضع عليه للغة الإنكليزية

Roti روتى = جزيرة صغيرة فى شرق أندونيسيا

Rule-governed محكومة بمجموعة من القواعد

S

Sapir-Whorf Hypothesis فرضية سابير وهورف (انظر ٣-٣-٥)

see : Relativism النسبية

Determinism الحتمية

Universaliam الشمولية

Script نصّ (انظر ٦-٤-١)

Schemta خطة (انظر ٦-٤-١)

Selection مرحلة انتقاء المتحدثين فى الدراسات اللغوية (انظر ٥-٢-١)

Semantics علم الدلالة

Semantic Components المكونات الدلالية

see : Compontial Analysis تحليل المكونات الدلالية

Semantic Structure بُنية دلالية

Seminole Indians هنود السيمونولا = هنود أمريكيون يقطنون فلوريدا وأكلاهوما

Sense مغزى أو فحوى

Significant دلالة إحصائية (انظر ٥-٢-١)

Simulation	محاكاة الحاسب الآلى
see : Artificial Intelligence	الذكاء الاصطناعى
Size	حجم (اللغة)
see : Prestige	انظر : مكانة
Social Class	طبقة اجتماعية
Socio-economic class	طبقة اجتماعية اقتصادية
Social Constraints	القيود الاجتماعية المفروضة على الكلام
Social Dialects	اللهجات الاجتماعية
Sociolects	اللهجات الاجتماعية
Social Description	التوصيف الاجتماعى
Social Distributions	توزيعات اجتماعية
Social Interaction	التعامل الاجتماعى
Social Norms	المعايير الاجتماعية
Social Psychology	علم النفس الاجتماعى
Social Prejudice	تحيّزات اجتماعية
Socialisation	اكتساب السلوك الاجتماعى (انظر ٣-٣-٣)
Social Stratification	التدرج الاجتماعى
Society	مجتمع
see : Community	انظر : جماعة
Group	مجموعة

Sociolinguistics	علم اللغة الاجتماعى
Sociology of Language	علم اجتماع اللغة
Source Language	اللغة المصدر (انظر ٢-٥-٣)
Speech	الكلام
Speech Acts	الفعل الكلامى
see : Austin	أنظر :أوستين
Performative Utterances	عبارات ذات قوة أدائية (انظر ٤-١-٢)
Illocutionary Force	القوة البلاغية للفعل البلاغى (انظر ٤-١-٢)
Perlocutionary Force	القوة التأثيرية للفعل الكلامى (انظر ٤-١-٢)
Speech Community	جماعة كلامية (انظر ٢-١-٤)
see : Linguistic Community	انظر : جماعة لغوية
Speech Event	حدث كلامى
Standard Deviation Test	اختبار الانحراف المعيارى (انظر ٥-٢-١)
Standard Language	اللغة المتواضع عليها
Standardness	عملية المواضعة
Standardisation	المواضعة
Standardness	حالة (نحوى)
Stereotypes	النماذج المقولبة (انظر ٦-٢-٢)
see : Prototypes	انظر : النماذج الأصول
Stress	النبر (انظر ٥-٤-٢)

Stressed	منبور
Structure	بُنية
Structuralism	البُنيوية
Structualist	بُنياوى
Structured Interview	المقابلة المخطط لها سلفاً (انظر ٥-٢-٣)
Subjective Reaction Test	اختبار الاستجابة الذاتية (انظر ٦-٢-٢)
Subtractive Bilingualism	الازدواجية اللغوية الانتقاصية (انظر ٦-٤-١)
Syllable	مقطع صوتى
Syllogism	مناهج القياس المنطقى
Synchronic	آنى
see : Diachronic	انظر : زمانى
Syntacitc Descriptions	القيود المفروضة على التراكيب
Syntax	علم التراكيب
Syntactic Complexity	درجة تعقّد التراكيب

T

Taboos	محظورات لغوية
Tempo	السرعة (انظر ٥-٢-٢)
Tenor	العلامة (انظر ٢-٤-١)
Theoretical Linguistics	علم اللغة النظرى
see : Descriptive Linguistics	انظر - علم اللغة التاريخى

Tok Pisin	الرطانة
see : Pidgin	انظر : الرطانة
Topic	موضوع الخطاب
Transitive	علاقة متعدية
see : Intransitive	انظر : علاقة لازمة
Transcription	الترميز الكتابى للأصوات
Tree Diagram	شكل شجرى
Tukano	التوكانو = لغة مخاطبة الأجانب المستخدَمة فى أجزاء من البرازيل وكولومبيا
Turn-taking	تناوب الأدوار فى الحديث
Typology	التصنيفات المختلفة للنوعيات فى العلوم
Tzeltal	هنود التزلتال وهم فرع من ثقافة المايا فى المكسيك

U

Underlying Forms	الصيغ التحتية
Underlying Representations	الرموز التحتية
Uniformity	التوحيد (انظر ٢-٣-٤)
Universal	الشموليات
Universal Components	المكونات الشمولية
Universalism	النزعة الشمولية (انظر ٣-٢-٤)
Unscripted Conversation	المحادثة الارتجالية

Urban Dialectology	علم لهجات المناطق الحضارية
Uvular	اللهوى
Utterance	منطوق

V

Variable Rule	قواعد متغيّرة (انظر ٥-٥)
see : Optional Rule	انظر : قواعد اختيارية
Obligatory Rule	قواعد اجبارية
Variants	البدائل
Linguistic Variants	بدائل لغوية
Variables	متغيّرات
Linguistic Variants	متغيّرات لغوية
Social Variables	متغيّرات اجتماعية
Syntactic Variables	متغيّرات تراكيبية
Proununcition Variables	متغيّرات نطق
Phonological Variables	متغيّرات صوتية
Variation	التباين (انظر ٥-٢-٢)
Patterns of variation	أنماط التباين
Variability	درجة التباين
Varieties	نوعيات من اللغة
Variety-based Model	نموذج النوعية

see : Item-based Model	انظر : نموذج الوحدة
Verbal Behaviour	سلوك كلام
see : Non-verbal Behaviour	انظر : سلوك غير كلامى (مصاحب للكلام)
Velar Fricative	صوت حنكى احتكاكى
Velar consonants	صوامت حلقية
Vernacular	اللهجة المحلية الدارجة
Verbal Display	الاستعراض الكلامى
Verbal Games	الألعاب الكلامية
Voiceless Lateral Fricative	صوت احتكاكى جانبى مهموس
Vocabulary	مجموع المفردات
Vocative	صيغة المنادى
Voice Quality	نوعية الأصوات
Vowel	صائت
see : Consonant	انظر : صامت
Vowel Height	درجة ارتفاع الصائت

W

Wave Theory	نظرية الموجات
see : Diffusion	انظر : انتشار
Focussing	تضام
Well-formedness	احكام التكوين

انظر : درجة النحوية	see : Grammaticality
شبكات الطبقات العاملة	Working Class Networks

Y

اليانا = لغة قبيلة من الهنود الأصليين فى كلفورنيا	Yana

Z

غياب فعل الكينونة للوصل	Zero-Copula
البديل صفر	Zero Variant
الزونى =	Zuni

[تم بحمد الله]

الفهرس

صفحة

	صفحة
مقدمة المترجم	٥
الفصل الأول :	
مقدمة :	١١
١-١ علم اللغة الاجتماعى	١٢
١-١-١ وصف علم اللغة الاجتماعى	١٢
١-١-٢ علم اللغة الاجتماعى وعلم اللغة	١٥
١-١-٣ علم اللغة الاجتماعى وعلم اجتماع اللغة	١٧
١-٢ ظواهر علم اللغة الاجتماعى	١٨
١-٢-١ عالم من الخيال	١٨
١-٢-٢ عالم واقعى غريب	٢١
١-٢-٣ عالم واقعى ومألوف	٢٥
١-٣ متحدثون وجماعات	٢٦
١-٣-١ الالتزام والفردية	٢٦
١-٣-٢ النمو اللغوى الاجتماعى عند الطفل	٣١
١-٤ الموجز والخلاصة	٣٥
الفصل الثانى :	
نوعيات من اللغة :	٣٨
٢-١ مقدمة	٣٩
٢-١-١ قضايا عامة وقضايا خاصة	٣٩
٢-١-٢ الوحدات اللغوية	٤٠
٢-١-٣ نوعيات من اللغة	٤٢
٢-١-٤ « الجماعات الكلامية »	٤٤
٢-٢ اللغات	٥٢
٢-٢-١ « اللغة » و « اللهجة »	٥٢
٢-٢-٢ اللغات المتواضع عليها	٥٥

٢-٢-٣ تحديد ماهية اللغات ٥٨
٢-٢-٤ نموذج الشجرة الأسرية ٦٣
٢-٣ اللهجات ٦٥
٢-٣-١ اللهجات الإقليمية وخطوط توزيع اللهجة ٦٥
٢-٣-٢ الانتشار ونظرية الموجات ٦٩
٢-٣-٣ اللهجات الاجتماعية ٧٢
٢-٣-٤ نماذج من الوحدات اللغوية ٧٤
٢-٤ سجلات السياق ٨٠
٢-٤-١ سجلات السياق واللهجات ٨٠
٢-٤-٢ العرف والضرورة ٨٦
٢-٤-٣ ازدواج اللهجات (الديجلوسيا) ٨٩
٢-٥ خليط التنوعات ٩٢
٢-٥-١ تحويل الشفرة ٩٢
٢-٥-٢ الاستعارة ٩٦
٢-٥-٣ الرطانة ١٠٠
٢-٥-٤ الكريولية ١٠٨
٢-٦ الخلاصة ١١٥
الفصل الثالث :
اللغة والثقافة والفكر : ١١٨
٣-١ مقدمة ١١٩
٣-١-١ الثقافة ١١٩
٣-١-٢ الفكر ١٢٢
٣-١-٣ اللغة والثقافة والفكر ١٣٠
٣-٢ النسبية الثقافية والنسبية اللغوية ١٣٥
٣-٢-١ معانى الكلمات والمكونات الدلالية ١٣٦
٣-٢-٢ النماذج الأصول ١٤١
٣-٢-٣ مفاهيم المستوى الأساس ١٤٧

٣-٢-٤ الخلاصة ١٥٠

٣-٣ اللغة والكلام والفكر ١٥٣

٣-٣-١ اللغة وبقية الثقافة ١٥٣

٣-٣-٢ الكلام والإستدلال ١٥٥

٣-٣-٣ الكلام واكتساب السلوك الاجتماعى ١٥٧

٣-٣-٤ اللغة واكتساب السلوك الاجتماعى ١٦٠

٣-٣-٥ فرضية سابير- هورف ١٦٢

الفصل الرابع :

الكلام نوعاً من التعامل الاجتماعى : ١٦٦

٤-١ الطبيعة الاجتماعية للكلام ١٦٧

٤-١-١ مقدمة ١٦٧

٤-١-٢ وظائف الكلام ١٧٢

٤-١-٣ الكلام باعتباره نوعاً من العمل الماهر ١٧٧

٤-١-٤ المعايير المتحكّمة فى الكلام ١٨٢

٤-١-٥ الخلاصة ١٨٧

٤-٢ الكلام باعتباره رمزاً للهوية الاجتماعية ١٨٩

٤-٢-١ التصنيفات الاجتماعية اللاعلاقية ١٨٩

٤-٢-٢ القوة والتضامن ١٩٢

٤-٢-٣ الشواهد اللغوية على القوة والتضامن ١٩٧

٤-٣ بنية الكلام ٢٠١

٤-٣-١ الدخول والخروج ٢٠١

٤-٣-٢ أنواع أخرى من البنية فى الكلام ٢٠٤

٤-٤ السلوك الكلامى و السلوك غير الكلامى ٢١٠

٤-٤-١ شواهد العلاقات ٢١٠

٤-٤-٢ شواهد البنية ٢١١

٤-٤-٣ شواهد المضمون ٢١٣

الفصل الخامس :

الدراسة الكمية للكلام : ٢١٥

٥-١ مقدمة ٢١٦

٥-١-١ مدى ومجال الدراسات الكمية للكلام ٢١٦

٥-١-٢ لماذا ندرس الكلام كمياً ؟ ٢٢٢

٥-٢ المناهج ٢٢٤

٥-٢-١ المشكلات المنهجية ٢٢٤

٥-٢-٢ مثال من نيويورك ٢٣٠

٥-٢-٣ مثال من نورويش ٢٣٥

٥-٢-٤ مثال بلفاست ٢٤٠

٥-٣- المتغيّرات اللغوية ٢٤٢

٥-٣-١ أنواع من المتغيّرات ٢٤٢

٥-٣-٢ حساب المعدّلات للنصوص ٢٤٧

٥-٣-٣ حساب المعدّلات الخاصة بالافراد والمجموعات ٢٥٢

٥-٤ مؤثرات على المتغيّرات اللغوية ٢٦٠

٥-٤-١ السياق اللغوى ٢٦٠

٥-٤-٢ إنتماء المتحدث إلى مجموعة ٢٦٥

٥-٤-٣ درجة إنتماء المتحدث إلى المجموعة ٢٧٥

٥-٥ تأويل النتائج ٢٨١

٥-٥-١ القواعد المتغيِّرة ٢٨١

٥-٥-٢ العلاقات الضمنية بين الأجروميات ٢٨٥

٥-٥-٣ نظرية نموذجية ٢٩١

الفصل السادس :

اللامساواة اللغوية والاجتماعية : ٢٩٥

٦-١ اللامساواة اللغوية ٢٩٦

٦-١- ١ مقدمة ٢٩٦

٦-١-٢ ثلاثة أنواع من اللامساواة اللغوية ٢٩٩

٦-٢ التحيّز اللغوى ٣٠١
٦-٢-١ طبيعة التحيّز اللغوى ٣٠١
٦-٢-٢ « النماذج المقولبة » وكيفية دراستها ٣١١
٦-٢-٣ تحيّز المعلّمين ٣١٩
٦- ٢-٤ تحيّزات الطلاب ٣٢٢
٦-٣ نقص القدرة اللغوية ٣٢٨
٦-٣-١ نظرية النقص ٣٢٨
٦-٣-٢ الشفرة المحدودة والشفرة المسهبة (١) ٣٣٠
٦-٤ نقص القدرة الاتصالية ٣٣٦
٦-٤-١ القدرة الاتصالية ٣٣٦
٦-٤-٢ الشفرة المحدودة والشفرة المسهبة (٢) ٣٤٣
٦-٤-٣ القدرة الاتصالية لدَى أطفال الطبقات الدُنيا ٣٤٨
٦-٤-٤ المتطلبات اللغوية للمدارس ٣٥٠
الفصل السابع :
الخاتمة ٣٥٣
ثبت المصطلحات ٣٥٩

رقم الإيداع ٨٥٩٦ لسنة ١٩٨٩



